

لماذا قدم نبي الله لوط
بناته بدلا من ضيوفه؟

"ولا يلتفت منكم من أحد"

حقوق النشر
محفوظة فرنسا



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com. Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhering to any specific sect. The goal is to officially archive and legally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.

Warning : under no circumstances would the website or the Certification Authority guarantee or legitimize any use of registered documents .The authenticity given by this registration is only on the date and time of the registration as well as the existence of the registered documents. This registration would never be a substitute to a legal registration as decided by law, especially regarding patents, brands, RCS, ISBN, rules for competition games, etc.This certificate of registration would never be a substitute to an official affidavit.
Beware ! all use without the author's authorization will be considered an offence and will lead to proceedings. Every modification or copy of this document will lead to proceedings.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية. أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الأول)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (1)؟

تمهيد

قال تعالى في القرآن الكريم على لسان لوط:

- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود: 78]
- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 71]

نتناول في هذا البحث سؤالاً غاية في الإثارة وهو: لماذا قدمّ لوط بناته بدلاً من ضيوفه يوم أن جاءه قومه يهرعون إليه؟

وقد جاء بحثنا هذا مدفوعاً بمشاهدة بسيطة تتمثل في أن الغالبية الساحقة من الناس درجوا على أفهام قديمة منعتهم عن طرح مثل هذه الأسئلة، إما للحرج الذي يمكن أن تسببه في حالة طرحها، أو لظنهم بصعوبة إيجاد التفسيرات المرضية لها، وكانت النتيجة أن سكت عنها العامة ورضي أهل العلم بما توافر لهم من تفسيرات أزماناً طويلة، فما وضعوها على طاولة البحث كثيراً. فقد وجدت أن مجرد طرح مثل هذا السؤال يثير عند الكثير من الناس الحنق والاحتقان، لدرجة أن النقاش – حتى في قاعة الدرس – يأخذ طابع الشخصنة (أي يصبح قضية شخصية وكأنها بحث في خصوصيات تصل إلى درجة المحرمات)، والتشكيك (ويكأن لسان حالهم يقول بأن الهدف من طرح مثل هذا التساؤل لا يعدو أكثر من قدح في كلام الله أو تشكيك في أفعال رسل الله).

ونحن نؤكد بأننا لا نثير هذه القضايا لمثل ما ظن كثير من الناس، وإنما لغرض العلم والبحث عن الحقيقة، فنحن طلاب علم ننشد المعرفة لا أكثر، وفي الوقت ذاته فإننا لا ندّعي بأن ما تحصل لنا من فهم أفضل مما كان عند من سبقونا، ولا نثير هذه القضايا لفتح باب الشبهات (كما يرغب الكثيرون أن ينعتونا)، ولكنّنا نثيرها لظننا أنه لا زال هناك متسع من المكان للنظر إلى هذه القضايا من زوايا جديدة قد تفتح (بحول الله وتوفيقه) أفاقاً جديدة من البحث والدراسة، خاصة لطلاب العلم الراغبين في الوصول إلى المعرفة الحقيقية، وممن لا يرضون أن تقف عجلة المعرفة عند أقدام أشخاص معينين.

أما بعد،

لعل أبرز التساؤلات التي سنقحم أنفسنا فيها هنا هي:

1. هل من المنطقي أن يقدّم نبي الله لوط بناته بدلاً عن ضيوفه؟
2. وإن كان كذلك، فلماذا فعل ذلك؟
3. ألم يكن يخشى أن يقبل القوم المبادلة؟
4. ألم يؤمر بأن يسر بأهله أجمعين قبل بزوغ شمس اليوم التالي؟
5. كيف سيهرب في الصباح الباكر مع كل أهله لو قبل القوم المبادلة؟
6. لماذا عرض على القوم مبدأ المبادلة ورسل الله (الموكلون بإيقاع العذاب على القوم) في بيته؟
7. الخ.

إذن، لنبدأ بالتساؤل الجوهري وهو: هل من المنطقي (أو لنقل الطبيعي) أن يقدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟

رأينا: لا، لا أظن أن من الفطرة السليمة أن يتقبل الرجل (أي رجل) التضحية ببناته بدلاً من ضيوفه، فلا أظن أن درجة الكرم يجب أن تصل بالإنسان أن يضحي بـ "عرضه" للحفاظ على كرامة ضيوفه. ولا أخال أن رجلاً منّا (نحن المسلمين) قد يفعل مثل ذلك، فلو أصبح أمامك الخيار على نحو أن تضحي بضيوفك أو ببناتك، فلا أخال أن أحداً يمكن أن يضحي بعرضه، أليس كذلك؟

أما السبب الآخر الذي استوقفنا طويلاً وأثار الريبة في نفوسنا (وبالتالي الرغبة في طرح السؤال على غيرنا) حول فعلة نبي الله لوط تلك فقد تمثل في توقيت التضحية بالبنات، ولتوضيح الفكرة دعنا نقدم السياق القرآني التالي من سورة الحجر الذي يصور لنا ما حدث أدق تصوير، لنطرح من خلاله بعد ذلك عدة تساؤلات حول دوافع لوط للتضحية ببناته، قال تعالى:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧
- قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨
- إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٩
- إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٦٠

*** *** ***

- فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ٦١
- قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ٦٢
- قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ٦٣
- وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤
- فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥
- وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ٦٦
- وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧
- قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ٦٨

*** *** ***

- وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ٦٩
- قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٠
- قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 57-71]

فلو أشغلنا التفكير في هذا السياق القرآني، لربما استطعنا أن نقسمه إلى عدة مراحل:

1. مرحلة وجود رسل الله في ضيافة إبراهيم وإخبارهم نبي الله بهلاك قوم لوط ونجاة لوط وأهله (إلا امرأته)
2. مرحلة وصول الملائكة بيت لوط وإخبارهم إياه بقضاء الله بهلاك القوم وضرورة أن يسر بأهله قبل بزوغ شمس اليوم التالي
3. مرحلة قدوم قوم لوط طالبين الضيوف وعرض لوط بناته بدلاً عن ضيوفه

المرحلة الأولى: خطاب الملائكة مع إبراهيم بخصوص لوط قبل ذهابهم إلى قوم لوط (الآيات 57-60):

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
- قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾
- إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
- إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: 57-60]

إن ما يهمنا في هذا الجزء من الخطاب القرآني هو إثارة تساؤل واحد وهو: لماذا أخبر الملائكةً إبراهيمَ بهلاك زوجة لوط بشكل خاص؟ فلقد وردت القصة في سياق قرآني آخر يبين فيه إخبار الملائكة لإبراهيم بهلاك امرأة لوط مع الهالكين:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الحجر: 57]
- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: 31-32]

لو دققنا في الحوار الذي حصل بين إبراهيم من جهة والملائكة من جهة أخرى بخصوص لوط وقومه لوجدنا فيه شيئاً من الغرابة، فإبراهيم يذكّر الملائكة بأن تلك القرية التي قضى الله بهلاكها فيها لوط:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 74-76]

فلماذا يذكّر إبراهيم رسل الله (لا بل ويجادلهم) بلوط وقومه؟
والأغرب من مجادلة إبراهيم هو – في رأينا – رد الملائكة على استفسار إبراهيم:

- ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت:32]

إن ما يثير حفيظتنا (وبالتالي دافعيتنا للتفكر) في رد الملائكة هو إخبارهم إبراهيم بهلاك امرأة لوط على وجه التحديد مع الهالكين. ألم يكن يكفي – نحن نتساءل – أن ينتهي الخطاب عند قولهم "نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا" وكفى؟ فلماذا تبرع الملائكة لإبراهيم بمعلومات إضافية تخص امرأة لوط على وجه التحديد، فزادوا القول " لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ "، والآن لنطرح التساؤل السابق نفسه مرة أخرى: لماذا يخبر الملائكةُ إبراهيمَ خبرَ هلاك امرأة لوط؟

رأينا: إننا نظن أنه كان يكفي الملائكة أن ترد على إبراهيم بالقول: "نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا" وكفى لو لم يكن هناك حاجة (وحكمة عظيمة) من وراء إخبارهم إياه بقصة امرأة لوط.

النتيجة الأولى: لقد كان خبر امرأة لوط قد وصل إبراهيم الذي يسكن بعيداً عن لوط وقومه (تدبر عزيزي القارئ هذه الفكرة جيداً حتى نعود إليها لاحقاً)

المرحلة الثانية: وصول الملائكة بيت لوط وتحاورهم معه وإخبارهم إياه بما ستؤول إليه الأمور:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾
- قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾
- قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾
- وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾
- فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾
- وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: 61-66]

فها هم الملائكة يخبرون لوطاً بأمرهم (فهم رسل ربه) وهدفهم من هذه الزيارة:

- ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: 63-64]

وإخبارهم إياه بما يجب عليه أن يفعل هو وأهله:

- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: 65]

والنتيجة التي ستؤول إليها الأمور في نهاية زيارتهم هذه:

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: 66]

النتيجة الثانية: لوط يعلم علم اليقين أن القوم لا محالة هالكين

المرحلة الثالثة: قدوم القوم طالبين الغلمان وعرض لوط عليهم مبدأ المبادلة:

- ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧
- قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨
- وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩
- قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠
- قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 67-71]

ونزيد على ذلك بالقول أن طمأنة الملائكة لوطاً قد حصلت مرة أخرى يوم أن جاءه قومه يهرعون إليه:

- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

النتيجة الثالثة: لوط يعرض مبدأ المبادلة وهو يعلم مصير القوم ومأمور بأن يسر بأهله بجنح من الليل

وهنا نطرح التساؤل الذي لا مفر منه وهو: لماذا يقدّم لوط بناته لقومه وقد أخذ من الملائكة تعهداً ربانياً بهلاك القوم أجمعين ومأمور بأن يسر بأهله جميعاً بقطع من الليل؟ ألم يكن لوط يثق بكلام رسل ربه؟

رأينا: ما كان لوط سيقدم بناته فداء لضيوفه بعد أن علم بخبر رسل ربه لو لم يكن من وراء ذلك قصة كبيرة وحكمة عظيمة، تتطلب أن نجهد أنفسنا بالبحث عنها. فما هي تلك القصة؟

رؤية جديدة

سنقدم في هذا الجزء رؤيتنا الخاصة بقصة لوط مع قومه وامرأته وبناته، محاولين استنباط الأحداث من السياقات القرآنية فقط، جاهدين قدر المستطاع الابتعاد عن موروثات يهود وتحريفاتهم التي نظن أن جزءاً كبيراً منها قد وجد طريقه إلى الفكر الإسلامي يوم أن عجز علماء الإسلام تقديم التفسيرات المرضية لمثل هذه القصص القرآنية لأتباع هذا الفكر الديني. وهنا لابد أن نؤكد أكثر من مرة أن ما سنقدمه لا يعدو أكثر من اجتهاد قابل للقبول والرد، فهو بكل تأكيد ليس أكثر مما نظن أنه موجود في كتاب الله.

ونسأل الله أن يهدينا سبيله فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه غير الحق، إنه هو السميع المجيب.

أما بعد،

إننا نظن أن الخطاب بين لوط من جهة وقومه من جهة أخرى يوم جاءوه يهرعون إليه كان يكتنفه الغموض، فكان الخطاب بينه وبين قومه يجرى على شكل شيفرة من الألغاز تتطلب أن تفك أسرارها، فكان من

وراء كل كلمة – نحن نرى – لغزا كبيرا يحتاج إلى تفصيل إن نحن أردنا أن نفهم حقيقة ما جرى في تلك الحادثة، لا بل وربما نستطيع (بحول الله وتوفيقه) أن نصل من خلال ذلك إلى ما يمكن أن يساعدنا في حل ألغاز أخرى (أو على الأقل تناولها من زوايا جديدة) غاية في الأهمية في الفكر الديني، سنتناول منها بعد أن نخلص من هذا المبحث مبحثين آخرين وهما:

1. لماذا أسكن إبراهيم زوجته وطفله في واد غير ذي زرع؟
2. لماذا قلّب محمد وجهه في السماء حتى تحققت رغبته في تغيير القبلة التي كان عليها فترة من الزمن؟

قصة لوط مع قومه وامرأته وبناته

رأينا: إننا نظن أن مفتاح الإجابة على كل التساؤلات السابقة حول قصة لوط مع قومه وامرأته وبناته يكمن في كلمة واحدة ألا وهي "**الخيانة**".

خيانة نساء الأنبياء

ما هي كيفية خيانة نساء الأنبياء؟

هذا – بلا شك – موضوع غاية في الخطورة في الطرح، لما يمكن أن يترتب عليه من أفهام مغلوطة عند كثيرين ممن لا يجيدون سوى اتهام الآخرين بالإلحاد والكفر والزندقة، وهم الذين لا يكلّفون أنفسهم عناء القراءة ومحاولة الفهم (ويكتفون بما يمكن أن ينقله لهم كاذب عن كاذب)، ربما لظنّهم أن العلم لا يمكن أن يعثر عليه إلا في بطون الكتب الصفراء التي اهترأت أوراقها ومات مؤلفوها منذ قرون طويلة. لذا ما كنا لنتناول مثل هذا الموضوع لولا ظننا أن لدينا ما يمكن أن نقدمه لتسليط الضوء على القضية من زوايا جديدة قد تسعف في تفسير كثير من الإشكالات، ولنبدأ بالخيانتين الأشهر التي تحدث عنهما القرآن بصريح اللفظ وهما خيانة امرأة نوح وخيانة امرأة لوط في قوله تعالى:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]

فلقد تطرقنا في مقالات سابقة لنا عن قضية خيانة امرأة نوح، وركّزنا على الزعم بأن امرأة نوح قد خانت نوحا بفرجها، وكانت نتيجة تلك الخيانة – في ظننا – ذلك الولد الذي قال الله عنه بصريح اللفظ القرآني أنه ليس من أهل نوح:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]

ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع فإننا ندعوه لقراءة مقالتنا تحت عنوان (من هي زوجة موسى؟ وسفينة نوح ونظرية تكون القارات، وثلاثية المرأة). إن ما يهمنا القول هو حصول الخيانة الزوجية من قبل امرأة نوح، وبالمقابل فإن خيانة امرأة لوط قد أثبت بصريح اللفظ القرآني وقرنت بخيانة امرأة نوح في الآية نفسها:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: 10]

وجاء الحديث عن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ليقابل على النقيض منه طهر امرأة فرعون ومريم بنت عمران:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 11-12]

ولو دققنا النظر في الآية التي تتحدث عن مريم لوجدنا الحديث واضحاً خاصاً طهارة الفرج على وجه التحديد " ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا " لنخلص إلى النتيجة التي لا مفر منها (مهما حاول أهل العلم ليّ عنق النص): إنها طهارة الفرج مقابل الخيانة الزوجية.

> انظر تفسيرات العلماء عندما تحدثوا عن معاني الفرج ليتجنبوا الخوض عن المعنى الحقيقي خصوصاً في قوله تعالى:
>
> - ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: 91]
> - ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]

لماذا هذا الطرح؟

غالباً ما كان الاحتجاج لدى أهل العلم قائماً على ظنهم باستحالة أن تقوم امرأة نبي بخيانة النبي خيانة الفرج، وهنا نطرح قضيتين اثنتين لنرد زعمهم ذاك، وهما:

1. أيهما أعظم ذنباً – يا سادة – الزنا أم الكفر؟ لماذا يتقبل علماؤنا الإجلاء أن تكون زوجة النبي كافرة ولا يتقبلون فكرة أن تكون زانية، ألم يثبت الله في الآية نفسها أنّ أولئك النساء اللواتي وقعن في خيانة أنبياء الله في نار جهنم وبئس المصير في الآية القرآنية التي تحدثت عن خيانتهما:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: 10]

أليس في ذلك تساؤل مشروع؟!

2. غالباً ما سوق كثير من أهل العلم الإدعاء بأن خيانة امرأة لوط كانت من باب أنها أسرت للقوم (أي أفسدت للقوم) خبر الضيوف في بيت مَنْ مِنَ المفترض أن يكون زوجها (وهو نبي الله لوط)،

نقول أنه من المفترض أن يكون زوجها، وأن تكون هي زوجه، ولكنها في الحقيقة لم تكن زوجه ولكنها كانت امرأته فقط (للتفصيل حول الفرق بين الزوجة والمرأة انظر مقالتنا تحت عنوان ماذا ستفعل النساء في الجنة؟).

فنقول لهؤلاء العلماء: ألا ترون – يا سادة – أنكم تنعتون المرأة بتهمة أشد قسوة من جريمة خيانة الفرج (أي الخيانة الزوجية نفسها)، ولكن كيف؟ ألا ترون يا سادة أن المرأة – حسب ظنكم – لم تقع في فاحشة الزنا فحسب (ربما بسبب ضعف في الإرادة أو شهوة عابرة)، ولكنها كانت تقوم بتسويق الفاحشة، فكيف بامرأة نبي – نحن نتساءل فقط – أن تذهب إلى قوم تعلم فعلهم للمنكرات (اللواط) لتخبرهم بأن في بيت زوجها ما يطلبون (من الغلمان)؟ أيهما أشد وأعظم ذنباً أن تقع المرأة في الفاحشة كما نظن نحن أم أنها كانت تسوق وتروج للفاحشة كما زعمتم (عن غير قصد بالطبع). فنقول لكثير من علمائنا الإجلاء ما يلي: إن كنا نحن نظن أن المرأة قد وقعت بالخيانة (الخيانة التي تحدث عنها النص القرآني بلا زيادة أو نقصان ولا تحريف)، فأنتم قد ظننتم بأن المرأة كانت تروج للرذيلة (ولعمري فإن إجرامنا أكثر رأفة بالأنبياء من عملكم):

- ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾ [سبأ: 25]

رد على من ظن بأن لوطا قدّم بناته للقوم من أجل الزواج بهن

كثير ما ردد أهل العلم القول بأنّ لوطا قد قدّم بناته للقوم ليتزوجوا بهنّ، فهم يظنون أنّ لوطا لم يقدم بناته للقوم ليقترفوا فاحشة الزنا، فلا يعقل أن يقدم نبي الله بناته للقوم ليقترفوا الفاحشة، فهم يحاولون تبرير ما فعل نبي الله عندما ضحّى ببناته لإنقاذ ضيوفه، أليس كذلك؟

رأينا: إن هذا منطق جميل ومقبول لولا أن النص القرآني نفسه لا يدعم مثل هذا الفهم، ولكن لماذا؟

الجواب: لو دققنا النظر مليّا في النص لوجدنا أن القوم قد جاءوا لوطاً وهم "يهرعون إليه"، أليس كذلك؟ ألا يدلنا هذا النص القرآني على أن العدد كان كبيراً جداً (فمفردة القوم تدل على الكثرة، ومفردة يهرعون تزيد الطين بله، فهم بالإضافة للكثرة متلهفين للظفر بالغنيمة وعلى عجلة من أمرهم)، ولا أظن أن من جاء هارعاً (إن صحّ القول) يمكن أن يعطي نفسه فرصة التفكر:

- ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: 69-71]

لنخلص إلى نتيجة أن القادمين كانوا كثيرين في العدد (فهم قوم)، متعجلين أمرهم، لا يمكن أن يعطوا أنفسهم فرصة التدبر والتعقل (يُهْرَعُونَ)، فليس فيهم رجل رشيد (على الأقل مثلي):

- ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: 78]

وهنا نبادر القارئ الكريم بالتساؤل التالي: كم كان عدد بنات لوط؟ هل كان عند لوط من البنات ما يكفي القوم؟! وإن لم يكن عنده العدد الكافي، فمن من القوم سيتزوج بهنّ؟! ومن من القوم سيرضى أن يرجع خال اليدين: لا يظفر بالغلمان ولا بنصيبه من بنات لوط؟!

النتيجة: لا أظن أن لوطا كان سيضحي ببناته لكل القوم بهذه الطريقة وهو يعرف كثرة عددهم!

ثم، ماذا سيفعل لوط لو أن القوم قبلوا المبادلة؟ فهل كان لوط سيضحي ببناته (اللاتي سيبعثهن مع القوم إن هم قبلوا المبادلة) وهو يعلم أن القوم لا محالة هالكين في الصبح القريب؟ فأين ستذهب بنات لوط لو قبل القوم عرض لوط وأخذوا البنات بدلاً من الضيوف؟ وكيف سيتصرف لوط في الصباح الباكر وهو مأمور أن يسر بأهله جميعا في جنح الليل قبل بزوغ فجر اليوم التالي؟ فهل كان لوط سيذهب يبحث عن بناته عند القوم ليهرب بهن خلسة في جنح الظلام قبل بزوغ فجر الغد الموعود؟ ألم يكن يعلم أنه ستكون بناته في هيئة وحال غير تلك التي كن عليها لحظة أن سلمهنّ بيديه للقوم؟!

هذه الأسئلة (وغيرها) تثير بمجملها الشك حول الهدف الحقيقي الذي قدّم لوط بناته للقوم ليكف أذى قومه عن ضيوفه. لذا فإننا سنحاول النبش في مفردات هذه الآيات الكريمة من جديد، باحثين عن السبب الحقيقي الذي دفع بلوط لتقديم بناته فداء لضيوفه.

سألين الله أن يأذن لنا بشئ من علمه، إنه هو العليم الخبير.

تأويل من عند أنفسنا

بادئ ذي بدء، لا بد من ربط الأمر برمته مع زعمنا الذي افترينا من عند أنفسنا والذي يدور حول خيانة امرأة لوط التي تحدثنا عنه سابقاً، فامرأة لوط كانت – في نظرنا – خائنة الفرج، فلقد ارتكبت الفاحشة مع غير زوجها، لذا فإننا سنتجرأ على البوح بالافتراء التالي (راجين أن تتسع صدوركم لقبول تخريفاتنا ولو بعضاً من الوقت لنرى ما ستؤول إليه الأمور لاحقاً):

الإفتراء: لا نستغرب أن تكون بنات لوط ليسوا من صلبه بالضبط كما زعمنا عند الحديث عن ابن نوح فكما كان ابن نوح نتاج الخيانة الزوجية فإننا لا نستبعد احتمالية أن تكون بنات لوط نتاج الخيانة الزوجية، فكما ظن نوح أن ذلك الولد هو ابنه فنادى ربه قائلاً:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: 45]

جاء الرد الإلهي الفوري:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: 46-47]

ولو دققنا النظر ملياً في الرد الإلهي لوجدنا الله ينهى نوح عن السؤال عن ما ليس لنوح علم به:

- فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ

وهنا ربما نصل إلى نقطة مفصلية في البحث تتمثل بالتساؤل التالي: إذا كان نوح على غير علم بخيانة امرأته) ويؤكد هذا الظن قول الحق فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ) ، فهل كان لوط على غير علم بخيانة امرأته؟

رأينا: كلا وألف كلا، لقد كان لوط على يقين بخيانة امرأته، فهو لا يحتاج من أحد أن يؤكد له خبر الخيانة تلك، فخبر امرأت لوط كان قد وصل قوم إبراهيم لدرجة أن الملائكة أخبرت إبراهيم – كما شرحنا سابقاً – بأن أهل لوط ناجين ولكن امرأته من الهالكين، ولا نجد أن إبراهيم قد جادل الملائكة بعد أن جاءه التطمين الإلهي على لسان رسل الله بنجاة لوط وأهله أجمعين باستثناء امرأة لوط التي ستكون من الهالكين)، ولنقرأ النص القرآني مرة أخرى:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: 31-32]

النتيجة: لقد كانت خيانة امرأت لوط غير خافية على القوم ويعلم لوط نفسه حقيقة خيانتها، وكان خبرها قد وصل إبراهيم نفسه لدرجة أن إبراهيم لم يبد غرابة من ذلك.

وسنرى بعد قليل كيف يمكن أن تفسر هذه النتيجة – التي افتريناها من عند أنفسنا – الحكمة من تقديم لوط بناته بدلاً من ضيوفه.

ولكن قبل ذلك، ربما يعترضنا البعض بالقول: دعنا نصدقك القول ولو للحظة بأن البنات لم يكنّ من صلب الرجل (لوط)، فهو إذاً يقدم البنات للقوم لأنهن لسن من صلبه، هل هذا ما تريد أن تقوله؟ ولكن ألا ترى أنك تتهم الرجل بأن لا رأفت ولا إنسانية فيه؟ كيف بنبي الله (لوط) أن يضحى ببنات بريئات (حتى لو كانت والدتهم خائنة) من أجل أن يدفع الأذى عن ضيوفه؟ لقد كان الأولى بنبي الله أن يدافع عن هؤلاء البنات كما يدافع عن ضيوفه؟

فنرد على هذا التساؤل المشروع جداً بالقول: لماذا لم يحاول لوط الدفاع عن عرضه؟ لقد كان الأولى بلوط أن يموت دفاعاً عن عرضه إن كان فعلاً يريد إنقاذ ضيوفه؟ ثم لننظر كيف كانت ردة فعل الرجل بعد أن رفض القوم طلب المبادلة:

- ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 80]

فردة فعل لوط لا تشير بأن الرجل قد بذل أدنى درجات المقاومة الجسدية للدفاع عن ضيوفه أو عن بناته، وجل ما فعل كان أمنية بتوافر القوة لديه أو أن يأوي إلى ركن شديد.

ويأتي التطمين الإلهي على لسان رسله مرة أخرى بأن القوم لن يصلوا إليه، وأن امرأته لا محالة مع الهالكين، أليس كذلك؟

- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

وهنا نثير تساؤلاً آخر وهو: لِمَ لم يبد لوط أدنى درجات الاستغراب على مصير امرأته؟ لم لم يجادل لوط الملائكة بشأن امرأته؟ فنحن نعلم أن الرجل قد لا يستغني بهذه السهولة عن زوجته، ولنتذكر قصة نوح مرة أخرى، ألم ينادي نوح ربه بشأن ابنه، فلم لم ينادي لوط ربه بشأن امرأته؟

> (تعرضنا في مقالة سابقة لمصير امرأة نوح وخلصنا إلى النتيجة التي مفادها أن امرأة نوح كانت قد ماتت قبل حصول الطوفان، لذا لا نجد لها ذكر في قصة الطوفان.)

رأينا: إننا نظن أن نوحا لم يكن لديه علم بشأن خيانة امرأته (وجل ما كان لديه هو شك بخيانتها، فنادى ربه بطريقة مثيرة كان الهدف منها هو التحقق من ظنه بخصوص نسب ولده فقال منادياً ربه:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: 45]

فجاءت الحقيقة التي لا جدال فيها من ربه مباشرة:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ... ﴿٤٦﴾﴾ [هود: 46]

وفي الوقت ذاته يأتيه الزجر الإلهي أن لا يتمادى في السؤال عن ما ليس له به علم مكملاً الآية نفسها:

- ﴿...فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: 46]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان من هي زوجة موسى؟، وسفينة نوح ونظرية تكون القارات وثلاثية المرأة)

أما لوط، فقد كان يعلم خبر خيانة زوجته، لذا فإننا نرى أنه لم يكن بحاجة إلى دليل على ذلك، فخبرها كان – كما ذكرنا سابقاً – قد وصل إبراهيم، فلم يجادل الملائكة بشأنها ولم ينادي ربه فيها قبل وقوع العذاب على القوم ولا بعد وقوعه.

النتيجة (1): لو كانت البنات من صلب لوط لما تجرأ على التضحية بهن من أجل إنقاذ ضيوفه بهذه السهولة

النتيجة (2): فحتى لو كن من غير صلبه، فلا أظن أن لوطا سيأخذ البنات بذنب والدتهن، فهو يعلم أن كل نفس بما كسبت رهينة، لذا فهو لن يزر وازرة وزر أخرى

السؤال: لماذا قدّم لوط البنات فداءً للضيوف إذاً؟

الجواب: لمحاولة الوصول إلى إجابة لهذا التساؤل، نحن مدعوون لقراءة النص مرة أخرى مركزين على الألفاظ كما وردت، فلا نحاول أن نزيد عليها ولا أن ننقص منها كما يفعل الكثيرون عندما يحاولون إقحام النص القرآني بما ليس فيه.

استراحة منهجية

مثال رقم (1) قصة الغراب

- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 27]

سنقدم هذا المثال لتبيان منهجيتنا في البحث التي تتمثل بالالتزام بحرفية النص، منتقدين في الوقت ذاته منهجية من سبقونا خصوصاً من كانوا يقحمون النص القرآني بما ليس فيه، وهم يظنون أنهم بفعلتهم

تلك يخدمون النص ويفسرونه على حقيقته، ونحاول هنا أن نبيّن أن ذلك الإقحام لا يخدم النص القرآني في شيء، بل على العكس فهو يشوّه الصورة الحقيقية التي أرادها الله بكلماته، فكتاب الله كامل لا نقص فيه ولا زيادة عليه، فإقحام النص بما ليس فيه يؤدي إلى العبث فيه (لا بل وتحريفه)، الأمر الذي يسبب – كما سنرى بعد قليل – فقدان الثقة بتفسيرات العلماء لحظة أن تكون هناك جرأة في طرح السؤال (حتى وإن لم يكن هناك إجابة بديلة).

إن أشهر ما انتشر من تفسير علمائنا الأجلاء لقصة ابني آدم مع الغراب كان على النحو التالي:
يقتل واحد من ولدي آدم أخيه، لا يعرف القاتل ماذا يفعل بجثة أخيه، يبعث الله غرابين فيقتل أحدهما الأخر ويدفنه بالتراب، فيتعلم ولد آدم كيفية الدفن للميت (أو لجثة الميت). -للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان لماذا يدفن الناس موتاهم؟- ، أليس هذا ما تناقل (على الأقل العامة من الناس) عن خبر تلك القصة؟ (انظر تفاسير القرآن الكريم المختلفة)

السؤال: إنّ جل ما نود إثارته هو سؤال واحد، أظن أنه كفيل بإلقاء ظلال الشك على كل ما قاله أسيادنا ومشايخنا العلماء، حتى وإن لم يكن لدينا تفسير مرض لتلك الحادثة يكون بديلاً عن ما ظنوا.

السؤال: نص القرآن يتحدث عن غراب واحد، فمن أين جاء أسيادنا العلماء بالغراب الثاني؟
ولننظر إلى الآية الكريمة جيداً:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

إذاً، الله يبعث غراباً واحداً، وولد آدم (القاتل) يتعلم من هذا الغراب، فأين يا ترى الغراب الثاني الذي تحدث عنه أسيادنا (وتاج رؤوسنا، باللسان المصري) ؟!

وهنا ستنهمر التساؤلات الأخرى بغزارة جريان الأنهار في أيام الفيضان، فلنطرح التساؤلات الأكثر غرابة:
كيف سيعلّم غراب واحد القاتل كيفية الدفن؟ وكيف فهم القاتل الدرس وتعلم طريقة الدفن من غراب واحد بعثه الله ليبحث في الأرض؟ وماذا فعل ذلك الغراب حتى تعلم القاتل طريقة الدفن على الفور؟ و ... و... الخ؟
إن جل ما هو موجود في النص القرآني حول هذا الموضوع هو قول الحق:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ ... ٣١﴾ [المائدة: 31]

فلا نجد إلا حديثا عن غراب واحد (دقق ملياً بالضمائر في يَبۡحَثُ و لِيُرِيَهُۥ)، فلو كان هناك غرابان (كما جاء في كثير من تفاسير من سبقونا) لوجدنا ذلك بصريح اللفظ (أو على الأقل باستخدام الضمائر كأن يقول مثلاً يبحثان بدلا من يَبۡحَثُ، و ليرياه بدلاً من لِيُرِيَهُ)، وهكذا.

وهنا سيقاطعنا الكثير بالقول: إذاً كيف حدث أن تعلم القاتل الدرس من غراب واحد؟

إن أهم ما نريد إيصاله للناس هو أن الفكر الذي ساد قروناً من الزمن يمكن دحضه بسؤال واحد لو أعطينا لأنفسنا فرصة التفكر بشيء من الحرية، أليس كذلك؟

أما ما يخص الإجابة على سؤال صاحبنا عن كيفية حصول القصة، فإننا نرى أن بإمكاننا الآن (وعلى عجل) أن نقدم تصورنا للقصة، ولربما يكون أفضل (وإن لم يكن صحيحاً) من كل تصورات من سبقونا، وجلّ ما يتطلب منا الأمر هو الالتزام بالنص كما هو، فلا نتبرع أن نزيد فيه من عندنا، ولا ننقص منه ما هو موجود فيه، وإليكم يا سادة فهمنا الخاطئ لتلك القصة (ونترك لكم مهمة المفاضلة بين ما قالوا هم وما نفتري نحن):
لقد تحدث الله عن غراب واحد، فلا أظن أن من الحكمة أن نزيدهم من عندنا غراباً آخر لا لشيء وإنما لنستطيع أن نفسر النص كما نريد، إننا نظن أن التفسير الأفضل والأكثر إقناعاً سيأتي عندما يكون هناك التزام بمفردات النص، ولكن كيف؟

رأينا: لندع الحديث هنا عن معنى الغراب، فلقد ظن كثير من الناس أن الغراب هو ذلك الطائر المعروف لديهم بسواده (والذي هو نذير شؤم عند الكثيرين منهم)، فحاولوا تفسير القصة بناء على ذلك الفهم، أقول لن أغوص في الحديث عن معنى مفردة الغراب هنا وسأكتفي بتصديق ظنكم للحظة لأطرح التساؤل المشروع التالي:
ماذا فعل الغراب حتى تعلم القاتل منه طريقة الدفن تلك؟

الجواب: لقد كان الغراب يبحث في الأرض، لا أكثر:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ ... ٣١﴾ [المائدة: 31]

فما معنى أن يبحث الغراب في الأرض؟

إننا نظن – كما ظننتم – أن البحث في الأرض هو الحفر في الأرض، أليس كذلك؟

ولكن إن كان جل ما فعل الغراب هو البحث في الأرض، فكيف تعلّم القاتل من ذلك طريقة الدفن؟
الجواب: لا بد من طرح تساؤلات أخرى: لِمَ يبحث الغراب في الأرض؟ أو متى يمكن أن يبحث الغراب في الأرض؟ أليس من الممكن أن الغراب كان يبحث عن الماء مثلاً؟ أليس من الممكن أن الغراب كان يبحث عن الطعام مثلاً؟ أليس من الممكن أن الغراب كان يريد قضاء حاجته (كما يفعل الناس عندما يذهبون إلى الخلاء، أو كما تفعل بعض القطط عندما تقضي حاجتها)؟ الخ.

هذه جميعها تصورات ممكنه، ولكن دعنا نركز أكثر على الموضوع نفسه، لو كان الغراب يبحث عن شراب أو عن طعام أو يريد قضاء حاجة، الخ. هل كان من الممكن أن يتعلم القاتل من فعلة الغراب تلك طريقة للتخلص من جثة أخيه بمواراتها بالتراب على الفور؟

الجواب، كلا، لا أظن أن القاتل كان يستطيع أن يستنبط من ذلك الفعل حاجته إلى دفن جثة أخيه في التراب (وحتى لو فعل فلا نجد في النص نفسه ما يدلنا على أن القاتل قد بذل جهداً ليتفكر في ما فعل الغراب ثم يستنتج من تلقاء نفسه ما يجب عليه فعله). لذا، إننا نظن أن الغراب قد قام بأكثر من ذلك حتى فهم الرجل (القاتل) طريقة الدفن على الفور (ربما دون جهد ذهني كبير)، ولكن كيف؟

الجواب: لو راقبنا سلوك كثير من الحيوانات (وربما بعض الطيور لمن أراد أن يكون الغراب طيراً) لوجدنا أن بعض الحيوانات (خاصة المفترسة منها) تقوم بدفن الجثث في التراب، فغالباً ما يقوم الحيوان المفترس بدفن فريسته (التي اصطادها) في مكان ما ليعود إليها بعد حين ويستخرجها من التراب ليأكلها عند الحاجة، وغالباً ما يقوم الحيوان المفترس بإخراج الجثة التي دفنها في التراب بعد حين. لذا فإننا نرى أن الغراب (وهو غراب واحد) قد قام بواحدة من هذين السناريوهين حتى تعلم ولد آدم (القاتل) طريقة الدفن على الفور:

1. إننا نظن أن القصة كانت على تلك الشاكلة، فالغراب (كحيوان مفترس) كان يملك جثة افترسها، فقام بدفنها في التراب ليعود إليها بعد حين، وما أن رأى ابن آدم طريقة الغراب في دفن تلك الجثة حتى تعلم الدرس على الفور
2. وربما يكون السيناريو الآخر على نحو أن الغراب (الحيوان المفترس) كان قادماً من بعيد لا يحمل جثة، فأخذ يبحث في الأرض (أي يحفر الأرض) حتى تمكن من استخراج جثة كان قد دفنها من ذي قبل، فما أن رأى ولد آدم ما فعل الغراب حتى تعلم الدرس على الفور.

ماذا ترون يا سادة؟!

مثال رقم (2): الالتزام بمعاني الألفاظ كما تستنبط من كتاب الله نفسه لا كما نظنها نحن

ولا نقف عند هذا الحد بالحض على حمل النص على ما هو عليه دون إدخال غير مبرر من عند أنفسنا، فلا نتحدث عن غرابين اثنين في حين أن النص القرآني تحدث بصريح اللفظ عن غراب واحد كما بينّا في المثال رقم (1) السابق، حتى لا نقع في إشكالات يصعب بعدها الخروج من المأزق، لنزيد القول أننا يجب أن نفهم أيضاً الكلمات على حرفيتها، فلا نضيف فيها من عند أنفسنا، ولا نسقط عليها أفهاما ألفناها من عندنا كما سنبين في المثال رقم (2) بعد قليل، بل يجب استنباط معاني الألفاظ من كتاب الله نفسه، ومن ثم وجوب الوقوف عند تلك المعاني الحقيقية للمفردات، فلا نأخذ المعاني لمفردات القرآن العظيم كما يطيب لنا أن نفهمها، ولنقدم المثال التالي للتدليل على صحة هذا الاعتقاد، قال تعالى:

- ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: 24]

فالآية الكريمة تؤكد أن الله قد يعذب المنافقين أو قد يتوب عليهم إن هو شاء، أليس كذلك؟
فكيف إذن يمكن أن نوفّق بين ما جاء في هذه الآية الكريمة وقول الحق عن المنافقين في قوله تعالى:

- ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح: 6]

أو قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النساء: 145]

السؤال: كيف يمكن أن نوفّق بين ما جاء في آية الأحزاب باحتمالية أن يتوب الله على المنافقين، وما جاء في آيتي الفتح والنساء بتأكيد وقوع العذاب على المنافقين؟

إن هذا السؤال يدعونا إلى تدبر مفردات الآيات الكريمة جيداً وأن لا نحملها على المعاني المألوفة لدينا (والتي غالباً ما تكون مغلوطة). ففهم الآية يتطلب الوقوف عند معانيها الحقيقية، ولكن كيف؟

غالباً ما حمل الناس (وخاصة العامة منهم) الآية الكريمة التي تؤكد وجود المنافقين في الدرك الأسفل من النار على أنها دليل على شدة العذاب الذي سيقع عليهم في النار بعد يوم الحساب، حتى ذهب بعضهم إلى الظن بأن عذاب المنافقين قد يكون أشد من عذاب الكفار أنفسهم (ما دام أنهم في الدرك الأسفل من النار)، ونحن إذ لا ننفي أو نؤكد مثل هذا الظن إلا أننا سنتساءل: كيف يمكن الزعم بأن عذاب المنافقين هو الأشد (لوجودهم في الدرك الأسفل من النار) والله نفسه يتحدث عن عذاب آل فرعون – على سبيل المثال – على النحو التالي؟

- ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]

فلا أظن أن آل فرعون كانوا من المنافقين، ولكنهم كانوا كافرين ظالمين، أليس كذلك؟
وكيف يمكن أن نفهم أن عذاب المنافقين هو الأشد والله يقول عن عذاب الكافرين بأنه الأشد في الآية الكريمة التالية؟

- ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٨٥﴾ [البقرة: 85]

وكيف يمكن أن نتقبل فكرة أن عذاب المنافقين هو الأشد (لأننا فهمنا ذلك من وجودهم في الدرك الأسفل من النار)، ونحن نعلم كيف توعّد الله أصحاب المائدة إن هم كفروا؟

- ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: 115]

إنّ الخروج من مثل هذه التساؤلات بحلول مرضية يتمثل – في رأينا – في تبني منهجية بحثية بسيطة تتلخص في عدم إقحام النص بأفهام من عند أنفسنا لا يدعمها النص القرآني نفسه.

لقد أخطأ الكثيرون – في رأينا – عندما ظنوا أن الدرك الأسفل هو أشد العذاب، فلا أعرف لِمَ ربط كثير من الناس الوجود في الدرك الأسفل من النار مع فكرة العذاب الأشد، فهل لو كنت أنت في الطابق الأرضي (أو تسوية البناية مثلاً)، هل يعني ذلك أنك في المكان الأسوأ؟ كلا، فقد يكون الدرك الأسفل (لنقل الطابق الأرضي تجاوزاً) أكثر أماناً من بقية الطوابق الأخرى خصوصاً إذا ما وقع خطب على البناية بأكملها.

> نرجو أن لا يفهم من كلامنا هذا أننا نحاول تشبيه جهنم بالبناية ذات الطوابق، ولكن جل ما نود التأكيد عليه هو أن الدرك الأسفل مكان معين في جهنم يكون مآل المنافقين، وذلك لأننا نفهم أن عذاب جهنم متفاوت مصداقاً لقوله تعالى:
>
> - ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: 38]

المهم في الموضوع هو التأكيد على أن المنافقين (فهم على الأقل عندهم مثقال ذرة من إيمان) لن يتلقوا عذاباً أشد من عذاب الكافرين (وإن كان جميعهم سيعذب في نهاية المطاف)، ولكن يبقى التساؤل المشروع الذي انطلقنا منه وهو محط تفكيرنا في هذه المرحلة من البحث: إنْ كان المنافقون سيعذبون في نهاية الأمر، فكيف يؤكد الله احتمالية أن يتوب عليهم في قوله تعالى:

- ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: 24]

إننا نؤكد أن فهم المفردات بمعانيها القرآنية سيخرجنا من مثل هذه التناقضات الظاهرة التي أوقعنا بها كثير من أهل العلم عندما لم يبيّنوها للناس، ولكن كيف؟

إننا نظن أن دراسة متأنية لمعنى مفردة العذاب (وَيُعَذِّبَ) ومفردة التوبة (يَتُوبَ) اللتان وردتا في الآية نفسها من السياقات القرآنية ستحل الإشكالية برمتها. وهو ما سنقحم أنفسنا فيه في الصفحات القليلة التالية. ولنبدأ بمفردة العذاب.

العذاب (وَيُعَذِّبَ)

إننا نفهم من السياقات القرآنية مجتمعة أنّ العذاب قد يحصل في الدنيا أو في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾ [آل عمران: 56]
- ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة: 74]
- ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧﴾ [الكهف: 87]
- ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: 21]
- ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [القلم: 33]

وقد يصعب أحيانا التمييز إذا ما كان ذلك العذاب سيحصل في الدنيا أو في الآخرة أو في الحالتين معاً في بعض السياقات القرآنية:

- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾ [النساء: 173]
- ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦﴾ [الفتح: 6]
- ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦﴾ [الفتح: 16]

ولكن هناك سياقات قرآنية تتحدث عن العذاب الذي قد يحصل في الدنيا فقط:

- ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33]
- ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الأنفال: 34]
- ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ [التوبة: 14]
- ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: 39]
- ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [التوبة: 85]

- ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ٨﴾ [النور: 8]
- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: 14]
- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾ [الأحقاف: 24]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٨﴾ [المجادلة: 8]

وهناك سياقات أخرى تؤكد حصول العذاب في الآخرة:

- ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥﴾ [البقرة: 85]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾ [البقرة: 114]
- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة: 162]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾ [النساء: 56]
- ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ٦٩﴾ [الفرقان: 69]
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: 49]
- ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾ [الفتح: 17]
- ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ٢٤﴾ [الغاشية: 24]
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ٢٥﴾ [الفجر: 25]

ويأتي العذاب مقترناً بالمغفرة، فهناك سياقات قرآنية تشير إلى أن العذاب المقترن بالمغفرة (أو الرحمة) مرتبطاً ارتباطاً لا انفكاك فيه مع المشيئة:

(للتفصيل حول معنى المشيئة في هذه السياقات القرآنية ندعو القارئ الكريم إلى قراءة سلسلة مقالاتنا تحت عنوان "هل لعلم الله حدود؟")

- ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: 284]
- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: 129]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: 18]
- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: 40]
- ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الإسراء: 54]
- ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: 21]
- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [الفتح: 14]

النتيجة رقم (1): العذاب قد يحصل في الدنيا وقد يحصل في الآخرة، فالله قد يوقع عذابه على فئة من الناس في الدنيا وسيعذب بعضهم في الآخرة

معنى التوبة في النص القرآني

إذا كان الحديث عن مفردة العذاب قد أوصلنا إلى نتيجة أن هناك عذاب في الدنيا وهناك عذاب في الآخرة، فماذا عن التوبة؟

افتراء من عند أنفسنا: لفهم معنى التوبة في السياقات القرآنية، فإننا نرى وجوب التميز بدايةً بين التوبة من جهة والمغفرة من جهة أخرى، فغالباً ما يخلط الناس (ربما عن غير قصد) بين التوبة والمغفرة، ظانين أنهما مفردتان لمعنى واحد، إلا أننا نرى أنهما مفردتان بمعنيين متشابهين ولكنهما مختلفين.

ولكن أين الدليل على ذلك؟ وكيف يمكن التمييز بينهما؟

الجواب: لقد اقترنت مفردة العذاب في السياقات القرآنية المتعددة تارة بالمغفرة كما في قوله تعالى:

- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران: 129]

وتارة أخرى بالتوبة كما في قوله تعالى:

- ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: 128]

استناداً على ما جاء في هاتين الآيتين الكريمتين، فإننا نستطيع أن نزعم القول بأن أهل العلم (وبالتالي من يتبعهم من العامة) لم يميزوا كثيراً بين مفردتين رئيسيتين في النص القرآني وهما: التوبة والمغفرة، فلو سألت أحدهم سؤالاً مثل: ما الفرق بين أن يغفر الله لك أو أن يتوب الله عليك؟ لربما لا تجد عندهم تمييزاً واضحاً بين الحالتين. وهذا ما يدعونا إلى طرح السؤال نفسه بطريقة أخرى: هل التوبة هي المغفرة نفسها؟ وهل المغفرة هي التوبة نفسها؟ وإن كان هناك فرق بينهما، فما هو؟

الفرق بين التوبة والمغفرة

السؤال: ما الفرق بين أن يتوب الله علينا وأن يغفر الله لنا؟

الجواب: إننا نظن أن من أهم ما يميز التوبة عن المغفرة هو أن التوبة أمر يخص ما يمكن أن يحصل في الدنيا بينما تتعلق المغفرة بما يمكن أن تؤول إليه الأمور في الآخرة.

> كما يمكن أن تكون التوبة شاملة لكل ما فعل الإنسان بينما تكون المغفرة لعمل محدد بعينه، فالله يغفر لك ما فعلت عندما تستغفره، ولكن توقيت المغفرة يختلف عن توقيت التوبة، فالمغفرة من الله ستكون للناس في الآخرة بينما التوبة من الله على الناس تكون في الدنيا:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾ [النساء: 64]

الدليل: لإثبات مثل هذا الظن فإننا بحاجة أن نتحدث عن مفردة العذاب التي غالباً ما اقترنت – كما ذكرنا سابقاً – بالتوبة تارة وبالمغفرة تارة أخرى في السياقات القرآنية، ثم نحاول ربط ذلك بالفرق بين التوبة والمغفرة في النص القرآني. منطلقين من الافتراض النظري التالي: إن اقترنت مفردة العذاب بالمغفرة يكون الحديث عن العذاب الذي سيكون في الآخرة، وإن اقترنت بالتوبة يكون الحديث عن العذاب الذي يمكن أن يقع في الدنيا.

المغفرة: الفرق بين الاستغفار والمغفرة

الاستغفار هو عمل يقوم به الإنسان ليكفّر عن ذنوبه التي ارتكبها من ذي قبل، ولكن مغفرة تلك الذنوب هو أمر خاص بالله وحده:

- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: 135]

ونجد أن السياقات القرآنية تدعم ظننا بأن المغفرة هي حدث يحصل يوم القيامة:

- ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: 82]
- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: 12]

النتيجة: الناس يستغفرون الله في الدنيا، ولكن الله قد يغفر لهم وقد لا يغفر لهم في الآخرة:

- ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: 80]
- ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: 6]

التوبة: ما معنى أن يتوب الله علينا؟

رأينا: إننا نظن أن التوبة تحصل في الدنيا.

لندرس معنى مفردة التوبة في نصّها القرآني، فلو أمعنا التفكر في آيات الكتاب الكريم التي تتحدث عن التوبة لوجدناه تتحدث عن عمل يحصل في الدنيا، فالناس يتوبون في الدنيا، والله يتوب على الناس في الدنيا

الدليل:
هناك سياقات قرآنية يصعب الحسم بشأنها، فلا نستطيع أن نجزم من هذه السياقات لوحدها أين يمكن أن تحصل التوبة:

- ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة: 106]
- ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: 73]

ولكن – بالمقابل – هناك سياقات قرآنية تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن التوبة ليست من أمر الآخرة، وإنما هي حدث يحصل في الدنيا، فلو تدبرنا السياقات القرآنية جميعها لوجدنا أن التوبة التي وردت فيها تخص عملاً يقوم به الإنسان في الدنيا، ولنقرأ بداية الآية الكريمة التالية من هذا المنظور:

- ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء: 17]

ولو تفقدنا جميع السياقات القرآنية التي وردت فيها مفردة التوبة لوجدنا هذا المعنى ظاهراً لا لبس فيه:

- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: 37]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]
- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: 160]
- ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: 187]
- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾ [آل عمران: 89]
- ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ [النساء: 16]
- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النساء: 146]
- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة: 34]
- ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة: 39]
- ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾ [المائدة: 71]
- ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام: 54]
- ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ [الأعراف: 153]
- ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التوبة: 5]
- ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [التوبة: 11]

- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: 117]
- ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: 118]
- ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: 112]
- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: 119]
- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم: 60]
- ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 82]
- ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: 122]
- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور: 5]
- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]
- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: 70]
- ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: 71]
- ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: 67]
- ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة: 13]
- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: 20]

النتيجة: التوبة التي وردت في جميع السياقات السابقة تخص عملاً يقوم به الإنسان في الدنيا

مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: 17]

ولا يتوقف النص القرآني عند هذا الحد، بل نجد الآية التي تليها مباشرة تؤكد انتفاء حصول التوبة عند حضور الموت أو بعد الموت:

- ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: 18]

عودة على بدء

والآن لنعود إلى الآية التي انطلقنا منها:

- ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: 24]

لنقول أن العذاب قد يكون في الدنيا أو في الآخرة، ولكن كيف يمكن أن نحدد في كل سياق قرآني أي عذاب هو المقصود: عذاب الدنيا أم عذاب الآخرة؟

الجواب: إننا نظن أن تحديد ذلك يكون غاية في البساطة بعد هذا الطرح: فإن اقترنت مفردة العذاب بالمغفرة فذاك هو عذاب الآخرة، وإن اقترنت بالتوبة فذاك عذاب الدنيا.

لذا فإن النتيجة التي سنخلص إليها هي: ما دام أن العذاب قد اقترن بالتوبة في هذه الآية الكريمة قيد البحث (وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)، فذاك يعني أن العذاب المقصود في هذه الآية الكريمة هو عذاب الله الذي قد يوقعه على فئة من الناس في الدنيا، فيصبح معنى الآية الكريمة قيد البحث على النحو التالي: الله قد يعذب فئة من الناس وهم المنافقون (في الدنيا) وقد يتوب عليهم (في الدنيا)

وينطبق نفس المنطق على الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة: 106]

- ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾ [الأحزاب: 73]

فما دام أن هذه السياقات القرآنية تتحدث عن التوبة التي تحصل في الدنيا فإن العذاب في هذه الآيات الكريمة يخص عذاب الدنيا وليس عذاب الآخرة.

كيف يمكن ربط هذا الفهم بقوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء: 145]

لا شك أن هذه الآية الكريمة تتحدث عن عذاب في الآخرة، لنخلص إلى النتيجة التالية. إن عذاب الله على المنافقين في الدنيا ليس حتمياً، فقد يعذبهم وقد يتوب عليهم، أما عذاب الله للمنافقين في الآخرة فهو حتمي إذا لم يتوبوا في الدنيا، ويصدق ظننا هذا قول الحق مكملاً الآية السابقة عن عذاب المنافقين في الدرك الأسفل، ولنعيدهما معاً لننظر إليهما بهذا المعنى الجديد:

- ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء: 145]
- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النساء: 146]

خلاصة

لقد قدمنا هذين المثالين (مثال الغراب) (ومثال مفردة التوبة) لنبين أن فهم النص القرآني لا يجب أن يبنى على غير النص القرآني نفسه، فلا نزيد على النص شيئاً غير موجود فيه، ولا ننقص منه شيئاً موجود فيه، ولا نسقط على ألفاظ النص القرآني غير ما يحتمله من معاني يمكن استنباطها من النص القرآني نفسه.

وبمثل هذه المنهجية فإننا نجد أننا نستطيع قراءة الآيات التي تتحدث عن قصة لوط مع قومه وامرأته وبناته التي بدأنا بها بحثنا هذا، لننتهي -بحول الله وتوفيقه- إلى فهم القصة بطريقة جديدة (وإن لم تكن صحيحة)، المهم في نظرنا هو إفساح المجال للتفكر بهذه القضايا من منظور جديد يقلل من أفهام سابقة هي أقرب إلى الإسرائيليات منها إلى حقيقة النص القرآني نفسه.

فنعود لنطرح السؤال نفسه: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟

هذا ما سنتناوله – بحول الله وتوفيقه – في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

للحديث بقية



لماذا قدم نبي اللهِ لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الثاني)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (2)؟

لقد كان جلُّ البحث في الجزء الأول من هذا الكتاب منصباً حول الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود: 78]
- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 71]

محاولين -بطريقة التحليل السياقي للنص القرآني- ايجاد إجابة أفضل مما هو متوافر في كتب التفاسير حول سؤال واحد وهو: لماذا قدمّ نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه يوم أن جاءه قومه يهرعون إليه؟

وقد حاولنا تفنيد بعض الادعاءات التي ساقها أهل العلم لتبرير تفسيراتهم التي حاولنا إلقاء ظلال الشك عليها وذلك بطرح جملة من الأسئلة حول تفاصيل القصة كما يفصّلها كتاب الله. وقد خلصنا إلى جملة من الافتراءات من عند أنفسنا نذكر منها:

1. لم يكن لوط سيضحي ببناته بهذه السهولة لو كان جازماً أمره بأن هؤلاء البنات هن من صلبه
2. لم يكن لوط ليضحي بالبنات (حتى لو كن من غير صلبه) إلا لحاجة وحكمة عظيمة في نفسه، فهو بكل بساطة لن يزر وازرة وزر أخرى، وهو على علم بأن كل نفس بما كسبت رهينة. فهو لن يضحي بالبنات لذنب اقترفته والدتهن
3. لم يكن لوط ليضحي بالبنات وقد أخبرته رسل ربه من ذي قبل بحتمية هلاك القوم أجمعين لولا حاجة في نفسه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، فهو لم يكن ليترك القوم يذهبوا بالبنات مادام أن الهلاك مصيرهم جميعاً
4. لم يكن لوط ليضحي بالبنات لولا يقينه بأن القوم لن يقبلوا مبدأ المبادلة، فلوط مأمور بأن يسر بجميع أهله بقطع من الليل، وهو يعلم علم اليقين أنهم جميعاً من الناجين باستثناء امرأته
5. أن لوط لم يقدم بناته للقوم للزواج بهن وذلك لأن عدد بناته لم يكن يساوي عدد القوم، فلقد جاءه القوم يهرعون إليه ولا أظن أن الكثير منهم سيقبل العودة خالي الوفاض.

(للتفصيل انظر الجزء الأول لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه1؟)

وقد كان افترائنا بأن التعليل الحقيقي لما حصل يمكن الوصول إليه إن نحن جهدنا في الالتزام بالنص القرآني كما هو بلا زيادة ولا نقصان، (والابتعاد عن تحريفات يهود)، وكان نتيجة هذا المنهج، الافتراء المتمثل في أنّ مفتاح الإجابة على كل التساؤلات التي طرحت حول القصة بأكملها يكمن في كلمة واحدة وهي الخيانة:

لقد كانت امرأة لوط خائنة لنبي الله بفرجها، فلم نستثني بداية احتمالية (نقول احتمالية لا أكثر) أن تكون بنات لوط اللواتي قدّمهن للقوم لسن من صلبه.

ولكن لا يجب أن يفهم من كلامنا هذا أن لوطاً كان سيضحي بأولئك البنات بتلك السهولة أو من باب الانتقام، أو ليتخلص منهن، أو ... أو...، فتلك ظنون سيئة لا يمكن أن تكون من أخلاق الأنبياء.

لكننا نظن أن نبي الله لوط كان يعلم يقيناً أن امرأته كانت خائنة الفرج، لذا لا نظن أنه قد استبعد احتمالية أن تكون البنات لسن من صلبه، وقد ترك أمر ذلك إلى ربه (فالله قد وعده بنجاة أهله جميعاً إلا امرأته)، فأمر امرأته محسوم من ذي قبل، وهو ينتظر ما سيحل بالبقية الباقية من أهله بعد نزول العذاب، فإن هم نجوا فهم لا شك من أهله (فذاك وعد الله له)، ومن يهلك منهم فهو بكل تأكيد ليس من أهله، فالرجل قد فوّض الأمر إلى ربه العالم بكل شيء الذي قال له:

- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾ [العنكبوت: 33]

لكن لوط أقدم على التضحية بهن بدلاً من ضيوفه لحاجة في نفسه، نسأل الله أن نكون من القليل الذين يعلمون تلك الحاجة، وسنحاول في الصفحات التالية تفصيل القصة كما نفهمها نحن من النص القرآني.

وذلك يعيدنا إلى كيف انتظر نوح حتى حصول الطوفان وانقضاء الأمر برمته ليتأكد ظنه بأن ابنه ليس من أهله، فبعد أن استوت السفينة على الجودي وبلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء، وهلك القوم جميعاً، نادى نوح ربه بشأن ابنه قائلاً:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: 44-46]

ونحن نظن أن لوطاً كان سيتصرف بالطريقة نفسها التي تصرف فيها نوح، فلو هلكت أحدى بناته مع القوم لنادى لوط ربه قائلاً:

رب إن ابنتي (بناتي) من أهلي

وذلك لأن الله قد وعده من قبل بنجاة أهله جميعاً إلا امرأته

- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ [العنكبوت: 33]

بالضبط كما كان قد نجىّ الله نوحاً وأهله (بالرغم من هلاك ابنه وذلك لأنه ليس من أهله):

- ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]

لذا، فإننا نعتقد أنه لما نجت بنات لوط مع والدهم، تأكد للرجل أن البنات من صلبه، فلو لم تكن البنات من أهله لما نجوا معه لأنّ الله وعده بنجاة أهله إلا امرأته.

سائلين الله أن يهدينا سوا السبيل، طالبين المغفرة من ربنا إن نحن افترينا عليه الكذب أو إن نحن قلنا عليه ما ليس لنا بحق، وملتمسين العذر من عند السادة القرا إن نحن أخطأنا (فما نقوله لا يخرج عن نطاق الظن والاجتهاد، ولا يمكن أن يصل إلى درجة العلم اليقيني)

أما بعد،

سنحاول في هذا الجزء من البحث التصدي لاستنباط المعاني حول قصة لوط مع بناته التي يمكن أن يحتملها النص القرآني نفسه، ويتمحور كلامنا حول الظن بأن كلام لوط مع قومه – كما ذكرنا سابقا – يكتنفه الغموض، فهو عبارة عن شيفرة من الرموز تحتاج إلى النبش في تركيبها. ولنبدأ بقوله تعالى:

- ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 67-71]

فلقد جاء أهل المدينة " يَسۡتَبۡشِرُونَ "، أليس كذلك؟ فما معنى أن يأتي أهل المدينة يستبشرون؟

إننا نظن أن البشرى في السياق القرآني تعني ورود خبر:

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾ [النحل: 58]

سواء كان ذلك خيراً أم شرا:

- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: 124]
- ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ [الزمر: 45]

أما في حالة قوم لوط فقد كان خبراً لما سيحصل لاحقاً، لذا فهم " يَسۡتَبۡشِرُونَ ، إن ما يهمنا من الأمر هنا هو ورود خبر للقوم بوجود الضيوف في بيت لوط، فهم لم يأتوا عن طريق الصدفة أو التخمين، ولكنهم جاءوا متيقنين من وجود الضيوف في بيت لوط.

نتيجة: لقد سبقت رسل الله إلى بيت لوط، ومن ثم حضر القوم بعد أن علموا خبر وجود ضيوف في بيت لوط

ولم يكن الخبر خاصاً بأناس معينين، بل كان خبراً في المدينة كلها، فالذين جاءوا هم أهل المدينة، وقد جاء القوم يهرعون إليه، طالبين الظفر بالغنيمة:

- ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ [الحجر: 66-68]
- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود: 78-79]

ولو تدبرنا النص القرآني في هذه الآيات الكريمة جيداً لوجدنا أن أول ردة فعل للوط كانت عرضه مبدأ المبادلة:

- يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي

وكان السبب في نظر لوط هو أن ذلك من باب الطهارة:

- هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ

والنتيجة ستكون:

1. تقوى الله (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ)
2. حفظ ماء وجه الرجل مع ضيوفه (وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ)

وينهي لوط كلامه باستفسار عن رجل رشيد من بين القوم:

- أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ

وهذا يدلنا بما لا يدع مجالاً للشك أن الهارعين كانوا رجالاً، ولوط يبحث عن رجل رشيد منهم يستطيع أن يفهم الرسالة، وكان ذلك جل خطاب لوط.

نتيجة: لوط يبحث عن رجل رشيد من القوم

إن أكثر الذي استوقفنا وأثار دافعيتنا في البحث هو رد القوم على كلام لوط الذي جاء على النحو التالي:

- ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود: 79]

فمما لا شك فيه أن "الرجل الرشيد" الذي كان يطلبه لوط هو – في نظرنا – من انبرى من بين القوم ليرد على كلام نوح، فهو قد قال هذا الكلام متحدثاً باسمه وبالنيابة عن كل من حظر من القوم (ويمكن أن يكون هناك أكثر من رجل انبرى ليرد على كلام لوط، فقال كل منهم جزء من الكلام الذي سيأتي بعد قليل على لسانهم)، ونحن مدعوون الآن لتدبر رد القوم (على لسان خطيبهم أو خطبائهم أو الرجل الرشيد الذي كان يبحث عنه لوط من بين القوم) بشكل تفصيلي، لأننا نظن أن فيه رسائل كثيرة ودقيقة يجب الوقوف عندها والتفكر فيها.

الرسالة الأولى: لَقَدْ عَلِمْتَ

يوكد القوم حصول العلم عند لوط بشيء معين، فيبادروه بالقول " لَقَدْ عَلِمْتَ "، ويكملون حديثهم بالقول " مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ "
فنحن هنا نثير التساؤل التالي: من أين جاء العلم (أقول العلم) للوط بأن ليس للقوم حق في بناته؟ فلماذا لم يأتي رد القوم على نحو " مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ " وكفى، دون وجود عبارة " لَقَدْ عَلِمْتَ " في بداية الخطاب؟

إنّ أبسط ما يمكن أن نستنبطه من هذا الخطاب هو وجود علم (حسب قولهم) عند لوط بأن لا حق للقوم في بناته؟ فمن أين جاء ذلك العلم للوط؟ أو كيف تحصّل العلم للوط بذلك الخبر"مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ "

الرسالة الثانية: "مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ"

فالتساؤل الذي نود إثارته حول هذه العبارة القرآنية هو: لِمَ لا يكون للقوم حق في بنات لوط؟ ومتى لا يكون لقوم بأكملهم حق في بنات من أهل المدينة؟ فالذين جاءوا هارعين هم رجال ومن أهل المدينة، فمتى – نحن نسأل – لا يكون للرجال حق في الزواج (أو نكاح) بعض النساء من المدينة نفسها؟

الرسالة الثالثة: وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ

فما الذي يريده القوم ويعلمه لوط تمام العلم؟

إن تدبر هذه الرسائل التي أراد القوم أن يوصلوها إلى لوط في ذلك الموقف تتطلب منّا التدبر والتفكر، ولنبدأ بتفصيل هذه الرسائل بشكل مقلوب، منطلقين في تعليقنا من الرسالة الثالثة: " وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ".

فما الذي كان يريده القوم ويعلمه لوط تمام العلم؟

لقد كانت دعوة لوط للقوم منصبّة (بعد أن يقبلوا أمر التوحيد) على تركهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين:

- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ [الأعراف: 80-81]
- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: 54-55]
- ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ [الشعراء: 165-166]
- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ... ۝٢٩﴾ [العنكبوت: 28-29]

فالقوم إذاً كانوا يمارسون اللواط ويذرون ما خلق الله لهم من أزواجهم، فذاك إذاً ما كان يريده القوم ويعلمه لوط تمام العلم.

لاحظ كيف يؤكد النص القرآني على أن القوم لم يتركوا نكاح النساء بسبب اللواط، فهم متزوجون بدليل قوله تعالى:

- أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ

وقد جاءت ردة فعل القوم على دعوة لوط لهم لترك تلك الفاحشة على ثلاث مراحل:

1. التهديد له بإخراجه من المدينة:

- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧﴾ [الشعراء: 167]

2. طلب العذاب كدليل على صدق رسالته:

- ﴿... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: 29]

3. الأمر بإخراج لوط وأهله من المدينة:

- ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ [الأعراف: 82]

السؤال: ما دام أن لوطاً كان يعلم طلب القوم، ويعلم إصرارهم على فعل ذلك النوع من الفواحش، ألا يكون من باب الغرابة أن يطلب منهم أن يأخذوا بناته بدلاً من الغلمان؟!

إننا نظن أن لوطاً كان على يقين بأن القوم لن يقبلوا مبدأ المبادلة لسببين، أولهما إصرارهما على فعل ذلك النوع من الفاحشة، وثانيهما لأنهم يعلمون (كما يعلم لوط نفسه) بأن لا حق لهم في بنات لوط.

أما بالنسبة للسبب الأول فذاك لا يحتاج إلى الكثير من العناء لتسويقه للقارئ والاقتناع به، فالقوم قد جبلوا أنفسهم على حب ذاك النوع من الفاحشة، وهم على غير استعداد للتخلي عنها، والنصوص القرآنية التي تؤكد تعلقهم بذاك النوع من الفواحش كثيرة في كتاب الله.

أما الجديد في طرحنا هذا فيتمثل في تفسيرنا للرسالة الأولى والرسالة الثانية التي أراد القوم إيصالها للوط في ذلك الموقف والمتمثلة في قولهم "قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ"، فقد ذكرنا أن هذا الكلام يحمل في ثناياه رسالتين اثنتين وهما:

1. عدم وجود حق للقوم ببنات لوط (مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ)
2. علم لوط في أن ليس للقوم حق في بناته. (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ)

وهذا يدعونا إلى طرح **سؤالين اثنين** وهما:

1. لِمَ ليس للقوم حق في بنات لوط؟ ما الذي يمنعهم أن يكون لهم حق في بنات لوط على وجه التحديد؟
2. كيف علم لوط بأن ليس للقوم حق في بناته؟ فهم قد خاطبوه بصيغة أن له علم بذلك (لَقَدْ عَلِمْتَ)، فلم يكذّب قولهم ذلك بالقول بأن ليس له علم بذلك، فكان سكوته على قولهم تأكيد من طرفه بأن له علم بالأمر.

جواب السؤال الأول: لِمَ لا يكون للقوم في بنات لوط على وجه التحديد حق (مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ)؟

إننا نقدم الافتراء التالي كمحاولة للإجابة على هذا التساؤل: لا يكون للرجل حق في أي امرأة إذا كانت من محارمه.

فالرجل (أي) رجل له الحق في نكاح المرأة (أي مرأة) ما دامت ليست من محارمه. ولا يصبح للرجل حق في نكاح المرأة إن كانت من محارمه، فلو دققنا التفكر في النص القرآني لوجدنا أن القوم لم ينفوا حاجتهم أو رغبتهم أو قدرتهم على نكاح بنات لوط، ولكنهم نفوا حقهم في ذلك. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه:

لم لا يوجد للقوم حق في نكاح بنات لوط

الجواب: إنها الخيانة، ولكن كيف؟

لقد ذكرنا سابقاً أن امرأة لوط خانت الرجل بفرجها، ولكن مع من كانت تلك الخيانة؟

لا شك أن ذلك كان مع رجال من المدينة، وبعضهم ممن جاءوا يطلب الغلمان مع من جاء من الهارعين من أهل المدينة، وهم من كان لوط يعنيهم بقوله "أليس منكم رجل رشيد"، وهم – بلا شك – من تصدوا للوط بالكلام وقالوا " مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ".

فالذي كان قد جامع امرأة لوط من ذي قبل، لا يمكن أن يتجرأ على الزواج بذرية من تلك المرأة لخوفه أن تكون تلك الذرية من صلبه، ولما كانت خيانة امرأة لوط متكررة وربما مع أكثر من شخص، ولما كانت قد انجبت أكثر من فتاة، كان من الصعب (وربما من المستحيل) عليهم معرفة الأب الحقيقي لكل واحدة من البنات، أو حتى التكهن بذلك.

ويجدر الاشارة إلى أن القوم لم يكونوا ممن يقعون في فاحشة نكاح المحارم، فالقوم لا شك كانوا لا يتقبلون فكرة أن يقع الرجل في زنا المحارم، فلقد كانوا متزوجين (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)، لذا كان من غير الممكن أن يجزموا أمرهم في نكاح بنات لوط، فهم بمثل هذا الكلام يريدون أن تصل رسالتهم إلى لوط واضحة: وبكأنهم يقولون يا لوط إنك تعلم قصتنا مع زوجتك، فنحن لا نستطيع أن نقبل مبدأ المبادلة لأنه ليس لنا في هؤلاء البنات من حق، فقد يكون بعض من في القوم والد احداهن، أو أخ الأخرى وهكذا.

ولم يقف القوم عند هذا الحد، بل يقولون للوط " قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ "، فهم بذلك يوجهون رسالة إلى لوط فحواها: إنك تعلم يا لوط أنه ليس لنا من حق في بناتك.

وهنا نثير التساؤل التالي: كيف بهم يؤكدون حصول العلم للوط بهذا الأمر؟ أي من أين علم لوط بأن ليس للقوم حق في نكاح بناته؟

رأينا: لقد حصل علم للوط من ذي قبل بأن ليس للقوم حق في بنات لوط. وبهذا الفهم نستطيع تصوير القصة على النحو التالي:

لوط يعلم حقيقة وطبيعة خيانة امرأته، فلا يستثن أن تكون بناته لسن من صلبه (فيسكت عن الأمر حتى لا يجرح شعور البنات، وليترك لربه أمر الفصل بشأنهن)، فيخاطب القوم بطريقة لا تخلو من التستر على أمر جلل، ليوصل لهم رسالة واضحة بأنه على علم بكل ما كانوا يفعلونه مع امرأته، وأنه ليس من النوع الذي يمكن أن يستغفل في هذا الشأن، فيعرض عليهم مبدأ المبادلة بالقول "هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين" وهو يعلم أنهم لن يستطيعوا تقبل هذا المبدأ، وليأخذ اعترافاً حقيقياً من القوم باقترافهم الفاحشة مع امرأته، فهو لا شك قد سأل نفسه عن سر أن تكون امرأته على وجه التحديد من الهالكين (وأن لا تكون من الناجين)، فها هو يعلم السبب من تقدير الله لها بالهلاك:

- ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٥٧﴾ [النمل: 57]

فلا نجد أن لوطاً قد سأل ربه (أو أنه قد نادى ربه)، أو أنه قد جادل الملائكة بشأن امرأته، فلو كان لوط يعلم أن امرأته من الصالحين لما تردد أن يجادل الملائكة بشأنها (كما فعل إبراهيم بشأن لوط نفسه)، أو أن ينادي ربه بشأنها (كما فعل نوح بشأن ابنه أو كما فعل زكريا بشأن امرأته).

وما دام أن القوم لن يستطيعوا أن يقعوا بفاحشة زنا المحارم، فتلك فاحشة لا نجد لها ذكراً بين القوم، فهم لا يستطيعون أن يجزموا صحة نسب أولئك البنات ما داموا أنهم قد وقعوا في الفاحشة مع امرأة لوط من ذي قبل، فيردوا على لوط بما يشبه الألغاز التي لا يعلمها سوى المتحاورون بالقول:

- " قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ "

ونحن على يقين بأن مثل هذا الرد لن يفوت لوطا مغزاه، فلقد فهم لوط الرسالة على الفور، الرسالة التي مضمونها بأن القوم لا يستطيعون قبول مبدأ المبادلة لأنهم لا حق لهم في بناته، فيزيدوا على ذلك القول " وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ "، وبكأنهم يقولون له: لا تحاول يا لوط أن تكون أذكى من اللازم، أو أن تحاول أن تصدنا عن ضيوفك بحيلتك هذه، فنحن نعلم أنك تعلم ما فعلنا مع امرأتك، لذا ليس لنا في بناتك على وجه التحديد حق، فدعنا لا نضيع الوقت في مثل هذا الجدل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولنركز على ما هم أهم بالنسبة لنا وهو " وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ".

كيف يمكن تفسير حوادث أخرى من هذا المنظور؟

إن علاقة الانبياء بأزواجهم كانت على الدوام واحدة من الألغاز التي يجب أن تفهم، ولكن كان السكوت عنها السمة الأبرز في الفكر الديني الذي غالباً ما نظر إليها من باب المحرمات التي لا يجب العبث بها، فقد كان تعلق الناس بأنبيائهم يثنيهم عن الخوض في تفاصيل حياتهم الخاصة، ولكن لما كانت تلك القصص مفصلة في كتاب الله، فإننا لا نجد ضيراً في تناولها، فوجودها في كتاب الله لم يكن عبثاً وإنما لحكمة بالغة، لا بد من الخوض فيها في محاولة لفهم سر طرحها في كتاب الله.

إن المبدأ الذي ننطلق منه يتمثل في الزعم بأن تلك القصص كانت سبباً (ونتيجة) لأحداث جسام في الفكر الديني، نحاول في الصفحات التالية التطرق إلى اثنتين من هذه الأحداث التي نظن أنها غيرت مجرى الأحداث على مر الزمن، وهما:

⇐ اسكان إبراهيم عليه السلام من ذريته بواد غير ذي زرع
⇐ تغير اتجاه القبلة للمسلمين إلى البيت الحرام بعد أن كانوا يصلون باتجاه بيت المقدس في بداية الدعوة.

القضية الأولى: لماذا اسكن إبراهيم من ذريته بواد غير ذي زرع؟

إن الجرأة في طرح السؤال وتناول القضية من جوانبها المختلفة – لا شك – يساعد في النظر إلى القضية نفسها من زوايا جديدة ربما تسعف في خلق أفهام جديدة وربما مغايرة لما نشأ عليه الناس لقرون طويلة من تفسيرات لم تكن مرضية للباحثين عن الحقيقة. ونحن نتجرأ هنا (حتى لو أغضب هذا الكثيرين) لنطرح سؤالاً غاية في الخطورة وهو:

لماذا حمل إبراهيم زوجته وولده إسماعيل واسكنهم بواد غير ذي زرع؟

ظانين أنه لو فعل مثل هذه الفعلة رجل غير إبراهيم، لربما لن يسكت الناس عن توجيه التهم له، وربما لرفض الكثيرون مثل هذا التصرف تحت جميع الظروف والأحوال، خصوصاً إذا ما كنا نعلم أن الرجل كان متزوجاً باثنتين من النساء، يسكن واحدة مع طفلها في واد غير ذي زرع ويقفل راجعاً إلى فراش الأخرى التي تنتظره مع طفله الآخر، ولكن لما كان من قام بهذا العمل هو نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام، سكت الكثيرون ظانين أن الأمر لم يكن عبثاً، وبالرغم من أننا نتفق معهم في تصورهم هذا، إلا أننا لم نجد حتى الساعة تفسيراً مقنعاً يبرر هذا التصرف من نبي الله إبراهيم عليه السلام.

فلعل الغالبية المطلقة من علماء الإسلام قد غلّفوا تصرف نبي الله إبراهيم بالطابع العقائدي، ظانين (أو محاولين الإشارة إلى الاعتقاد) بأن إبراهيم قد فعل ذلك بدافع ديني، فنرد عليهم بالقول: ربما يكون الأمر على تلك الشاكلة، ولكننا لم نجد في كتاب الله إشارة واحدة بأن إبراهيم قد فعل ذلك بأمر من ربه (ومن يستطيع أن يدلنا على تلك الإشارة إن هو وجدها سنكون مدنين له وللقراء جميعاً بالاعتذار والاعتراف بالخطأ). فنحن لا زلنا نعتقد أن إبراهيم قد فعل ذلك من تلقاء نفسه، ولندرس السياق القرآني الذي جاء على لسان نبي الله إبراهيم نفسه في هذا السياق، علّنا نخرج ببعض الاستنباطات التي ربما ستشكل أرضية مشتركة للحوار الذي سيأتي بعد قليل بحول الله وتوفيقه.

أما بعد،

يقول الله في كتابه الكريم على لسان إبراهيم متحدثاً عن تلك القصة:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 37-38]

إن أول ما يمكن استنباطه من هذه الآيات الكريمة هو الاعتقاد اليقيني بأن إبراهيم هو من قام بذلك الفعل من تلقاء نفسه، وليس بأمر رباني، ويثبت هذا الظن قول الحق على لسان إبراهيم:

- رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ

فإبراهيم هو من أسكن من ذريته في ذلك الواد، أليس كذلك؟

وقد كانت حجة إبراهيم من وراء فعلته تلك قوله:

- رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

وقد دعا لهم بشيئين اثنين:

- فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ
- وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ

ولكن هذا لا يثنينا عن طرح السؤال الكبير وهو: هل إقامة الصلاة في ذلك المكان سبب مقنع لأن يترك إبراهيم زوجته وولدها الصغير في ذلك الواد غير ذي الزرع حيث لا حياة ولا جار فيه ويقفل عائداً إلى موطنه الأول؟ وكيف تجرأ إبراهيم على تلك الفعلة؟

إننا نظن أن في الأمر سراً أعظم من ذلك بكثير، لا شك أن هناك سببا أكثر وجاهة هو ما دفع بنبي الله إبراهيم ليتجرأ على ترك زوجته وولدها في ذلك الواد المقفر، ويؤكد ظننا ذلك ما جاء في السياق القرآني نفسه، فإبراهيم بعد أن ترك زوجته وولده في ذلك المكان ودعا لهما بأن تهوي إليهم أفئدة من الناس ودعا لهما بالرزق أيضاً، لم يتوقف عند ذلك الحد، بل تابع كلامه بالقول:

- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38]

إننا نظن أن السبب الذي قدّمه إبراهيم لتركه من ذريته بواد غير ذي زرع وصرح به وهو (رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ) يقع فقط في باب ما أعلن إبراهيم (وَمَا نُعۡلِنُ)، ولكن هناك شيء أخفاه إبراهيم، ولم يتلفظ به صراحة (مَا نُخۡفِي) - نظن أنه - السبب الأقوى الذي دفع بإبراهيم إلى تركه زوجته وطفله في ذلك المكان المقفر. والمدقق بالنص القرآن يجد أن ما أخفاه إبراهيم أهم مما أعلنه بدليل تقديمه ما أخفى على ما أعلن عند خطابه مع ربه الذي يعلم السر وأخفى:

- رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ

فإبراهيم لا ينقصه اليقين بأن ربه يعلم السر وأخفى، لذا تابع القول صراحة:

- وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ

فهو إذاً لا يستطيع أن يخفي على ربه ما الله أعلم به من إبراهيم نفسه، وبناءً على ذلك فإننا نتصور أن الموقف كان على النحو التالي:

كان عند إبراهيم أكثر من سبب دفعه ليسكن من ذريته في ذلك الواد الذي لا زرع فيه، فأظهر بعضه وأخفى بعضه، فكان الذي أظهره يتمثل في رغبة إبراهيم أن يقيم نفر من ذريته الصلاة في ذلك المكان عند بيت الله المحرم:

- رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

ولكن كان هناك - لا شك لدينا - سبب آخر أخفاه إبراهيم في نفسه (ولم يعلنه) على الناس، ولكنه لم يستطع إلا أن يعترف به لربه، فكان على يقين بأن الله يعلمه، لأن الله لا يخفى عليه شيء:

- رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ

ونحن هنا نحاول أن نبحث عن ذلك السبب الذي من أجله ترك إبراهيم من ذريته عند ذلك البيت الحرام حيث لم يكن هناك جار ولا زرع، ولم يعلنه على الملأ وإن كان قد أعترف به لربه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

أما بعد،

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن السبب الذي أخفاه إبراهيم يتمثل في علاقته بزوجاته، فالنساء كن على الدوام لاعباً اساسياً في تغيير مجرى أحداث التاريخ. وسنحاول في الصفحات القليلة التالية اثبات زعمنا هذا.

عودة على بدء: علاقة إبراهيم بـ لوط

كيف كانت علاقة إبراهيم بلوط؟

لعل الجميع لا يختلفون في أنّ لوطاً كان أول من آمن مع إبراهيم وصدّق دعوته، وجاء ذلك واضحاً بصريح اللفظ القرآني:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

فبعد أن آمن لوط بدعوة إبراهيم هاجر معه من أرض العراق (كما يذكر التاريخ) إلى الأرض التي باركنا حولها (كما جاء في النص القرآني):

(للتفصيل حول الموطن الأصلي لأنبياء الله انظر مقالتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات.)

- ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: 69-71]

ولا شك أن إبراهيم ولوطاً هاجرا ولم يكونا قد رزقا بالذرية بعد، فإبراهيم قد رزق الذرية على الكبر:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

وبالرغم من أن الرجلين هاجرا معاً إلى الأرض التي بارك الله فيها، إلا أننا نجد القرآن الكريم يتحدث بعد ذلك بصريح اللفظ القرآني عن قوم إبراهيم وعن قوم لوط:

- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج: 42-44]

وهنا نجد أن لا مناص من طرح التساؤل التالي: كيف أصبح هناك قوم لإبراهيم يختلفون عن قوم لوط؟ أو بكلمات أخرى من هم قوم لوط؟ ومن هم قوم إبراهيم؟

لقد تطرقنا في مقالة سابقة لنا عن الفرق بين الفاظ وردت في القرآن الكريم مثل أهل، وآل، وقوم، وبني، وطائفة، وشيع، الخ، ونجد من الضروري التعرض لهذه الألفاظ هنا مرة أخرى لما قد تفيدنا في فهم الوقائع من جديد. ولنبدأ بمفردة الأهل.

من هم الأهل في السياق القرآني؟

لقد ذكرنا أن أهل الرجل هم عائلته الذين يسكنون معه (سواء قبل الزواج أو بعده)، فالمرأة قبل الزواج يكون أهلها عائلتها التي تنتسب لها بالعرق (والدها ووالدتها وأخوانها من الذكور والإناث وأحفاد والدها)، وكذلك بالنسبة للرجل (والده، وأمه وإخوانه من الذكور والإناث وأحفاد والده):

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: 35]

وعندما تتزوج المرأة برجل ويكونون بيتاً جديداً (يكون لهم فيه ذرية جديدة) يصبح سكان ذلك البيت أهل لذرية جديدة، فأهل البيت هم سكانه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور: 27]

فالسكن والذرية هما – في رأينا – جزءان لا يتجزأن من معنى الأهل، فأهل المدينة هم سكانها:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ [الكهف: 77]

وحتى أهل السفينة هم من يركب على ظهرها:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكهف: 71]

ولنرقب الاستخدام التالي الذي يؤيد ما ذهبنا إليه من معنى لمفردة الأهل، ففي حين يرد في كتاب الله أنّ لموسى أهل لا ترد مثل تلك العبارة لفرعون:

- ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ [النمل: 7]

بينما يرد في كتاب الله عبارة آل موسى وآل فرعون:

- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة: 248]

من هم الـ آل

وهنا قد يتسآءل البعض عن سبب ورود قوله تعالى " ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ " ونحن نعلم بنص القرآن أنّ موسى وهارون هم إخوة، فهل يعني ذلك أنّ آل موسى ليسوا آل هارون؟ ألم نقل أنّ آل الرجل هم أقرباءه؟ نقول نعم إنّ آل الرجل هم أقرباءه ومع ذلك فآل موسى ليسوا أنفسهم آل هارون، وقد يرد البعض على الفور بالقول وكيف يكون ذلك؟ فنقول دعنا نتذكر شيئاً يخص بني إسرائيل على وجه الخصوص، قال تعالى بحق نبيهم الذي ينتسبوا له ويسمون باسمه وهو إسرائيل (يعقوب) نفسه:

- ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]

- ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٤٠﴾ [البقرة: 140]
- ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٨٤﴾ [آل عمران: 84]
- ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝١٦٣﴾ [النساء: 163]

لكن لما كان لكل منهم زوجة، كانت تلك الزوجة تشكل مع زوجها أهل بيت جديد، فأصبح أهل ذلك البيت بما فيهم الزوجة هم آل الرجل، فزوجة موسى لم تكن من آل فرعون، وزوجة هارون لم تكن من آل موسى، ولكن آل موسى وآل هارون يشكلون معاً آل والدهم. فيوسف كان ولد يعقوب، وكذلك كان ليعقوب أبناء آخرين، لكنهم جميعاً يشكلون آل يعقوب:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف: 6]

فكانت كل ذرية يعقوب هم من آله (ولكنهم ليسوا جميعاً من آل يوسف أو آل أي من إخوانه) حتى وصل الأمر إلى زكريا:

- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم: 6]

فنحن نستطيع أن نجزم بأن زكريا وولده يحيى هم من آل يعقوب ولكنا لا نستطيع أن نثبت بأنهم من آل يوسف أو أي من إخوانه.

وباختصار فإننا نرى أن مفردة الآل تشمل (الأهل والبني) معاً. فأهل الرجل هم ذريته وزوجته، وبني الرجل هم ذريته دون زوجته، وآل الرجل هم الذرية والزوجة معاً.

ونلحظ في كتاب الله أنه في حين لم يكن لفرعون أهل كان له آل، وآل فرعون كانوا هم جزءاً من قومه، وذلك لأنّ الهلاك لم يقع على قوم فرعون كلهم وإنما على آل فرعون بشكل خاص:

- ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠﴾ [الأعراف: 130]
- ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50]

وكذلك وقع العذاب على ملائه:

- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾ [الإسراء: 103]

إذاً فالذين غرقوا هم من آل فرعون وكذلك من كان معه من ملائه وجنده:

- ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨﴾ [طه: 78]
- ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [القصص: 40]
- ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾ [الذاريات: 40]
- ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص:8]
- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 105]

بينما لفرعون ملأ وموسى لا ملأ له:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: 88]

ولكن لفرعون قومه ولموسى قومه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

النتيجة: إنّ أهل الرجل هم من يسكنون معه في بيت واحد، وأهل المدينة يسكنون في مكان واحد، وأهل السفينة يركبون جميعاً على ظهرها

(للتفصيل حول هذه القضية وللإجابة على استفسارات كثيرة بهذا الخصوص نرجوا قراءة مقالتنا تحت عنوان من هي زوجة موسى مع مراعاة تغيير مفردة زوجة إلى مفردة امرأة عند الحديث عن نوح ولوط وفرعون على وجه التحديد، لما تحصل لنا من فهم جديد للتفريق بين مفردة امرأة وزوجة في مقالتنا تحت عنوان ماذا ستفعل النساء في الجنة؟)

النتيجة: لقد كان للوط أهل (امرأة وذرية).

من هم القوم

أما ما يخص لفظة القوم في النص القرآني، فإننا نزعم أن لفظة "القوم" لها معناها الذي غالباً ما أخطأ الناس في فهمه، وذلك لأنهم أسقطوا ما يعلمون هم من عند أنفسهم على الفاظ القرآن دون دليل من الكتاب نفسه، فنحن نظن أن مفردة القوم غالباً ما جاءت مصاحبة لأنبياء الله، فهناك قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم صالح وقوم إبراهيم وكذلك قوم لوط:

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: 89]

فقوم النبي (أي نبي) لا تعني – برأينا – أهله ولا تعني بنيه ولا تعني آله ولا تعني طائفته ولا تعني ملائه ولا تعني شيعته، بل هم مجمل الناس الذين أرسل إليهم ذلك النبي (حتى وإن لم يكن ينتسب إليهم في العرق والنسب):

أما بالنسبة للفظة "شيعاً" فقد جاء في كتاب الله:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

وإذا كان لموسى نفسه واحدة منها:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [القصص: 15]

فتكون أرض مصر في زمن فرعون منقسمة سياسياً إلى شيع، ولكنها قومية واحدة.

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

ولنتذكر أنّ موسى نفسه قد أرسل (ليس فقط لبني إسرائيل كما يظن البعض خطأ) وإنما إلى قوم فرعون على وجه العموم:

- ﴿۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧﴾ [الدخان: 17]
- ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النازعات: 17-19]

والأهم من ذلك هو: كيف بفرعون يترك رجلاً يصل إلى مرحلة الثراء العظيم إنْ كان هو من بني إسرائيل؟

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

ألم يكن بنو إسرائيل مستضعفين في الأرض؟

- ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: 22]

نعم لقد كان قوم موسى (كما كان لكل نبي ورسول) هم مجمل الذين أرسل إليهم ذاك النبي، ولهذا يجب أن لا تفهم الآية التالية أنّ الذين آمنوا مع موسى هم فقط من بني إسرائيل:

- ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ [يونس: 83]

وإلاّ لأصبح التضارب واضحاً مع قوله تعالى:

- ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ [غافر: 28]

فحتى آل فرعون وملائه وشيعته هم من قوم موسى لأنه أرسل إليهم، وكلهم كانوا معنيين ومدعويين للإيمان برسالته،

لذا فعندما نتحدث عن قوم لوط يصبح لزاماً أن نفهم أن أهل المينة التي استقر فيها لوط هم من أصبحوا قوم لوط الذي نزل بتلك الديار بعد أنْ هاجر إليها مع إبراهيم:

- ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

وعندما وقع العذاب وقع على أهل تلك القرية:

- ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾ [الأنبياء: 74]

ولا شك انهم هم أنفسهم قوم لوط:

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: 70]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣﴾ [الحج: 42-43]

نتيجة: يميز القرآن الكريم بين قوم لوط (الذين نزل عليهم العذاب) وقوم إبراهيم الذين لم ينزل عليهم ذلك العذاب.

وهنا يطرح السؤال نفسه: لماذا كان هناك قوم للوط يختلف عن قوم إبراهيم وكلاهما هاجرا معاً إلى الأرض التي باركنا فيها:

- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 68-71]

الجواب: إن تلك الأرض التي بارك الله فيها كانت قرى كثيرة وليست قرية واحدة، والدليل على ذلك ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 15-18]

فتلك القرى التي بارك الله فيها هي قرى عديدة، لذا يصبح لزاماً الفهم بأن إبراهيم لم يكن يسكن نفس القرية التي كان استقر فيها لوطاً، فقد وقع العذاب على قرية لوط ولم يقع على قرية إبراهيم، ووقع العذاب على قوم لوط ولم يقع العذاب على قوم إبراهيم، فأهل قرية إبراهيم لم يكونوا يعملون الخبائث التي كان يقترفها أهل قرية لوط، وهكذا.

السؤال: أين كان إبراهيم يسكن؟ وأين استقر لوط؟

الجواب: لقد سكن إبراهيم في واحدة من قرى الأرض التي باركنا فيها بينما استقر لوط في المدينة؟ والدليل على افتراءنا هذا ما استنبطناه نحن من قوله تعالى:

- ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾ [الحجر: 66-69]

نتيجة: لقد سكن إبراهيم في واحدة من القرى (الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) بينما استقر لوط في المدينة.

ما الفرق بين القرية والمدينة في النص القرآني؟

الجواب: كل مدينة هي قرية ولكن ليس كل قرية هي مدينة.

رأينا: إنّ ما يميز المدينة عن القرية في النص القرآني - حسب ظننا- ليس عدد السكان أو المساحة الجغرافية (كما يفضل الكثيرون الآن الفصل بينهم)، ولكنها المكانة السياسية، فالقرية هي قرية والمدينة هي قرية كذلك، فعندما تحدث عن مكان سكان قوم لوط الذين أنزل الله عليهم العذاب تحدث عنهم تارة بلفظة القرية:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾ [العنكبوت: 31]
- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ [العنكبوت: 33-34]

وتارة أخرى بلفظة المدينة:

- ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 65-67]

إفتراء من عند أنفسنا: متى كانت القرية هي نفسها العاصمة السياسية للدولة، أصبحت (بالإضافة إلى أنها قرية) مدينة. فلا نجد في كتاب الله لفظة المدينة ترتبط بقرية إلا إذا كانت تلك القرية هي العاصمة السياسية للدولة.

الدليل: لنقرأ النصوص التالية:

فها هي قصة موسى مع فرعون تحصل أحداثها في المدينة (وليس فقط في قرية عادية):

- ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾ [الأعراف: 123]

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]
- ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

وها هي قصة يوسف مع امرأة العزيز تحصل في المدينة:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف:30]

وها هم أهل الكهف وقد هربوا من ذلك الظالم الذي يحكم المدينة خوفاً على دينهم يبعثوا من مرقدهم، فيحاولوا إرسال أحدهم متخفياً إلى المدينة (فلو كان في قرية أخرى غير المدينة التي هربوا منها لما كانوا بحاجة أن يخفوا هويتهم):

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: 19]

وها هو موسى مع رفيقة يرفعون جدار في القرية يملكها يتيمين في المدينة:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف: 77]
- ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: 82]

وها هو رسول الله محمد يستقر في يثرب فتصبح على الفور مدينة (بعد أن كانت قرية):

- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: 101]
- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: 120]

لذا فإننا نعتقد جازمين أن السبب في تسمية يثرب بالمدينة كان بسبب مكانتها السياسية التي اكتسبتها بعد أن هاجر إليها محمد واتخذها عاصمة سياسية للدولة الناشئة. فقد تكون مكة في ذلك الوقت أكثر أهمية من الناحية السياسية أو الأقتصادية أو حتى السكانية (من حيث العدد)، إلا أن مكة لم تصبح يوماً مدينة ولكنها بقيت أم القرى:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: 92]

النتيجة: لقد أرسل الله أنبياءه إلى القرى فاستقر بعضهم في القرى واستقر آخرون في المدينة.

فها هو نبي ثمود صالح يستقر في المدينة:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: 45-48]

وكذلك كان استقرار لوط – محط بحثنا – في قرية كانت هي المدينة (أي العاصمة السياسية للحكم آنذاك):

- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ [الحجر: 65-69]

ولكن إبراهيم لم يستقر في تلك المدينة التي استقر فيها لوط، فكان يتواجد في غير المكان الذي تواجد فيه لوط، ولكن لماذا؟

الجواب: ما دام أن كل نبي مكلف بدعوة قوم، فقد توكل لوط بأمر دعوة الناس في المدينة فأصبح أهل تلك القرية (المدينة) هم قومه، بينما توكل إبراهيم بأمر الدعوة في مكان آخر فأصبح أهل ذلك المكان هم قوم إبراهيم.

السؤال: لماذا استقر لوط في المدينة على وجه التحديد؟ ولماذا استقر إبراهيم في غير المدينة (العاصمة السياسية لتلك الدولة)؟

نظرة جديدة

نقدم في هذا الجزء تصورنا عن سبب إنفصال إبراهيم عن لوط بالرغم أنهما هاجرا معاً إلى الأرض التي بارك الله فيها لينتهي الأمر بكل واحد منهم في مكان غير المكان الذي كان يسكنه الآخر.

أما بعد،

نحن نتصور المشهد على النحو التالي:

إبراهيم يدعو قومه للعبادة الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام، فلا يجد منهم إلا الصد لا بل والعذاب، فينصبوا له العذاب، فينجيه الله من نار قومه:

- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت: 25]

فيؤمن له لوط ويهاجرا معاً إلى الأرض التي بارك الله فيها:

- ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

وينجيه الله من عذاب قومه وينجيه ولوطاً إلى الأرض المباركة:

- ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء: 69-71]

ولا شك عندنا أنهم عندما تركوا بلادهم توجهوا غرباً (فتلك كانت على الدوام وجه الرحلات البشرية: من الشرق إلى الغرب، انظر مقالتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات)، واستقر بهم الأمر في المدينة (عاصمة الدولة السياسية للبلاد الجديدة)، وهنا تحصل قصة إبراهيم مع ملك تلك البلاد التي تناقلها كثير من علماء المسلمين من أخبار يهود (والتي لا أحب أن أتطرق لها)، ولكن جل ما أود الإشارة إليه من النص القرآني أن لوطاً (الذي هاجر بمفرده مع إبراهيم) يستقر في تلك البلاد (أي في المدينة)، فيتزوج ويصبح له أهل (امرأة وذرية)، فيؤثر البقاء في ذلك المكان الذي تزوج منه (فأهل المدينة يعرفون امرأة لوط ويعرفون بناته)، ويخرج إبراهيم من تلك المدينة فاراً بزوجته الأولى (فهي ليست من أهل تلك الديار)، ولكنه ربما يخرج متزوجاً بأخرى من أهل تلك المدينة (زوجة إبراهيم الثانية)، فيصبح عند إبراهيم زوجتان: سارة (الزوجة الأولى) وهاجر (الزوجة الثانية)، ويجدر الإشارة أننا لا نقبل هذه التسمية إلا من أجل التفريق في النقاش بين الزوجتين فقط.

ويحصل أن يرزق إبراهيم بذرية من الزوجة الثانية هاجر التي ربما تزوجها من المدينة نفسها التي استقر فيها فترة قصيرة من الزمن مع لوط قبل أن يتركها ويرحل، فتكون النتيجة ذلك الغلام الحليم (إسماعيل). وما

هي إلا أشهر أو ربما سنوات قليلة حتى يرزق إبراهيم بذرية من زوجته الأولى سارة بخبر من رسل الله الذين جاءوا لايقاع العذاب على آل لوط، فتكون النتيجة ذلك الغلام العليم (إسحاق).

لاحظ عزيزي القارىء أن الله قد بشر إبراهيم مرتين كما يرد في سورة الصافات: أول مرة بغلام حليم وهو الذي تله للجبين بعد أن رأى في منامه أنه يذبحه، و ثاني مرة بإسحاق بصريح اللفظ القرآني، وكلاهما كان من الصالحين، إقرأ الايات كما ترد في سورة الصافات لتتأكد بنفسك:

- ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ
بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا
تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ
ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ
﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: 98-113]

والمدقق في قصة ضيف إبراهيم يجد السياق القرآني التالي:

- ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: 51-56]
- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ
بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ
فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: 24-30]

والملفت للنظر أن تلك الزيارة كانت بسبب قوم لوط الذين أوكل لضيف إبراهيم مهمة تدميرهم، وفي تلك الزيارة حدثت بشرى لإبراهيم وزوجته بإسحق، وحصلت البشرى لزوجته في سورة هود على النحو التالي:

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى
شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: 70-72]

والمدقق بالألفاظ يجد أن البشرى لإبراهيم كانت في النصين اللذين يتحدثان عن نفس الزيارة بـ "غلام عليم" بينما كانت البشرى الأولى بإسماعيل بـ "غلام حليم"، ففي حين كان اسماعيل حليماً كان اسحق عليماً.

وعندما يرزق إبراهيم بذرية من الزوجة الثانية ويصبح عنده إسماعيل ثم يرزق بعدها بذرية من الزوجة الأولى ويصبح عنده إسحق، يتخذ قراراً من تلقاء نفسه أن يأخذ الزوجة الثانية وابنها الحليم (اسماعيل) ليسكنهما في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم.

وهنا ربما يستوقفنا البعض لطرح التساؤل التالي: هل فعلاً قرر إبراهيم اسكان هاجر وولدها اسماعيل بعد أن رزق بإسحق؟ أليس من الممكن أنه فعل ذلك قبل أن يرزقه الله بإسحق؟

رأينا: نظن أننا نملك الدليل القاطع من كتاب الله أن إبراهيم قد أسكن زوجته هاجر وابنها اسماعيل في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم بعد أن رزقه الله بإسحق وليس قبل ذلك.
الدليل: لنقرأ قول الحق على لسان إبراهيم في الآية الكريمة التالية:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

إن الدقة تستدعي الوقوف ملياً عند قول إبراهيم " مِن ذُرِّيَّتِي "، فإبراهيم يسكن في ذلك الواد من ذريته (أي بعضاً من ذريته) وليس كل ذريته، وهذا يدلنا على أنه لو كان إبراهيم قد أسكن هاجر وإسماعيل في ذلك الواد قبل أن يرزق بإسحق لجاء قوله على نحو "اسكنت ذريتي" وليس " أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي "، لأنه حينها سيكون إسماعيل هو كل ذرية إبراهيم حتى ذلك الوقت، ولكن لما كانت ذرية إبراهيم حتى اللحظة تشمل إسماعيل وإسحق:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

فقد أسكن بعضهم (إسماعيل في ذلك الواد) وترك بعضهم (إسحق في موطنه الأصلي)، فلقد كان إسماعيل وإسحق هم كل ذرية إبراهيم، ولما كان إبراهيم قد اسكن من ذريته (وليس كل ذريته) فلابد أنه ترك من ذريته في موطنه الأصلي.

السؤال: لماذا أخذ إبراهيم إسماعيل وأمه هاجر على وجه التحديد إلى ذلك المكان؟ ولماذا ترك إسحق وأمه سارة على وجه التحديد معه في موطنه الأصلي؟ لماذا لم يكن العكس هو واقع الحال؟

للحديث بقية في الجزء الثالث من هذا الكتاب بحول الله وتوفيقه.



لماذا قدم نبي اللّٰه لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الثالث)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (3)؟

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا تحت عنوان: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟ وقد خلصنا في الجزء الثاني إلى تبرير زعمنا بأن امرأة لوط قد خانت نبي الله لوط بفرجها، وقد كان لوط على علم بخيانتها تلك، لذا جرى الخطاب بينه وبين قومه يوم أن جاءوا يهرعون إليه على شكل ألغاز، حاولنا النبش فيها للوصول إلى الرسالة الحقيقية التي كان لوط يحاول توصيلها بأقل الخسائر الممكنة في خطابه مع القوم، فقد حاول أن يفصّل القصة ليظهر علمه بخيانة امرأته، وليقيم الحجة على القوم ليدفع في الوقت ذاته الأذى عن ضيوفه عندما قال موجهاً خطابه إلى القوم الهارعين إلى بيته:

- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾ [الحجر: 71]

فكانت رد القوم لا يقل دهاءً (لا بل ويتسم بالوقاحة) عندما خاطبوه بقولهم:

- ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾ [هود: 79]

وقد كان جل النقاش منصباً على الخوض في المعاني التي يمكن استنباطها من هذه الآية الكريمة، والرسائل التي حاول القوم إيصالها للوط، دون أن تثنيهم حجة لوط السابقة عن الظفر بالغنيمة التي جاءوا يطلبون. (للتفصيل انظر الجزء السابق)

وكانت النتيجة الأبرز التي حاولنا الخوض فيها في نهاية الجزء السابق الزعم بأن النظر إلى قصة لوط من هذا المنظور الجديد ربما يسعفنا في فهم تفاصيل قصص أخرى في كتاب الله كانت النساء لاعباً أساسيا فيها، فأشغلتنا قصة ترك إبراهيم زوجته الثانية هاجر وابنه الحليم إسماعيل في ذلك الواد غير ذي الزرع عند بيت الله الحرام. وقد كان السؤال الرئيس الذي جهدنا في إيجاد الإجابة له هو: لماذا ترك نبي الله إبراهيم زوجته وولده إسماعيل على وجه التحديد في الواد غير ذي الزرع وقفل عائداً إلى زوجته الأولى سارة وولده العليم إسحق؟

وقد كانت أهم النقاط التي أثيرت في نهاية ذلك المبحث:

⇐ علاقة نبي الله إبراهيم بلوط

⇐ التوقيت الذي ذهب فيه إبراهيم بولده إسماعيل وأمه إلى ذاك الواد

وتطرقنا إلى الاستنباط بأن إبراهيم ولوطا وصلا معاً إلى القرية (المدينة) التي كانت العاصمة السياسية لذاك البلد، وقد استقر لوط في تلك المدينة (القرية التي هي العاصمة السياسية آنذاك) بعد أن تزوج منها، وتزوج إبراهيم بزوجته الثانية من تلك المدينة لكنّه رحل عنها مع زوجتيه (القديمة والجديدة) ليسكن في قرية

أخرى من القرى التي بارك الله فيها، فأصبح لإبراهيم علاقة نسب من خلال امرأته الثانية بتلك المدينة التي استقر فيها لوط مع امرأته.

كما تطرقنا إلى الاستنباط بأن إبراهيم قد أسكن امرأته هاجر وابنها إسماعيل في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم بعد أن رزقه الله بإسحق وليس قبل ذلك. وكانت الآية الكريمة التالية تشكل الدليل الدامغ – حسب ظننا – على مثل هذا الاستنباط:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وكان مما زعمناه في نهاية ذلك الجزء القول بأن إبراهيم قد أسكن في ذلك الواد من ذريته " مِن ذُرِّيَّتِي " (أي بعضاً من ذريته) وليس كل ذريته، فلو قال إبراهيم "**ربنا إني أسكنت ذريتي**" لربما فهمنا أنه أسكن كل ذريته وهو إسماعيل حتى ذلك الوقت، ولربما فهمنا أنه لم يرزق بإسحق بعد، ولكنه عندما قال " رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي "، أصبح الظن يميل أكثر إلى الاعتقاد بأنه لم يسكن كل ذريته وإنما بعضها، وربما يؤكد هذا الظن قول الحق في مكان آخر:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

فذرية إبراهيم كانت حتى تلك اللحظة تشمل إسماعيل وإسحق، وقد أسكن إبراهيم من تلقاء نفسه (وليس بأمر رباني) بعضهم (إسماعيل في ذلك الواد) وترك بعضهم (إسحق في موطنه الأصلي)، وانتهى كلامنا في ذلك الجزء عند إثارة التساؤل التالي: لماذا أخذ إبراهيمُ إسماعيلَ وأمه هاجر على وجه التحديد إلى ذلك المكان؟ ولماذا ترك إبراهيمُ إسحقَ وأمه سارة على وجه التحديد معه في موطنه الأصلي؟ لماذا لم يكن العكس هو واقع الحال؟

وسنحاول الخوض في تفاصيل قصة إبراهيم مع نساءه (سارة وهاجر) وولديه (إسحق وإسماعيل) كما يفصلها كتاب الله في هذا الجزء،

سائلين الله أن يهدينا سبيله إنه هو نعم المولى ونعم المجيب.

أما بعد

لنبدأ النقاش هنا بطرح السؤال التالي: لماذا لم يرزق إبراهيم بالذرية إلا على الكبر؟

مما لا شك فيه أنّ صريح اللفظ القرآني يؤكد أن الذرية لم تتحصل لإبراهيم إلا على الكبر، فجاء في كتاب الله على لسان إبراهيم نفسه قول الحق:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

وهنا نجد لزاماً أن نسأل عن سبب عدم حصول الذرية لنبي الله إبراهيم إلا بعد أن أصبح شيخاً كبيراً. فها هي واحدة من نساء إبراهيم (وهي أم إسحق) تتعجب بنفسها من حصول الذرية لهما بعد أن أصبحت هي عجوزاً وأصبح زوجها شيخاً كبيرا:

- ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: 72]

ولا يظنن أحد أن هذا كان يخص إسحق فقط، وأنّ الابن الأول (إسماعيل) قد تحصل لإبراهيم وهو في شبابه، كلا، فلقد رزق إبراهيم بإسماعيل على الكبر، لأنّ الاعتراف بذلك جاء – كما ذكرنا سابقاً – من إبراهيم نفسه بأنه قد رزق بكلا ولديه إسماعيل وإسحق على الكبر، ونعيد الآية السابقة لنتدبرها من هذا الجانب:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

إذن، لنعيد السؤال نفسه: لماذا لم يرزق إبراهيم بالذرية إلا على الكبر؟

الجواب: إننا نعتقد أن الجواب على هذا التساؤل موجود في الآية نفسها، وفي مفردة " وَهَبَ " على وجه التحديد، ولكن كيف؟

لو تدبرنا آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن ذرية الأنبياء، لوجدنا هذه المفردة مصاحبة على الدوام لـ أولئك الذين كانت عندهم مشكلة في الإنجاب بشكل تقليدي طبيعي، فلا نجد النص القرآني يتحدث عن "وهب" الذرية ليعقوب مثلاً بالرغم أنه قد رزق بعدد كبير من البنين، ولا نجد ذلك عند الحديث عن موسى، أو عن هارون، الخ، ولكن الحديث عن "الوهب" جاء واضحا عند الحديث عن زكريا:

- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90]

ووردت هذه المفردة " وَهَبَ " عند الحديث عن ذرية داوود:

- ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: 30]

وكذلك عند الحديث عن ذرية مريم:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: 19]

وعند الحديث عن ذرية إبراهيم:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤﴾ [الأنعام: 84]
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: 39]
- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢﴾ [الأنبياء: 72]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

فالهبة في الذرية " وَهَبَ " هي – في نظرنا – مكرمة إلهية لأناس لم يرزقوا الذرية بالطريقة التقليدية الطبيعية، فزكريا قد بلغ من الكبر عتيا يوم أن وهب الله له يحيى:

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]

وعيسى بن مريم كان هبة من الله إلى مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها وذلك لأن مريم بنت عمران لم تنجب بطريقة تقليدية طبيعية مادام أنه لم يمسسها بشر ولم تكن بغيّا:

- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾ [مريم: 20]

لذا كان عيسى هبة من الله لها، وكذلك كانت كل ذرية إبراهيم هبة من الله لأنها لم تتحصل له إلا على الكبر.
وبنفس المنطق يمكن أن فهم كيف رزق داوودُ بسليمان، ولِمَ لَمْ يرزق بغيره، فقد كان سليمان هو الوريث الوحيد لداوود:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل:16]

فلو كان داوود ينجب بالطريقة التقليدية الطبيعية لربما تحصل له ذرية أكثر من ذلك كما تحصل ليعقوب مثلاً.

نتيجة: عندما يرزق أحد أنبياء الله بالذرية بطريقة غير الطريقة التقليدية الطبيعية يسمي ذلك هبة " وَهَبَ" في السياق القرآني، لذا يمكن أن نجرؤ على القول بأن إبراهيم قد رزق بالذرية بطريقة الوهب "وَهَبَ".

أليس كذلك؟

ولكن تستوقفنا ملاحظة عجيبة (يطير لها عقل كل لبيب) في النص القرآني، ملاحظة تسترعي الانتباه وتستوجب التفكر والتأمل، وربما يكون لها تداعيات هائلة – إن صحت – في النقاش التالي، وتتلخص الملاحظة في مراقبة الآيات الكريمة التي تتحدث عن ذرية إبراهيم على وجه التحديد، وقد قدمنا الآيات سابقاً ونعيدها ثانية لنتدبرها من جديد، فقد وجدنا الحديث عن إسحق كهبة من الله في أربعة مواضع:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 84]
- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 72]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]

بينما وجدنا الحديث عن إسماعيل في موضع واحد فقط:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

إنّ المدقق في جميع هذه السياقات القرآنية يجد أن الخطاب الإلهي الذي جاء خاصاً بإسحق ويعقوب فقط جاء على صيغة وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ، لكننا لا نجد مثل هذا الخطاب خاصاً بإسماعيل، فعندما جاء الخطاب عن إسماعيل جاء على لسان إبراهيم نفسه على صيغة "وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ"، فما الذي يمكن أن نفهمه من هذا التباين في الاستخدام؟

⇐ الله يؤكد أن إسحق ويعقوب هبة منه لإبراهيم (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ)

⇐ إبراهيم يظن أن إسماعيل وإسحق هبة من الله له (وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ)

لاحظ أن يعقوب أيضاً هو هبة من الله، فإسحق لم يرزق بأكثر من يعقوب، بالضبط كما الحال بالنسبة لداوود عندما وهب الله له سليمان، لذا فإننا نعتقد أن مشكلة الإنجاب كانت متواجدة عند إسحق كما كانت عند إبراهيم أو عند زكريا أو عند داوود، لكن لا نجد أن الله يتحدث عن أن يوسف – مثلاً – كان هبة من الله

ليعقوب، وذلك لأن يعقوب – في نظرنا – لم يكن يعاني من مشكلة الإنجاب، فلقد تحصل له كثير من الأولاد بالطريقة التقليدية الطبيعية.

نتيجة خطيرة جداً: يظن إبراهيم أن إسماعيل وإسحق كان كلاهما هبة من الله، في حين أن الحقيقة هي أن إسحق فقط (وليس إسماعيل) هو هبة من الله. لماذا؟

جواب من عند أنفسنا: : الله يؤكد أن إسحق هبة منه لإبراهيم لأن إبراهيم لم ينجب إسحق بالطريقة التقليدية الطبيعية، بينما لم يكن إسماعيل هبة من الله لأنّ إبراهيم قد أنجب إسماعيل بطريقة طبيعية تقليدية.

الخطأ الذي وقع فيه إبراهيم: سنتجرأ على البوح بأن نبي الله إبراهيم قد أخطأ فهم الطريقة التي رزق بها ولداه إسماعيل وإسحق، فلقد حسب إبراهيم أنه لم ينجب إسماعيل بطريقة تقليدية طبيعية، فقد ظن أن إسماعيل هبة من الله كما كان الحال بالنسبة لإسحق، لذا قال من تلقاء نفسه:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

النتيجة الحاسمة في النقاش التالي: إبراهيم لم يكن يعتقد أنه قادر على الإنجاب بطريقة طبيعية، لذا كانت كل ذريته (إسماعيل وإسحق) في ظنه هبة من الله.

الحقيقة: أكد الله أن إسحق هبة منه لإبراهيم (فهو لم يولد بالطريقة الطبيعية التقليدية)، لذا جاء قول الحق صريحاً (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ) في أربعة مواضع من كتابه الكريم، بينما لم يكن إسماعيل هبة من الله (لأن إسماعيل كان قد ولد بالطريقة التقليدية الطبيعية)، فلا نجد في كتاب الله عبارة (وهبنا له إسماعيل وإسحق)، وجل ما نجده هو ظن إبراهيم نفسه بأن كلا ولديه إسماعيل وإسحق هما هبة من الله، فما يكون منه إلا أن يحمد الله بالقول (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ).

تبعات هذا الافتراء: دخول الشك في قلب إبراهيم

بشرى الملائكة لإبراهيم بميلاد إسحق ومن وراء إسحق يعقوب:

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢﴾ [هود: 70-72]

إن المتفحص للنص يجد أن امرأة إبراهيم الأولى سارة قد أخذت اعترافاً على لسان رسل الله بأن مولودها القادم هو هبة من الله، لذا لا يمكن أن يكون هناك شك عند إبراهيم أو عند غيره بصحة نسب وليدها القادم، فهو بلا شك من ذرية إبراهيم وهبة منه تحصل لإبراهيم عندما كان شيخاً كبيراً، وامراته هذه عجوزا:

- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢﴾ [هود: 72]

لكن يبقى الخلاف (وبالتالي الشك) – دعنا نتجرأ القول للحظة – عند إبراهيم بصحة نسب ولده إسماعيل وهو يعلم تمام العلم عجزه في الإنجاب، فمما لا شك لدينا أن إبراهيم قد تساءل على الأقل مع نفسه عن كيفية أن يرزق بذرية من امرأته الجديدة (الشابة) وقد وصل من الكبر ما وصل، قبل أن يصل – مخطئاً بالطبع – إلى قناعة لدية بأن كلا ولديه هما هبة من الله، فإبراهيم قد قال هذا الكلام بعد أن رزق بالأثنين (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ)، ولكن كيف كان شعورة – نحن نسأل – لحظة أن رزق بإسماعيل فقط؟

فيصبح المشهد – في نظرنا – على النحو التالي:

نبي الله إبراهيم رجل متقدم في السن، لم يرزق بالذرية في ريعان الشباب، يتقدم به العمر فيرزق بإسماعيل من امرأته الشابة الجديدة، ثم تأتيه البشرى من الملائكة بذرية جديدة (إسحق) من امرأته الأولى (العجوز) كـ "هبة" من الله.

التحليل: لا يمكن أن يساور الشك إبراهيم بصحة نسب إسحق فقد جاءت البشرى بإسحق على لسان رسل الله يوم جاءوا معذبين لقوم لوط، فهل يا ترى اطمأنت نفس إبراهيم – نحن نسأل فقط – لنسب إسماعيل كما اطمأنت لنسب إسحق؟

إبراهيم رجل في قلبه شك

لعل الجميع لا يخفى عليه كثير من تفاصيل شخصية نبي الله إبراهيم، فالرجل قد اهتدى أصلاً لربه بطريقة الشك، فلقد شك الرجل بعبادة قومه للأصنام:

- ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٧٤﴾ [الأنعام: 74]

فولى وجهه إلى السماء باحثاً عن ربه، فعثر على كوكب فظن أنه ربه:

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام: 76]

ولكن لم يكن ذلك ليرضي عقلية إبراهيم وهو دائم البحث عن الحقيقة المطلقة، فترك عبادة ذلك الكوكب لما رأى أنه إله متقلب يظهر تارة ويغيب تارة، فولى وجهه جهة القمر، فكانت النتيجة هي نفسها "الأفول":

- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ [الأنعام: 77]

فطلب من ربه الذي لا زال يبحث عنه أن يهديه، ولم ينتظر طويلاً حتى ولى وجهه جهة الشمس ظاناً أنها أكبر:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ [الأنعام: 78]

ولما وجد أن الشمس لا تختلف كثيراً عن الكوكب أو عن القمر في الظهور والاختفاء، وجه وجهه جهة ربه الذي لا يغيب:

- ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: 79]

وقد كانت حكمة الله في أن يمر إبراهيم بكل هذه المراحل ليصل في نهاية المطاف إلى عبادة الواحد الأحد واضحة جلية في قول الله الذي سبق كل هذه المراحل:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75]

النتيجة: لقد كان الشك عند إبراهيم على الدوام سبباً (أو طريقاً) في وصوله إلى اليقين

فكان البحث والتفكر هو أهم سمة تميز هذا النبي الجليل، وقد تعرضنا في مقالة سابقة لنا إلى هذا الموضوع وخلصنا إلى أن إبراهيم هو النبي صاحب الحجة:

- ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: 83]

فإبراهيم لا يمكن أن يرضى بأقل من الحجة، فهو دائم التفكر حتى يصل إلى الدليل (الحجة) التي متى أقامها لا يبقى في قلبه شيء من الشك، فيكون في النهاية من الموقنين.

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان مقالة في تفضيل بعض الرسل على بعض مع عدم التفريق بينهم)
وقد تكررت قصة الشك عند إبراهيم مع ذلك الذي حاجه في ربه، فإبراهيم يقيم الحجة على الرجل بالقول:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ... ٢٥٨﴾ [البقرة:258]

فيرد الرجل عليه الحجة بالحجة:

- ﴿... قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ...﴾ [البقرة: 258]

فلا يكذّب إبراهيم حجة الرجل، بل يدفع إليه بحجة أخرى أكبر من حجته الأولى:

- ﴿... قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ...﴾ [البقرة: 258]

فلا يستطيع الرجل أن يدفع ذلك بحجة أقوى من حجة إبراهيم، فتكون النتيجة

- ﴿... فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: 258]

إن ما يهمنا من هذا الطرح هو الفهم التالي:

في هذا السيناريو القرآني نجد إبراهيم يستخدم حجة إحياء الموتى ليقيمها كدليل على صحة دعوته، أليس كذلك؟ فيرد الرجل عليه بالحجة نفسها بأنه هو كذلك يحي ويميت، وكان ذلك في الآية 258 من سورة البقرة (دقق عزيزي القارئ جيداً)، ولكن الملفت للانتباه أن إبراهيم في الآية 260 من البقرة، أي فقط بعد آية واحدة كفاصل بين حجته على الرجل وبين طلبه من الله أن يريه كيف يحيي الموتى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ ... ﴾ [البقرة: 260]

فيأتي الرد من الله على طلب إبراهيم موضحاً لنا وجود مقدار من الشك في قلب إبراهيم:

- ﴿ ... قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ ... ﴾ [البقرة: 260]

فنحن نظن أن هذا الشك كان مصدره الحجة التي رد بها الرجل بأنه يحيي ويميت ورد بها على حجة إبراهيم بأن الله هو من يحيي ويميت، فلقد أدخلت حجة الرجل شيئاً من الشك في قلب إبراهيم، ونفهم ذلك من قول الحق في رده على طلب إبراهيم، فالله العالم المطلع على القلوب يسأل إبراهيم عن إيمانه بصيغة الاستفسار (أَوَلَمۡ تُؤۡمِن)، فيرد إبراهيم على سؤال ربه، فلا ينكر أن قلبه لم يكن مطمئناً تمام الاطمئنان:

- ﴿... قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ... ﴾ [البقرة: 260]

فيقدم الله الدليل لإبراهيم ليطمئن قلب إبراهيم، وليكون من الموقنين في نهاية رحلة الشك هذه:

- ﴿... قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة: 260]

النتيجة: لقد كان الشك هو سمة بارزة في شخصية نبي الله إبراهيم، وقد كانت رحلة حياته هي رحلة من الشك إلى اليقين حتى توفاه الله بقلب سليم.

- ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ [الصافات: 83-84]

لنتذكر هذه الفكرة فقد نحتاجها بعد قليل.

قصة رسل الله مع نساء إبراهيم

يتحدث النص القرآني عن تصرفات نساء إبراهيم (سارة وهاجر) يوم أن حضر الملائكة إلى بيت إبراهيم بخبر هلاك قوم لوط وبالبشرى بولادة إسحق ومن وراء إسحق يعقوب، ونحن نظن متيقنين أن الفكر الإسلامي قد أخفق إخفاقاً شديداً في فهم هذه الجزئية التي ربما تسعفنا في فهم القصة في إطارها الأوسع. ولنقدم الآيات الكريمة التي تتحدث عن ردة فعل نساء إبراهيم يوم أن حضرت رسل الله إلى بيت نبي الله إبراهيم، لنبين حجم الغلط الذي وقع فيه كثير من علمائنا الأجلاء، محاولين تصحيحه بحول الله وتوفيقه.

فالمتفحص للنص القرآني يجد خطابين اثنين يخصان ردة فعل نساء إبراهيم على زيارة الملائكة والأخبار التي ساقوها إلى نبي الله في بيته، والخطابان هما:

⇐ المرأة كانت قائمة

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١
- قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢﴾ [هود: 71-72]

⇐ المرأة كانت مقبلة

- ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩
- قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠﴾ [الذاريات: 29-30]

إنّ الإخفاق الذي وقع فيه الفكر الديني حتى الساعة يتمثل في عدم التفريق بين هذين الموقفين، واللذان غالباً ما حملا على أنهما نفس الصورة للحدث بتعبيرين مختلفين، ونحن ننكر على علمائنا الأجلاء هذا الفهم ونقدم نظرتنا الجديدة التي نظن أنها أكثر دقة وتميزاً.

رأينا: إننا نظن أن الموقفين هما موقفان مختلفان يصور كل واحد منهما حركة واحدة من نساء إبراهيم، فلقد كانت واحدة منهما **قائمة** بينما كانت الأخرى **مقبلة**.

الدليل: إن الدليل الذي نسوقه سهل للغاية يتمثل في أن الموقف الأول يصور المرأة على أنها كانت **واقفة** بينما يصور الموقف الثاني المرأة على أنها كانت **مقبلة**

الاستنتاج: كان الموقف الأول يخص واحدة من نساء إبراهيم وهي سارة (أم إسحق التي جاءتها البشرى بالغلام، واقرأ النص ثانية - عزيزي القارئ - لتتيقن من وجاهة ما نزعم:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١
- قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 71-72]

فالمرأة تتحدث عن نفسها، وتتعجب من خبر أن تلد وهي عجوز وبعلها شيخ كبير، فمن تكون إذاً؟

بينما - في المقابل - يصور الموقف الثاني الهيئة التي كانت عليها المرأة الثانية لإبراهيم وهي مقبلة على المكان الذي كان يتواجد به إبراهيم مع رسل الله وامرأته الأولى صاحبة البشرى، واقرأ النص جيداً - عزيزي القارئ - لترى وجاهة ما نزعم:

- ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩
- قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات: 29-30]

فالمرأة هنا لا تتحدث عن نفسها بل تنكر على امرأة زوجها الأولى (أو ضرتها باللسان الدارج بين الناس) أن تلد، فتنعتها بأنها عجوز عقيم، فما يكون من الملائكة إلا أن ردوا عليها بالقول بأن هذا من أمر الله، فهي حكمته وعلمه اللذان لا يحق لأحد أن يحتج عليهما.

صراع الضرائر: نعم، نستطيع أن نستنبط من هذين الموقفين طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين نساء إبراهيم مع بعضهم البعض، فلقد كانت مبنية – كما في الوضع الطبيعي – على التصادم والغيرة (وربما المكيدة أحياناً).

لنتذكر هذه الفكرة فربما تفيدنا بعد قليل.

ردة فعل نساء إبراهيم على ما جاء به رسلُ الله نبيَّ الله إبراهيم

إننا نعتقد جازمين أنّ رسل الله قدموا إلى بيت إبراهيم وهم يحملون رسالتين من ربهم إلى نبي الله إبراهيم، والرسالتان هما:

⇐ إنزال العذاب على قوم لوط
⇐ البشرى بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب

ولو تدبرنا ردة فعل نساء إبراهيم على رسائل الملائكة هذه، لوجدنا العجب العجاب.

أولاً، تفرح سارة (امرأة إبراهيم الأولى) بخبر وقوع العذاب على قوم لوط، كلام خطير أليس كذلك؟ ولكن دعنا نقرأ النص القرآني جيداً لنرى بأم أعيننا أن سارة لم تخفي فرحتها بهلاك القوم:

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠
- وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١
- قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 70-72]

دقق- عزيزي القارئ - جيداً، ثم اسأل نفسك السؤال التالي: لماذا ضحكت المرأة؟

لقد أخفق الفكر الديني إخفاقاً لا مثيل له يوم أن ظن علماؤنا الأجلاء بأن المرأة ضحكت بسبب البشرى بولادة إسحق ومن وراء إسحق يعقوب. فنقول لهم لو تدبرتم النص جيداً، لما وقعنا في هذا الغلط قروناً من الزمن، فالنص يبين لنا أن المرأة قد ضحكت مباشرة بعد أن أخبر رسل الله إبراهيم بأنهم قد أرسلوا لإيقاع العذاب على قوم لوط، وقبل أن تسمع البشرى بإسحق ويعقوب:

- وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١

فالمرأة ضحكت قبل البشرى وليس بعدها، أليس كذلك؟

ولو تدبرنا ردة فعلها على البشرى، لوجدنا المرأة قد تعجبت واحتارت من الخبر، لا بل لقد صعقت، ويكأنها تحاول أن تدافع عن نفسها وعن زوجها:

- قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢

النتيجة: لقد تمثلت ردة فعل امرأة إبراهيم التي نزل الملائكة في بيتها (وهي سارة) في سلوكين وهما:

⇐ الضحك (وكان ذلك مباشرة بعد سماعها خبر هلاك قوم لوط وقبل البشرى)
⇐ التعجب والحيرة (بعد سماعها خبر البشرى)

ثانياً، لو تدبرنا ردة فعل المرأة التي أقبلت (وهي هاجر) أم إسماعيل التي كانت قادمة من بعيد في صرة، لوجدنا أنها لم تفرح بالخبرين، فلقد صكت وجهها بعد أن سمعت الخبرين، لا بل وزادت على ذلك بمحاولتها إيذاء ضرتها بالكلام عندما قالت عنها بأنها عجوز عقيم:

- ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨
- فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩
- قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات: 28-30]

نتيجة: لقد نزل الملائكة في بيت المرأة الأولى سارة، وأقبلت المرأة الثانية في صرة، وكانت ردة الفعل عند كل واحدة منهن على ما سمعن من أخبار متباينة، ففي حين أن الفرح كان بداياً على وجه الزوجة القديمة " فَضَحِكَتْ "، كان الوجوم مسيطراً على وجه الأخرى " فَصَكَّتْ وَجْهَهَا "

الأسئلة:

- ⇐ لماذا أفرح خبر هلاك قوم لوط سارة وربما أغضب هاجر؟
- ⇐ لماذا أغضب خبر البشرى هاجر وفاجأ سارة؟
- ⇐ كيف كانت علاقة إبراهيم بنسائه نتيجة هذا الصراع الواضح؟
- ⇐ ما هي تبعات هذا الصراع؟
- ⇐ لماذا حضرت الملائكة إلى بيت إبراهيم ليخبروه بهلاك قوم لوط؟ لم لم يذهبوا مباشرة إلى قوم لوط فيهلكوهم، ثم يأتوا بيت إبراهيم ليبشروه بالمولود الجديد؟
- ⇐ لم كان خبر هلاك قوم لوط مهماً بالنسبة لإبراهيم وأهل بيته؟
- ⇐ ألخ؟

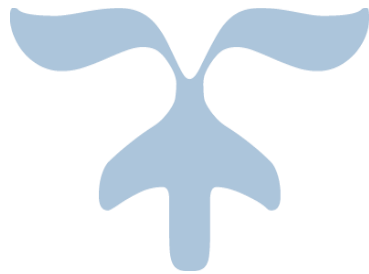
هذا ما سنتناوله بحول الله في الجزء القادم.

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الرابع)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (4)؟

في هذا الجزء الرابع من الكتاب تحت عنوان: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟ سنواصل الحديث عن قصة نبي الله إبراهيم مع نساءه (سارة وهاجر) وأبناءه (إسحق وإسماعيل)، وقد أنتهى الجزء السابق عند طرح الأسئلة التالية:

- ⇐ لماذا أفرح خبر هلاك قوم لوط سارة وربما أغضب هاجر؟
- ⇐ لماذا أغضب خبر البشرى هاجر وفاجأ سارة؟
- ⇐ كيف كانت علاقة إبراهيم بنساءه نتيجة هذا الصراع الواضح بينهم ؟
- ⇐ ما هي تبعات هذا الصراع بين نساء إبراهيم؟
- ⇐ لماذا حضرت الملائكة إلى بيت إبراهيم ليخبروه بهلاك قوم لوط ؟
- ⇐ لِمَ لَمْ يذهبوا مباشرة إلى قوم لوط فيهلكوهم، ثم يأتوا بيت إبراهيم ليبشروه بالمولود الجديد؟
- ⇐ لم كان خبر هلاك قوم لوط مهماً بالنسبة لإبراهيم وأهل بيته؟
- ⇐ الخ؟

كانت واحدة من النتائج التي خلصنا إليها في بحثنا السابق تتعلق بردة فعل نساء إبراهيم على زيارة رسل الله، ففي حين ضحكت من كانت منهن في تلك اللحظة قائمة (سارة):

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]

أقبلت الأخرى (هاجر) ولم تخفي غضبها مما سمعت:

- ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ [الذاريات: 29]

وكانت النتيجة التي توقفنا عندها تتلخص بما يلي: لقد نزل رسل الله في بيت امرأة إبراهيم الأولى سارة، وأقبلت امرأته الثانية هاجر في صرة، وكانت ردة الفعل عند كل واحدة منهن على ما سمعن من أخبار متباينة، ففي حين أن الفرح كان بداياً على وجه الزوجة القديمة " فَضَحِكَتۡ "، كان الوجوم مسيطراً على وجه الأخرى " فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا "

وقد حان الوقت أن ندرس بشيء من التفصيل ردة فعل إبراهيم نفسه على زيارة الملائكة، فلو تدبرنا السياقات القرآنية التي تتحدث عن زيارة رسل الله إلى بيت لإبراهيم وركّزنا على ردة فعل إبراهيم نفسه حول

الزيارة نفسها، وردة فعله بخصوص الأخبار التي نقلها رسل الله إليه في تلك الزيارة، ربما وجدنا الكثير الذي يمكن أن يسعفنا في فهم القصة بإطارها الأوسع.

فنحن نستطيع أن نتحدث أولاً عن ردة فعل إبراهيم على من حضر إلى بيته:

- ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝﴾ [الحجر: 51-53]

كما يمكن أن نتحدث بعد ذلك عن ردة فعله على خبر البشرى بالمولود الجديد:

- ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝﴾ [الحجر: 53-56]

وردة فعل إبراهيم على خبر هلاك قوم لوط:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝﴾ [الحجر: 57-60]

الرسل والوليمة

جاء في سورة هود عن زيارة رسلُ الله نبيَّ الله إبراهيم السياق القرآني التالي:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝﴾ [هود: 69-71]

وورد السياق القرآني التالي يصور المشهد نفسه في سورة الحجر:

- ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝﴾ [الحجر: 51-53]

وجاء في سورة الذاريات قول الحق:

- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ [الذاريات: 24-30]

ونحن نطلب من القارئ الكريم دراسة هذه السياقات القرآنية بشيء من التأني، علّنا – بحول الله وتوفيقه – نستطيع أن نخرج ببعض الاستنباطات التي يمكن أن تساعدنا في تشكيل صورة حقيقية لما حدث في تلك الساعة، لذا فإن دراسة مفردات هذه الآيات الكريمة سيشكل جزءاً كبيراً في النقاش التالي.

أما بعد،

لعل من الطبيعي أن تبدأ الزيارة بالسلام، فعندما يدخل ضيف إلى بيت صاحب الدار لا شك يبادروه بطرح السلام، وهذا بالضبط ما فعل رسل الله يوم أن نزلوا بدار إبراهيم، ولكن المتفحص لكيفية سلام الملائكة وكيفية رد إبراهيم على سلام الملائكة، ربما يجد فيه شيء من الغرابة، ولكن كيف؟

لنستعرض السياقات القرآنية التي ورد فيها سلام الملائكة على نبي الله إبراهيم لحظة دخولهم بيته:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]
- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات: 25]

إن المدقق في هذه السياقات القرآنية، يجد أن إبراهيم لم يرد على سلام الملائكة بالسلام في واحدة منها:

- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]

ويجد أن إبراهيم يرد السلام بالسلام في السياقين الأخريين:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات: 25]

ولكن الغريب في هذا السلام – حسب ظننا – هو طريقة رد إبراهيم على سلام الملائكة، ففي حين أن الملائكة طرحوا السلام على إبراهيم بالشكل التالي (حالة النصب):

فَقَالُوا سَلَامًا

جاء رد إبراهيم (بحالة الرفع):

قَالَ سَلَٰمٌ

وهنا نستميح أهل اللغة العذر أن نسألهم السؤال التالي: لم جاء خطاب الملائكة بصيغة النصب (فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا)، بينما جاء رد إبراهيم بصيغة الرفع (قَالَ سَلَٰمٌ)؟

رأينا: لا شك لدينا أن مفردة سَلَامًا في كلام رسل الله جاءت منصوبة لأنها – حسب رأي أهل اللغة- مفعول به للفعل فَقَالُوا، بينما جاءت مفردة " سَلَامٌ" في رد إبراهيم مرفوعة لأنها مبتدأ، أليس كذلك؟

تبعات هذا الفهم: عندما يتبع الفعل قال بمفعول به تكون الجملة قد اكتملت، لأن الحديث قد وصل إلى نهايته، لذا فإننا نفهم أن الملائكة قد قدموا إلى بيت إبراهيم فطرحوا السلام عليه (وبالطبع على من كان حاضراً عنده)، فذاك جل ما أراد رسل الله قوله في تلك اللحظة.

ولكن عندما رد إبراهيم عليهم، لم يقل لهم سلاماً لينهي بذلك هذه الجزئية من الخطاب، وإنما جاء رده مغايراً بصيغة الرفع (قَالَ سَلَٰمٌ)، ربما لأن إبراهيم – في رأينا – أراد أن يوصل من وراء ذلك رسالة معينة، ولكن كيف؟

مما لا شك لدينا أن جملة مقول القول يجب أن تكون مؤلفة من مبتدأ وخبر، وليس فقط مبتدأ، فأنت عندما تقول: قال الطقس جميل، تكون مفردة الطقس مبتدأ ومفردة جميل خبراً، لتكون الجملة الاسمية بأكملها (الطقس جميل) في محل نصب مفعول به لفعل القول، لذا لا يمكن أن تكتمل جملة مقول القول لحظة أن تتبع بمبتدأ إلا بخبر يلحق ذلك المبتدأ، وبهذا المنطق فإننا نتساءل عن الخبر الذي كان إبراهيم يريد إيصاله عندما أتبع فعل القول بجملة إسمية حذف منها الخبر:

قَالَ سَلَٰمٌ ...

فأين خبر سَلَٰمٌ؟

لو تتبعنا مثل هذا الخطاب من إبراهيم نفسه في النص القرآني، لوجدنا أنه قد حصل في موقف آخر، وكان ذلك عندما جرى خطاب بينه وبين أبيه:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 45-47]

فإبراهيم في هذا الخطاب يستخدم نفس التركيب ولكن بجملة مكتملة الأركان من المبتدأ والخبر:

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ

ففي حين أن سَلَٰمٌ هي المبتدأ، جاءت شبه الجملة "عَلَيۡكَ" في محل رفع خبر للمبتدأ سَلَٰمٌ، لتكون وظيفة الجملة الاسمية بأكملها "سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ " في محل نصب مفعول به للفعل قَالَ ، أليس كذلك؟

النتيجة: إن مراد القول عندنا هو: عندما يدخل شخص إلى مكان ما ويقول سلاماً، فتلك لا شك تحية تخص كل الحاضرين، ولكنه عندما يقول "سلام عليكم" فتلك تحية تخص قوم معينين وليس القوم بأكملهم، فإبراهيم يوجه التحية لأبيه فقط بالقول "سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ، فالتحية إذاً تخص أبيه فقط (حتى ولو كان هناك جمع من الحاضرين)، ولا تخصهم إطلاقاً، فلو كانت التحية تخصهم لجاء قوله على نحو:

قال سلام عليكم، أو
قال سلاماً

النتيجة: إننا نرى أن الفرق بين قول الملائكة (فَقَالُواْ سَلَٰمًا) وقول إبراهيم (قَالَ سَلَٰمٌ) تتلخص بأن كلام الملائكة كان قد وصل إلى نهايته، لذا فإن جملة السلام قد اكتملت في قول الملائكة:

فَقَالُواْ سَلَٰمًا

بينما لم يصل كلام إبراهيم إلى نهايته لأنّ هناك خبر محذوف يريد إبراهيم التستر عليه، لذا فإن جملة سلام إبراهيم لم تكتمل:

قَالَ سَلَٰمٌ ...

لذا، يمكننا القول أنه عندما دخلت رسل الله بيت إبراهيم، قالوا سلاماً ليعم السلام على كل من حضر وكفى، فعلى الأقل كانت زوجته قائمة، ويصدّق ظننا هذا ما قالته الملائكة بعد ذلك:

- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ٧٣﴾ [هود: 73]

ولكن إبراهيم لم يرد عليهم بالقول "سلاماً" كما قالوا هم، لأنه لم يكن –في رأينا– يريد أن يعم السلام على كل من حضر ذلك اللقاء، ولا ننسى أن إحدى نساءه كانت قائمة، والأخرى كانت مقبلة، لذا جاء قول إبراهيم:

قَالَ سَلَٰمٌ ...

فهو لا يريد أن يعم السلام على كل من حضر، ولكن لماذا؟

الجواب: إننا نظن إن الغضب كان بادياً على إبراهيم لحظة أن طرح رسل الله السلام على من حضر في ذلك الموقف، ويؤكد ظننا هذا مشاهدتان وهما:

1. عدم وجود رد لإبراهيم على سلام رسل الله في واحدة من هذه السياقات القرآنية، فلا نجد أن إبراهيم قد رد السلام أصلاً:

- ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]

2. طريقة رد إبراهيم على بشرى الملائكة بالمولود الجديد

- ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: 53-56]

إن المتفحص لهذا السياق القرآني يجد - بما لا يدع مجالاً للشك - أن إبراهيم لم يكن في أحسن حالاته النفسية، فالعصبية (وربما الحنق) كان باد في كلامه، فبدل أن يستقبل إبراهيم مثل هذه البشرى من رسل ربه بالفرح والابتهاج (كما هو متوقع)، نجد أنه يستقبلها بالاستغراب (وربما عدم الرضا)، فرد الملائكة على طريقة تلقيه خبر البشرى يبين أن الملائكة لم تجد من إبراهيم كان كثير الفرح والسرور بالخبر ولكن تلقاه بشيء من القنوط:

- ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ [الحجر: 55]

عندها فقط يرجع إبراهيم بالقول:

- ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: 56]

ونستطيع أن نستنبط من كلام إبراهيم هذا أن القنوط لم يكن هو سبب انزعاجه، ولكن هناك شيء آخر هو ما سبب عند إبراهيم هذا النوع من ردة الفعل التي لا تظهر كثيراً من الفرح والسرور بالخبر.

لماذا لم يبد إبراهيم كثير فرح بخبر البشرى؟

إننا نجرؤ على البوح بالافتراء التالي: لم تكن علاقة إبراهيم بنسائه في تلك اللحظة في أحسن صورها، لقد كان إبراهيم يعاني من الصراع الذي كان ناشباً بين نسائه، فإحداهما قد فرحت بخبر إيقاع العذاب على قوم لوط، والأخرى أغضبها (لا بل أثار حنقها) تحصيلُ الذرية لضرتها بعد هذا السن.

لماذا فرحت سارة بخبر إيقاع العذاب على قوم لوط؟

لقد استنبطنا في الجزء السابق أن سارة قد فرحت (ما دام أنها ضحكت) بسبب خبر إيقاع العذاب على قوم لوط، ولنقرأ الآيات الكريمة التالية ونتفقدها من هذا الجانب:

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 70-71]

إن المدقق في هذا السياق القرآني يجد أن المرأة التي كانت قائمة (فرسل الله في بيتها) قد ضحكت مباشرة بعد سماعها خبر إنزال العذاب بقوم لوط، وليس بعد أن سمعت البشرى بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، فقد صدر الضحك عن المرأة قبل سماعها خبر الذرية، وفي هذا فرق كبير. ويؤكد كلامنا هذا – كما فصلنا في الجزء السابق – ردة فعلها على خبر البشرى الذي أثار الغرابة والدهشة عندها (وليس الضحك):

- ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١
- قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [هود: 71-72]

النتيجة: لقد ضحكت امرأة إبراهيم هذه مباشرة بعد سماعها خبر العذاب الذي سينزل على قوم لوط وقبل سماعها خبر البشرى بالذرية (انظر الآية 71)، واستغربت وتعجبت بعد أن سمعت خبر الذرية (انظر الآية 72)

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

لماذا ضحكت؟

وهنا سيبادرنا الجميع بالاستفسار عن سبب أن تكون سارة قد ضحكت لمّا سمعت خبر العذاب الذي سينزل بقوم لوط، فلا بد من وجود سبب قوي (ومقنع) يدفع بسارة أن تضحك لحظة أن تسمع خبر هلاك القوم، فليس من الطبيعي أن يفرح الإنسان بهلاك قوم إلا إن كان هناك سبب قوي يدفعه إلى ذلك، فماذا كان ذلك السبب؟

إننا نرى (مخطئين بالطبع ونتمنى أن يقدم أحد تفسيراً أفضل مما سنفتري) أن السبب الذي دفع بسارة أن تضحك لحظة أن سمعت خبر عذاب قوم لوط هو أن ذلك العذاب سينزل بقوم تنتمي له ضرتها.

فمما لا شك فيه لدينا أن لوطاً قد تزوج من أهل المدينة (واستقر فيها)، بينما تزوج إبراهيم بهاجر (امرأته الثانية) من تلك المدينة ورحل عنها، ولكن لما كان خبر امرأة لوط قد وصل قوم إبراهيم (بالسوء طبعاً)، لم يكن وقع ذلك الخبر على امرأة إبراهيم الثانية بالأمر البسيط، ويزيد الطين بله ما كان يفعل قومها من الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين. ولنتحدث عن الأمر بشيء من التفصيل.

فنساء تلك المدينة (تمثلهم امرأة لوط بخيانتها) وأهل تلك المدينة (يمثلهم كل القوم بلواطهم) لم يكن مثالاً مشرفاً لمن كان ينتمي لهم، فنحن نستطيع أن نفهم بكل بساطة أنه عندما ينتشر اللواط بين الرجال لدرجة أن يذر الرجال ما خلق لهم من أزواجهم:

- ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: 165-166]

يصبح من الطبيعي – في نظرنا – أن لا تقف النساء مكتوفات الأيادي، فرجال تلك المدينة قد تركوا ما خلق الله لهم من أزواج طلباً للفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فماذا ستفعل النساء إذاً؟ هل ستخرج تغني في زفاف من المفترض أن يكون زوجها على شاب جميل مثله؟!

الجواب: لا بد أن كثيراً من (ولكن ربما ليس كل) نساء تلك المدينة سيبحثن عن تلبية رغباتهن (التي لم يلتفت إليها أزواجهم وطلبوها عند أمثالهم من الرجال) بطريقة غير مشروعة، لذا لمّا كان الرجال غارقين في فاحشة اللواط علنا، ربما كانت النساء غارقات في فاحشة الزنا سراً.

إن ما يهمنا هنا قوله هو الظن بأن الانتساب لتلك المدينة التي جاء رسل الله بخبر هلاكهم جميعاً (إلا آل لوط بالطبع) لم يكن بالشرف العظيم، فالانتساب إلى تلك المدينة هو بحد ذاته تهمة تستوجب ممن تقع عليه أن يدافع عن نفسه.

النتيجة: لم أكن لأتصور أن امرأة لوط الأولى (سارة) كانت تنظر بعين الرضا إلى نسب ضرتها هاجر (امرأة إبراهيم الثانية).

لماذا غضبت هاجر من خبر حصول الذرية لضرتها العجوز سارة؟

إننا نظن أنه لم يكن لامرأة إبراهيم الثانية هاجر (وهي من جاءت من مدينة لوط) نقطة قوة تدافع به عن نفسها إلا مولودها إسماعيل، فهي في نهاية المطاف قد أنجبت الذرية لإبراهيم، وهو ما لم تستطع امرأته الأولى أن تقوم به على فترة طويلة من الزمن، أما اليوم وقد جاءت الملائكة لامرأة إبراهيم الأولى بالبشرى بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، شعرت المرأة الثانية هاجر أنها قد خسرت ما كانت تمتلك من قوة تدافع به عن نفسها أمام الهجوم الشرس من ضرتها، فهي تعي مقدار تأثير الزوجة الأولى سارة على إبراهيم، فما كانت تستطيع أن تخفي حنقها وغضبها من حصول الذرية لإبراهيم من امرأته الأولى عندما أقبلت من بعيد في صرة.

لماذا في صرة؟

أما الدليل الثاني الذي نسوقه على تفاقم الخصام بين إبراهيم ونسائه لحظة حضور الملائكة إلى بيت إبراهيم فنجده في قوله تعالى "فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ"، طارحين السؤال التالي: لم أقبلت امرأة إبراهيم الثانية في صرة؟

- ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠﴾ [الذاريات: 28-30]

لقد تحدثنا سابقاً أن امرأة إبراهيم التي أقبلت لم تكن هي القائمة التي ضحكت، فالتي أقبلت في صرة هي امرأة إبراهيم الثانية التي لم ينزل رسل الله في بيتها والتي لم يسرها خبر الذرية لضرتها، فهي قد أقبلت عليهم من بعيد في حين كان امرأة إبراهيم التي نزل رسل الله في بيتها قائمة تضحك، أليس كذلك؟ ولكن ما يهمنا هنا هو طرح التساؤل التالي: لماذا أقبلت المرأة في صرة؟

إن ما تحصل لنا من فهم حتى الساعة يتمثل في أن مفردة "الصرة" ربما تعني "حقيبة السفر على الخطوط الجوية" (أو suitcase باللسان الأعجمي)، ولكن لما كانت الحياة لا زالت بدائية كانت حقائب السفر عندهم هي الصرة، وربما تعني أن المرأة كانت تحمل طفلها إسماعيل في تلك الصرة، فالمرأة قد كانت مقبلة تحمل حقيبة سفرها تحزم فيها أمتعتها وربما طفلها، ولكن لماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن المرأة لم تكن لتحزم أمتعتها أو تحمل إبنها في صرة لو لم تكن الأمور قد وصلت إلى مرحلة لم تعد تطيق البقاء في نفس المكان الذي تتواجد فيه ضرتها، فهي قد طلبت الرحيل، أو على الأقل تنوي ترك بيت زوجها (كما تفعل كثير من النساء عندما يحدث خصام بينها وبين زوجها)، فربما تفضل أن تترك البيت الذي تعيش فيه لترحل عنه إلى بيت أهلها أو إلى أي مكان آخر (وسنناقش السناريوهات المحتملة لهذا التصرف لاحقاً بحول الله وتوفيقه). ونكتفي هنا القول بأن المرأة كانت قد حزمت أمتعتها، وربما حاملة طفلها في صرة.

ويمكن أن نتخيل الموقف على النحو التالي: هناك نزاع بين النساء، تقرر أحداهن أن تحمل صرتها (ربما لتذهب إلى بيت أهلها)، يأتي خبر العذاب الذي سينزل بكل القرية التي يقطنها أهلها، فما يكون من الأخرى إلا أن تضحك من ما آلت إليه حال ضرتها، فما يكون من الأخرى إلا أن تعيرها بعقمها.

على أن مسني الكبر؟

أما الدليل الثالث على وجاهة ما نزعم في أن حياة إبراهيم مع نساءه لم تكن في أفضل حالاتها (لا بل ومرشحة للتفاقم) فيأتي من رد إبراهيم نفسه على بشرى الملائكة

- ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر:54]

وهنا نطرح التساؤل التالي: لماذا يستغرب إبراهيم من أن يرزق الذرية الجديدة (إسحق ومن وراء إسحق يعقوب) على الكبر؟ ألم يكن قد رزق بإسماعيل على الكبر؟ هل نسي ذلك؟ ألم يقل في مكان آخر:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

هل هذا الوهب من الله لإبراهيم يدعوه أن يعبر عن استغرابه من حصول الذرية له على الكبر وهو قد رزق بها من قبل على الكبر؟!

إن هذا السؤال يقودنا إلى استفسار أكثر قوة (نستميح السادة القراء العذر إن كان لا يروق للكثيرين منهم طرحه) وهو: لماذا انتظر إبراهيم حتى رزق بإسحق ليعبر عن حمده لله على هذه النعمة؟ وبكلمات أكثر دقة، لم لا نجد في كتاب الله أن إبراهيم قد حمد ربه يوم أن رزق بإسماعيل؟ لماذا انتظر كل هذه الفترة من الزمن؟ ما الذي كان يدور في خلد إبراهيم حتى منعه أن يعبر عن حمده لربه أن رزقه بإسماعيل في البدء؟ لم لا نجد في كتاب الله آية تدلنا على أن إبراهيم قد حمد الله أن وهب له إسماعيل، وأخرى تعبر تكرار حمده ربه يوم أن وهبه إسحق وإسماعيل؟ ألا يكون الأب أكثر فرحاً وحمداً لله على مولوده الأول خصوصاً إذا ما جاء ذلك المولود بعد طول انتظار؟!

نتيجة: إننا نظن أن إبراهيم كان بحاجة ماسة للذرية، وكان متلهفاً للحصول عليها، وقد تحصلت له تلك الذرية من امرأته الثانية هاجر، ولكننا لا نجد في كتاب الله أن إبراهيم قد حمد ربه على تلك الذرية يوم أن رزقها، وها هي تتحصل له ذرية أخرى من امرأته الأولى التي قد أصبحت عجوزا ويأتي ذلك الخبر من السماء عن طريق رسل الله، فما يكون منه إلا أن يحمد الله على أن وهب الله له إسماعيل (المولود الأول) وإسحق (المولود الثاني).

لكن هناك مفارقتان في هذا الفهم

1. إن خبر حمل امرأته الأولى سارة بولده الثاني إسحق قد جاء على لسان رسل الله وامرأته عجوز، فلا يستطيع إبراهيم أن يشك قيد أنملة في صحة نسب إسحق فهو هبة من الله، وقد تعرضنا لهذه الجزئية في الجزء السابق من الكتاب:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 84]
- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 72]
- ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: 83-84]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]

2. أن إبراهيم هو من ظن أن إسماعيل هبة من الله، فقال:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

فلا نجد في كتاب الله آية واحدة تؤكد أن إسماعيل كان هبة من الله، ولكننا بالمقابل نجد خمسة سياقات قرآنية تؤكد أن إسحق هبة من الله، وقد حاولنا تسليط الضوء على معنى الهبة في الذرية، وزعمنا القول أن المولود الذي يتحصل للنبي كهبة من الله لا يولد بطريقة تقليدية طبيعية كما في حالة زكريا ومريم بنت عمران، أما المولود الذي لا يكون هبة من الله، فهو يولد بطريقة تقليدية طبيعية، لذا لا نجد أن الله قد وهب يوسف ليعقوب، والأهم من ذلك هو أن نتأمل قول الحق في الآية نفسها التي تتحدث عن إسحق:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 84]

فنحن نعلم أن سلالة النبوة كانت على النحو التالي:

إبراهيم ... إسحق... يعقوب ... يوسف

فلماذا قال الله أنه قد وهب لإبراهيم أسحق ومن وراء إسحق يعقوب، ولم يكمل القول ومن وراء يعقوب يوسف؟ لماذا توقفت الهبة عند يعقوب وليس عند يوسف بالرغم أن يوسف هو نبي من نفس الذرية وهم جميعاً من وراء بعضهم البعض؟

رأينا: لقد كان إسحق هبة من الله لإبراهيم (فإسحق لم يولد ولادة تقليدية طبيعية) وكذلك الحال بالنسبة ليعقوب، فيعقوب (الوريث الوحيد لإسحق) لم يأتي بطريقة تقليدية طبيعية، ولكن يوسف لم يكن هبة من الله (لأن يوسف قد جاء بطريقة تقليدية طبيعية)، فيوسف وإخوته لم يكونوا هبة من الله، ولكنهم كانوا ذرية يعقوب الذين ولدوا جميعاً بطريقة تقليدية طبيعية.

النتيجة: إسماعيل لم يكن هبة من الله (فهو قد ولد بطريقة تقليدية طبيعية) بينما كان إسحق هبة من الله (لأنه لم يولد بالطريقة التقليدية الطبيعية).

وسنتعرض لتبعات هذا الظن لاحقاً.

لماذا كان إسحق هبة ولم يكن إسماعيل هبة؟

إن المدقق في النص القرآني يجد أن المشكلة لم تكن تكمن في إبراهيم نفسه ولكن في نساء إبراهيم، ولكن كيف؟

لنقرأ ردة فعل امرأة إبراهيم الأولى على بشرى الملائكة:

- ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [هود: 72]

لقد نسبت المرأة العجز في الإنجاب أولاً إلى نفسها " وَأَنَا۠ عَجُوزٌ " ثم إلى زوجها "وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا"

والآن لنرقب ردة فعل المرأة الثانية التي أقبلت في صرة على هذا الخبر:

- ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [الذاريات: 29]

لقد نسبت المرأة الثانية العجز إلى ضرتها فقط " وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ "، ولم تنسبه إلى إبراهيم بالرغم أنه شيخ، فلم كانت نظرتهما متباينة حيال سبب العجز في الإنجاب؟

الجواب: إن هذا يقودنا إلى استنتاجين اثنين مهمين حول ردة فعل نساء إبراهيم على الخبر وكل منهما قد خبرت الرجل في الفراش:

1. لقد قلّلت الأولى (سارة) من قدرة الرجل على الإنجاب ولكنها لم تنفي عنه ذلك بالكلية، فهي قد نسبت العجز إلى نفسها أولاً، وإلى زوجها من بعد ذلك.
2. نسبت الثانية العجز إلى ضرتها ولم تنكر قدرة إبراهيم على الإنجاب

ولكن لماذا؟

إن قراءة ردة فعل المرأة الثانية على الخبر يفيدنا في الخروج باستنباط مهم جداً ربما يسعفنا في المضي قدماً في النقاش:

- ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [الذاريات: 29]

لقد "عيّرت" (باللسان الأردني) المرأةُ الثانية المرأةَ الأولى ضرتها بأنها عجوز، أليس كذلك؟

إنّ أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباط حول هذه القضية هو أن المرأة الثانية لم تكن عجوزا، فلا يمكن أن تتهم أحداً بشيء من باب التجريح وتكون أنت من تتصف به، فلا يمكن أن تتهم الآخرين بالبخل وأنت نفسك بخيل، أو أن تتهم الآخرين بالكذب وأنت أكذبهم، وهكذا، فالمرأة الثانية هاجر رأت أن نقطة

ضعف ضرتها هو في عجزها المتمثل في سنها فقالت عنها " عَجُوزٌ عَقِيمٌ "، لذا فهي نفسها (هاجر) لم تكن عجوز حتى اللحظة، هل هذا منطقي؟

تبعات هذا الافتراء: ربما يدلنا هذا على أن المرأة الأولى سارة وهي عجوز عقيم لم تكن تجد في فراش إبراهيم ما تجده هاجر (الشابة) في فراشه، فمن الطبيعي أن يميل الرجل بشهوته إلى الشابة أكثر من ميله إلى العجوز، لذا قلّلت العجوز من فرصة إبراهيم على الإنجاب عندما قدمت عجزها على ضعفه، فهي بلا شك عاجزة (وَأَنَاْ عَجُوزٌ) وتجد في بعلها الضعف (وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا) لأنها لا تخبر منه الكثير في الفراش، ولكن – بالمقابل – نسبت الثانية هاجر المشكلة إلى عجز ضرتها (وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) ولم تنسب المشكلة في الإنجاب إلى إبراهيم ربما لما تكون قد خبرت منه في فراشها وهي لا زالت إلى حد ما شابة.

ولا ننسى ما يحدثنا به مشايخنا عن قصة هاجر وهي تركض بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء يوم أن تركها إبراهيم مع طفلها في ذاك الوادي غير ذي الزرع، فهذا مشهد لا يمكن أن نتصور فيه المرأة إلا أن تكون شابة.

ولكن هل كان إبراهيم متيقناً من قدرته على الإنجاب؟
كلا، إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباط حول قول إبراهيم:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

هو الافتراء التالي: إن ظن إبراهيم بأن إسماعيل وإسحق كلاهما هبة من الله يدعونا إلى الاعتقاد بأن إبراهيم لم يكن متيقناً من قدرته الطبيعية على الإنجاب، فلو كان إبراهيم متيقناً من قدرته على الإنجاب لما تحدث عن الذرية بصيغة الهبة من الله.

نتيجة كبيرة وافتراء خطير جداً: إبراهيم لا يستطيع أن يشك قيد أنمله في أن إسحق هبة من الله لأنّ امرأته قد أنجبته وهي عجوز وجاءته البشرى بذلك على لسان رسل ربه يوم جاءوه معذبين قوم لوط، ولكن إبراهيم لم يكن يملك نفس القدر من القناعة بخصوص نسب إسماعيل وقد تحصل له على الكبر وامرأته التي أنجبته لا زالت شابة يانعة خصوصاً إذا ما أخذت الظروف المحيطة (امرأته الأولى، نسب امرأته الثانية، تقدم العمر، الخ) بالحسبان.

النتيجة: شك يساور إبراهيم لا يستطيع البوح به على الملأ، وهو في رأينا ما كان يقصد إبراهيم التستر عليه يوم أن أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا

يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ [إبراهيم: 37-39]

لماذا أسكن إبراهيم من ذريته بواد غير ذي زرع؟

إن السبب الذي صرّح به إبراهيم من وراء ذلك هو " رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ "، ولكن هل فعلاً إقامة الصلاة في ذلك الوادي كان سبباً كافياً لأن يترك إبراهيم امرأته الثانية هاجر وهي لا زالت شابة مع طفلها الذي لا زال غلاماً صغيرا في ذلك الوادي المقفر غير ذي الزرع؟

رأينا، كلا، لقد كان هناك سبب (أو ربما أسباب أخرى) دفعت بإبراهيم للقيام بذلك العمل الذي يبدو ظاهره غير مقنع؟

السبب الأول: فض الخلاف بين ذريته

إننا نظن أن إبراهيم قد كان أذكى مما يمكن أن نتخيل، فلقد تصرف إبراهيم بحكمة عظيمة استطاع من خلالها أن ينقذ ذريته كلها (أو بعضها) من خطر كاد يصيبهم، ولكن ما هو ذلك الخطر؟

رأينا: إنه المكيدة بين الإخوة

إننا نعلم أن مثل هذا الكلام قد يثير الحنق والغضب عند الكثيرين، ولكننا على استعداد لتحمله في سبيل أن نستطلع الخبر الذي يمكن أن تؤول إليه الأحداث بعد قليل. إنّ جل ما نستطيع البوح به حتى الساعة هو شعور إبراهيم بأن المكيدة لا محالة واقعة بين ذريته إن هو تركهم جميعاً في مكان واحد، فعلامات الفرقة واضحة أمام عينيه لا يستطيع أن يغفل عنها أو أن يتجاهلها، فهم بلا شك سيكونون فريقان لا فريق واحد، فبالرغم أن الأب واحد (إبراهيم) إلا أن اختلاف الأم (سارة وهاجر) سيكون سبباً كافياً ليدب الصراع بينهم حول **ميراث النبوة**، فالنبوة كما سنرى لاحقاً هي ميراث الأنبياء باقية في ذريتهم، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: 33-34]

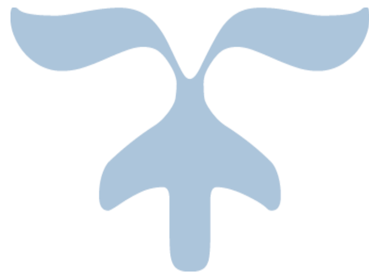
فلا أظن أنّ اكتساب ميراث النبوة (أو خسارته) سيكون أمر يمكن التساهل فيه عند بعض ذرية أنبياء الله، وهو ما سنتناوله بحول الله في الجزء القادم.

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الخامس)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (5)؟

وصلنا في الجزء السابق من هذا الكتاب إلى الظن بوجود مشكلة حقيقية نشبت بين نساء إبراهيم، ولا شك لدينا أن إبراهيم قد وجد – كما سنبين لاحقاً – أنّ هذا الصراع لن يتوقف عند ذاك الحد، لذا كان لابد له من التصرف بحكمة ليحافظ على كل أهل بيته، فلا يطغى طرف منهم على الطرف الآخر. كما أكدنا في ذلك الجزء من الكتاب أنّ النساء كن المحرك الرئيس لذاك الصراع، فعلاقة سارة بهاجر ستؤثر بشكل هائل على علاقة إسحق بإسماعيل في المستقبل، وربما ستسبب صراعاً بين أبناء نبي الله إبراهيم.

كما حاولنا تبيان أن النساء كن على الدوام سبباً في إثارة الشبهات حول بيوت الأنبياء، فامرأة نوح وامرأة لوط كنّ المثل الأسوأ على الأذى الذي لحق بأنبياء الله بسببهن، ولكنّ مشكلة نساء الأنبياء لم تكن على الدوام واضحة المعالم كما كان الحال بالنسبة لنوح أو لوط، فبالرغم أن نساء إبراهيم لم تصل بهن الحال إلى درجة الخيانة، إلا أن بيت إبراهيم لم يكن يخلو من المشاكل التي كان سببها النساء، فعلى أقل تقدير نستطيع القول بأننا لم نجد في كتاب الله أن نساء إبراهيم كن زوجاته، فلقد تحدث النص القرآني عند امرأة إبراهيم التي كانت قائمة:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]

وتحدث عن امرأته التي كانت مقبلة:

- ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]

ولم يتحدث عن أي منهما على أنها زوجته (للتفصيل حول الفرق بين المرأة والزوجة في النص القرآني انظر مقالتنا ماذا ستفعل النساء في الجنة؟)

وقد تفاقمت المشكلة أحياناً في هذه البيوت حتى وصلت الحاجة في بعض الأحيان إلى تأكيد رباني بطهارة تلك البيوت، فالله نفسه هو من طهّر بيت إبراهيم:

- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73]

ولا ننسى أنّ الإرادة الإلهية تدخلت أيضاً لتدفع الأذى عن بيت محمد نفسه:

- ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]

ولو دققنا النظر في كلا الحالتين، لوجدنا الخطاب موجهاً مباشرة للنساء، فامرأة إبراهيم التي عجبت من أمر الله هي من وجّه الله لها الخطاب بطهارة أهل البيت، ونساء النبي مجتمعات هن من توجه الخطاب إليهن بطهارة بيت النبي محمد (فلا ننسى حادثة الإفك). إن مراد القول هو أن نساء بيت النبي (إبراهيم، محمد، الخ) كن سبباً رئيسياً في الحاجة إلى أن ينزل خبر من السماء بطهارة بيت ذاك النبي، فلا أظن أن نساء النبي (أي نبي) سيسكتن إن حصل خلاف بشأن إحدى نسائه.

وما كان هذا الصراع سيتوقف عند النساء أنفسهن، ولكننا نجد أن الصراع قد امتد إلى ذرية الأنبياء متى كان هناك خلاف بين نساء النبي، وسنقدم المثال التالي لتوضيح الفكرة

صراع أبناء الأنبياء : مثال قصة يوسف

سنحاول في هذا الجزء تبيان كيف استطاع إبراهيم بحكمته أن يحد من الصراع القائم بين نسائه، والذي كان من الممكن أن يمتد إلى ذريته لو لم يقْدِم على حل المشكلة من جذورها، لا بل ويسخرها لتخدم أهل بيته جميعاً بدلاً أن تكون سبباً في إيقاع الأذى بهم، ولكن كيف؟

رأينا: نحن نظن أن إبراهيم استطاع بحكمته أن يتجنب المشكلة التي أوقع فيها يعقوب – مثلاً – نفسه، فجميعنا يعلم ما حصل بين أبناء يعقوب بسبب نزغ الشيطان بينهم، ولنبدأ القصة بتفاصيلها البسيطة التي قد نتفق عليها جميعاً لنرى في نهاية المطاف أن يعقوب لم يستطع أن يتصرف بحكمة جده إبراهيم.

فها هو يوسف - أحد أبناء يعقوب - يرى الرؤيا التي يحدّث بها أبيه فقط:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: 4]

فما يكون من والده إلا أن يطلب من ولده أن لا يبوح بالخبر لإخوته، لأنّ النتيجة ستكون في نظره وخيمة إن هو فعل:

- ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: 5]

فهو يرى أن ولده هذا قد اجتباه ربه على جميع إخوته:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

وهنا نطرح جملة من التساؤلات التي ربما ستسبب مفارقات عن ما هو سائد من أفهام حول القصة:

- هل أخبر يوسف إخوته برؤياه وقد نهاه أبوه أن يفعل ذلك؟
لا أظن ذلك (فلقد نهاه أبوه عن فعل ذلك)

- هل أخبر يعقوب أولاده رؤيا أخيهم يوسف؟
لا أظن ذلك (فهو من نهى ابنه عن البوح بالخبر حتى لإخوته)

- كيف إذاً علم أبناء يعقوب خبر الرؤيا؟

لا أظن أنهم علموا خبر الرؤيا (فلا يوجد في النص القرآني دليل يثبت أنهم قد علموا خبر الرؤيا، فهم لم يناصبوا يوسف العداء بسبب الرؤيا، ولكنهم ناصبوه العداء لظنهم أن يوسف وأخيه أحب إلى أبيهم منهم، معتقدين أنهم عندما يطرحوا يوسف أرضا سيخلو لهم وجه أبيهم، أليس كذلك؟)

- هل منع ذلك أبناء يعقوب أن يكيدوا لأخيهم ما دام أن خبر الرؤيا لم يصلهم؟
كلا، لقد دبّ الخلاف (أي نزغ الشيطان) بينهم حتى دون علمهم بخبر الرؤيا.

- لكن لماذا؟ لماذا نشب الخلاف بين إخوة يوسف بالرغم أنه لم يصلهم خبر تلك الرؤيا؟
الجوال: إنه صراع الضرائر

الدليل:
لنرقب كيف قسم إخوة يوسف أنفسهم إلى فريقين:

- ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 7-8]

فالآية الكريمة تشير - بما لا يدع مجالاً للشك - أنّ أخوة يوسف يرون أنفسهم فريقين متنافسين، يخطب كل منهم ود أبيهم، فما يكون منهم (الفريق الأول) إلا أن يمكروا بيوسف لأنه (بالنسبة لهم) ليس منهم:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

نعم، هكذا كان صراع أبناء الأنبياء، يقسموا أنفسهم إلى فريقين حتى وإن كانوا جميعاً أبناء نبي واحد، وتكون تلك القسمة مبنيّة على نسبهم لأمهم، فأبناء الأم الواحدة يشكلون فريقاً (وربما نداً وخصماً) لأبناء الأم الأخرى.

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن يعقوب قد أخطأ يوم أن ظن أن سكوت يوسف على الرؤيا ستمنع عنه المكيدة من إخوته:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف: 5]

ولم يكن يعقوب – نحن نظن – سيمنع يوسف من البوح برؤياه لإخوته لولا يقينه من أن الظروف التي يمكن أن تسبب الفرقة بين أبنائه متوافرة، وهو يرى أن البوح بهذه الرؤيا سيزيد الطين بله، فلقد كان يعقوب

يطمع أن يبقى أبناؤه متجمعين (وهما فريقان في نسبهم لأمهم، فالأب واحد ولكن الأم مختلفة)، فلا يضطر أن يفعل ما فعل جده إبراهيم، ففعلة يعقوب هذه تدل على أن الرجل كان راغباً في أن **يُسْكِنَ** كل أبناءه نفس المكان، وأن لا يضطر أن يسكن بعضهم في بلاد غير البلاد التي يسكنها الآخر، فلا أظن أن يعقوب قد غفل عن ما فعل جده إبراهيم بأولاده يوم أن أسكن بعضهم بلاداً غير تلك التي يسكنها الآخر.

ولكن المفارقة تكمن في أن النتيجة كانت بالتأكيد على عكس ما تمنى يعقوب ورغب، فلقد قسم الأبناء أنفسهم إلى فريقين متناحرين، يكيد بعضهم للبعض الآخر، لأنهم ببساطة لا يشكلون كتلة واحدة مادام أنهم ليسوا جميعاً من أم واحدة، ففريق منهم ينتمي إلى واحدة من نساء يعقوب، والفريق الآخر ينتمي إلى أخرى، فيوسف وأخوه من أم تختلف عن أم أخوته الآخرين الذين كادوا له، فالخلاف لا محالة حاصل، ولكن لماذا؟ لماذا يكيد أبناء الأم الواحدة لأخوتهم من أبناء الأم الأخرى؟

الجواب: إنه ميراث النبوة

استراحة قصيرة: أين أم يوسف؟

سألني السيد خالد (أحد المهتمين بتخاريفي) عن أم يوسف مستغرباً:

- "أين والدة يوسف؟
- لم لا يذكر القرآن عنها شيئاً؟
- أليست الأم هي من ينفطر فؤادها على فراق ولدها؟ هل نسينا أم موسى يوم فارقها طفلها بوحي من الله؟ ألم تكن لتبدي به من شدة لهفتها على ابنها لولا أن الله قد ربط على قلبها؟
- لم حزن يعقوب على يوسف أكثر من حزن أمه عليه؟
- إذا كان يعقوب قد ابيضّت عيناه على فراق ولده من الحزن، فماذا حصل ببصر أم يوسف؟ هل لا زالت تبصر بمن حولها؟
- لم خاطب يوسف على الدوام والده حتى في غيابه؟ فهو على الأقل قد بعث بقميصه إلى أبيه، ألم يكن يملك (وهو الآن رب مصر وسيدها) أن يرسل إلى أمه (ولو) هدية بسيطة يعبر لها فيها عن حبه واشتياقه لها؟ ربما كان ينتظر عيد الأم ليفعل ذلك، من يدري!
- لم لا نجد خطاباً ليوسف يتحدث فيه عن أمه؟
- أليست هذه جميعاً أسئلة مشروعة؟" يظن صاحبنا.

رأينا: إننا نظن – يا سيد خالد – أنّ والدة يوسف لم تكن موجودة إطلاقا في خضم الأحداث كلها، لقد توفاها الله من ذي قبل.

ولكن "تمهل قليلاً"، يرد صاحبنا: "ألم يقل يوسف أنه قد رأى في منامه الشمس والقمر؟ ألا يدل ذلك على أمه وأبيه؟ ثم، ألم يؤوي يوسف إلى أبويه يوم أن دخلوا مصر؟ ألا يدل ذلك أيضاً على وجود أمه مع القوم الذين دخلوا أرض مصر؟ ألا ترى أنك تهذي يا رجل؟ ألا تكفيك كل هذه الأدلة التي ساقها الأقدمون للحديث عن أم يوسف وأبيه معاً؟"

رأينا: كلا وألف كلا، ذلك ما ظن المفسرون وكثير من علماءنا الأجلاء، ونحن نستميحهم العذر لنخالفهم الرأي مرة أخرى.

نظرة جديدة

غالباً ما فهم العامة (بسبب تفاسير معظم أهل العلم بالطبع) أن قصة الشمس والقمر اللذين ذكرا في قصة يوسف ربما تشير أن المقصود في الخطاب هما أمه وأبيه، أليس كذلك؟ ولكننا نحب أن نثير تساؤلاً بسيطاً جداً، وليعذرنا السادة القراء على سخافة سؤالنا:

السؤال: أيهما الأب وأيهما الأم؟ هل الأم هي الشمس أم القمر؟ وهل الأب هو الشمس أم القمر؟ فأيهما أيهما؟ نحن نرجوا سادتنا العلماء الذين استنبطوا أنّ الشمس والقمر هما أم يوسف وأبوه (أو العكس) أن يسعفونا بالتعرف على الأم والأب بشيء من التفصيل؟

أما نحن، فإننا نعتقد جازمين أن الشمس والقمر لم يكونا أم يوسف وأبوه، ولكن من هم إذاً؟

الجواب: في حين أن سادتنا العلماء (وهم ربما على حق) حملوا معنى "أبويه" التي وردت في قصة يوسف على أنها أمه وأبيه، نرى (ونحن بالتأكيد مخطئين) أننا نملك ما يشبه الدليل من كتاب الله على أن مفردة "أبويه" ربما تحمل معنى غير المعنى الذي ظنه من سبقنا، ولكن كيف؟

الفرق بين أَبَوَيْهِ و وَالِدَيْهِ في النص القرآني

رأينا: لم يميّز كثير من أهل العلم بالدقة المنشودة بين مفردتين متقاربتين في النص القرآني وهما: والديه وأبويه، فيوسف قد رفع على العرش أبويه ولم يرفع والديه، دقق – عزيزي القارئ – في النص جيداً:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

لا شك أن يوسف قد رفع على العرش شخصين بدليل أن مفردة أَبَوَيۡهِ تدل على المثنى، أليس كذلك؟ ولكن السؤال المطروح هنا هو: من هما هذان الشخصان؟ هل فعلاً كانا أمه وأباه؟ أم كانا شخصين آخرين؟

رأينا: إننا نرى أنه بالإضافة إلى أن معنى مفردة " أَبَوَيۡهِ " في النص القرآني يمكن أن يكون الأب (مذكر) والأم (مؤنث) كما ظن من سبقنا، يمكن كذلك أن تحمل المعنى بأن يكون الاثنان مذكر (أي أب وأب) وليس فقط مذكر مع مؤنث (أي أب وأم)، ولكن لماذا؟

نحن نظن أنه لو جاء النص القرآني على نحو أن يوسف قد رفع والديه على العرش، لربما سلمنا بصحة ما قاله مشايخنا وذلك لأن مفردة "والديه" – كما سنبين بعد قليل – لا تحمل في النص القرآني إلا على معنى الأب والأم معاً، ولكن لما كان يوسف قد رفع أبويه (وليس والديه) على العرش، ربما بقي لنا ما يمكن أن ندلوا بدلونا فيه.

الدليل:

عند دراستنا للسياقات القرآنية الكثيرة التالية وجدنا أن الحديث عن الأب والأم معاً غالباً ما ورد في النص القرآني بصيغة "الوالدين":

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: 83]
- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة:180]
- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: 215]
- ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء: 7]
- ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: 33]
- ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: 36]
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: 135]
- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: 151]
- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: 41]

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: 23]
- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: 19]
- ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: 28]

لذا، فإننا نرى أن الخلط جاء واضحاً عند كثير من أهل العلم بين مفردة أبويه عند الحديث عن يوسف:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 99-100]

مع مفردة أخرى في النص القرآني التي تتحدث بصريح اللفظ عن الأم والأب معاً وهي مفردة والديه، فها هو يحيى يتحدث عن والديه:

- ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: 12-14]

وكذلك جاءت الوصيّة من الله للإنسان خيراً بوالديه:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: 8]

ونهى الله الإنسان عن الإساءة إلى والديه:

- ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: 17]

وغالباً ما جاء الحديث عن الأم مفصلاً عند الحديث عن الوالدين:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:14]

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: 15]

فالأم هي والدة:

- ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٣﴾ [البقرة: 233]

لذا جاء حديث عيسى بن مريم عن والدته:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١١٠﴾ [المائدة: 110]
- ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢﴾ [مريم: 32]

والأب هو كذلك والد:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: 33]
- ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ٣﴾ [البلد: 3]

النتيجة: عندما تحدث يوسف عن من رفعهم على العرش، جاء حديثه عن أَبَوَيْهِ وليس عن وَالِدَيْه، أليس كذلك؟ لذا يصبح الظن عندنا يميل أكثر إلى الاعتقاد بأن يوسف قد رفع على العرش رجلين.

ولكن تمهل قليلاً- استوقفنا صاحبنا خالد قائلاً -: "إذا كان الأب والأم معاً هما في النص القرآني والدين، فأين الدليل على أن الأبوين يمكن أن يكونا شخصان من نفس الجنس (أي أب وأب)؟"

الجواب: لو استعرضنا ما قاله يعقوب نفسه لابنه يوسف يوم أنْ قص عليه الرؤيا، لربما وجدنا ما يثير الانتباه:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف: 6]

فيعقوب إذاً يتحدث مع يوسف عن إبراهيم وإسحق على أنهما أبويه "أَبَوَيۡكَ" (وليس والديه)، أليس كذلك؟

النتيجة: الأبوين يمكن أن يكونا رجلين وليس فقط رجل وامرأة

نحن لا نستثني أن يكون الأبوين رجل وامرأة ولكن هذا لا يمنع أن يكونا رجلين كما في حالة يوسف: كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ

السؤال: من هم أبواه اللذان رفعهما على العرش؟

الجواب: لا شك عندنا أن أحداهما كان يعقوب، أما الآخر فيمكن استنباطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف: 21]

نعم، لقد كان ليوسف في بلاد الشمس - موطنه الأصلي أب (وهو يعقوب)، وكان له في بلاد القمر – أرض مصر- أب آخر (وهو الذي اتخذه ولدا). فالمسافة بين أبيه في موطنه الأصلي (يعقوب) وأبيه في أرض مصر تمثلها المسافة بين الشمس والقمر في كبد السماء، فما أن تغيب الشمس حتى يظهر القمر.

> وسنرى لاحقاً أن هذا كان جزءاً من العقاب ليعقوب نفسه على ما أخطأ بحق أبناءه، فعندما اختص يعقوب احد أبناءه بمعاملة تميزه عن بقية إخواته حتى أصبح سلوك يعقوب ذاك واضحاً للقاصي والداني، ولم يعد إخفاءه ممكناً، فهو نفسه لم ينكر ذلك، كان ذلك سبباً في أن يكيدوا أخوة يوسف لأخيهم، لذا جاء العقاب – في نظرنا – ليعقوب النبي من نفس الفعل، لقد اشتغل قلب يعقوب بيوسف أكثر مما يجب على حساب إخوته، لذا نرى أن الله شطر حب الأب في قلب يوسف بين أبوين، وفي هذا حكمة عظيمة لكل أب، فلا يعطي حبه لأحد من أبناءه على حساب الآخرين لأن ذاك الأبن ربما يجد في قلبه متسعاً من المكان لأكثر من أب. ففي حين أن لهفة يعقوب على يوسف قد بدت على محياه، فضعف جسمه وابيضت عيناه من الحزن فأصبح كظيما، لا نجد ذلك عند يوسف بنفس

> الدرجة والمقدار. فلقد حملّ ألقى الفكر الإسلامي مسؤولية الخلاف الذي نشب بين يوسف واخوته على كاهل الأبناء ونسوا (وربما تناسوا) نصيب الأب في تلك المشكلة.

ولما دخل أبوه (الشمس) يعقوب أرض مصر لم ينسى يوسف أباه الذي أحسن إليه في أرض مصر واتخذه ولدا، فرفع أبويه على العرش، ولكن يوسف توجه بالخطاب إلى أبيه يعقوب الذي يعلم خبر الرؤيا من قبل بالقول:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

عودة على بدء

لم يكن قرار يعقوب السكوت على رؤيا يوسف ستمنع نشوب الخلاف بين أبناءه لرغبته في أنه يمكن أن يبقيهم مجتمعين معاً في أرض واحدة، فالخلاف على ميراث النبوة كان – كما سيظهر من شططنا لاحقاً – أكبر من قدرة الأبناء على التحمل، فهم بلا شك يعلمون أن ميراث النبوة سيكون من نصيب طرف على حساب طرف آخر، ولا شك أن جميعهم كان طامعاً أن يكون هو صاحب الحظ العظيم.

لقد حصلت الفرقة بين أبناء يعقوب (وإن لم يكن باختياره) عندما كانوا متجمعين في مكان واحد، فتفرق الجمع، ليسكن كل طرف منهم بلاداً غير تلك التي يسكنها الآخر، وكانت النبوة من نصيب طرف واحد منهم دون الطرف الآخر، لدرجة أن أبناء يعقوب أنفسهم اضطروا في لحظة ما أن يعترف بعضهم بأفضلية الآخر عليه:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: 91]

السؤال: ما دام أنهم جميعاً أبناء نبي واحد، لِمَ يؤثر الله بعضهم على بعض، كما ظنوا؟

إن هذا السؤال يعيدنا على الفور للحديث عن أبناء إبراهيم إسماعيل وإسحق لنطرح التساؤل التالي: هل أضطر أحد أبناء إبراهيم أن يقر بفضل أخيه عليه؟ هل اضطر إسماعيل للاعتراف بفضل إسحق عليه؟ أو بالمقابل، هل اضطر إسحق للاعتراف بفضل إسماعيل عليه؟

الجواب: كلا

السؤال: لماذا؟ لماذا لا نستطيع نحن المسلمين (لا بل من غير المفترض) أن نفضل أحد أبناء إبراهيم (إسماعيل أو إسحق) على الآخر في حين أننا لا نختلف في الوقت ذاته بفضل يوسف على إخوته؟

الجواب: كان ذلك جزءاً من حجة إبراهيم التي آتاه الله إياها، ولا تخفى على أحد، لقد تمكن إبراهيم بحكمته أن يمنع وقوع المكيدة بين أبناءه، لا بل واستطاع –كما سنرى لاحقاً– أن يثبت الفضل لهم جميعاً، فلا إيثار لأحدهما على الآخر، فكان إسحق نبياً من الصالحين كما كان إسماعيل نبياً من الصالحين. فتحقق هدف إبراهيم المعلن من إسكانه جزءاً من ذريته بواد غير ذي زرع وهو إقامة الصلاة:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وهنا قد يبادرنا البعض بالسؤال: كيف حافظ إبراهيم على بيته بتلك الطريقة كما تزعم؟

رأينا: إننا نظن أن الجواب يكمن في مفردة واحدة وهي كلمة "البيت"، ولكن كيف؟

لقد أصاب الوهنُ بيتَ إبراهيم، فقام إبراهيم على الفور بإنقاذ بيته بأن أنشأ بيتاً جديداً غير البيت الذي كان أهله يسكنوه معاً.

لإبراهيم بيتان بدلاً من بيت واحد

لنقرأ النص القرآني التالي:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 71-73]

لا شك عندنا أن هذا الحوار حصل في بيت إبراهيم الأول الذي كانت يسكنه إبراهيم مع نساءه سارة وهاجر، وقد تحدثنا أن الملائكة قد نزلت ببيت سارة، فهي التي كانت قائمة، وهي التي ضحكت، وهي التي جاءتها البشرى بالذرية، فحتى تلك اللحظة كان لإبراهيم بيت واحد، يسكنه مع نسائه وما تحصل له من ذرية حتى تلك اللحظة، ولكن إبراهيم آثر بعد أن تحصلت له ذرية جديدة من امرأته الأولى أن يأخذ جزء من أهل ذلك البيت (امرأته الثانية مع طفلها إسماعيل) ليسكنهم في واد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، وما هي إلا سنوات حتى يشتد ساعد ولده إسماعيل حتى يبدأ إبراهيم مع ولده إسماعيل برفع القواعد من البيت:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

فيصبح لإبراهيم بيتان: بيته القديم (في الأرض التي باركنا فيها) الذي لازال مكان سكن زوجته الأولى سارة مع ولدها إسحق، وبيت جديد (عند بيت الله الحرام) يسكنه ابنه إسماعيل مع أمه هاجر.

نتيجة: لقد قسم إبراهيم ذريته إلى نصفين، وأسكن كل قسم منهم في مكان غير المكان الذي يسكنه الآخر، ولكن لماذا فعل ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: لو لم يفعل إبراهيم ذلك – نحن نفتري – لطغى قسم منهم على الآخر كما كان الحال بالنسبة لذرية يعقوب، ولأصبح بيت إبراهيم الأول ليس أكثر من مسكن ولن يكون بيتاً. إن إنشاء البيت – في رأينا – يعني تحقيق الاستقلالية لكل طرف عن الطرف الآخر. لم يكن إبراهيم يريد أن يتحول بيته إلى مسكن.

استراحة قصيرة: ما الفرق بين البيت والمسكن في النص القرآني؟

سنحاول أن ندافع عن الافتراء التالي الذي هو من عند أنفسنا: يمكن ادعاء ملكية البيت ولكن لا يمكن إدعاء ملكية السكن.

الدليل:

جاء في القرآن الكريم عند الحديث عن النحل:

- ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: 68]

بينما جاء الحديث عن النمل على النحو التالي:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾ [النمل: 18]

وهنا نتوقف لنطرح السؤال التقليدي المعهود عن التناوب في استخدام المفردات بالقول: لماذا تتخذ النحل بيوتاً بينما تدخل النمل المساكن؟ ما الفرق بين البيت (كما في حالة النحل) والمسكن (كما في حالة النمل)؟

رأينا: إننا نظن أن البيت هو المكان الذي تنشئه بنفسك ولا يأخذه أحد غيرك، في حين أن المسكن قد لا تكون أنت من شيدته بيديك، وربما تشيده بيديك ولكن قد تؤول ملكيته بعد فترة من الزمن إلى غيرك.

الدليل:

ما هو البيت؟

مما لا شك لدينا أن العنكبوت هي من تنسج بيتها بيدها، فلا تسكن في مكان شيّده غيرها:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [العنكبوت: 41]

وها هم القوم ينحتون بيوتهم بأيديهم:

- ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: 74]
- ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ [الحجر: 84]

ولا شك لدينا أن امرأة فرعون ستسكن في بيت بالجنة لن يكون من نصيب غيرها إطلاقاً:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]

فالبيت ملكية خاصة لا حق للآخرين فيه، فقد نهى الله أن يدخل أحد بيتاً غير بيته دون إذن صاحبها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور: 27]

إلا تحت ظرف واحد وهو أن تكون تلك البيوت غير مسكونة (ليس لأحد الحق في ملكيتها):

- ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ [النور:29]

ونحن نظن أن السبب في ذلك هو أن ملكية البيت تعود للمرأة، فصحيح أن النبي هو شخص واحد لكن كان للنبي أكثر من بيت، فقد كان عدد بيوته بعدد زوجاته:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب: 53]
- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: 32-34]

فالنبي -لا شك- هو شريك في كل هذه البيوت، ولكن ليس لأحد من نساءه الحق في بيت ضرائرها، ويقتصر حقها في البيت الذي تسكن هي فيه.

وقد أثبت الله في كتابه الكريم حق ملكية البيت للمرأة (كما هو لزوجها):

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق: 1]

ما هو المسكن؟

ولكن بالمقابل، عندما سكن آدم وزوجه الجنة، لم يكونوا هم من شيدوا المكان، ولم يحتفظوا بملكيته، فقد جاءت اللحظة التي خسروا فيها المكان:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة:35]

وقد يسكن قوم الأرض من بعد قوم آخرين:

- ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: 14]
- ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ٤٥﴾ [إبراهيم:45]
- ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ [الإسراء: 104]

لذا نفهم أن هذه المكرمة الإلهية لبني إسرائيل لم تكن حقاً مشروعاً إلى الأبد، فالله لم يتخذ تلك الأرض **بيتاً** لبني إسرائيل (حتى يكون ملكية خاصة لبني إسرائيل فلا يحق لأحد غيرهم ادعاء ملكيتها كما يظنون)، وإنما اتخذها مسكناً لهم، تتبدل الأقوام التي تسكنه، لذا لم يغلق الله الباب أمام غيرهم ليتخذوا تلك الأرض مسكناً فترة من الزمن. فتلك الأرض جعلها الله ميراث لعباده الصالحين (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان ماذا كتب في الزبور؟)

وبهذا يمكن أن نفهم أن أهل الجنة هم على الدوام في حالة تغيير للمكان الذي سيسكنون فيه، فلن يستقروا على الدوام في مكان واحد:

- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التوبة: 72]

- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: 12]

وها هم نفر من بني إسرائيل يسكنون قرية لم يشيدوها بأيديهم:

- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: 160-162]

وقد يفنى أهل المكان ويبقى سكنهم قائما:

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: 58]
- ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: 128]
- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: 38]
- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: 26]

والسكن (على عكس البيت الذي يمثله بيت العنكبوت الذي يتصف بالوهن) ربما يتصف بالقوة والمتانة:

- ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: 25]

والرجل قد يسكن إلى أكثر من زوجة:

- ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: 189]

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21]
- ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الطلاق: 6]

فالليل لا شك هو سكن لأنه لا يدوم:

- ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: 96]
- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل: 86]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: 61]

والمطر الذي ينزل من السماء قد يسكن الأرض (فترة من الزمن):

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: 18]

نتيجة: لقد اثبت الله أن للنحل بيتا لأن ذلك البيت هو ملكية خاصة من صنع النحل أنفسهم، فلا تسكن النحل في بيت لا تصنعه بنفسها، ولا تسكن على أنقاض الآخرين، ولا يصلح لأن يسكن به الآخرين إن هي هجرته، ولا شك أن النحل الذي يسكن ذلك البيت هو من نصيب الإناث، فذكور النحل ليسوا من سكانه الأصليين، فهم موجودون لحاجة في ذلك البيت، وما أن تنقضي الحاجة إليهم حتى يتم التخلص منهم. والبيت غالباً ما يكون عرضة للتفكك لأن البيت غالباً ما يكون ضعيفاً قد لا يستطيع أن يصمد أمام الشدائد.

أما النمل بالمقابل فهو يتواجد في مساكن لأن النمل – نحن نظن – لا يصنعوا ذلك المسكن بأنفسهم، فربما يسكنون فيه على أنقاض غيرهم، وربما يهجروه وينتقلوا منه إلى مكان آخر، فيأتي من يتخذه سكناً جديداً، وذلك لأن المسكن يتصف بالقوة، فقد يقارع الخطوب (كما قارع مسكن النمل جند سليمان)، وكما تحملت مساكن الأقوام العذاب الذي نزل بسكانها ولكنها بقيت قائمة من بعدهم، فأورثها الله قوماً آخرين.

إبراهيم والعنكبوت والنحل والنمل

هل أنشأ إبراهيم سكناً أم بيتاً؟

الجواب: بيتاً

رأينا: لا شك أن أهم صفة يمكن أن تطلق على عائلة إبراهيم أنهم أهل البيت، ولكن ماذا حلّ بذاك البيت؟

لقد كان لإبراهيم بيت أصابه الوهن بسبب الخلاف الذي نشب بين نسائه، فانقسم البيت الواحد إلى بيتين، وبالرغم أنّ إبراهيم كان شريكاً في كلا البيتين، إلا أن القسمة كانت مبنية على أساس ملكية الزوجة، فلا حق لسارة ببيت هاجر ولا حق لهاجر ببيت سارة.

لماذا سمح إبراهيم بهذا الانقسام؟

الجواب: لقد سمح إبراهيم بذلك ليتم له تقسيم ميراث النبوة بالعدل بين أبناءه، ولكن كيف؟
للإجابة على هذا التساؤل لابد من أن نستجلي الصورة في قضايا متشابكة كثيرة نتناولها من خلال طرح الأسئلة التالية:

لماذا تورّث النبوة؟

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: 26]

لماذا استمرت النبوة في بيت إسحق وانقطعت من بيت إسماعيل؟

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]

لماذا كان الذبح من نصيب إسماعيل؟

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

كيف كان إبراهيم أمة؟

- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: 120]

لماذا دعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً من أنفسهم ولم يفعل ذلك لإسحق؟

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: 127-129]

ونحن نملك اليقين أن الإجابة على مثل هذه التساؤلات ستفضي بنا للحديث عن قضايا قد تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن صلب الموضوع، لكننا نرى أنها كانت نتائج حتمية لهذه الحوادث التاريخية الحاسمة، نذكر منها:

لماذا حصلت رحلة الإسراء إلى بيت المقدس (ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا) على وجه التحديد؟

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

لماذا لم يكن محمد راض كل الرضا عن القبلة التي هو عليها؟ ولماذا تقبل الله تقلب وجه محمد بالسماء فغير القبلة إلى الجهة التي يرضاها محمد؟

- ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة: 144]

كيف تصرف محمد في حادثة الإفك؟ ولماذا كانت حادثة الإفك خيراً لبيت محمد وللمؤمنين ولم تكن شراً لهم:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

لماذا انقطعت النبوة مع نهاية رسالة محمد، فكان محمد خاتم النبيين؟

- ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾ [الأحزاب: 40]

هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيقه في الجزء السادس من هذا الكتاب.

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء السادس)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (6)؟

انتهى الجزء السابق من كتابنا هذا عند زعمنا بأنّ بيت إبراهيم قد أصابه الوهن بسبب الخلاف الذي نشب بين نسائه، ولمّا كان إبراهيم يريد أن يحافظ على بيته، تصرف كالنحلة التي تنشئ بيتاً جديداً، فتقوم بترك جزء منها في الخلية الأولى، وتأخذ جزءاً ليكون نواة بيت جديد، فينقسم بذلك البيت الواحد إلى بيتين، وبالرغم أنّ إبراهيم كان شريكاً في كلا البيتين، إلا أنّ القسمة كانت مبنية على أساس ملكية الزوجة، فلا حق لسارة ببيت هاجر، ولا حق لهاجر ببيت سارة. وقد انتهى كلامنا في ذلك الجزء بطرح جملة من التساؤلات التي زعمنا أنها يمكن أن تسعفنا في الإجابة على سؤال جوهري وهو: **لماذا سمح إبراهيم بهذا الانقسام؟**

وقد تمثل جوابنا على ذلك السؤال بالافتراء التالي الذي هو – بلا شك – من عند أنفسنا: لقد سمح إبراهيم بذلك الانقسام لبيته ليتم له تقسيم ميراث النبوة بالعدل بين أبناءه. وكانت التساؤلات التي طرحت تشمل:

- لماذا تورّث النبوة؟

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦﴾ [الحديد: 26]

- لماذا استمرت النبوة في بيت إسحق وانقطعت من بيت إسماعيل؟

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

- لماذا كان الذبح من نصيب إسماعيل؟

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

- كيف كان إبراهيم أمة؟

- ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: 120]

- لماذا دعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث الله فيهم رسولاً من أنفسهم ولم يفعل ذلك لإسحق؟

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ [البقرة: 127-129]

وزعمنا أنّ الإجابة على مثل هذه التساؤلات ستفضي بنا للحديث عن قضايا قد تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن صلب الموضوع، لكننا نرى أنها كانت نتائج حتمية لهذه الحوادث التاريخية الحاسمة، نذكر منها:

- لماذا حصلت رحلة الإسراء إلى بيت المقدس (ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا) على وجه التحديد؟

• ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

- لماذا لم يكن محمد راض كل الرضا عن القبلة التي هو عليها؟ ولماذا تقبّل الله تقلّب وجه محمد في السماء فغيّر القبلة إلى الجهة التي يرضاها محمد؟

• ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: 144]

- كيف تصرف محمد في حادثة الإفك؟ ولماذا كانت حادثة الإفك خيراً لبيت محمد وللمؤمنين ولم تكن شراً لهم؟

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: 11]

- لماذا انقطعت النبوة مع نهاية رسالة محمد، فكان محمد خاتم النبيين؟

• ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: 40]

أما بعد،

لقد حاولنا في الجزء السابق تفصيل الفرق بين مفردة البيت (كما في حالة إبراهيم والنحل والعنكبوت) ومفردة المسكن (كما في حالة النمل) في النص القرآني، وزعمنا الفهم بأن البيت هو ملكية خاصة لا حق للآخرين فيه، بينما لا يعدو المسكن أن يكون أكثر من مكان للاستقرار فترة من الزمن تؤول في نهاية المطاف ملكيته للآخرين (للتفصيل انظر الجزء السابق).

ولا يفوتنا أن نذكّر هنا أن المهم في البيت هو عنصر الألفة والتوافق، فمتى فُقِد هذا الجانب، أصبح البيت – لا محالة – عرضة للوهن وبالتالي الدمار والانتهاء، وتكمن الحكمة في أنّ إنقاذ البيت يكون في هذه الحالة بالقسمة التي تزيل أسباب الخلاف، وهو ما فعل إبراهيم عليه السلام، فقد أنقذ إبراهيم بيته عندما أقدم على قسمته إلى بيتين أثنين، يكون لكل طرف حق في ملكيته، وسنرى لاحقاً بأن إبراهيم – على عكس يعقوب – استطاع بذلك ضمان استمرارية تلك البيوت، فبيت إبراهيم لم ينتهي حتى اللحظة، لكن بيت يعقوب لا شك لم يستطع الصمود، وذلك لأن يعقوب لم يعمل – في نظرنا – على فض الخلاف بين أبناءه بالطريقة التي سلكها جده إبراهيم، ونحن نرى أنّ ما كان يشغل فكر إبراهيم هو البيت نفسه، بينما كان المسكن فقط هو الشغل الشاغل ليعقوب، وبكلمات أخرى ربما يمكننا القول أنه في حين أن إبراهيم كان يهتم بالجوهر كان أكثر ما يهم يعقوب هو الشكل الخارجي، فلما كان يعقوب يريد أن يبقي أبناءه كتلة واحدة، لم يلتفت كثيراً إلى التفكير بفض الخلاف الحاصل بينهم، وآثر السكوت عليه، ونحن نجد أن فكرة شكل البيت (وليس محتواه) كانت هي الفكرة المسيطرة على تفكير يعقوب، فهو لم يتخلى عن ذلك حتى بعد ضياع ولده الأول (واحتمالية ضياع الآخر) وكان ذلك عندما طلب من أبناءه أن لا يدخلوا أرض مصر من باب واحد:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦٨﴾ [يوسف: 67-68]

لاحظ – عزيزي القارئ – كيف أنّ يعقوب كان دائم التفكر بالشكل الخارجي الذي لا يخفى على الناس بمجرد النظر إليه، فهو يريد الحفاظ على ذلك الشكل (تجمع هائل من الأبناء)، فكانت تلك حاجة في نفس يعقوب، فعِلْمُ يعقوب قد انحصر في الحفاظ على كينونة الشكل الخارجي لتجمع أبناءه حتى لو كان ذلك التجمع يخفي في ثناياه الكثير من المشاكل.

ولكن – بالمقابل – كان البيت (وليس المسكن) هو الشغل الشاغل لإبراهيم، فاشتغل بحل المشكلة، ولم يكتفي بالتستر أو السكوت عليها، فكانت طريقته تقضي بأن يقسم البيت الواحد إلى بيتين مستقلين، فترك الخلية الأولى قائمة في مكانها، فكان ذلك من نصيب المرأة الأولى التي كانت قائمة مع ابنها إسحق:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]

وأخذ جزءً من تلك الخلية ليسكنها في ذاك الواد غير ذي الزرع عند بيت الله الحرام، وكان ذلك من نصيب المرأة الثانية التي كانت مقبلة تحمل صرتها وابنها إسماعيل:

- ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩﴾ [الذاريات: 29]

وهنا نتوقف لنطرح سؤالين اثنين وهما:

1. لم كان الرحيل من نصيب إسماعيل وأمه هاجر؟
2. لماذا اختار إبراهيم ذلك الموقع الجغرافي على وجه التحديد؟

لماذا كان الرحيل من نصيب هاجر وإسماعيل؟

إننا نظن أن هاجر وابنها إسماعيل قد رحلا مع إبراهيم إلى ذلك الواد غير ذي الزرع عند بيت الله الحرام لأسباب عدة نذكر منها:

1. هاجر هي من طلبت الرحيل: ربما نستطيع الافتراء بأن هاجر لم تكن قادرة على مقارعة سارة، فهاجر لازالت شابة تنقصها الخبرة، ولم تكن تعلم حتى اللحظة كيف تتعامل مع نبي الله إبراهيم بالطريقة التي خبرتها العجوز سارة، فلقد قضت سارة من عمرها سنين طوال في صحبة نبي الله إبراهيم، وهي لا شك تعلم تمام العلم قدر هذا النبي الجليل، فكانت حاذقة ماهرة في كيفية تدبير أمرها، ولكننا نرى أن الخبرة والمعرفة لم تكن كافية عند ضرتها هاجر، فهي لا زالت غير قادرة على التصرف بحكمة، ولا نرى دليلاً على "رعونة" – إنْ صحّ القول – هاجر أكثر مما قالت في حضرة رسل الله يوم جاءوا مبشرين المرأة الأولى بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات: 26-30]

فها هو إبراهيم يقدم الوليمة لضيوفه، فتقبل هاجر حاملة صرتها، وما يكون منها إلا أن تصك وجهها، فلا تبد علامات الانبساط والفرح حتى على الأقل بضيوف زوجها " فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا "، ولم تتوقف عند ذلك، فما يكون منها إلا أن تبادر ضرتها بالكلام المؤذي في حضرة بعلها و ضيوفه من رسل الله " وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ". وهذا ما جعلنا نزعم القول أنّ المرأة لم تكن تتقن فن التعامل مع الآخرين، فهي لازالت على بداوتها وفطرتها، اللتان لا تنمان عن كثير ذكاء وحنكة ودهاء، ولكن – بالمقابل – نجد الزوجة الأولى سارة في الوقت نفسه (وقت تقديم الوليمة) كانت قائمة (ربما على خدمة ضيوف زوجها) مبدية أمارات الانبساط:

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 70-71]

فالقارئ الكريم مدعو إلى تخيل ردة الفعل الذي يمكن أن يسببه تصرف كل واحده من هذه النسوة في تلك اللحظة عند الحاضرين (ناهيك عن ردة فعل الزوج إبراهيم)، إحداهما قائمة ضاحكة والأخرى عابسة شاتمة!

2. سارة تأخذ البشرى من الملائكة ليس فقط بإسحق وإنما بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب: إنّ أبسط ما يمكن أن نستنبطه من هذا هو الضمانة باستمرار الذرية في بيت سارة، فلقد ضربت سارة بذلك جذوراً لها في الأرض لم يعد الرحيل منها ممكنا، بينما لا نجد مثل هذه الضمانة في حالة إسماعيل، فلا نجد تأكيداً ربانياً على لسان رسل الله بوراثة الأرض من بعد إسماعيل، ففي حين أن ذرية النبوة قد امتدت في سلالة إسحق انقطعت في ذرية إسماعيل، وهو ما يمكن أن نستشعره من ذكر إسحق ويعقوب على وجه التحديد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]

> إن أبسط ما يمكن أن نفهمه من وجود هذه الآية في سورة العنكبوت هو القول بأن ذرية سارة (إسحق ويعقوب) قد امتدت وتشعبت وتشابكت كخيوط العنكبوت، لذا كثر عدد رسل بني إسرائيل حتى فاق ما جاءهم من الرسل ما جاء غيرهم من الأمم.

3. هاجر لا زالت شابة تستطيع تحمل مشاق الرحلة: لقد تحثنا سابقاً عن الفرق العمري بين نساء إبراهيم، ففي حين أن سارة كانت (وعلى لسانها) عجوز، كانت هاجر لا تزال فتية قادرة على تحمل مشاق السفر وقسوة المنطقة التي سيسكن إبراهيم من ذريته فيها (ولا ننسى ما ردده أهل الفكر حول سعيها بنشاط بين الصفا والمروة باحثة عن الماء لطفلها بعد أن تركهم إبراهيم في ذاك الواد لوحدهم)، فلا أخال أن إبراهيم سيختار سارة للرحيل وهي غير قادرة أصلاً على ذلك.
4. إسماعيل كان أكبر سناً من إسحق: ولما كان إسماعيل أكبر سناً من إسحق، كان من المنطقي أن يترك إبراهيم الغلام الأصغر مع أمه العجوز، ويهاجر بالغلام الأكبر مع أمه الشابة.
5. شرف الرسالة: أما السبب الأكثر وجاهة على هذا الاختيار من قبل نبي الله إبراهيم فيكمن - في رأينا - في الظفر بشرف الرسالة، ولكن كيف؟

إسماعيل يحمل شرف الرسالة

عند تدبرنا للسياقات القرآنية الخاصة بإسماعيل وتلك الخاصة بأخيه الأصغر إسحق وجدنا الآيات الكريمة التالية التي ستستوقفنا بعضاً من الوقت:

⇐ إسماعيل:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: 54]

⇐ إسحق ويعقوب:

- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: 112]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]

النتيجة: تؤكد الآيات الكريمة أن إسماعيل كان رسولا نبيا، بينما كان إسحق نبياً فقط ولم يكن رسولا.

تبعات هذه الحقيقة القرآنية

لا شك عندنا أن الله يتحدث في كتابه الكريم عن (1) من كان نبيا، و(2) من كان رسولا نبيا. وقد حاولنا الخوض في هذه التقسيمات الإلهية وخرجنا بالاستنباط التالي: **الرسالة اصطفاء والنبوة ميراث**.

نتيجة: الرسالة اصطفاء والنبوة ميراث

إننا نزعم الفهم أن الله يصطفي بعض أنبياءه ليكونوا رسلاً:

- ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: 75]

وتنحصر مهمة الآخرين في أن يكونوا أنبياء فقط من ذرية من سبقوهم من الأنبياء والرسل:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 33-34]

فكل أنبياء الله ورسله هم ذرية بعضها من بعض، لذا فنحن نظن أنه يمكن تقسيم أنبياء الله إلى قسمين رئيسيين:

⇐ أنبياء مبشرين منذرين (وهم الرسل الذين ورثوا النبوة وحملوا الرسالة)، و
⇐ أنبياء غير مكلفين بذلك (وهم الأنبياء ورثة النبوة فقط)، ويمكن أن نستشعر ذلك في قوله تعالى:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213]

وقد انحصر اصطفاء الله في أربعة لتكون النبوة وراثة في ذريتهم:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 33-34]

فأنبياء الله جميعاً كانوا من تلك السلالة الطاهرة. ولكن لم يكن كل نبي من تلك الذرية يحمل شرف تبليغ الرسالة، فشرف الرسالة حملها بعض من أنبياء الله فكانوا أنبياء رسلا، ولم يحملها البعض الآخر فكانوا أنبياء فقط.

وعند إسقاط هذا الاستنباط على حالة إسماعيل وإسحق وهما ولدا إبراهيم، نستطيع القول أنه في حين أن إسماعيل كان نبياً (من تلك الذرية) وكان أيضاً رسولاً، بينما لم يكن إسحق أكثر من نبي (من تلك الذرية) ولم يحمل شرف تبليغ الرسالة. وسنرى لاحقاً أن إبراهيم قد اختار أن يذهب بإسماعيل إلى ذلك الواد غير ذي الزرع ليس عقاباً له ولأمه وتفضيلاً لإسحق وأمه (كما قد يبدو للوهلة الأولى وكما روجت له بعض الشرائع التي أصابها التحريف)، ولكن من أجل شرف إضافي أختص به الأب إبراهيم ابنه الأكبر إسماعيل – إنه شرف الرسالة، فكان إسماعيل رسولاً نبيا:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [مريم: 54]

ولمّا ترك إبراهيمُ ابنه الأصغر إسحق مع أمه في نفس المكان الذي يسكنه قوم إبراهيم أنفسهم لم يكن إسحق ليحظى بشرف الرسالة كما حظي بشرف النبوة، فكان إسحق نبياً ولم يكن رسولا:

- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]

ولكن قبل الخوض بتفصيلات هذا الظن، لابد من أن نعرج أولاً على سؤال ربما يؤرق الكثيرين وهو: هل فعلاً النبوة ميراث؟

ميراث النبوة

لنبدأ النقاش في هذا الجزء طارحين السؤال المثير التالي: هل النبوة ميراث؟

الجواب: نعم، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 33-34]

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: 26]

وقد تحدّث الله عن وراثة الأنبياء بعضهم بعضاً بصريح اللفظ في أكثر من موطن، فها هو سليمان يرث والده داوود:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

وها هو زكريا يطلب من الله ذرية من الذكور ليرثه:

- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 6]

ونحن لا نفهم كيف يمكن التوفيق بين هذه الحقيقة القرآنية بأن الانبياء يرثون بعضهم بعضاً، وما تناقله بعض أهل الحديث في حديث آحاد مرو عن أبي بكر لقول منسوب إلى النبي: نحن معشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وكيف استغل المروجون للفرقة بين المسلمين هذا الحديث لاثبات وجود صراع بين فاطمة (بنت الرسول) مع أبي بكر الصديق (صاحب رسول الله وخليفته الأول). إن ما يهمنا هو الاستفسار عن حقيقة أن يقول النبي مثل هذا الكلام وهو يقرأ على الناس صباح مساء ما قاله زكريا أو ما قال الله بحق سليمان وداوود، وما يعلمه من تسلسل النبوة في بيت إبراهيم! لم يكن من أهل العلم إلا التحايل على ذلك بالتفسيرات المجازية التي يتخيلونها، فحاولوا تفسير معنى الوراثة بالطريقة التي يريدون، لكن تبقى الحقيقة البسيطة وهي أن الرسول محمد يستخدم – إن صح حديثهم- نفس اللفظ الذي ورد في كتاب الله وهو مفردت الوراثة. لقد كان الأولى تغير اللفظ لو كان الرسول يقصد غير المعنى الذي تحمله المفردة نفسها.

السؤال:

- لماذا يكون ابن النبي نبيا؟
- لم كان إبراهيم وولداه إسماعيل وإسحق وحفيده يعقوب ومن وراءه يوسف جميعاً أنبياء الله من عائلة واحدة في الوقت الذي كانت تمر فترات تاريخية طويلة لا يصل خبر السماء إلى الأرض عن طريق نبي؟
- لماذا كان ولد داوود سليمان نبيا كوالده؟
- لماذا كان يحيى ولد زكريا نبيا كأبيه؟
- ونحن نتحدى أن يكون هناك ولد يذكر أسمه بالقرآن على أنه ابن نبي ولا يكون نبيا مثل والده (باستثناء ابن نوح، بالطبع)؟

النتيجة: من كان ولد نبي فهو نبي بلا شك.

ولكن هناك عدة ملاحظات يجب إثارتها حول زعمنا هذا نذكر منها:

1. لماذا لم يكن ابن نوح نبياً كأبيه كما كان في حالة إبراهيم أو إسحق أو يعقوب أو داوود أو زكريا؟
2. لماذا لم يكن ليوسف ولد يرث النبوة؟
3. لماذا لم يكن لسليمان ولد يرث النبوة؟
4. لماذا لم يكن ليحيى ولد يرث النبوة؟
5. لماذا لم يكن للوط ولد يرث النبوة منه؟ وهكذا.
6. لماذا كان كل أبناء إبراهيم (إسماعيل وإسحق) أنبياء؟
7. لماذا كان يوسف فقط نبيا من ذرية يعقوب ولم يكن إخوته أنبياء كما كان الحال بالنسبة لأبناء إبراهيم (إسماعيل وإسحق)؟
8. باختصار، لماذا كانت النبوة تستمر فترة من الزمن ثم تنقطع طويلاً؟

افتراءات من عند أنفسنا

1. النبوة ميراث: إن النبوة هي ميراث الأبناء من الآباء، أي حق للأبناء يكتسبوه من آباءهم، وربما يصدق ظننا هذا مشاهدتان وهما:

أ. لا نجد في كتاب الله ذكراً لابن نبي إلا وكان نبياً كأبيه، باستثناء ابن نوح، ولكن يمكن حل هذه القضية بسهوله لو تدبرنا الحوار الذي ابتدأه نوح حول ابنه مع ربه، فلقد نادى نوح ربه قائلاً:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45]

فجاء رد ربه على النحو التالي:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]

لذا، يستحيل أن يرث ابن نوح النبوة من نوح مادام أنه ليس من أهله، فلقد تحدثنا مراراً عن خيانة امرأة نوح لنوحٍ بفرجها، وكان ذلك الولد هو نتاج تلك الخيانة (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة)

النتيجة: عندما يذكر القرآن أن للنبي ولد، يكون ذلك الابن نبياً كأبيه كما في حالة إبراهيم (ولداه إسماعيل وإسحق) و إسحق (ولده يعقوب) ويعقوب (ولده يوسف) وداوود (ولده سليمان) وزكريا (ولده يحيى)، فقد كان لجميع هؤلاء الأنبياء ذرية ورثت عنهم النبوة.

ب. لا نجد ذكراً لتسلسل الأنبياء إلا لحظة أن يكون الوالد (الأب) نبي، فليس هناك نبي بعد يوسف أو بعد سليمان أو بعد يحيى أو حتى بعد محمد، فما أن تنقطع ذرية النبوة حتى تكون هناك حاجة لرسول وليس لنبي (وسنأتي على تفصيل هذه القضية لاحقاً)، فلقد جاء نوح رسولاً لأنه لم يرثها مباشرة من والده، وجاء إبراهيم رسولاً لأنه لم يرثها مباشرة من والده، وجاء موسى وهارون (رسولا رب العالمين إلى فرعون) جاءوا بعد انقطاع في بيت النبوة، وجاء عيسى بعد انقطاع في ذلك البيت، وجاء محمد رسولاً بعد انقطاع في بيت النبوة. وبالمقابل فربما يمكننا القول أن كل أنبياء الله (الذين لم يكونوا رسلاً) جاءوا امتدادا مباشراً لبيت النبوة (وسنناقش حالة إسماعيل ويوسف بشيء من التفصيل بعد قليل).

2. النبوة ميراث مكتسب للذكور دون الإناث

فالنبوة حق مكتسب للذكور من ذرية الأنبياء دون الإناث، فالنبوة لا تورّث للبنات، وإنما هي حق مكتسب لكل نبي كان في ذريته الذكور، فليس هناك نبي ورثت أحدى بناته النبوة عن والدها، فشعيب كانت ذريته كلها من الإناث (على فكرة شعيب كان له بنات كثيرات) ، لكن لم ترث أي منهن النبوة عن أبيها، وكذلك كان الحال بالنسبة للوط ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام، فلا نجد امتداداً للنبوة بعد هؤلاء الأنبياء،

> ربما يفسر مثل هذا الزعم لم طلب زكريا من ربه ذرية من الذكور على وجه التحديد:
>
> - ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 5-6]
>
> نستطيع أن نفهم أن لشعيب ذرية كثيرة من البنات من قوله تعالى:
>
> - ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: 27]

كيف يتم توريث النبوة للذكور من ذرية الأنبياء؟

بعد تدبر السياقات القرآنية وجدنا أنّ أغلب الأنبياء الذين انتقلت النبوة منهم إلى أبنائهم كان لهم ولد واحد

> باستثناء حالتي إبراهيم ويعقوب، فإبراهيم كان له ولدان (إسماعيل وإسحق فكان كلاهما نبيا) بينما كان ليعقوب عدد كبير من الأبناء فاقتصرت النبوة في واحد منهم وهو يوسف، وسنتحدث عنهم لاحقاً بشيء من التفصيل.

كما في الشكل التالي:

إسحق	يعقوب
داوود	سليمان
زكريا	يحيى

بينما لا نجد امتداداً لبيت النبوة في من لم يكن في ذريته الذكور من الأبناء كما في الشكل التالي:

إدريس
يونس
هود
إسماعيل
يوسف
صالح
شعيب
موسى
سليمان
يحيى

هارون
أيوب
عيسى
إلياس
اليسع
ذو الكفل
محمد

كيف تعود النبوة للظهور بعد انقطاع؟

بعد تدبر السياقات القرآنية وجدنا أن النبوة لا تعود في الظهور من بعد انقطاع إلا بالرسالة، فمتى انقطعت النبوة من بيت النبي أصبحت عودة النبوة للظهور مرة أخرى تتطلب أن يصطفي الله بنفسه نبياً رسولا (وليس فقط نبيا)، وذلك لأن الرسالة – في ظننا – اصطفاء من الله من بين أنبياءه، ولكن كيف؟

يميل الظن عندنا إلى الاعتقاد بأن الرسالة هي اصطفاء من الله لبعض أنبياءه أن يكونوا رسلاً إلى أقوامهم، فلم يكن كل نبي من تلك الذرية الطاهرة مكلف بتبليغ الرسالة، ولكن الله كلّف بعض أنبياءه بحملها ولم يكلف البعض الآخر، ولكن لماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن تحميل الرسالة لأحد أنبياء الله يتطلب توافر عاملان رئيسان، وهما:

⇐ وجود **قوم** لذاك الرسول
⇐ توافر **بيّنات** للرسول إلى قومه من ربه

وغالباً ما تكون النتيجة تتمثل في وقوع العقاب على القوم بطلب من ذلك الرسول إن هم كذبوا رسولهم كما في حالة نوح وصالح وشعيب، الخ. بينما لا نجد عقاباً وقع على قوم من بعد نبي لم يكن رسولا. ولنبدأ بمناقشة هذه القضايا بشيء من التفصيل.

لكل رسول قومه (وليس لكل نبي قومه)

لعلنا نجزم الظن أن حمل الرسالة يتطلب وجود قوم لذلك الرسول يقوم بتبليغ الرسالة لهم، وهنا يجب أن نتوقف عند بعض المشاهدات التي قد تسعفنا في فهم هذه الجزئية.

1. يذكر الله تعالى في كتابه الكريم أنه لم يخبرنا بأسماء (أي لم يقصص علينا) كل رسله الذين بعثهم إلى أقوامهم:

- ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: 164]

2. ربما يبعث الله أكثر من رسول إلى القوم واحد، فقد بعث الله بموسى وأخيه هارون إلى فرعون وقومه:

- ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: 42-47]

وبعث الله إلى قرية واحدة رسولين فكذبوهما فعززهم بثالث:

- ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: 14-18]

3. ربما يبعث الله برسولين في نفس الوقت تكون مهمة كل رسول تبليغ قومه، فالله قد بعث إبراهيم وبعث لوط متزامنين (أي في نفس الفترة الزمنية)، ولكن كان لكل واحد منهم قومه الخاص به، فكان لإبراهيم قومه، وكان للوط قومه:

- ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الحج: 43]

4. لا يقع العذاب من الله على قوم إلا بعد رسالة يكذب القوم فيها رسولهم:

- ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 15]

فلا نجد أن هلاكاً قد وقع على قوم بعد نبي، ولكن نجد أقواماً كثيرين أصابهم عذاب الله بعد تكذيبهم رسالة رسل الله إليهم، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب (مدين):

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [هود: 94]

لذا، وقع العذاب على قوم لوط ولكنه لم يصيب قوم إبراهيم شيئاً منه.

النتيجة: الرسالة هي اصطفاء من الله لأحد أنبياءه ليكون نذيراً وبشيراً (أي رسولاً) لقوم ما، فيأتي ذلك الرسول قومه بالبينات من ربه، فإن هم كذبوه، ربما وقع العذاب عليهم بطلب من ذلك الرسول.

(لنتذكر هذه النتيجة التي ربما تفيدنا بعد قليل)

إبراهيم ويعقوب

لقد تمثل زعمنا حتى اللحظة بالافتراء التالي: أنّ الولد من ذرية النبي يرث النبوة عن والده، لكن الذي ربما يثير فضول الكثيرين هو مقارنة حالة إبراهيم بحالة يعقوب: ففي حين أن إبراهيم قد تحصلت له ذرية من الذكور وكانت النبوة من نصيبهم جميعا (إسحق وإسماعيل)، كانت النبوة مقتصرة على يوسف من ذرية يعقوب فقط دون إخوته الآخرين.

السؤال: لماذا اكتسب كل من إسماعيل وإسحق النبوة من والدهم إبراهيم؟

وبالمقابل، لماذا لم يكتسب جميع أبناء يعقوب النبوة من أبيهم؟ لم انحصرت النبوة في يوسف من دون إخوته؟

إبراهيم	**إسماعيل**
	إسحق
يعقوب	**يوسف**

رأينا: إنّ الظن عندنا يميل إلى الاعتقاد بأنه لم تكن الرسالة لتكون من نصيب إسماعيل لو لم ينقله والده من موطنه الأصلي ويسكنه في ذلك الواد الجديد، وربما لم تكن الرسالة ستكون من نصيب يوسف لو لم يبتعد عن أبيه إلى أرض مصر. ولكن لماذا؟

الجواب: الرسالة تحتاج إلى قوم يتم إبلاغ الرسالة لهم، فبدون القوم لا يكون هناك رسول، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: 24]

فحتى يصبح إسماعيل رسولاً (وليس نبياً فقط) لابد أن تكون هناك أمة يبلغها رسالة ربهم فيكونوا هم قومه، وحتى يكون يوسف رسولا لابد من أمة يبلغها رسالة ربه فيكونوا هم قومه. فقوم الرسول هم من كلف ذلك الرسول بإبلاغ الرسالة لهم (للتفصيل في هذه القضية انظر الأجزاء السابقة)، ولندرس حالة إسماعيل ويوسف بشيء من التفصيل، فهم من بين أنبياء الله جميعاً من حملوا شرف تبليغ الرسالة بالرغم أنهم قد ورثوا النبوة من آباءهم مباشرة، فكانوا أنبياء رسلا، ولم يكونوا أنبياء فقط كما كان حال إسحق أو يعقوب أو يحيى، الخ.

إسماعيل

لو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أنّ إسماعيل قد حظي بشرف الرسالة (بالاصطفاء) كما حظي بشرف النبوة (بالوراثة مادام أنه من تلك الذرية الطيبة) من والده إبراهيم مباشرة، ولم يكن ذلك من نصيب إسحق وهو الأخ الأصغر لإسماعيل:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: 54]

وهنا نطرح السؤال التالي: لماذا كان إسماعيل (وليس إسحق) نبياً رسولاً؟

الجواب: لقد توافر لإسماعيل قومه ولم يكن لإسحق قومه. ولكن كيف؟
لو دققنا جيداً في السياق القرآني الذي يقدم لنا دعاء إبراهيم وهو يسكن جزءاً من ذريته في ذلك الواد لوجدنا إبراهيم يعي تماماً هذه الحقيقية (لا بل ويقصدها):

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

لاحظ – عزيزي القارئ – كيف لم يأخذ إبراهيم أحداً من قومه ليتواجد مع إسماعيل وأمه في ذلك الواد المقفر، ولنتفكر بالهدف الذي ربما من أجله طلب إبراهيم من ربه أن يجعل أفئدة من الناس (لا شك ليسوا من قوم إبراهيم نفسه) لتهوي إلى ذلك المكان " فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ "، ألم يكن إبراهيم يستطيع أن يأخذ جزءاً من قومه ليسكنوا في ذلك الواد مع هاجر وابنها إسماعيل ليساعدوهم على البقاء في ذلك الواد المقفر؟

كلا، لقد اختار إبراهيم أن لا يأخذ أحداً من قومه ليسكنهم مع ذريته تلك في ذلك الواد لغاية عظيمة في نفسه، ولكن كيف؟

جاء على لسان إبراهيم نفسه في النص القرآني أنه قد أسكن من ذريته (مِن ذُرِّيَّتِي) ولم يقل أنه قد أسكن من قومه، فلماذا لم يسكن إبراهيم جزءاً من قومه مع ذريته التي أسكنها في ذلك المكان المقفر؟

لما كانت عقيدتنا راسخة بأن إبراهيم يدرك تماماً ما يقوم به، فإننا نظن أن إبراهيم ربما كان يريد أن يتشكل لابنه إسماعيل (النبي وارث النبوة من والده) شرف آخر يضاف إلى شرف النبوة الذي لا محالة حاصل عليه بالوراثة، ألا وهو شرف تبليغ الرسالة لقوم لم يعهدوها من قبل، فأصبح بذلك إسماعيل نبياً وارثاً النبوة من أبيه (مادام أنه امتداد لتلك الذرية الطيبة) وهو أيضاً مكلف بتبليغ رسالة ربه إلى هؤلاء القوم، فيصبح بذلك رسولاً نبياً.

ولكن – بالمقابل – لمّا كان إسحق باق في نفس القوم الذين أبلغوا رسالة ربهم عن طريق والده إبراهيم، لم يكن إسحق أكثر من نبي، فلم يحمل رسالة التبليغ مادام أن القوم هم أنفسهم الذين أبلغهم أبوه تلك الرسالة، فالله قد يبعث للقوم الواحد أكثر من رسول معاً (كما كان الحال بالنسبة لموسى وهارون)، ولكنه لا يبعث للقوم أنفسهم رسولين من بعد بعضهم البعض. فالقوم الذين أبلغوا الرسالة عن طريق رسول لا يحتاجون إلى رسول آخر ليبلغهم نفس الرسالة التي أبلغوها من قبل. لذا لمّا كان إسحق ماكثاً في نفس القوم الذين أبلغوا الرسالة عن طريق والده إبراهيم، لم يعدو أكثر من امتداد لبيت النبوة فقط، فكان نبياً ولم يكن رسولاً، وكذلك كان ولده يعقوب نبياً ولم يكن رسولا، ولكن الصورة اختلفت فقط عند يوسف.

يوسف

لقد حاول إسحق أن يبقى جميع أبناءه في نفس المكان مشكلين كتلة واحدة في قومهم، لذا لم تتعدى طموحات يعقوب – في رأينا – أكثر من امتداد بيت النبوة، فلو بقي يوسف في كنف أبيه لما تحصل له شرف الرسالة ولبقي كإخوته وريث بيت النبوة، ولكن لمّا قضت حكمة الله أن تتوالى الأحداث لتنتهي بيوسف في مكان غير المكان الذي يسكنه والده وإخوته وفي قوم لم يبلّغوا رسالة ربهم، تحصّل لهذا النبي (وريث بيت النبوة) شرف أن يكون رسولا أيضاً (أي نبيا بشيراً نذيرا)، فهو قد تحمّل مهمة إبلاغ رسالة ربه إلى هؤلاء القوم، فأصبح بالإضافة إلى أنه نبي من تلك الذرية الطيبة رسولاً إلى أهل مصر، لذا جاء قول الحق ليبين أن يوسف قد قام بإبلاغ رسالة ربه إلى أهل مصر:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]

وربما يكون هذا سبباً جديداً يضاف إلى الأسباب الأخرى التي منعت يوسف من العودة إلى ديار أبيه بعد أن أصبح قادراً على ذلك، وآثر المكوث في أرض مصر فطلب أن يحضر والده إليه ولم يسع هو بنفسه إلى والده (خصوصاً إذا ما تحدثنا عن واجب الابن تجاه الوالد)، لأننا لا نتصور أن يترك يوسف شرف تبليغ الرسالة كمهمة أوكلت إليه ويعود إلى أرض أجداده ليبحث فيها عن والده الذي يشتاق إليه، لقد اشتغل يوسف بأمر أهم من مجرد إرضاء رغبة والده، وهو مهمة التكليف بالرسالة، فكان نبياً مبشراً منذرا.

وهنا قد يرد البعض على ركاكة منطقنا هذا بالفهم المشروع التالي: أن الآية السابقة (عند تدبرها) قد لا تشكل دليلاً دامغاً على أن يوسف كان رسولا، فالآية تتحدث عن من سيأتي بعد يوسف كرسول وليس عن يوسف نفسه، فنرد عليهم بالقول: ربما يكون ظنكم صحيحاً، لذا فإننا نظن أننا نملك دليلاً آخر من الآية نفسها على أن يوسف كان رسولاً ولم يكن فقط نبياً، ولكن كيف؟

الجواب: حصول يوسف على البينات وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

لو دققنا ملياً في السبب الذي من أجله كاد اخوة يوسف لأخيهم لوجدنا أن وراثة النبوة كانت السبب المحرك لتلك المكيدة:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

فالصلاح كان السبب الذي دفعهم إلى فعلتهم تلك، ولو دققنا جيداً بمعنى الصلاح في السياقات القرآنية لوجدنا أنها صفة ملازمة للأنبياء والرسل. فإبراهيم كان من الصالحين:

- ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠﴾ [البقرة: 130]

وكان يحيى من الصالحين:

- ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: 39]

وكذلك كان عيسى:

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: 46]

وزكريا والياس

- ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: 85]

ويوسف:

- ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: 101]

وكذلك كان لوط:

- ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: 74]

وسليمان:

- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: 19]

وشعيب:

- ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: 27]

وربما كانت تلك صفة ملازمة لكل أنبياء الله:

- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ
إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ
﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ

وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: 76-86]

ولو دققنا في السياق التالي لوجدنا أن اخوة يوسف كانوا ينشدون الصلاح الذين كان لأبائهم من قبلهم:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 72]

لابل لقد كانوا يبحثون عن تحقيق دعوة جدهم إبراهيم:

- ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: 99-100]

وسنتعرض لهذه القضية بالتفصيل عند الحديث عن اخوة يوسف

البينات

افتراء من عند أنفسنا: لقد ذكرنا سابقاً أن من أهم أركان الرسالة (بالإضافة إلى توافر عنصر القوم الذي كان جل حديثنا السابق منصباً عليه) هو البينات التي يأتي بها الرسول من ربه، فنحن نزعم أن الرسول يأتي بالبينات ولكن النبي لا يأتي بالبينات، فالبينات تتحصل لمن كان رسولا نبيا ولا تتحصل لمن كان نبياً فقط.

الدليل:

لو تدبرنا الآية السابقة جيداً لوجدنا أن الحق يثبت لنا في تلك الآية أن يوسف قد جاء قومه بالبيّنات:

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...

السؤال: على ماذا تدلّنا مثل هذه الحقيقة القرآنية؟

الجواب: البيّنات هي ما يأتي به الرسول قومه من ربه، فمن يأتي بالبينات فهو بلا شك رسول من الله إلى قومه، وما دام أن يوسف قد جاء بالبينات (ولم يأتي بها إسحق أو يعقوب مثلاً)، فذاك دليل ربما يكون دامغاً على وجاهة ما نظن، وحتى يتيقن القارئ الكريم من وجاهة ما نزعم دعنا نستعرض جميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن البينات، لنجد في نهاية الأمر أن البينات هي من نصيب النبي البشير النذير فقط (أي الرسول) من بين أنبياء الله، فما أن يأتي بها نبي حتى يصبح نبياً رسولا، لأنه بذلك يكون قد جاء بالحجة من ربه التي تثبت شرعيته في إيصال الرسالة إلى قومه:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: 87]
- ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: 92]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]
- ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ [البقرة: 209]
- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]
- ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: 253]
- ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ [آل عمران: 86]
- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 105]
- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ [آل عمران: 183]
- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: 184]
- ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣﴾ [النساء: 153]
- ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [المائدة: 32]
- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

- ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: 101]
- ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: 70]
- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: 13]
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس: 74]
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: 9]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 43-44]
- ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه: 72]
- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:39]
- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: 9]
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:47]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر: 25]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: 22]
- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: 28]
- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]

- ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠﴾ [غافر: 50]
- ﴿۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غافر: 66]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾ [غافر: 83]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ [الزخرف: 63]
- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: 25]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦﴾ [التغابن: 6]

النتيجة: إنّ جلّ طرحنا السابق يمكن تلخيصه بما جاء في الآية الكريمة التالية (إن نحن قرأناها بشيء من التدبر) التي تبين أن رسل الله يأتوا (1) أقوامهم (2) بالبينات ، فيحصل (3) الانتقام من الذين أجرموا:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:47]

وبعد هذا الاستعراض الطويل للآيات القرآنية الكريمة التي تبين لنا تلازم وجود البينات عند الأنبياء المبشرين المنذرين (أي الرسل)، نجد لزاماً طرح السؤال التالي:

السؤال: من هم رسل الله (الأنبياء المبشرين المنذرين) الذين جاءوا أقوامهم بالبينات؟

الجواب: إننا نظن أن الجدول التالي يعرض لنا أنبياء الله الذين جاءوا بالرسالة، فكانوا بالإضافة إلى وراثتهم النبوة رسلاً جاءوا أقوامهم بالبينات من ربهم وربما وقع العذاب على أقوامهم الذين كذبوهم:

نوح:	﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥﴾ [هود: 25]
يونس:	﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾ [الصافات: 139]
إبراهيم:	﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦﴾ [الحديد: 26]
إسماعيل:	﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [مريم: 54]

يوسف: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ [غافر: 34]

موسى وهارون: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه: 47]

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشعراء: 16]

عيسى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

لوط: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣﴾ [الصافات: 133]

صالح: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥﴾ [الأعراف: 75]

هود: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾ [الأعراف: 65-67]

شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: 85]

إلياس: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ [الصافات: 123-125]

محمد: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

وهناك أولوا العزم من الرسل وهو نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ [الأحزاب: 7]

- ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: 13]

لقد كان هؤلاء فقط هم من تحصل لهم شرف التكليف بحمل الرسالة، فهم أنبياء مبشرين منذرين

وهناك رسل الله الذين لم يذكر الكثير عنهم وعن أقوامهم في كتاب الله:

اليسع: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾ [الأنعام: 86]

ذو الكفل: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ [ص: 48]

السؤال: من هم أنبياء الله الذين لم يكونوا رسلاً لأقوامهم؟

يحيى: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]

إدريس: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾ [مريم: 56]

إسحق ويعقوب: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]

﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ [الصافات: 112]

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

أيوب: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]

تساؤلات حول هذا الطرح

إن طرحنا السابق يثير جملة من التساؤلات حول بعض الأنبياء والرسل الذين لم نذكرهم في الجداول السابقة، لكننا سنحاول أن نفرد لهم حيزاً من النقاش هنا:

داوود وسليمان

لم يذكر القرآن الكريم أن داوود قد جاء بالبينات، ولم يذكر كذلك أنه نبياً أو رسولاً بصريح اللفظ، ولكننا نظن أنه يمكن أن نستنبط أن داوود قد كان رسولاً نبياً من ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر: 25]

تشير الآية الكريمة إلى أنه بالإضافة إلى البينات (التي تحدثنا عنها سابقاً كدليل على الرسالة) يأتي رسل الله بالزبر وبالكتاب المنير، لذا فإن داوود هو واحد من رسل الله لأنه جاء بزبور من عند ربه:

- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: 55]
- ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: 163]

فداوود هو رسول آتاه الله زبورا، ولما كان سليمان قد ورث داوود فهو إذاً قد ورث النبوة من والده:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

> وهنا لن ندخل في هذه اللحظة بنقاش حول تفسير هذه الآية، فهي تثير تساؤلاً كبيرا فيما إذا كانت هذه الامور الثلاثة (البينات والزبر والكتاب المنير) التي يأتي بها رسل الله تكون مجتمعة أم متفرقه، وبكلمات أخرى يمكن أن نطرح السؤال على النحو التالي:
>
> ⇐ هل يأتي كل رسول بهذه الامور الثلاثة (بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) مجتمعة أم يكفي أن يأتي بواحدة منها ليكون رسولا؟
>
> ونكتفي أن نشير هنا أن الظن يميل عندنا إلى الاعتقاد بأن واحدة منها تكفي لأن يأتي بها الرسول، ولكن ربما يأتي رسول قومه باثنتين كالبينات والزبر مثلاً، ويمكن أن يأتي رسول آخر بالثلاثة مجتمعة، وهذا ربما يكون – في رأينا – سبباً في تفضيل بعض الرسل على بعض، وسنحاول أن نفرد لهذه الجزئية مقالة مستقلة إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه.

زكريا ويحيى

وبالمقابل، يمكن قياس الأب بالابن، فلا نجد ذكراً صريحاً عن ماهية نبوءة زكريا، فهو لم يكن ممن جاء بالبينات، ولا أظن أنه ممن جاء بزبور أو بالكتاب المنير، ولكن يمكن فهم طبيعة نبوءة زكريا من ما جاء بحق ولده يحيى، فلقد كان يحي نبياً بصريح اللفظ القرآني:

- ﴿الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

وهو من ورث والده زكريا الذي كان أصلاً وريث آل يعقوب:

- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 6]

النتيجة: الرسل هم أنبياء الله الذين كلفوا بحمل الرسالة إلى أقوام لم يبلغوها من قبل، وجاءوا أقوامهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، ومتى كذبوا ربما وقع عذاب الله على تلك الأقوام بطلب من ذلك النبي الرسول

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: 47]
- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝٢٥﴾ [فاطر: 25]

والأنبياء الذين لم يكونوا رسلاً هم ورثة بيت النبوة فقط، فاكتسبوا شرف النبوة من آباءهم الذين سبقوهم

عودة على بدء: إسحق وإسماعيل

بعد هذا الخروج الطويل عن صلب الموضوع للحديث عن الفرق بين النبي من جهة والنبي الرسول من جهة أخرى، نعود إلى قضيتنا الرئيسة التي كنا نحاول الخوض في الفرق بين إسماعيل وأخيه إسحق، باحثين عن السبب الذي من أجله نقل إبراهيم ولده إسماعيل على وجه التحديد ليسكنه في أرض جديدة مع أمه ولا يأخذ أحداً من قومه ليكون لهم رفيقاً في تلك الأرض المقفرة، ثم يطلب من الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

لنزعم الظن أن ذلك كان بهدف أن يتشكل لإسماعيل قوما غير القوم الذين ولد فيهم، فيتحصل لهذا الابن شرف أضافي (وهو شرف الرسالة) يضاف إلى الشرف الذي ورثه من والده أصلاً (وهو شرف النبوة)، لنخرج الآن بالاستنباط التالي: لقد كان تواجد إسماعيل في قوم غير القوم الذين أبلغوا الرسالة عن طريق والده سبباً كافياً أن يكون هذا النبي (وارث بيت النبوة من والده) رسولاً يحمل شرف تبليغ الرسالة إلى قومه الذين يختلفون عن قوم والده، فقوم إسماعيل ليسوا هم قوم والده إبراهيم. وبالمقابل كان بقاء إسحق في كنف القوم الذين أبلغوا الرسالة عن طريق والده سبباً كافياً أن يبقى إسحق نبياً (وارث بيت النبوة من والده)، لكنه لم يكلف بتبليغ الرسالة للقوم مادام أنهم قد أبلغوها من قبل عن طريق والده، فقوم إسحق هم أنفسهم قوم والده إبراهيم.

استراحة قصيرة: الصلاة الإبراهيمية في الصلاة

في التشهد الأخير من الصلاة، نقوم نحن المسلمين بقراءة ما نسميه بالصلاة الإبراهيمية حيت نقول ما يشبه التالي في أغلب أقوال أهل العلم:

⇐ اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم
⇐ اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

هل تدبرت – عزيزي القارئ – هذه العبارات يوما، لنطرح عليك جملة من التساؤلات حولها؟

1. ألم يقل لنا أهل العلم أن محمد من ذرية إبراهيم وولده إسماعيل؟
2. إن كان ما قالوه صحيحاً، كيف إذاً نصلي على محمد وآله مقابل إبراهيم وآله؟
3. أليس آل محمد هم آل إبراهيم؟
4. كيف بنا نفصل بين آل محمد وآل إبراهيم؟
5. وكيف بنا نطلب المقارنة بين الطرفين وكأنهم طرفين منفصلين تماماً؟
6. من هم آل محمد ومن هم آل إبراهيم إذاً لنطلب من الله الصلاة على محمد وآله كما كانت على إبراهيم وآله؟
7. الخ.

هذا ما سنتناوله بحول الله في الجزء القادم.

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء السابع)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (7)؟

يمكن تلخيص جلّ ما جاء في الجزء السابق باستعراض وتدبّر الآيات الكريمة التالية معاً مرة أخرى:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: 47]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر: 25]

وخلصنا إلى نتيجة مفادها أن التفريق بين الأنبياء من جهة والأنبياء الرسل من جهة أخرى ربما يكون – في رأينا- على النحو التالي:

الرسل :هم أنبياء مبشرين منذرين، كُلّفوا بحمل الرسالة إلى أقوام لم يبلّغوها من قبل، فجاءوا أقوامهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، ومتى كذّبوا ربما وقع عذاب الله على تلك الأقوام بطلب من ذلك النبي الرسول

الأنبياء: هم أنبياء غير مبشرين ولا منذرين، ولكنهم ورثة بيت النبوة فقط، فاكتسبوا شرف النبوة من آباءهم الذين سبقوهم، وكانوا يعيشون في نفس القوم الذين أبلغوا الرسالة عن طريق آباءهم وأجداهم من الأنبياء المبشرين المنذرين، ولم يقع على أقوامهم عذابا من الله من بعدهم.

وعندما حاولنا إسقاط هذا الفهم على حالتي إسماعيل وإسحق (أبناء إبراهيم)، فخرجنا بتصور حول ما جاء في الآيتين التاليتين، حيث تحدثت إحداهما عن مهمة إسماعيل والأخرى عن أخيه إسحق:

- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: 54]
- ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: 49]

فكان إسماعيل نبياً رسولا، بينما كان إسحق نبياً ولم يكن رسولا.

كما زعمنا الظن بأن إسكان إسماعيل في ذاك الواد كان هو السبب المباشر ليتحصل لإسماعيل شرف الرسالة الذي لم يتحصل لأخيه إسحق، وحسبنا أن إسماعيل قد سكن في ذلك الواد بين قوم لم يبلّغوا الرسالة من قبل، فكان من واجب هذا النبي أن يبلغهم رسالة ربهم، فأصبح هو رسولهم وأصبحوا هم قومه. بينما كان بقاء إسحق في نفس القوم الذين أبلغهم والده إبراهيم رسالة ربهم سبباً كافياً أن لا تتجاوز مهمته شرف وراثة بيت النبوة، فاستمر إسحق في نفس قوم أبيه إبراهيم. (للتفصيل انظر الجزء السابق من كتابنا هذا).

إن النتيجة الكبيرة التي خلصنا إليها من نقاشنا السابق والتي ربما نبني عليها جل النقاش اللاحق تتمثل في الفهم التالي: إن قوم إسماعيل ليسوا هم قوم أبيه إبراهيم بينما كان قوم إسحق هم أنفسهم قوم أبيه إبراهيم.

وفي نهاية ذلك الجزء، حاولنا التعريج على قضية تخص الصلاة الإبراهيمية فيما قد يبدو للوهلة الأولى بأنه خروج عن صلب الموضوع، لنطرح حول ماهية تلك الصلاة جملة من التساؤلات لمن أراد التدبر، وهنا نجد لزاماً إعادة ذلك النقاش مرة أخرى لننطلق من خلاله إلى محاولة فهم بعض الإشكالات في الفكر الديني التي طرحناها في الأجزاء السابقة، خصوصاً إشكالية حديث الإفك وقضية تحول قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى البيت الحرام بعد أن صلّوا باتجاه القبلة الأولى فترة من الزمن.

الصلاة الإبراهيمية في الصلاة

لقد دعونا في الجزء السابق إلى تدبر ما يقرأ المسلمون جميعاً في التشهد الأخير من كل صلاة يؤدونها والتي تسمى بالصلاة الإبراهيمية في معظم مراجع أهل العلم:

⇐ اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم
⇐ اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

وكانت دعوتنا تلك تحمل معها جملة من التساؤلات حول ما نقول في تلك الصلاة عندما نجلس للتشهد الأخير، فلنعيد طرح تلك التساؤلات مرة أخرى، لنحاول الخروج ببعض الأفهام التي نظن أنها غير مسبوقة في هذا السياق:

1. ألم يقل لنا أهل العلم أن محمد من ذرية إبراهيم وولده إسماعيل؟
2. إن كان ما قالوه صحيحاً، كيف إذاً نصلي على محمد وآله مقابل إبراهيم وآله؟
3. أليس آل محمد هم آل إبراهيم؟
4. كيف بنا نفصل بين آل محمد وآل إبراهيم إذاً؟
5. وكيف بنا نطلب المقارنة بين الطرفين وكأنهم طرفان منفصلان تماماً؟
6. من هم آل محمد ومن هم آل إبراهيم إذاً لنطلب من الله الصلاة على محمد وآله كما كانت على إبراهيم وآله؟
7. وأيهما يحاول التشبه بالآخر؟
8. وإذا كانا نحن من يطلب أن يتحصل لمحمد وآله ما كان قد تحصل لإبراهيم وآله من ذي قبل، فكيف يمكن فهم أفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم؟
9. أليس من المنطقي أن يحاول غيرنا التشبه بنا ما دمنا نحن الأفضل (كما يروج لمثل هذه النظرية كثير من أهل العلم)؟
10. الخ.

إنّ أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباطات عند تدبر الصلاة الإبراهيمية هو الإقرار بالتالي:

1. الفصل التام (لا بل والمقابلة) بين طرفين متكافئين: يكون الطرف الأول إبراهيم وآله ويكون الطرف الثاني محمد وآله

2. الطلب من الله بالنعمة على الطرف الثاني (محمد وآله) كما أنعم من ذي قبل على الطرف الأول (إبراهيم وآله)
3. الفهم بأن محمد وآله هم من يطلبون التشبه بإبراهيم وآله وليس العكس.
4. الدعوة إلى تدبر كيف يختلف محمد وآله عن إبراهيم وآله إن كان محمد – كما علمنا- هو نفسه من ذرية إبراهيم وولده إسماعيل.

ذرية إبراهيم ورثة النبوة

عند تدبر السياقات القرآنية التي تحدثت عن ذرية إبراهيم، نجد الصبغة الغالبة على النص القرآني تأتي على ذكر إسحق ويعقوب على وجه التحديد وغالباً ما غاب ذكر إسماعيل عن المجموعة كما في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 83-84]
- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]
- ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 69-72]

وورد الحديث عن إبراهيم مقترناً بإسحق ويعقوب صراحة، بينما فصل إسماعيل عنهم مع مجموعة أخرى من أنبياء الله:

- ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: 45-48]

وعندما تحدث يوسف عن الذرية التي انحدر منها، لم يأتي على ذكر إسماعيل أبداً:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: 37-38]

نتيجة مهمة: لم يأتِ الحديث عن إسحق على وجه التحديد في القرآن الكريم بمعزل عن أبيه إبراهيم إطلاقاً، فلم يذكر إسحق في آية لوحده ولم يذكر في مجموعة من أنبياء الله ورسله لم يكن فيهم والده إبراهيم، ولنستعرض جميع السياقات القرآنية التي جاء فيها ذكر نبي الله إسحق لنجد التلازم الذي لا انفكاك فيه عن والده إبراهيم:

- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣﴾ [البقرة: 133]
- ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦﴾ [البقرة: 136]
- ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠﴾ [البقرة: 140]
- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝٨٤﴾ [آل عمران: 84]
- ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣﴾ [النساء: 163]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤﴾ [الأنعام: 84]
- ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]
- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف: 38]
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: 39]
- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢﴾ [الأنبياء: 72]

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]
- ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: 112]
- ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: 113]
- ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: 45]

ولكن – بالمقابل- ورد ذكر إسماعيل بمعزل عن والده إبراهيم، فجاءت آية تخص إسماعيل وحده:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: 54]

وجاءت آيات أخرى تذكر إسماعيل في مجموعة من أنبياء الله لم يذكر فيهم والده إبراهيم:

- ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: 86]
- ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: 85]

النتيجة: لم يفصل إسحق عن والده إبراهيم في النص القرآني إطلاقاً، بينما تم الفصل بين إبراهيم وإسماعيل في أكثر من موضع في كتاب الله.

إبراهيم وإسماعيل وإسحق

تم الربط بين إبراهيم وإسماعيل وإسحق في موضعين

1. عند الحديث عن الذرية:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

2. عند الحديث عن عبادة التوحيد:

فقد جاء ذكر إسماعيل مصاحباً لإبراهيم وإسحق ويعقوب عند الحديث عن العبادة (وغالباً ما صاحب ذلك الحديث عن رسل آخرين)، فعندما سأل يعقوب أبناءه مثلاً عن ما سيعبدون من بعده، جاء ردهم على النحو التالي:

- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: 133]

- ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]
- ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة: 140]
- ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: 84]
- ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]

إبراهيم وإسماعيل

وجاء الحديث مفرداً إسماعيل مع أبيه إبراهيم (بمعزل عن إسحق)عند الحديث عن البيت الحرام فقط:

- ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]
- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

وهنا فقط غاب الحديث عن إسحق مع والده إبراهيم، ونتوقف لـ نلخّص جل النقاش السابق في النتائج التالية:

1. كان ذكر إسحق مصاحباً على الدوام والده إبراهيم، فلم يذكر إسحق منفصلاً عن والده إطلاقاً
2. ذكر إسماعيل لوحده منفصلاً عن والده في أكثر من سياق قرآني
3. جاء الحديث عن إسحق وإسماعيل معاً عند الحديث عن ذرية إبراهيم وعند الحديث عن عبادة التوحيد
4. جاء الحديث عن إسماعيل مع والده إبراهيم دون إسحق فقط عند الحديث عن البيت الحرام

افتراء من عند أنفسنا: لقد كوّن إبراهيم فرعين من الذرية، امتدت ذرية النبوة في فرع منهم، وهي ذرية إسحق، وانقطعت النبوة من ذرية الفرع الثاني وهم ذرية إسماعيل، وكانت ذرية إسحق ملاصقة على الدوام جدّهم إبراهيم ما دام أن إسحق مكث في نفس قوم أبيه إبراهيم، فكان قوم إسحق هم أنفسهم قوم أبيه إبراهيم،

فأصبحوا هم آل إبراهيم، بينما انفصلت ذرية إسماعيل عن جدهم إبراهيم مادام أن إسماعيل قد أصبح رسولاً لقوم غير قوم أبيه، فلم يصبحوا هؤلاء جزءاً من آل إبراهيم.

إبراهيم كان أمة

وردت الآية الكريمة التالية في كتاب الله عند الحديث عن إبراهيم:

- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: 120]

فما معنى أن يكون إبراهيم أمة؟

افتراء من عند أنفسنا: الأمة هم القوم الذين تجمعهم عقيدة واحده، ومتى تفرق القوم على أساس عقائدي أصبحوا أكثر من أمة.

- ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: 159]

فقوم موسى هم كل من كانت رسالة موسى موجهة لهم كبني إسرائيل وآل فرعون معاً، فهم جميعاً قوم موسى، ولكنهم لم يكونوا جميعاً أمة واحدة، لأن منهم أمة يهدون بالحق، وأمة (أو ربما أمم) أخرى لا يهدون بالحق.

فالخلق كانوا جميعاً أمة واحدة، ولم يتفرقوا إلى أمم كثيرة إلا بعد أن جاءتهم البينات من عند ربهم على أيدي أنبياء مبشرين منذرين:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213]

وقد شاءت إرادة الله أن لا يكون الناس جميعاً أمة واحدة:

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]

- ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: 33]

وكان الاختلاف في العقيدة هو السبب في أن ينقسم الناس (القوم) أو الأمة الواحدة إلى أكثر من أمة:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: 19]
- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل:93]

وقد جاء بصريح اللفظ القرآني أننا نحن (أتباع محمد) أمة مستقلة:

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110]

وطلب منا أن يخرج من تلك الأمة الأم أمة صغرى تكون مهمتها على النحو التالي:

- ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: 104]

كما خرج من أهل الكتاب أمة ذات مواصفات محددة:

- ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: 113]

وقد خرج من قوم موسى أمة كانت مهمتها على النحو التالي:

- ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: 159]

لذا سيكون تقسيم الناس يوم القيامة على أساس أممي:

- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: 41]

ويدخل الناس النار على أساس أممي:

- ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: 38]

كما كان لكل أمة أجل في الدنيا:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34]
- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٦٤﴾ [الأعراف: 164]
- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾ [يونس: 49]

وكما كان لكل أمة رسولهم:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧﴾ [يونس: 47]

والملفت للانتباه أيضاً أن الأمم تختلف كذلك في المناسك:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [الحج: 34]
- ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ [الحج: 67]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العنصر الزمني غير ضروري في تشكيل الأمة، فمن يتبع عقيدة الأمة التي سبقته فهو جزء من تلك الأمة حتى لو لم يعيش بين ظهرانيهم، فهي ما يكتسب الأبناء من عقيدة عن آباءهم:

- ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝٢٢﴾ [الزخرف: 22]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: 23]

نتيجة (1): الأمم مجموعة من الناس ذات عقيدة تختلف عن غيرها في الرسول وفي الأجل وفي موعد الدخول إلى النار بغض النظر عن العنصر الزمني.

نتيجة (2): لقد كان إبراهيم أمة لأن الجميع كانوا ينتمون إلى إبراهيم، فكان إبراهيم بذلك أمة واحدة، ولكن حصل هناك اختلاف، فانقسمت أمة إبراهيم إلى أمتين، إحداهما تخص إسحق وذريته، والأخرى تخص إسماعيل وقومه.

إبراهيم كان إماما

لا يذكر القرآن الكريم أن نبياً أو رسولاً كان إماما للناس كافة إلا إبراهيم:

- ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: 124]

السؤال: لماذا كان إبراهيم فقط هو الإمام للناس كافة؟

الجواب: إننا نظن أن إبراهيم كان إماماً للناس كافة لأن الجميع لا يختلفون في أن يكون هذا النبي على وجه التحديد هو أمامهم، فاليهود لا ينكرون أن إبراهيم إمام لهم، والنصارى لا ينكرون ذلك، ولا تنكر أمة محمد أحقية إبراهيم بالإمامة.

نتيجة: الإمام هو محل اتفاق الجميع فلا ينكره أحد منهم

وبهذا المنطق يمكن كذلك أن نفهم لم كان كتاب موسى فقط إماما:

- ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: 12]

إننا نظن أن السبب أن كل الامم (اليهود والنصارى والمسلمين) لا تختلف في حقيقة كتاب موسى، بينما ينكر اليهود الإنجيل والتوراة، وينكر النصارى القرآن ككتاب إلهي، لذا فالإنجيل ليس إماماً والقرآن ليس إماماً.

إبراهيم يفصل نفسه عن قوم إسماعيل

نستطيع أن نزعم الظن أن إبراهيم قد فصل نفسه عن إسماعيل وقومه، ويمكن تقديم الدليل على ذلك باستعراض جملة من الملاحظات من النص القرآني.

الملاحظة الأولى: لو تدبرنا السياق القرآني التالي، لربما وجدنا فيه ما يثير الانتباه، فإبراهيم يسكن جزءاً من ذريته في ذلك الواد ويطلب من الله أن تهوي إليهم أفئدة من الناس، وها هو يدعو لهم على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126]

فإبراهيم إذن يطلب من الله أن يرزق أهل ذلك البلد من الثمرات، أليس كذلك؟

السؤال: هل أعتبر إبراهيم نفسه جزءاً من أهل هذا البلد الذي يدعو له بالخير؟

الجواب: لا أظن ذلك

الملاحظة الثانية: لو استعرضنا السياق القرآني التالي لربما تعززت الفكرة أكثر:

- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

السؤال: لماذا طلب إبراهيم أن يبعث الله في أولئك القوم رسولاً منهم؟ لِمَ لَمْ يطلب إبراهيم أن يكون ذلك الرسول من إبراهيم وذريته؟ لم لم يقل إبراهيم مثلاً "ربنا وابعث فيهم رسولاً منا؟

ولنمعن التفكر كذلك بكيفية استجابة الله دعاء نبيه إبراهيم، فقد فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم:

- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

الملاحظة الثالثة: وها هو إبراهيم يدعو ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: 35]

ولكن الغريب (الذي يجب تدبره جيداً) هو أن محمداً قد خرج رسولاً في قوم يعبدون الأصنام!!

نتيجة كبيرة جداً وخطيرة جداً: كان محمد من ذرية إبراهيم لكنه لم يكن من ولد إبراهيم وإنما من قوم إسماعيل أنفسهم

وقبل أن ينعت القارئ كلامنا هذا بما شاء من عبارات الازدراء، لا نجد أفضل من أن نطلب منه أن يتدبر قول الحق أولاً في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: 58]

ويقارن ذلك بما جاء عن بني إسرائيل:

- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: 2-3]
- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 33-34]

نتيجة: صحيح أن جميع أنبياء الله هم ذرية بعضها من بعض، ولكن يجب التميز بين الذرية المباشرة، والذرية غير المباشرة، فبنو إسرائيل (بما فيهم أنبياء ورسل بني إسرائيل) ليسوا من ذرية نوح المباشرة ولكنهم من ذرية من حملنا مع نوح، والمنطق نفسه (ربما) ينطبق في حالة محمد، فهو بلا شك من تلك الذرية الطيبة ولكنه ليس من نسل إبراهيم المباشر. وبكلمات أكثر دقة يمكننا الزعم بأن محمدا ليس من آل إبراهيم.

عودة على بدء

إن هذه النتيجة (التي ربما لن يتقبلها الكثيرون بالترحيب والتصفيق) تعيدنا مباشرة للحديث عن الصلاة الإبراهيمية التي –لا شك- تفصل فصلاً قاطعاً (لا بل وتقيم مقابلة الند بالند) بين محمد وآله من جهة وإبراهيم وآله من جهة:

⇐ اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

⇐ اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

نعم، هذا هو ظننا، لقد كان إبراهيم أمة وكان إماما للناس كافة، ولكن بالرغم أنه بقي إماما لم يختلف الناس على إمامته، انقسمت أمته إلى أمتين مختلفتين متنافستين، فخرج آل إبراهيم من ذرية إسحق (مادام أن إبراهيم لم يفصل نفسه عن القوم الذين لبث فيهم إسحق)، وانقطع آل إبراهيم في ذرية إسماعيل (مادام أن إبراهيم فصل نفسه عن القوم الذين مكث فيهم إسماعيل). فاستمرت النبوة في بيت إسحق (فكان يعقوب وكان يوسف)، وانقطعت من بيت إسماعيل، فلم يأتي أنبياء مباشرة من بعد إسماعيل (كما كان الحال بالنسبة

لأخيه إسحق الذي جاء من بعده يعقوب ثم يوسف)، وقد تحدثنا سابقاً أنه كلما حصل انقطاع في بيت النبوة، أصبح لزاماً أن تعود للظهور بالرسالة (أي برسول نبي)، فكانت دعوة إبراهيم تتلخص في أن يخرج الله من أولئك القوم رسولاً وليس فقط نبياً:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

فاستجاب الله دعوة نبيه إبراهيم بالمنّة على المؤمنين برسول من أنفسهم:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

فخرج محمد من أولئك القوم أنفسهم، فتشكلت أمة جديدة موازية ومنافسة للأمة الأولى. فأصبح هناك آل محمد كما كان هناك آل إبراهيم من ذي قبل.

السؤال: لماذا لم يدعو إبراهيم ربه بأن يخرج من ذرية إسحق (أو من قوم إسحق) رسولاً من أنفسهم كما فعل في حالة إسماعيل؟

الجواب: إننا نظن أن إبراهيم كان يعلم أن النبوة لن تنقطع من هذا البيت (وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ)، فهو بيت النبوة الذي ستمتد به أغصان تلك الشجرة الطيبة، فهو يعلم أن تلك الأمة ستحظى بشرف رسالات كثيرة، فجاء معظم أنبياء الله ورسله من بعد إبراهيم من تلك السلالة الطاهرة (أي من ذرية إسحق) باستثناء محمد عليه وعلى جميع أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة وأتم السلام.

لماذا كان الذبح من نصيب إسماعيل

لو تدبرنا السياق القرآني الذي يتحدث عن رؤيا إبراهيم الخاصة بذبح ولده لوجدنا فيها شيئاً يثير التفكير ويدعو إلى الحيرة، فلنحاول تسليط الضوء على الأمر من زوايا جديدة، قال تعالى:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

وهنا نجد لزاما إثارة تساؤلين اثنين وهما:

1. لماذا لم يذكر القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة أسم الابن الذي سيقدمه إبراهيم للذبح؟
2. لماذا يستشير إبراهيم ولده في الأمر ما دام أنه أمر رباني؟

السؤال الأول: لماذا لم يُذْكر أسمُ الغلام على وجه التحديد؟

لقد شكلت هذه القضية إحدى محاور الاختلاف بين الفكر اليهودي التوراتي والفكر الإسلامي القرآني، فأهل التوراة يظنون أن إبراهيم قدّم ابنه إسحق للذبح، بينما يصرّ المسلمون أن إسماعيل هو من اقتاده والده إلى المذبح وهو من افتداه ربه بالذبح العظيم:

- ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات: 103-107]

فأين يا ترى تكمن الحقيقة؟

إننا نظن أن طرح **السؤالين** السابقين ربما يسلط الضوء على هذه الإشكالية بشيء من الموضوعية التي ربما يخلو منها الطابع الشوفاني المدفوع بالذاتية الضيقة التي غالباً ما تغشي الأبصار عن إدراك الأمور على حقيقتها. ولكن كيف؟

الجواب: إننا نظن أن عدم ذكر أسم الولد المطلوب للذبح بصريح اللفظ في الآية ربما يدلنا – من حيث المبدأ- على أن إبراهيم لم يكن يقصد ولداً بعينه، فربما يكون الذبح من نصيب إسحق وقد يكون من نصيب إسماعيل. وهنا يطلب من كل طرف تقديم أدلته التي تسند موقفه العقائدي، وفي هذا الجزء سنحاول تقديم دليلين على الأقل نستطيع من خلالهما الترويج لفكرنا الإسلامي الذي يصر على أن الذبح كان من نصيب إسماعيل على وجه التحديد، فأين الدليل على ذلك؟

الدليل الأول: وجود مانع مؤقت يمنع إبراهيم من ذبح إسحق بينما لم يكن هناك مانع مؤقت يحجز إبراهيم عن ذبح إسماعيل، ولكن كيف؟

الجواب: لقد جاءت البشرى لإبراهيم وامرأته بإسحق على النحو التالي:

- ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]

إن المدقق في هذا السياق القرآني يجد أن البشرى لم تأتي بإسحق فقط وإنما بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، أليس كذلك؟ إن أبسط ما يمكن أن نستنبطه من هذا هو وجود مانع (ولو مؤقت) يمنع إبراهيم من ذبح إسحق، فإسحق يجب أن يكبر ويتزوج ليتحصل له يعقوب (وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) قبل أن يقتاده والده إلى المذبح، فلو قام إبراهيم بذبح إسحق (أو حتى لو جاء الأمر لإبراهيم بذبح إسحق) فسيبرز عندها سؤال لا مفر منه وهو: كيف ستتحصل الذرية من بعد إسحق بيعقوب؟ لذا فنحن نزعم استحالة أن يذبح إبراهيم إسحق حتى يكبر الغلام ويتزوج وتتحصل له الذرية بيعقوب.

نتيجة 1: لابد لإبراهيم أن ينتظر إسحق ليكبر ويتزوج وتتحصل له الذرية إن كان هو المقصود بالذبح الذي راءه في منامه.

وهنا يطرح **السؤال** التالي: هل يستطيع إبراهيم أن ينتظر كل هذا الوقت (وهو شيخ كبير في السن) حتى يكبر إسحق ويتزوج وتتحصل الذرية له بيعقوب لينفذ أمر ربه الذي راءه في منامه؟

الجواب: لا أظن ذلك.

ولكن – بالمقابل – لمّا لم تكن هناك بشرى بالذرية من بعد إسماعيل، فإننا لا نرى وجود مناع (ولو مؤقت) يوقف إبراهيم عن تنفيذ أمر ربه، لذا نجد إبراهيم يخاطب الغلام بالقول:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلۡمَنَامِ أَنِّىٓ أَذۡبَحُكَ ...

فإبراهيم يحدد إذاً من هو الغلام (من بين ولديه) الذي يرى أنه يذبحه.

الدليل الثاني: أما الدليل الآخر الذي يثبت زعمنا أن إسماعيل (وليس إسحق) هو المقصود بالذبح فيمكن استنباطه بتلسيط الضوء على سؤالنا الثاني الذي يتعلق باستشارة إبراهيم ولده بالأمر.

السؤال الثاني: لماذا استشار إبراهيم ولده بخصوص الذبح مادام أن الأمر جاء من الله؟

فها هو إبراهيم يقول لابنه في السياق نفسه "فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ":

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلۡمَنَامِ أَنِّىٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

ألا ترى عزيزي القارئ أن في ذلك حكمة عظيمة؟ ولكن كيف؟

الجواب: نحن نعلم أن رؤيا إبراهيم هي حق من الله، فإبراهيم مأمور بذبح ولده بأمر من ربه عن طريق رؤية يراها في منامه، أليس كذلك؟ فما دام الأمر كذلك، هل يحق لإبراهيم أن يستشير ولده لينفذ أمر ربه؟ إذن، كيف بإبراهيم يستشير ولده في الأمر؟ وماذا لو رفض الابن طلب والده؟ ألم يرفض ولد نوح طلب والده من قبل؟ هل سيتخلى إبراهيم عن أمر ربه فلا يذبح ولده لو رفض الولد طلب والده؟

كلا، لا شك أن إبراهيم لم يجد مناصاً من ذبح ولده، فذاك أمر رباني ما كان لإبراهيم إلاّ أن ينفذه مهما كانت إرادته أو إرادة ولده، صحيح أن إبراهيم قد يجادل في الأمر، فهو – لا شك- أواه، لكنه نبي أواب منيب في النهاية:

- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 75]

إذن، لماذا استشار إبراهيم ولده في الذبح مادام أنه في النهاية ذابحه لا محالة؟

الجواب: لقد كان الذبح هو البلاء المبين:

- ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات: 105-107]

السؤال: كيف كان ذبح الابن بلاء مبين؟

افتراء من عند أنفسنا: لم يذكر الذبح للأبناء في القرآن الكريم إلا في قصة فرعون مع بني إسرائيل، فنحن نعلم أن فرعون كان يذبّح أبناء بني إسرائيل ويستحي نسائهم، وقد نعت الله ذلك بالبلاء:

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝١٤١﴾ [الأعراف: 141]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم: 6]

السؤال: لماذا كان فرعون يذبّح هؤلاء الأطفال (أبناء بني إسرائيل)؟

الجواب: إنه النسب

النتيجة: لم يذبح الأطفال كبلاء من الله إلا بسبب نسبهم، فلا ننسى أن ذبح أبناء بني إسرائيل على أيدي فرعون كان – دون أدنى شك- بلاءً مباشراً من الله وذلك بصريح اللفظ القرآني: وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم الظن بأن الله قد ابتلى إبراهيم (كما سيبتلي بني إسرائيل من بعد) بذبح ولده لسبب يتعلق بنسب الغلام، ولكن كيف؟

الجواب: إننا نزعم الظن أن البلاء الإلهي لإبراهيم بذبح إسماعيل كان فتنة إلهية للأب إبراهيم وللابن إسماعيل وللزوجة هاجر للتأكد من نسب الغلام، ولنبدأ بتفصيل هذه القضية في سطور.

> فنحن نعلم أن بنو إسرائيل حتى هذه اللحظة ينعتون إسماعيل بأنه الأبن غير الشرعي لإبراهيم، متشككين في نسب الغلام لأبيه، فجاءت قصة الذبح هذه لتكون خيراً لإسماعيل وأمه بدل أن تكون شراً لهم وذلك لاثبات نسب الغلام لأبيه ورد التهمة عن الزوجة بالخيانة، وقد تكرر مثل هذا السيناريو بالاتهام المبطن للزوجة بالخيانة في آل بيت النبي محمد في حادثة الافك، وسنرى لاحقاً كيف كانت حادثة الافك – كما أكد النص القرآني- خيراً للمسلمين وليس شراً لهم.

الذبح بلاء مبين لإبراهيم

السؤال: كيف كان ذبح إسماعيل بلاء مبين (أو لنقل فتنة) لوالده إبراهيم؟

الجواب: إن هذا يعيدنا إلى صفة مميزة لإبراهيم النبي الرسول: إنها الشك. لقد كان الشك صفة ملازمة لهذا النبي في رحلة حياته حتى يكون من الموقنين وحتى يأتي الله في النهاية بقلب سليم، فنحن نعلم من جملة الحوادث التي حصلت مع إبراهيم بأن هذا النبي الرسول لا يتقبل الأمور ببساطة، ولكنه يخضعها للشك في البداية حتى يصل إلى درجة اليقين في النهاية، فقد كان ذلك واضحاً في قصته الأولى مع رحلة الإيمان يوم أن قلّب وجهه في السماء باحثاً عن ربه:

- ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: 85]

وكذلك كانت قصته مع أحياء الموتى يوم أن طلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:260]

وقد كان الشك ملازماً لإبراهيم يوم أنْ ظنّ أنّ الله قد وهب له إسماعيل، فهو لم يكن على يقين بقدرته الطبيعية على الإنجاب بعد أن أصبح شيخاً كبيرا، ففي حين أن تأكيداً ربانياً جاءه بهبة الله له إسحق ومن وراء إسحق يعقوب على لسان رسل الله يوم جاءوا معذبين قوم لوط:

- ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: 71]

لم يأتِي مثل هذا التأكيد الرباني بخصوص إسماعيل، وعندما حاولنا تدبر السياقات القرآنية في هذا الصدد سابقاً وجدنا أن نبي الله إبراهيم لم يشكر ربه مباشرة بعد أن رزق بإسماعيل، وانتظر حتى رزق بإسحق كبشرى من الملائكة، فشكر الله عندئذ على الاثنين معاً كهبة ربانية:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]

(أنظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب)

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن صورة ولد نوح لم تكن غائبة من ذهن إبراهيم، لذا ما كان الله ليذر إبراهيم في حالة الشك تلك، فقد طلب منه أن يذبح ولده مادام أن في قلبه شيء من الشك في نسب الغلام، لتكون الرسالة الربانية على نحو: إن كنت يا إبراهيم تشك في نسب ولدك، فاذبحه. وعندها فقط ستأتي ربك بقلب سليم، فلا يجوز لهذا النبي الكريم أن يبقي شيئاً من الشك في قلبه، وهذا ما سيكون من أمر إبراهيم بعد أن يصدّق الرؤيا وينفذ أمر ربه بذبح ولده :

- ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 84]

أليس هذا فعلا بلاء مبين للأب إبراهيم؟

الذبح بلاء مبين لإسماعيل

إن من أبسط أبجديات العقيدة أن أبناء الأنبياء لا يعصون أمر ربهم، فما أن يعلموا أن هذا أمر رباني حتى يكون السمع والطاعة هو العقيدة التي لا يمكن أن يزعزعها شيء مهما عظم (حتى وإن تطلّب الأمر التضحية بالنفس)، فإبراهيم يعلم أن أبناء الأنبياء لا يعصون أمر ربهم، لذا فإن الظن عند إبراهيم كان على النحو التالي: إن كان هذا الغلام (إسماعيل) من صلبه حقاً، فلن يرد لأبيه طلبا خصوصاً إذا ما كان هذا الطلب أمرا ربانيا. وإن هو رفض، فلا تنقص إبراهيم الفطنة أن يستنبط أن الولد ليس من أهله، فإبراهيم يعلم تمام العلم أن ولد نوح لم يعص طلب أبيه ويؤثر أن لا يركب معه إلاّ لأنه ليس من أهله، فلقد كان ولد نوح نتاج الخيانة التي اقترفتها امرأته، وعند عقد المقارنة بين هذه النبيين الكريمين يمكننا الزعم أنه لو كان إسماعيل نتاج خيانة الزوجة، فلن يستجيب إلى طلب والده (بالضبط كما فعل ابن نوح من قبل)، وبهذا المنطق نفسه يمكن أن نفهم سبب استشارة إبراهيم ولده إسماعيل في أمر الذبح بالرغم أنه لا محالة منفذ أمر ربه عندما قال له:

- " يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ "

إننا نظن أنه لو كان إبراهيم على يقين تام من صحة نسب ولده لما قال له (فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ)، ولجاء النص على نحو (قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ) وكفى.

ولو تدبرنا النص أكثر لوجدنا أن الوالد يخاطب ولده بصيغة " يَا بُنَيَّ" ليرى كيف سيرد الولد على والده، فجاء الجواب من إسماعيل بصيغة "يَا أَبَتِ"

- قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ

ليتأكد للوالد بأن الولد هو من نسل والده، ولو رجعنا إلى حالة نوح للحظة لوجدنا أنه على الرغم أن نوح قد خاطب ولده بصيغة يا بني (بالضبط كما فعل إبراهيم):

- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: 42]

إلا أن الولد لم يرد عليه بصيغة "يا أبت" (كما كان الحال بالنسبة لإسماعيل)، وبكلمات بسيطة يمكن القول أنه في حين أن إسماعيل قد أقر لوالده بالأبوة:

- قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

لم يقر ابن نوح بأبوة أبيه له:

- ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: 43]

لذا يمكننا أن نزعم الظن أن سبب طلب إبراهيم الرأي من ولده بخصوص الذبح ربما يكون على النحو التالي: إبراهيم عنده اثنان من الأبناء (إسماعيل وإسحق)، يقول لأحدهم:

- " يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ "

ليفهم الغلام من كلام والده ما يشبه زعمنا التالي: أنك إن رفضت طلبي فإني لا محالة ذاهب لأذبح أخيك بدلاً منك، لأني لا أستطيع كنبي رسول إلاّ أن أنفذ أمر ربي، فانظر ماذا ترى، عندها سيكون البلاء المبين للغلام على النحو التالي: إما أن يقبل أبوة والده وينفذ له أمر ربه، أو أن يرفض تلك الأبوة فيكون الذبح من نصيب أخيه، أليس في ذلك بلاء مبين ليس فقط للوالد وإنما للولد أيضاً؟

الذبح بلاء مبين لسارة

إن من أساسيات عقيدتنا في تفسير النص القرآني هو مبدأ المخالفة بنص، وهذا يعني أن مخالفة ما هو مألوف أو متوقع يجب أن يكون بنص صريح، فابن النبي يجب أن يكون صالحاً كأبيه، وإن كان غير صالح فيجب أن يرد في ذلك نص صريح كما كان الحال بالنسبة لأبن نوح، وزوجة النبي يجب أن لا تكون خائنة، وإن هي كانت خائنة فيجب أن يرد في ذلك نص صريح كما كان الحال بالنسبة لامرأة نوح وامرأة لوط، بينما يجب أن تكون زوجة الكافر مثله، وإن هي كانت على النقيض منه (أي مؤمنة) فيجب أن يرد في ذلك نص صريح كما كان الحال بالنسبة لامرأة فرعون.

وعند تطبيق مبدأ المخالفة بنص في حالة هاجر، فإننا نظن أن المرأة لم تكن خائنة، فلو كانت خائنة فلابد من وجود نص قرآني يبين ذلك صراحة، وعندما حاولنا تدبر قصة الذبح من هذا المنظور، لم نجد أن

هاجر (والدة إسماعيل) قد اعترضت على ذبح ولدها بطلب من والده وبأمر من ربهم جميعا، وهنا تكمن الفتنة والبلاء العظيم للمرأة، فلو لم يكن الولد إسماعيل من صلب والده إبراهيم (وهي بلا شك الأعلم بالحقيقة)، لما كانت الأم ستتقبل ذبح ولدها من قبل رجل هو ليس بأبيه أصلاً، فالمرأة الكريمة الشريفة لا يمكن أن تضحي بشرفها مهما كان الثمن، فنحن نتخيل السيناريو على النحو التالي: عندما شاهدت المرأة (إن كانت فعلاً حظرت الموقف) الوالد يتل الولد للجبين وأنه ذابحه لا محالة، عندها سيكون الصراع قوي وحاسم بين الإقرار بشرفها وترك الوالد يذبح ولده لأنه فعلاً والده، أو الصدق مع نفسها والاعتراف بالخيانة (إن هي خانت أصلاً) لإنقاذ ولدها، فلا يمكن لامرأة أن تتقبل فكرة أن يُذْبح ولدها على يد رجل هو ليس بأبيه، ولكن لما سكتت سارة وأقرت بأمر ربها بأن يذبح الوالد ولده، لم يكن سيخفى على إبراهيم أنها امرأة طاهرة شريفة.

استراحة قصيرة: حادثة الإفك خير للمسلمين وليس شراً لهم

جاء في كتاب الله حول حادثة الإفك في سورة النور التي فَصّلت كثيراً من الأمور المتعلقة بالزنا وعواقبه قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

وهنا نطرح **السؤال** الذي لابد من مناقشته بشيء من التفصيل وهو: كيف كانت حادثة الإفك خيرا للمسلمين وليس شراً لهم؟ ألم يدب الخلاف في الأمة بسبب تلك الحادثة؟ ألم يتفاقم الخلاف بين الحزبين الأكبر في الإسلام (أهل السنة وأهل التشيع) كهزات ارتدادية لحادثة الإفك؟ ألم...؟ الخ.

الجواب: إننا نؤمن إيماناً يقينياً أن حادثة الإفك كانت خيراً للمسلمين ولم تكن شراً لهم (كما جاء في السياق القرآني)، وربما نستطيع إثبات هذه العقيدة إن نحن تدبرنا الموضوع من زاوية خيانة نساء الأنبياء التي ابتدأناه في هذه سلسلة تحت عنوان (لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟)، ولكن كيف؟

لا يستطيع أحد أن ينكر أن بعض نساء الأنبياء قد وقعت فعلاً في الخيانة، وليس أدل على هذا من خيانة امرأة نوح وامرأة لوط:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]

فالقول بأن نساء الأنبياء لا يمكن أن يقعن بالفاحشة هو ليس أكثر من كلام مدفوع بالعاطفة (كإيمان الدراويش) يخلو من الدليل العقائدي، لأن بعض نساء الأنبياء اقترفن الفاحشة فعلاً، ومن هذا المنطلق، لم يكن لإبراهيم أن يؤمن إيماناً يقينياً بأن نساءه لا يمكن أن يقعن بالفاحشة، وكذلك كان الحال بالنسبة لمحمد، فاحتمالية وقوع نسائهم بالفاحشة هي احتمالية واردة لا يمكن ردها فقط لمجرد أنها زوجة نبي، فمتى حصل

هناك اتهام (أو حتى شك) بخيانة نساء الأنبياء لابد من وجود الدليل على إثبات التهمة المنسوبة إليها أو تبرئتها من تلك التهمة.

نحن نظن أن الخلاف الذي وقع في قوم إبراهيم تعلق جزء منه بهاجر، فاتهمت بالفاحشة، ولما كان إبراهيم لا يستطيع أن يثبت التهمة أو أن يردها عنها، كان قراره يتمثل في الفصل بين نساءه، فأخذ تلك المرأة التي أصبحت محل اتهام ليسكنها في غير المكان الذي تسكنه الزوجة الأولى التي يستحيل أن تتهم بمثل هذه الفعلة (لأنها امرأة عجوز لم تنجب إلا ببشرى من الملائكة).

ولقد حاولنا تبيان أن حادثة الذبح كانت عبارة عن بلاء مبين للعائلة بأكملها لإثبات نسب الغلام ورد التهمة عن أمه هاجر.

أما في حالة حديث الإفك الذي حصل حول بيت النبي محمد، فلقد سكت النبي نفسه فترة من الزمن لأنه لا يستطيع أن ينفي أو أن يثبت التهمة المنسوبة لإحدى زوجاته، فسكوت النبي لفترة طويلة من الزمن وإعراضه عن عائشة دليل على أن النبي لم يكن يستثني احتمالية وقوع نساء الأنبياء في الفاحشة، فلو كانت الفاحشة مستبعدة عن نساء الأنبياء (كما يظن غالبية مشايخنا) لما كان النبي بحاجة أن يعرض عن عائشة عندما سمع الخبر، ولربما خرج للناس ليقول لهم أن نساء الأنبياء لا يمكن أن يقعن بهذا الفعل، ولربما تناقل المسلمون عشرات الأحاديث التي تنفي التهمة عن زوج النبي، ولكن لمّا كانت احتمالية وقوع نساء الأنبياء في الفاحشة أمرا غير مستبعد، كان لابد من وجود الدليل على التبرئة من التهمة أو إثباتها بنص قرآني صريح.

وهنا لابد من ملاحظة فرق ربما يكون جوهري بين حالة إبراهيم وحالة محمد، ففي حالة إبراهيم بقي الحديث عن الأمر طيّ الكتمان (أي في السر)، فأسرع إبراهيم إلى فض الخلاف عندما فصل بين نساءه بالسكن، ولكن حديث الإفك الذي حصل حول بيت محمد لم يبقى في السر، ولكنه أصبح حديثاً علنياً يتحدث به كل المسلمين:

- ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ [النور: 12]
- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]

تشير الآيتان الكريمتان إلى أن الحديث في الإفك قد أصبح حديث العامة، ونحن نظن أنه لو بقي الأمر غير مكشوف، وبقي حديثا في السر، لربما فعل النبي محمد ما فعل جده إبراهيم، فلربما أخذ عائشة (أو امرأته المتهمة بالخيانة إن أحبت بعض الفرق أن تظن أن هذه الآية تخص زوجة غير عائشة)، ولربما أسكنها في مكان آخر، ولو كان لتلك المرأة ولد لربما دخل الشك إلى بعض القلوب بأن ذلك الغلام ليس من نسب النبي ولربما أمر النبي أن يذبح ذلك الولد كما أمر جده إبراهيم بذبح ولده من قبل، ولكن لما أصبح حديث الإفك حديثا في العلن، وأخذ الجميع يخوضون فيه بين مصدّق ومكذب، وسبب اختلافا بين الناس، كان لابد من وجود دليل على إثبات التهمة على المرأة أو تبرئتها منها، عندها جاء الخطاب الإلهي واضحاً بالتبرئة للمرأة من التهمة

المنسوبة لها، لذا أصبح الحديث عن خيانة زوجة من زوجات النبي (بغض النظر من تكون) ليس أكثر من بهتان عظيم بصريح اللفظ القرآني:

- ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 16]

ونستطيع أن نستنبط من هذه الآية الكريمة ما يلي:

1. أصبح الحديث في الإفك حديثا في العلن
2. أن التحدث بهذا الأمر من باب الاتهام لإحدى نساء النبي بالخيانة هو بهتان عظيم

فما هو البهتان؟

لو دققنا جيداً في السياقات القرآنية التي تتحدث عن البهتان لوجدنا أنه أمر خاص بالنساء، فلقد ورد الحديث عن التهمة الكلامية الموجة لإنسان بري (وخاصة النساء) على أنها بهتانا مبينا وبهتانا عظيما في أكثر من موضع من سورة النساء:

- ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: 20]
- ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: 112]
- ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: 156]

ولا شك أن في ذلك امتحان للمؤمنات (كما هو امتحان للمؤمنين جميعاً)، فجاء في سورة الممتحنة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: 10]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: 12]

والذين تكلّموا بهذا البهتان المبين هم بلا شك عصبة متحزّبة، لها أهدافاً تحاول الوصول إليها من خلال هذه الفتنة، لذا جاء حول حادثة الإفك في سورة الأحزاب ما يلي:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: 58]

وربما نستطيع أن نستنبط أن الذي دبّر حادثة الإفك كان شخصاً واحداً وذلك – ما يمكن أن نفهمه حتى اللحظة- من ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

فالذين جاءوا بالإفك كانوا عصبة (جماعة)، ولكن الذي تولى كبره (وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ) كان شخصاً واحداً وهو من توعده الله بالعذاب العظيم (لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ)، فالله لم يتوعد من جاءوا بالإفك (العصبة) بذلك العذاب العظيم، ولكنه توعد بذلك العذاب الذي تولى كبره فقط، فالذي تولى لا شك كان يهدف إلى الإفساد في الإرض وتقطيع الأرحام:

- ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد: 22]

وجاء الخير (كل الخير) للمؤمنين في سورة النور عندما تمت التبرئة الإلهية لنساء النبي من هذه التهمة:

- ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]

ولو دققنا النظر في آية الإفك أكثر لوجدنا أن الذين جاءوا بالإفك هم عصبة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

وعند تدبر بقية السياقات القرآنية لم نجد أن العصبة قد تجمعت إلاّ لتدبير مؤامرة كتلك التي حاكوها ليوسف:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

فنحن لا نجد أن العصبة يمكن أن تتجمع إلا لتنفيذ مؤامرة تخدم أهدافاً خاصة، لا يكون فيها خيراً –حسب ظنهم وحسبتهم- إلا لهم، ولكن تتدخل القدرة الإلهية بالمكر لأن الله هو خير الماكرين:

- ﴿... وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]

فينقلب السحر على الساحر، فلقد ظنّ إخوة يوسف (وهم عصبة) أنهم سيجنون الخير من فعلتهم تلك، فكانت النتيجة على عكس ما خططوا ونفذوا، فجاء الخير (كل الخير) لمن مكروا به (وهو يوسف)، فكان في فعلتهم تلك خيراً ليوسف وأخيه وشراً لهم، وبنفس المنطق، لقد ظنت تلك العصبة التي دبرت حادثة الإفك

أنهم بذلك يستطيعون الإيقاع بالمسلمين، والمكر بهذا الدين وأهله، عندما يتعرضون بالبهتان لبيت النبي، فجاء الخير بأن أنزل الله قرآن يتلى يطهر أهل البيت كله:

- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ۝٣٣﴾ [الأحزاب: 32-33]

ليكون رداً إلهياً على كل من يتعرض لبيت النبي بالسوء (ليس فقط في زمن النبي) وإنما في كل زمن وحين، وليبقى الحديث في ذلك ليس أكثر من بهتان مبين، ولتبقى تلك الحادثة ليس أكثر من حديث إفك مفترى.
ما هو الإفك؟

عند استعراض آيات الكتاب التي تتحدث عن الإفك، نجد أن الإفك يحمل في ثناياه معنى الخداع كما كان الحال بالنسبة لسحرة فرعون:

- ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝١١٧﴾ [الأعراف: 117]
- ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥﴾ [الشعراء: 45]

وفيه الافتراء على الآخرين والكذب:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾ [الفرقان: 4]
- ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾ [الصافات: 151-152]
- ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢٨﴾ [الأحقاف: 28]

وفيه معنى أن هذه الخدعة غالباً ما تكون غير مسبوقة:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾ [الفرقان: 4]
- ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١٧﴾ [العنكبوت: 17]
- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٤٣﴾ [سبأ: 43]

وإن هي كانت مسبوقة يصبح إفكاً قديما:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ [الأحقاف: 11]

ولا شك أن هذا القول (الإفك) سيكون فيه قول مختلف، يذهب كل فريق مذهبه:

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩﴾ [الذاريات: 7-9]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ [الأحقاف: 11]

نتيجة: لقد تمت تبرئة أهل بيت النبي من الوقوع في الخيانة بخبر ينزل من السماء قرآناً يتلى في كل وقت وحين، وقد نعت الله قول من يتحدث بهذا بأنه بهتان مبين، فكان هذا خيرا للمسلمين في كل وقت وحين، ولنتخيل لو أن الحديث بالإفك بقي سراً ولم يتحدث الناس به، لربما لم ينزل قرآناً يتلى بتبرئة نساء النبي من الخيانة، ولربما لم يجد المدافعون عن بيت النبي دليلاً يصدق ظنهم وعقيدتهم، ولربما ظل النقاش ومن ثم الدليل على التبرئة في هذه الأمة غير قطعي الثبوت كما كان الحال في بني إسرائيل الذين لم يترددوا في نعت امرأة نبيهم ورسوله إبراهيم بالخيانة، ونعت ولده إسماعيل بأنه الولد غير الشرعي لإبراهيم.

وقد كان جزء من ذلك الخير أن نزل في ذلك السياق القرآني نفسه آيات الشهادة على الزاني والزانية، فكان من رحمة الله بالناس أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة شهداء:

- ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ [النور: 12]
- ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾ [النور: 13]

ولنتخيل كيف يمكن أن تكون حال المسلمين لو أن الزنا يثبت بشاهدين اثنين فقط كباقي القضايا التي تتطلب الشهادة كالسرقة وقضايا الميراث وغيرها، فالله قد شدّد الشهادة على ثبوت الزنا بعد حادثة الإفك مباشرة، فكان ذلك خيراً للمؤمنين والمؤمنات جميعاً.

النتيجة: إنّ خيانة نساء الأنبياء لا يمكن أن تثبت أو تنفى إلا بنص صريح في القرآن الكريم، فمن كانت خائنة ورد فيها نص صريح بالخيانة كامرأة نوح وامرأة لوط، ومن اتهمت بالخيانة ورد نص صريح بتبرئتها (كنساء النبي)، ومن لم تكن مثار جدل لم ينزل بحقها نص يثبت عليها التهمة أو ينفي عنها الخيانة.

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي اللّٰه لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الثامن)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (8)؟

انتهى نقاشنا السابق عند محطة حديث الإفك، وحاولنا تبيان كيف يمكن أن تكون تلك الحادثة خيراً للمسلمين وليس شراً لهم وذلك بوضع تلك الحادثة في إطار الحديث عن خيانة نساء الأنبياء، وظننا أن نزول آيات قرآنية تثبت طهارة أهل بيت النبي وتدفع الأذى والشبهة عنهم شكلت حجة لا يمكن المجادلة فيها في كل زمن وحين، لتكف ألسنة الناس على مر الزمان عن إيقاع الأذى ببيت النبي، وعند ربط آيات الكتاب الحكيم بعضها مع بعض وجدنا أن جلب آية نهي المؤمنين كافة عن نكاح زوجات النبي من بعده مع آية تطهير بيت النبي أمر لا مفر منه.

فنحن نزعم القول أنه عندما تم تطهير بيت النبي بقرآن كريم، أصبحت نساء النبي أزواجه فعلاً (وليس فقط نساءه كما كان حال نساء أنبياء آخرين)، وظننا أن كتاب الله قد فصّل نساء الأنبياء في أربع فئات رئيسة:

1. نساء أنبياء كنّ نساءهم فقط ولم يكنّ أزواجا لهم، لأنهن وقعن بالخيانة (وجاء ذكرهنّ بالقرآن بصيغة "امرأة" وليس "زوج")، وتحدث القرآن بصريح اللفظ عن خيانتهن كامرأة نوح وامرأة لوط
2. نساء أنبياء كنّ نساءهم فقط ولم يكنّ أزواجا لهم ولكنهنّ لم يقعن بالخيانة (وتمت مخاطبتهن بصيغة امرأة وليس "زوج") كنساء إبراهيم
3. نساء أنبياء لم يكنّ في البداية أزواجا لهم (فتمت مخاطبتهن بصيغة امرأة) ثم انقلبت حالهن، فأصبحن أزواجا للنبي بعد أن أصلحهن الله (فتمت مخاطبتهن مرة أخرى بصيغة زوج) كزوجة زكريا
4. نساء أنبياء هن أزواج لهم (فتمت مخاطبتهن بصيغة "زوج" ولم يرد ذكرهن بصيغة "امرأة") كنساء النبي محمد

الدليل على هذا التفصيل

لقد تحدثنا في مقالات سابقة عن الفرق بين أن تبقى الأنثى امرأة للرجل أو أن تصبح زوجا له (انظر مثلاً مقالتنا تحت عنوان ماذا ستفعل النساء في الجنة؟)، فلا نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط بصيغة "الزوج" إطلاقاً، وصرّح القرآن بالخيانة التي وقعن بها:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]

وقد دفعتنا هذه المشاهدة من القرآن الكريم إلى الظن بأن نساء هذين النبيين الكريمين لم يكونا يوماً أزواجا لهم، فامرأة نوح هي امرأته وليست زوجته، والمنطق نفسه ينطبق على امرأة لوط، ولكن أكثر ما كان يميزهما دون نساء الأنبياء كافة هي الخيانة التي وقعن بها.

ولكن لم تكن كل نساء الأنبياء – بكل تأكيد – على تلك الشاكلة، فكان هناك نوع آخر من نساء الأنبياء، فبالرغم أن إبراهيم مثلاً كان متزوجاً بهاجر وسارة، لكننا لم نجد في القرآن الكريم أن أولئك النسوة قد حظين بشرف أن يكن أزواجا لنبي الله ورسوله إبراهيم، فلا يوجد في القرآن الكريم وصفاً لنساء إبراهيم غير أن كل واحدة منهن كانت "امرأة" إبراهيم فقط وليس زوجة إبراهيم:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]
- ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ [الذاريات: 29]

(للتفصيل حول الفرق بين المرأة التي كانت قائمة والمرأة التي كانت مقبلة انظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب)

وكان هناك نوع ثالث من نساء الأنبياء، فلم تكن امرأة زكريا في البداية أكثر من "امرأة" له، واستمر الحال بها على تلك الشاكلة حتى رفع زكريا يديه إلى السماء طالباً الذرية ومشتكياً من سوء خلق امرأته تلك، فنادى ربه قائلاً:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 4-5]

فجاء الرد إيجابياً من الله على الفور:

- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ [مريم: 7]

ولكن بقيت مشكلة زكريا في عقور (أي نشوز) زوجته:

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]

فكان الكرم الإلهي على زكريا يزيد عن ما كان يتوقع الرجل، فكان صلاح تلك المرأة مصاحباً لحملها بيحيى، لتصبح منذئذ زوجاً له (وليس فقط امرأته):

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

(للتفصيل حول الفرق بين المرأة العاقر كامرأة زكريا والمرأة العقيم كامرأة إبراهيم انظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب)

وهناك النوع الرابع من نساء الأنبياء وهن اللواتي تمت مخاطبتهن بصيغة "زوج" (وليس بصيغة امرأة)، فنساء النبي محمد كن خير مثال على هذه الفئة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: 59]

فلا نجد في كتاب الله خطابا إلهياً يخص نساء النبي قد جاء بصيغة "امرأة".

ولكننا نتوقف هنا لنطرح **التساؤل التالي:** لماذا نُهي المؤمنون عن نكاح أزواج النبي محمد من بعده؟ ولماذا لم يصدر نهي مثله بحق نساء نبي الله إبراهيم مثلاً؟

إننا نظن أن الجواب ربما يكمن في قوله تعالى:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: 72]
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 21]

رأينا: نظن أن نساء النبي أصبحن بعد حادثة الإفك أزواجه (أي من نفسه)، لذا جاء الأمر الإلهي بتحريم نكاح أزواج النبي من بعده، ولكن – بالمقابل – لمّا لم تكن نساء إبراهيم مثلاً أزواجاً له (فقد كن فقط نساءه)، لم يصدر بحقهن مثل هذا النهي. ولنحاول تفصيل هذه القضية في السطور التالية:

أما بعد،

لنبدأ النقاش **بالتساؤل التالي**: كيف كان الأمر قبل حادثة الإفك؟

لا شك أن الله لم ينه الزوجات بشكل عام عن الزواج بعد موت أزواجهن:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: 234]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠﴾ [البقرة: 240]

وذلك لأن تلك الزوجة – في رأينا – لا تعلم (وكذلك لا يعلم زوجها) إن كانت فعلاً من نفسه (أي زوجه) أم ليست من نفسه (أي امرأته فقط)، فهي تصبح من نفسه متى لم تتزوج بغيره، فإن هي تزوجت غيره لا شك تصبح امرأته (من نسائه)، لكنها – بكل تأكيد – ليست زوجه. لهذا لم تكن نساء النبي قبل حادثة الإفك أزواجا للنبي (وإنما نساءه فقط)، وذلك بدليل ما جاء في قوله تعالى بحقهن جميعاً:

- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: 5]

وذلك لأن من أبجديات عقيدتنا أن النفوس ستزوج في يوم القيامة قبل بدء الحساب:

- ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ [التكوير: 5-8]

للتفصيل حول هذه القضية انظر مقالتنا ماذا ستفعل النساء في الجنة؟

وجاء التخيير لهن بالبقاء أو الترك:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨﴾ [الأحزاب:28]

وقد تمت مخاطبتهن قبل هذه الحادثة بالكلام الذي لا يخلو من نبرة التهديد، وجاء ذلك بصيغة يا نساء النبي:

- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ [الأحزاب: 30]
- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ [الأحزاب: 32]

ولم يستبعد القرآن الكريم احتمالية أن يكون في قلوب نساء النبي "شيء من الريبة" قبل هذه الحادثة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ [الأحزاب: 53]

إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباطات حول قول الحق "ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ" هو احتمالية أن يقع في قلب نساء النبي "شي من عدم الطهارة" نتيجة اطلاع المؤمنين عليهن واطلاعهن عليهم، فنساء النبي هنّ في نهاية المطاف بشر ربما يقع في قلوبهن ما يمكن أن يقع في قلوب البشر العاديين، فنحن لا نرى أن قلوب نساء النبي في هذه اللحظة يمكن أن تكون أكثر طهراً من قلب يوسف عليه السلام مثلاً، فحتى نبي الله يوسف وقع في قلبه "شيء من عدم الطهارة" عندما همّ بامرأة العزيز بعد أن همت هي به:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

فغالباً ما ذهب أهل العلم إلى أن يوسف لم يقع في قلبه شيء من الريبة (أو عدم الطهارة)، لأنهم أرادوا بذلك تبرئة يوسف من مثل هذا العمل، ظانين أنهم ربما يخدمون الدين عندما لا يلقون بشيء من التهمة على نبي كريم مثل يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم جميعاً أفضل السلام.

لكننا نرى – ربما مخطئين – أن النص القرآني واضح، فلقد فعل يوسف مثل ما فعلت المرأة التي هو في بيتها، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ، ولو كان ما فعله يوسف يختلف عن ما فعلت هي لما جاء اللفظ القرآني متطابقاً، فلا يجوز أن نفسر النص نفسه بطريقتين مختلفتين، وكأننا نحاول أن نتعذّر عن الإله فيما يقول، فالله – لا شك عندنا – يقصد ما يقول ويقول ما يقصد، لا أكثر.

والأهم من ذلك هو أن النص القرآني يبين أنه لم يمنع يوسف عن الوقوع في الفاحشة سوى أنه رأى برهان ربه، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ، فلو لم ير يوسف برهان ربه لربما وقع في المحظور، ولكن كيف رأى يوسف برهان ربه؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن برهان ربه الذين راءه يوسف هو ذلك القميص الذي قدّته المرأة يوم أن ولى مدبراً، ولكن كيف؟

تخيلات تحتاج إلى دليل: نحن نتصور ما حدث على النحو التالي: يوسف يهمّ بالمرأة بعد أن تهم هي به، فيبدأ بخلع ملابسه الواحد تلو الآخر (ولا شك أنها قد سبقته في ذلك فهي من همت به أولاً)، وما أن يصل إلى ذلك القميص بالتحديد الذي كان يلبس (وهو برهان ربه) حتى يتذكر أنه القميص الذي ورثه عن أبيه يعقوب وجده إسحق وجدهم إبراهيم: إنه القميص الذي خرج به إبراهيم من نار قومه العظيمة يوم أن أمر الله تلك النار بقوله لتكون برداً وسلاماً على إبراهيم (وسنتعرض لقصة قميص يوسف في كتاب منفصل بحول الله وتوفيقه).

> وسنرى لاحقاً ما قصد يوسف عندما حدد قميصاً بعينه ليعود به إخوته ليلقوه على وجه أبيهم فيرتد بصيرا:
>
> - ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: 93]
>
> وسنحاول الخوض في سؤال واحد وهو: لم حدد يوسف ذاك القميص بقوله " بِقَمِيصِى هَٰذَا "؟

إنّ ما يهمنا هنا هو القول أن البشر (حتى لو كانوا أنبياء) لا يمكن أن تكون قلوبهم طاهرة تماماً في كل وقت وحين، وبالمنطق نفسه يمكننا الظن أن نساء النبي لم تكن قلوبهن طاهرة على الدوام، فلقد طلب الله

من المسلمين أن لا يؤذوا رسول الله بنسائه، فيسألوهن من وراء حجاب وذلك طهارة ليس فقط لقلب السائل (وهم المؤمنون) ولكن لقلب المسئول أيضاً (وهن نساء النبي). فكان ذلك حال نساء النبي في تلك اللحظة.

وما أن حصلت حادثة الإفك حتى أصبحت تلك الحادثة في نتائجها كحادثة قدّ قميص يوسف في نتائجها، فلقد تطهر قلب يوسف بعد تلك الحادثة تماماً حتى أنه آثر السجن على الوقوع في الفاحشة، وبالمنطق نفسه ربما يمكننا الزعم بأن حادثة الإفك جاءت طهارة لقلوب نساء النبي، فأصبح الوقوع في الفاحشة (أو حتى التفكير بالوقوع بالفاحشة) أبعد ما يكون عن قلوبهن بعد ما رأين بأم أعينهن ما آلت إليه الأمور بسبب تلك الحادثة، عندها جاء الأمر الرباني بأن هؤلاء النساء أصبحن فعلاً أزواج النبي (أي من نفسه)، لذا لا يحق لأي إنسان أن ينكحهن من بعد رسول الله، فأصبح نكاح أزواج النبي في تلك اللحظة فقط أمراً عظيما:

- ﴿... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: 53]

في حين أن الله قد هدّدهن بالاستبدال قبل تلك الحادثة:

- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: 5]

نتائج حادثة الإفك:

1. كان طلاق نساء النبي قبل حادثة الإفك أمراً ممكنا، لكن النبي لا يستطيع الآن أن يطلق منهن أحدا، فهن أزواجه
2. لا يمكن لأي واحدة منهن أن تفكر بزواج غيره بعد الآن، فلقد اخترن أن يكن أزواجه
3. لا يحل لأي إنسان أن ينكح أزواج النبي من بعده

نتيجة: كان طلاق نساء النبي قبل حادثة الإفك أمراً ممكنا، وكان نكاح المؤمنين لنساء النبي (إن هو طلقهن) أمراً لم يصدر بحقه نهي، ولكن بعد حادثة الإفك انقلب الأمر برمته، فأصبح طلاقهن غير ممكن، ونكاحهن من قبل المؤمنين بعد وفاة رسول الله أمراً منهي عنه بنص قرآني (إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا)

ولكن لماذا؟

إننا نظن أن الجواب يكمن في التطهير الرباني:

- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33]

ولكن كيف؟

لا شك لدينا أن الطهارة في القرآن الكريم صدرت بحق طهارة القلب:

- ﴿... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ... ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: 41]
- ﴿... ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ... ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: 53]

وصدرت كذلك بحق طهارة الفرج:

- ﴿... وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ... ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]
- ﴿... وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ... ﴿٦﴾﴾ [المائدة: 6]

ونحن نظن أنّ العلاقة بين طهارة القلب وطهارة الفرج هي علاقة مباشرة، فلا يمكن أن يطهر الفرج ما لم يطهر القلب أولاً، فالفتنة (الناتجة عن الزنا) تقع أولاً في القلب قبل أن تنفذها الجوارح، فلقد طلب الله من المؤمنين أن يسألوا نساء النبي ما يريدون من حاجة من وراء حجاب وذلك طهارة لقلوبهم وقلوبهن:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: 53]

لكي لا تحصل الفتنة الحقيقية التي ينفذها الجوارح إن كان القلب غير طاهراً أساساً، فهناك أناس لم يرد الله لهم طهارة القلب:

- ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ

لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ [المائدة: 41]

فما دام أن الله قد أراد لهم الفتنة، فإن مسألة طهارة القلب تصبح مستعصية بالنسبة لهم (وهذا ما سنرى أنه النقيض بالنسبة لبيت النبي)، فالله لم يرد لبيت النبي الفتنة، وبالتالي فقد أراد الله لنساء النبي طهارة القلب.

لكن حديثنا هنا يتمحور حول طهارة الفرج بالنسبة للنساء، فكيف تكون تلك الطهارة؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نرى أن طهارة الفرج تتلخص في حالتين: المحيض والجماع

فطهارة الفرج قد تكون بالتخلص من الأذى المتمثل في المحيض والنفاس:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

فمتى تخلصت المرأة من ذلك الأذى، أصبحت طاهرة (وليس مطهرة) يمكن لزوجها أن يجامعها في الفراش، ولكن الله أمر باعتزال النساء ما دمن غير طاهرات

ولا شك – عندنا – أن الله أمرنا أيضاً بالطهارة من الجنابة (بعد الجماع):

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: 6]

نتيجة: ما يحدثه الجماع يحدثه المحيض ليتطلب الأمر الطهارة في كلا الحالتين

> وقد أشرنا في أكثر من موقع سابق أن الفرق بين المتطهر والمطهر هو الفرق بين الدنيا والآخرة، فما هو موجود في الدنيا فهو متطهر بينما ما هو من أمر الآخرة فهو مطهّر:

- ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: 25]
- ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: 15]
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: 57]
- ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: 77-79]
- ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: 13-16]
- ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة: 2]

وربما لهذا جاء طلب الله من إبراهيم وإسماعيل تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود:

- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]
- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]
- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]

فلا يحق لمن قدم ذلك البيت ليكون طائفا وعاكفا وراكعاً ساجدا أن يجامع النساء هناك.

ولا شك أن الطهارة أمر خاص بالنساء، لذا فقد أغضب أهل المدينة (قوم لوط) أن يكون لوط ومن معه من المتطهرين (أي الذين لا يجامعون إلا النساء):

- ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: 82]
- ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: 56]

فجماع النساء فيه الطهارة، فجاءت دعوة لوط للقوم على نحو:

- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود: 78]

نتيجة: يحدث المحيض وجماع الرجال النساء أذى يمكن التخلص منه بالاغتسال (لكن جماع غير النساء يحدث نفس الأذى الذي لا يمكن التخلص منه حتى لو حصل الاغتسال).

لكن المدقق في السياقات السابقة جميعاً يجد أن فعل طهارة الفرج (من المحيض والجنابة) يقوم به الناس بأنفسهم، فالحائض أو النفساء هي من تقوم بالتطهير من ذلك الأذى ويكون ذلك بشكل طبيعي، وكذلك يفعل من يجامع النساء، فهو يقوم هو بعملية التطهر بالاغتسال من الجنابة، وكذلك يفعل الطائفون والعاكفون والركع السجود.

ولكن هناك مفارقة عجيبة تخص قضية طهارة بيت النبي وهي أن تلك الطهارة صادرة من الله نفسه:

- ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]

فالإرادة بطهارة بيت النبي صادرة من الذات الإلهية، فالله نفسه هو من أراد الطهارة لبيت النبي وذلك بأن يذهب عنهم الرجس الذي لا شك سيؤدي إلى شفاء القلوب، لأن من كان قلبه مريضاً فإن كلمات الله ستزيده رجساً إلى رجسهم:

- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: 125]

لذا فإن ما يهمنا هنا هو تفصيل الفرق بين طهارة الفرج التي يقوم بها الإنسان بنفسه والطهارة الصادرة عن الذات الإلهية. فنحن لم نجد في النص القرآني أنّ الطهارة (طهارة الفرج) قد صدرت مباشرة من الذات الإلهية إلا بحق مريم أخت هارون:

- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: 42]

وصدرت كذلك بحق ابنها المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾ [آل عمران: 55]

نتيجة: هنا يمكننا الاستنباط أن طهارة الفرج إذا صدرت من الذات الإلهية بحق خلق بعينهم، فإنها تستوجب عدم الزواج ، أي كل ما يمكن أن ينقض تلك الطهارة كالحيض (الذي يستوجب الطهارة منه عند النساء) والجماع (الذي يستوجب كذلك الطهارة منه عند الرجال)، فلمّا كان الله – نحن نظن – قد طهّر مريم فقد منعها عن الزواج (فلا حيض ولا نكاح)، وعندما طهّر عيسى بن مريم لم يكن لعيسى أن يتزوج (فلا ينكح النساء)، وبالمنطق نفسه يمكننا الزعم أنه لمّا أراد الله أن يطهّر بيت النبي فقد صدر الأمر الإلهي بأن لا تنكح نساء النبي أحداً من بعده؟

ولكن لماذا؟

الجواب: إنه ما يمنع المرأة من الجماع وما يمنع الرجل من الزواج، ولكن ما هو؟

في حالة النساء فهو الحيض؟

إن المرأة يمكن أن يكون لديها القابلية للنكاح ما دامت تغتسل من الحيض (فمتى اغتسلت المرأة من الحيض أصبحت قابلة للنكاح)، ولكن ماذا لو كانت المرأة لا تحيض أصلاً؟ عندها تكون امرأة طاهرة لا يكون لديها الرغبة بالنكاح.

وانظر الجمع بين من يئست من المحيض ومن لم تحيض أصلا في قوله تعالى:

- ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق: 4]

وكذلك القواعد من النساء:

- ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٦٠﴾ [النور: 60]

إننا نظن أن مريم بنت عمران كانت مطهّرة لأنها لم تكن تحيض إطلاقاً، وليس أدل على ذلك من قول الحق لها:

- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران: 42-43]

ونحن نتساءل كيف يمكن أن ينفخ الروح فيها إن لم تكن هي طاهرة

فلو دققنا في هذا السياق القرآني جيداً لوجدنا أنه ما أن جاء الأمر الإلهي عن طريق الملائكة بالطهارة لمريم حتى أمرت بالقنوت لربها وبالسجود والركوع مع الراكعين، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن لمريم أن تكون على الدوام مع الساجدين والراكعين لو كان يصيبها شيء من الأذى (أي الحيض)؟

رأينا: لقد كانت مريم على الدوام مع الساجدين الراكعين لأنه لم يكن يصيبها الحيض، وذلك لأن الله قد طهرها. فلو أصابها الحيض يوماً لما استطاعت أن تكون مع الراكعين الساجدين.

وعند تطبيق ذلك على نساء النبي، فإننا نجد أن إرادة الله (وليس قول الله كما كان بالنسبة لمريم) كانت تقضي بطهارة بيت النبي، فالله كان يريد أن يذهب ذلك الأذى عن نساء النبي، عندها تكون قلوب النساء طاهرة، ويتبع ذلك طهارة فروجهن من الأذى فيصبح أمر الزواج ثانية غير وارد إطلاقاً.

نتيجة: إننا نظن أنه ما أن انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى (بالموت) حتى أصبحت نساءه غير مؤهلات للزواج بغيره وذلك لأن الطهارة (توقف الحيض والامتناع عن الجماع) أصبحت ملازمة لهن على الدوام. ولقد نعت الله نكاح نساء النبي من بعده بالأمر العظيم وذلك لأن الطهارة (طهارة فروجهن كانت من الله)، ولنتخيل لو حصل نكاح لمريم بنت عمران، ألا يكون ذلك أمرا عظيما، ولنتخيل لو حصل نكاح مع عيسى بن مريم، ألا يكون ذلك أمراً عظيماً. إن نكاح فرج من صدر بحقه (أو بحقها) طهارة ربانية يصبح أمراً عظيماً

(وسنحاول التعرض لهذا الموضوع بتفصيل أكثر عندما نحاول التعرض لعيسى بن مريم وأمه في مقالات منفصلة بحول الله وتوفيقه)

عودة على بدء:

لقد أخذنا الحديث عن نساء إبراهيم إلى قضية حادثة الإفك وحاولنا تبيان كيف كان حديث الإفك خيرا للمسلمين وليس شراً لهم، وكان ذلك بعقد مقارنة بين نساء إبراهيم (اللواتي لم يصدر بحقهن نبأ إلهي بالطهارة) ونساء النبي محمد (اللواتي صدر بحقهن نبأ إلهي بالطهارة بعد حادثة الإفك)، وزعمنا الظن أن المسلمين كادوا يفعلون (ولقد فعلوا فعلاً) ما فعله بنو إسرائيل بحق نبيهم ونساءه عندما اتهموا هاجر بالزنا، ونعتوا ابنها إسماعيل بأنه الابن غير الشرعي لجدهم إبراهيم، وقد أصبح أمر الدفاع عن بيت إبراهيم يكتنفه شيء من الصعوبة لأن التبرئة لم تأتي بنبأ إلهي، لكن بالمقابل أصبح الدفاع عن بيت محمد سهلاً ميسراً ما دامت التبرئة قد جاءت من العليم الخبير نفسه، فمهما حاول نفر من المسلمين (أو من غيرهم) الطعن في عرض النبي فلن يرقى ذلك إلى إثارة الشك حول نساء النبي لأن الغالبية العظمى من المسلمين سيعودون على الفور إلى دليل التبرئة الذي صدر بحقهن جميعاً، وحتى لو حاول البعض ليّ عنق النص بما يسمى بأسباب

النزول حتى ربط بعضهم ذلك بعائشة وربط آخرون السبب بمارية القبطية، فذاك لن يمنع أن تكون التبرئة قد صدرت بحق نساء النبي جميعاً، فالله قد قضى بالطهارة لأهل البيت

(وقد حاولنا في أجزاء سابقة تبيان كيف أن الزوجة هي جزء أساسي من أهل البيت - للتفصيل انظر الأجزاء السابقة-).

وهنا نجد لزاما العودة إلى قصة إبراهيم بطرح **التساؤل** التالي: لماذا اختار إبراهيم ذلك المكان المقفر ليكون محل سكن ذريته؟

لماذا اختار إبراهيم ذلك الموقع بالذات؟

الجواب: إننا نظن أن جزءاً من الإجابة ربما يكمن في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن توافر منسكاً خاصاً بكل أمة:

- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: 67]

لذا، كان انقسام أمة إبراهيم إلى أمتين كان يتطلب أن تختلف مناسكهم، خصوصاً اختلاف مناسك الحج مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: 34]

وسنخوض فيما تبقى من هذا الجزء في هذا الأمر بشيء من التفصيل، علنا نستطيع – بحول الله وتوفيقه – التوصل إلى سبب تغيير القبلة عند المسلمين بعد أن صلّوا باتجاه بيت المقدس قسطاً من الزمن:

أما بعد،

لا شك عندنا أن إبراهيم نفسه قد استقر مع جميع أهله في الأرض التي بارك الله فيها بعد أن أنجاه الله من كيد قومه، لقد نجّاه الله إلى تلك الأرض المباركة ليستقر فيها كما استقر فيها لوط أيضاً:

- ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 69-72]

وها هو يقرر الآن بنفسه أن يُسكِن جزءاً من أهله في مكان جديد غير تلك الأرض التي استقر هو فيها بعد أن أنجاه الله من نار قومه، فيختار لهم تلك البقعة من الأرض:

- ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وهنا لا نتوقف عن طرح **التساؤل التالي**: لماذا اختار إبراهيم هذا الموقع بالذات ليسكن أهله فيه بالرغم من قساوة المكان (بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ)؟ ألم يكن يجد إبراهيم مكاناً أفضل ليسكن أهله فيه؟ لِمَ لَمْ يسكنهم في مكان كان الزرع والماء فيه وفيرين؟ ولماذا لم يسكنهم عند قوم من الناس بدل أن يطلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم في ذاك المكان الجديد؟ هل ضاقت الأرض بإبراهيم ليختار هذا المكان على وجه التحديد؟

الجواب: إننا نظن أن إبراهيم لم يكن يملك إلا أن يسكنهم هذا المكان بالضبط، ولكن لماذا؟

الجواب: إنها القدسية، قدسية المناسك.

نعم، لقد كانت قدسية المكان هي السبب الذي دفع بإبراهيم أن يختار هذا المكان دون غيره، فإبراهيم لم يكن يبحث عن طعام أو شراب، ولكنه كان يبحث عن مكان له قدسية خاصة تواز (ولا تقل) عن قدسية المكان الذي ترك فيه الجزء الآخر من ذريته.

بيت المقدس والبيت الحرام

لا شك عندنا أن إبراهيم قد سكن الأرض التي بارك الله فيها، وهي نفسها التي واعد الله موسى فيها، وهي نفسها التي وضعت مريم طفلها فيها، وهي نفسها التي سكنها كل أنبياء تلك الذرية الطيبة من آل إبراهيم من ذرية إسحق على وجه التحديد وهو - في ظننا - بيت المقدس. وهنا يجد إبراهيم أنه بحاجة أن يبحث للجزء الآخر من تلك الذرية عن مكان لا يقل أهمية في قدسيته عن المكان الذي كان من نصيب الجزء الآخر من ذريته.

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن إبراهيم قد قلب وجهه في السماء باحثاً عن ذلك المكان، فوقع اختياره على بيت الله المحرم لأن إبراهيم - لا شك عندنا - يعلم تمام العلم أن ذلك البيت هو أول بيت وضع للناس كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: 96]

لقد اختار إبراهيم أول بيت وضع للناس ليكون هو موطن الجزء الآخر من ذريته. وهنا نجد لزاماً إثارة بعض التساؤلات حول مفردات هذه الآية الكريمة نذكر منها:

1. أول بيت

2. وضع للناس
3. بكة

التساؤلات

⇐ السؤال الأول: ما هو أول بيت وضع للناس؟
⇐ الجواب: بيت الله المحرم
⇐ السؤال الثاني: كيف حصل ذلك؟
⇐ الجواب: البيت وضع وضعاً ولم يبنى بناءاً أو ينشأ أنشاء
⇐ السؤال: أين وضع ذلك البيت؟
⇐ الجواب: ببكة؟
⇐ السؤال: ما هي بكة؟
⇐ الجواب: هي جزء من مكة
⇐ السؤال: لماذا بيت المقدس والبيت الحرام
⇐ الجواب: هي إعادة لقصة الخلق الأولى (قصة آدم وزوجه حواء)

النقاش

أولاً، لقد تحدثنا آنفاً عن معنى البيت، وذكرنا أن البيت هو المكان الذي يسكنه الشخص وتبقى ملكيته قائمة لصاحبه، فلا تنتقل ملكيته للآخرين، ولما كان ذلك البيت هو بيت الله الحرام، فإن ملكيته لله، ولم يشهد التاريخ يوماً أنّ شخصاً ما قد ادّعى ملكية ذلك البيت، فهو بيتاً وليس مسكناً، وقد وضع بيت الله الحرام للناس، فكان لكل شخص على وجه هذه المعمورة نصيباً فيه، لكن لا يستطيع أحد أن يدعي ملكيته منذ أن وضع على الأرض.

ثانياً، أن ذلك البيت قد وضع وضعاً ولم يبنى بناءاً، فالله لم يقل أن ذلك البيت قد بني أو أنشى ولكنه قال:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

كيف كان البيت الحرام أول بيت وضع للناس؟

إن هذا السؤال يعيدنا مباشرة إلى قصة الخلق الأولى، وقد تحدثنا في مقالات سابقة أن الله بعد أن خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له أسكنه وزوجه الجنة، وزعمنا القول أن جنة آدم تلك لم تكن جنة الخلد التي سيؤول الناس إليها بعد البعث والحساب، كما زعمنا الظن بأن جنة آدم كانت على الأرض، فالله في البدء خلق آدم ليكون خليفته على الأرض بغض النظر عن المعصية التي ارتكبها آدم بعد أن أكل من الشجرة التي

نهاه الله عن الأكل منها، والقارئ الكريم مدعو لمراجعة مقالتنا تحت عنوان أين كانت جنة آدم؟ وأين تمت مناداة الله نبيه موسى؟ للخوض في تفاصيل هذا الافتراء.

أما ما يهمنا هنا فهو إعادة تدبر الخطاب الإلهي لآدم وزوجه يوم أسكنهم تلك الجنة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

إن أبسط ما يمكن أن نستنتجه من هذا الخطاب أن الله قد طلب من آدم وزوجه سكن الجنة كلها وليس فقط جزءاً منها وما منعه عن شيء فيها باستثناء الأكل من تلك الشجرة، وقد زعمنا في مقالة سابقة لنا أن تلك الشجرة كانت تلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء:

- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ٢٠﴾ [المؤمنون: 20]

لما أكل آدم من تلك الشجرة التي تنبت بالدهن والصبغ تلونت أجسادهم فبدت لهما سوآتهما:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

(للتفصيل انظر مقالتنا أين كانت جنة آدم؟ وأين حصلت مناداة الله نبيه موسى؟)

وبعد أن عصى آدم ربه جاء الأمر الإلهي له ولكل من يسكن الجنة بالهبوط:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]
- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]

السؤال: إلى أين أُمر آدم وزوجه بالهبوط؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم الظن بأن الجنة التي سكنها آدم وزوجه قبل المعصية هي الأرض التي بارك الله فيها (بيت المقدس)، ولكن بعد المعصية أمر الله آدم بالهبوط منها إلى الواد غير ذي الزرع (مكة)، فكانت رحلة آدم قد بدأت من بيت المقدس وانتهت في مكان البيت الحرام، وكذلك كانت رحلة إبراهيم مع ولده إسماعيل، انتقال من بيت المقدس إلى البيت الحرام.

نتيجة: لقد عاد إبراهيم السير على خطى أبيه آدم، فهبط بأهله من بيت المقدس إلى البيت الحرام،

ولكن أين الدليل على ذلك؟

الجواب: إننا نزعم القول بأن تدبر حياة آدم قبل المعصية وتدبرها بعد المعصية ربما يسعفنا في إثبات زعمنا هذا، ولنبدأ النقاش بالعودة إلى دراسة طبيعة حياة آدم في الجنة قبل وقوع المعصية.

حياة آدم في الجنة قبل المعصية

لو تدبرنا السياق القرآني التالي من سورة طه التي تصور لنا كيف كان يعيش آدم في جنته الأولى لوجدنا أن الرجل لم يكن يحتاج إلى مسكن أو مأوى، ولكن كيف؟

أولاً: لقد حذر الله آدم وزوجه من الوقوع في مكيدة الشيطان لأن النتيجة ستكون الشقاء:

- ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: 117]

فحياة آدم في الجنة قبل المعصية لا شقاء فيها لأن آدم لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: 118-119]

وهذا يعني أن حياة آدم بعد الوقوع في المعصية قد أصبحت حياة ملئها الجوع والعري والعطش والضحى، فلا شك لدينا أن آدم قد انتهت به الرحلة إلى مكان غير ذي زرع، وبالتالي فالمكان لا ماء ولا زرع فيه (الجوع والظمأ).

ثانيا، لقد صدر الأمر الإلهي لآدم بالهبوط، لذا فقد انتهى به المطاف في ما يشبه الواد.

ثالثاً، لقد هبط آدم وزوجه إلى ذلك الواد وقد أصبهما العري، لذا فقد أصبحوا يتأثرون بعوامل الطقس بعد أن بدت لهما سوآتهما، فهو إذاً بحاجة إلى مكان يؤويه من تغيرات عوامل الطقس التي لا شك أصبحت تؤذيه وزوجه، وهنا بالذات يأتي ذكر البيت الحرام بأنه أول بيت وضع للناس:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران: 96]

نعم لقد كان ذلك البيت هو أول بيت وضع ليسكنه آدم وزوجه بعد أن أخرجهما الشيطان من الجنة، وقد كان الشقاء (متمثلاً بالجوع والظمأ والعري والضحى) مصاحباً لهم في محطتهم تلك.

ولو تدبرنا ذلك السياق القرآني لوجدنا أن ذلك البيت لم يبنى بناء وإنما وضع وضعاً، ولكن كيف؟

لا شك لدينا أن آدم وزوجه قد حط بهم الترحال إلى هذا المكان المقفر بعد أن كانا في جنة، وقد أصبحت أجسادهم تتأثر بعوامل المناخ فكانت بحاجة إلى مأوى، ولكن لما كان آدم لا يجيد صناعة بناء المساكن بعد، تدخلت القدرة الإلهية باللطف بآدم وزوجه فتم وضع البيت لهم ليسكنوه في ذاك الواد المقفر، ولو تدبرنا معنى مفردة الوضع لربما تحصل الفهم لدينا بأن الوضع هو للشيء المحمول، فيتم تنزيله من حالة الحمل إلى حالة السكون على الأرض مرة واحدة، فها هي امرأة عمران تحمل في بطنها مولودتها وعندما تضع ذلك الحمل مرة واحدة تقول:

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 36]

وهذه واحدة من مهمات النبي وهي أن يضع عن من يتبعه إصرهم والأغلال التي كانت عليهم:

- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157]

وعند مشابهة عملية وضع البيت الأول للناس مع هذه الحالات، نجد أنه يمكننا الزعم بأن البيت الحرام قد جاء محمولاً وتم وضعه في ذلك المكان، فكان الملاذ الأول لآدم وزوجه بعد خروجهم من الجنة وهبوطهم إلى هذا الواد.

إبراهيم: يسير على خطى الرحلة الأولى

لقد تقصى إبراهيم أثر أبيه آدم، فأخذ جزءاً من ذريته وحط به الترحال إلى ذاك الواد الذي وضع البيت الأول لآدم وزوجه فيه، وها هو الآن يعود ليرفع القواعد لذاك البيت من جديد مع ولده إسماعيل:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: 127-128]

فلقد كان إبراهيم أول من أعاد بناء ذاك البيت ليسكنه جزء من ذريته، ويكون وريث ذاك الإرث الديني العظيم، ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع لربما استطعنا بكل يسر وسهوله ربط قصة إبراهيم

وولده إسماعيل في ذاك المكان مع من سيكون الوريث الشرعي لذاك الإرث العظيم، إنه نبي هذه الأمة ورسولها محمد بن عبد الله:

- ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 124-129]

فإبراهيم يدعو لهذه البلدة بالرزق (فهي واد غير ذي زرع)، ويقوم بإعادة بناء (أو ترميم ذلك البيت)، وأخيراً يدعو الله أن يبعث في هذه الأمة الجديدة رسولاً من أنفسهم، فيكون محمد بن عبدالله هو حقاً دعوة إبراهيم لهذه الأمة، والوريث الشرعي لهذا الإرث الديني العظيم.

رسالة محمد ورحلة الإسراء إلى بيت المقدس

تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن رحلة المصطفى إلى بيت المقدس فيما أصبح يعرف في الفكر الديني الإسلامي برحلة الإسراء والمعراج، وأكدنا عندئذ إيماننا اليقيني بحصول حادثة الإسراء إلى بيت المقدس وإنكارنا لما يسمي بعروج المصطفى في تلك الليلة إلى السموات العلى، فنحن نلتزم بالإيمان بحصول الإسراء فقط مصداقاً لقوله تعالى في سورة الإسراء نفسها:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

وزعمنا الظن بأن الآية تتحدث فقط عن رحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فقط، وقد طرحنا في تلك المقالة (أين حصلت مناداة الله نبيه موسى) جملة من التساؤلات لنثير الشك حول ما تناقله الفكر الإسلامي عن ما أصبحوا يسمونه بالمعراج. ولا ضير أن نعيد جزءاً منها في هذا المقام لننطلق من خلاله إلى قضية تغيير القبلة التي صلّى إليها المسلمون قسطاً من الزمن.

لقد تناقل الفكر الإسلامي بعض الأحاديث عن تلك الحادثة، ونحن إذ لا ننوي أن نقحم أنفسنا في إثبات صحة سند تلك الأحاديث (فذاك شأن أهل الأختصاص)، إلا أننا لن نتخلى عن طرح بعض التساؤلات

حول متنها، فلربما يعلم العامة (وأهل العلم طبعاً) تفاصيل تلك الحادثة، لذا سنحاول الخوض في ما شاع بين العامة من أفكار حول تلك الحادثة لنسلط عليها الضوء من زوايا ربما تكون غير مسبوقة.

تساؤلات

أ. تؤكد الرواية أن النبي محمد قد صلى بالأنبياء في بيت المقدس قبل عروجه إلى السماء، ولكن لو تابعنا الرواية إلى منتصفها لوجدنا أن الصلاة أصلاً قد فرضت في المعراج، وهذا يدعونا إلى طرح التساؤل التالي: ماذا كانت نوعية الصلاة التي أمّ بها النبي محمد الأنبياء قبل معراجه إلى السماء؟ من يدري!!!

ب. تؤكد الرواية في بدايتها أن النبي محمد قد صلى بالأنبياء في بيت المقدس قبل عروجه إلى السماء، ولكن لو تابعنا الرواية جيداً لوجدنا أن النبي محمد كان يسأل جبريل عن من يقابل من أنبياء الله في كل سماء يصلها بقوله "من هذا يا جبريل؟" ليرد عليه جبريل بالقول "هذا أخوك موسى وهذا أخولك عيسى" وهكذا، وهذا ما يدعونا إلى طرح التساؤل التالي: ألم يصلى النبي بإخوانه من رسل الله قبل أن يعرج به إلى السماء؟ ألم ينظر خلفه ليتعرف عليهم هناك؟ كيف به إذاً يسأل عنهم هنا؟ أم تراه قد نسيهم؟! من يدري!!!

ت. تؤكد الرواية أن الصلاة قد فرضت في السماء العلى خمس مئة صلاة في البداية، وقد تم تخفيضها إلى خمسين، ثم إلى ... حتى انتهت إلى خمس بعد عدة رحلات بين موسى والسماء السابعة، وهذا يدعونا إلى طرح التساؤلات التالية: هل فعلا يرأف موسى بهذه الأمة أكثر من رأفة ربهم بهم؟ أم تراه أكثر علما بحالهم؟ ثم، لم – يا ترى- لم يعرج النبي مرة أخرى ليخفض الصلاة إلى صلاة واحدة في اليوم بدلاً من خمسة؟ ولو عاد مرة ثانية لربما خفضها لتكون صلاة واحدة في الأسبوع كالجمعة مثلاً؟ ولكن الحياء – حسب نص الرواية- هو الذي منع النبي عن العودة، أليس كذلك؟ هل نصلي - نحن المسلمين- خمس مرات في اليوم لا لشيء إلا لأن النبي قد أصابه الحياء أن يعود مرة أخرى؟ تخيل عزيزي المسلم أن الركن الثاني في الإسلام وهو الصلاة قد فرضت بهذا العدد فقط بسبب حياء النبي؟! ما شاء الله!!!

لكن السبب الأهم الذي يدعونا إلى إنكار حادثة المعراج هو الآية الكريمة التي تتحدث عن الإسراء إلى بيت المسجد الأقصى نفسها إن نحن تدبرناها جيداً. وسنقدم الآية مرة أخرى لنتدبر فيها جزئية بعينها تخص هدف الرحلة تلك:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

وهنا نتوقف لنطرح **سؤالاً واحداً** وهو: لماذا أسرى بالنبي محمد إلى المسجد الأقصى؟ أو ماذا كان الهدف من تلك الرحلة؟

الجواب: لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ

نعم، لقد تمت الرحلة إلى ذلك المكان لهدف واحد وهو حتى يري اللهُ نبيّه الكريم من آياته. ولكن كيف؟

السؤال: ألم يكن بالإمكان أن يرى محمدٌ آيات الله تلك وهو في مكة؟

الجواب: كلا، لأنه لو كان ذلك ممكنا لما كان هناك حاجة أن يذهب في تلك الرحلة، ولتم الأمر من هناك.

السؤال: هل كان العروج إلى السماء ضرورياً ليري اللهُ نبيَّه الكريم من آياته؟

الجواب: كلا، لأن الرؤية تمت من هناك (أي من مكان المسجد الأقصى)

السؤال: هل أسرّ ذلك النبي؟

الجواب: نعم ولا في نفس الوقت

ولكن كيف؟

لقد أسرّت الرحلة النبي محمد لأن الله قد أراه من آياته، فكان ذلك الجانب الذي أرضى محمد من ذهابه في تلك الرحلة، ولكن لو دققنا جيداً لربما استطعنا أن نستنبط أن الأمر أقلق النبي محمد، ولكن كيف؟

الجواب: نحن نعتقد أن النبي محمد قد أدرك حينها أن رؤية بعض آيات الله لا يمكن أن تتم إلا من هناك، أي من ذلك المكان (المسجد الأقصى)، فلو كان بالإمكان روية الآيات من المسجد الحرام لتمت رؤية الآيات من هناك، ولكن لما كان هذا الأمر متعذراً من مكان المسجد الحرام كان لزاماً الانتقال إلى المسجد الأقصى، فعاد مأموراً بأن يولّي وجهه قبل المسجد الأقصى في صلاته.

نتيجة: لقد أدرك النبي محمد أن رؤية بعض آيات الله لا يمكن أن تتم إلا من ذلك المكان (المسجد الأقصى) فسبب ذلك قلقاً له، فتوجه في صلاته شطر ذلك المسجد، فصلى بالمسلمين قسطاً من الزمن مولياً وجهه شطر المسجد الأقصى، لكن ذلك كان على الدوام المحرك الأساسي لأن يقلب وجهه في السماء، غير راض عن تلك القبلة باحثاً عن البديل الذي يرضيه حتى تحقق له ما أراد:

- ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة: 144]

إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباطات من هذه الآية الكريمة هو أن النبي محمد لم يكن راض تمام الرضا عن القبلة التي هو عليها الآن، وهذا واضح من قول الحق "فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا"، وهنا يبرز السؤال الأهم: لماذا لم يكن محمد راض عن القبلة الأول وبقي يقلب وجهه في السماء حتى تحقق له ما أراد؟

هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيقه في الجزء القادم من هذا الكتاب

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء التاسع)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (9)؟

خلص الجزء السابق إلى الزعم بأنّ المعراج إلى السموات العلى (التي حاول الفكر الديني الإسلامي تسويقه لقرون من الزمن) لم يحصل إطلاقاً، ولم تكن رحلة النبي محمد – في رأينا- أكثر من رحلة من المسجد الحرام الذي ببكة إلى المسجد الأقصى الذي في بيت المقدس، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]

وحاولنا التركيز في نهاية ذلك الجزء على جزئية غاية في الأهمية في هذه الآية الكريمة وهي الهدف من تلك الرحلة العظيمة، لنجد أن الهدف قد تلخّص في قوله تعالى " لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ "، لذا كانت الافتراءات التي وصلنا إليها تتمثل فيما يلي:

1. كانت رؤية بعض آيات الله تتطلب الذهاب إلى ذلك المكان (بيت المقدس)
2. لم يكن من الممكن أن يري نبي الله آيات ربه تلك من مكان المسجد الحرام (مكة)، وإلاّ لانتفى وجود هدف للرحلة
3. لم يكن هناك حاجة للعروج إلى السماء لأن آيات الله التي سيريها نبيه يمكن رؤيتها من هناك (المسجد الأقصى)، وإلاّ لما دعت الحاجة إلى لذهاب إلى بيت المقدس أصلاً، ولتوجه محمد من المسجد الحرام إلى السماء مباشرة (express باللسان الأعجمي)
4. عاد النبي مأموراً أن يولي وجهه في صلاته إلى بيت المقدس، فكانت تلك قبلته وقبلة المسلمين الذين يصلون معه قسطاً من الزمن
5. لم يكن النبي محمد راض تمام الرضا عن تلك القبلة فأخذ يقلّب وجهه في السماء باحثاً عن قبلة غيرها
6. لمّا كان الله هو العالم بنفوس عباده، علم أن تلك القبلة لم تكن ترضي محمداً تمام الرضا
7. استجاب الله تقلب وجه نبيه في السماء، فولّاه قبلة غير التي كان عليها
8. كان الكرم الإلهي على نبيه يتمثل في أنه تقبل أن يوليه القبلة التي يرضاها محمد بنفسه (فجعل المسجد الحرام هو القبلة التي يولي إليها وجهه)
9. كان تغيير القبلة أمراً كبيراً جداً في طبيعته حتى قال الله عنها "وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً"، وجاء إقرار رباني بأن في ذلك حجة للذين ظلموا علينا:

- ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٠﴾ [البقرة: 150]

10. وكان تحول القبلة أمراً كبيراً في نتائجه أيضاً، فحاول أهل الكتاب استغلال تلك الحادثة لشق صف المسلمين وزعزعة الإيمان عن عدد منهم، فكان ذلك ابتلاء حقيقياً للمسلمين:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: 143]

نتيجة: نحن نجد أنه من الضروري التأكيد مرة أخرى على ما خلصنا إليه في نهاية مقالتنا السابقة، حيث زعمنا أن النبي محمد قد أدرك في تلك الحادثة أن رؤية بعض آيات الله لا يمكن أن تتم إلا من ذلك المكان (المسجد الأقصى)، فكان ذلك سبباً لقلقٍ صاحَبَهُ فترة من الزمن على الرغم أنه ولّى وجهه في صلاته شطر المسجد الأقصى، فصلى بالمسلمين قسطاً من الزمن مولّياً وجهه شطره، لكن ذلك لم يمنعه أن يبحث عن قبلة غيرها، فكانت تلك الحادثة على الدوام – في رأينا – المحرك الأساسي لأن يقلّب وجهه في السماء، غير راض عن تلك القبلة، باحثاً عن البديل الذي يرضيه حتى تحقق له ما أراد:

- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: 144]

وهنا نتوقف لنطرح التساؤل الأكثر أهمية وهو: لماذا لم يكن محمد راض عن القبلة الأولى حتى ظلّ يقلب وجهه في السماء؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك على الأقل سببان رئيسان دفعا بالنبي محمد لأن يقلب وجهه في السماء باحثاً عن القبلة التي يرضاها وهما:

1. رؤية الآيات
2. استرجاع الإرث الديني الذي فُقِدَ قسطاً من الزمن

وهذا ما سيشكل جل النقاش في هذا الجزء من الكتاب، ولنبدأ بالسبب الأول وهو رؤية الآيات

رؤية الآيات

لا شك لدينا أن الهدف الرئيس من الرحلة كان رؤية بعض آيات الله، وسنحاول الخوض في معنى الآيات التي ترد في كتاب الله محاولين تسخير ذلك – بحول الله وتوفيقه- لفهم ماهية الآيات التي جيئ بمحمد إلى هذا المكان ليراها، وبالتالي فهم حقيقة ما حصل فعلاً في ليلة الإسراء تلك.

أما بعد،

فلقد جاء في كتاب الله في نفس الآية التي تتحدث عن الإسراء بنبي الله محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الهدف من تلك الرحلة واضحاً جليا، فقال تعالى:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

إنّ الملفت للانتباه هنا هو أن الذهاب في تلك الرحلة كان لهدف رؤية بعض آيات الله وليس كل آيات الله، فجاء النص على نحو" لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ"، إنّ أبسط ما يمكن أن نخلص إليه من هذه الحقيقة القرآنية هي أن هناك بعض آيات الله التي من أجل رؤيتها أسرى الله بنبيه محمد من المسجد الحرام الذي ببكة إلى المسجد الأقصى الذي في بيت المقدس، فماذا كانت تلك الآيات؟

الجواب: لقد ألزمنا طرح هذا السؤال ضرورة تدبر مفردة الآيات كما ترد في كتاب الله، فخرجنا بعد دراسة سطحية للمفردة بالافتراء التالي:

افتراء من عند أنفسنا: يمكن تقسيم الآيات كما ترد في كتاب الله إلى قسمين رئيسين وهما:

1. الآيات التي تتلى
2. الآيات التي ترى

فكثير ما ورد في كتاب الله الحديث عن الآيات التي تتلى:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: 15]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: 43]
- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: 53]

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥﴾ [الجاثية: 25]
- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ [البقرة: 252]
- ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ [آل عمران: 101]
- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٨﴾ [آل عمران: 108]
- ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣﴾ [آل عمران: 113]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: 7]
- ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١﴾ [الطلاق: 11]

ولكن بالرغم من أن رسل الله كانوا على الدوام يتلون الآيات على أقوامهم، إلا أن القوم غالباً ما طلبوا نوعاً آخر من الآيات، وهي الآيات التي ترى بأم العين:

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت: 48-51]

فلم تكن الأمم السابقة تكتفي بالآيات التي تتلى عليهم ليصدقوا الرسالة التي جاءت بها رسلهم من ربهم، وهو الأمر الذي استنكره الله عليهم (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ)، ولكنهم بحثوا عن الدليل (الآيات) المادي الذي يصدق دعوة الرسول (وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ). وقضت إرادة الله أن ينزل بعض آياته ليراها الناس بأم أعينهم لتأكيد الآيات التي تتلى عليهم:

- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٤٦﴾ [الأعراف: 146]
- ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس: 92]

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]
- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۝٢١ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ۝٢٣ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: 21-24]
- ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ۝٥٧﴾ [طه: 56-57]
- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل: 12-14]
- ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النمل: 82]
- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝٣٦﴾ [القصص: 36]

ويشدد القرآن الكريم بأن رؤية هذه الآيات المادية لم تكن على الدوام سبباً كافياً للناس لأن يقتنعوا بدعوة رسلهم، بل على العكس فقد اتخذ بعضهم تلك الآيات سخرية:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩﴾ [الزخرف: 46-49]
- ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٩﴾ [الجاثية: 7-9]

ونعتها بعضهم بأنها أساطير الأولين:

- ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: 15]
- ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ [المطففين: 13]

وقد نهانا الله أن نتخذ آياته (المتلوّة والمرئية) هزواً:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: 231]

وذلك لأنه متى جاءت آيات الله، وكان التكذيب سمة القوم كان العقاب الرباني لا محالة نازل بالظالمين:

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: 59]

نتيجة بسيطة ومهمة جداً: نخلص من النقاش السابق إلى نتيجة بسيطة جداً مفادها أن الآيات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم يمكن أن تكون هي الدليل والبرهان على صدق رسالة دعوة رسل الله، ولكن هذا الدليل على نوعين:
دليل كلامي (آيات تتلى)
دليل مادي (آيات ترى)

ولكن لابد من الإشارة إلى ملاحظة مهمة وهي أنه كما جاء الرسل بهذه الآيات (الكلامية والمادية) من عند ربهم، لا يستبعد القرآن الكريم أن يؤتي الله هذه الآيات الكافر:

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175-176]
- ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: 125-126]

وبعد هذه المقدمة الطويلة نعود إلى صلب الموضوع بطرح سؤالنا السابق الذي بدأنا به نقاشنا هذا هو: ما هي الآيات التي جيء بمحمد إلى المسجد الأقصى ليراها؟

افتراء من عند أنفسنا: لا نظن أن محمداً جاء ليرى الآيات التي تتلى (فهي تتلى عليه في مكة)، لكنه جاء ليرى الآيات التي ترى، هل يبدو هذا صعباً على التفكر؟

وهنا سيبادرنا القارئ الكريم بالتساؤل الأكثر دقة بالقول: ما هي إذن تلك الآيات (التي يمكن أن ترى) التي جيئ بمحمد ليراها من هناك (في المسجد الأقصى) ولم يكن بالإمكان أن يراها من هنا (في المسجد الحرام)؟

الجواب: إنها آيات ربه الكبرى

سؤال: ولكن ما هي؟

جواب: عندما نتحدث عن الآيات التي ترى بأم العين، لا نجد صعوبة في أن نميّز بين الآيات التي يمكن أن يراها كل الناس وتلك التي خص الله برؤيتها بعضاً من خلقه، فلا يمكن أن يكون محمد قد جاء كل هذه المسافة ليرى الشمس أو القمر أو غيرها مما يمكن أن يراه الناس كلهم، فلقد أثبت الله في كتابه الكريم أن الناس العاديين يمكن أن يروا آيات ربهم:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: 79-81]

فهناك آيات كثيرة حولنا جعلها الله دليلاً على وجوده في كل وقت وحين، وهي آيات الله الكونية:

- ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: 3-6]
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ
- ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾
- وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
- وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: 20-25]
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: 29]
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: 32]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: 31]

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: 37]
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فصلت: 39]

نتيجة: من غير المحسوب لدينا أنه قد جيئ بمحمد كل تلك المسافة ليرى مثل هذه الآيات، فلا شك عندنا أن محمد قد جاء ليرى آيات من نوع خاص لا يستطيع كثير من الناس رؤيتها، ونحن نزعم الفهم أن تلك الآيات كانت آيات الله الكبرى،

ولكن أين الدليل على ذلك؟

الجواب: إن الدليل على ذلك موجود في سورة النجم التي غالباً ما ظن أهل العلم أنها تدعم موقفهم في إثبات معراج النبي محمد إلى السموات العلى، وسنحاول تبيان كيف تنفي آيات هذه السورة الكريمة حصول المعراج إلى السموات العلى (إن هي قرءت بالطريقة التي نظن أنها صحيحة). لذا فنحن نستخدم الدليل نفسه لرد الفكر السائد عن القصة.

أما بعد،

يثبت الله تعالى في سورة النجم أن نبيه الكريم قد رأى من آيات ربه الكبرى:

- ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧
- لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: 17-18]

نعم، لقد أسري بمحمد من المسجد الحرام الذي ببكة إلى المسجد الأقصى الذي في بيت المقدس ليرى من آيات ربه الكبرى، ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة في سياقها الأوسع لوجدنا أنّ الإشارة إلى تلك الحادثة (حادثة الإسراء) واضحة:

- ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١
- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢
- وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣
- إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤
- عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥

- ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾
- وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾
- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
- فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
- فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
- مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾
- أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾
- وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
- عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
- عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
- إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾
- مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾
- لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ [النجم: 1-18]

حادثة الإسراء: تصور جديد

نحاول في هذا الجزء طرح تصورنا لحادثة الإسراء بناء على قراءتنا (التي ربما تكون خاطئة) لهذه الآيات القرآنية التي تعرضت لهذه الحادثة، ونعتقد أن الخطوة الأولى في نقاشنا هذا تتمثل في رد ظن أهل العلم بأنّ هذه الآيات تثبت حصول معراج للنبي محمد إلى السموات العلى وذلك بدراسة مفردات الآيات كريمة دراسة متأنية محاولين الخروج باستنباطات يدعمها النص القرآني نفسه. ولكن كيف؟

إننا نظن أن الخطأ الذي وقع به علماؤنا الإجلاء عندما تصدّوا لتفسير هذه الآيات الكريمة تمثل على الأقل في أمرين أساسيين وهما:

1. عدم فهم ماهية الضمائر
2. عدم فهم معاني المفردات

مشكلة الضمائر

عند العودة إلى تفاسير أهل العلم تجد التضارب واضحاً في معرفة ماهية الضمير في هذه الآيات الكريمة (وبالتالي الكينونة التي يعود عليها الضمير في النص (pronoun referent)، فتحدث بعضهم عن آية من هذه الآيات على أنها تخص النبي محمد، وتحدث آخرون عن الآية نفسها على أنها تتحدث عن جبريل، ولم يعدم

ثالث أن يفتري – كما نفعل نحن الآن- بأنها تتحدث عن الذات الإلهية، لذا أصبح من المتعذر على الناس فهم النص بالدقة المنشودة (والقارئ الكريم مدعو لمراجعة أقوال العلماء في هذه الجزئية). أما نحن، فنعتقد جازمين أن معرفة ماهية الضمائر تسعف في فهم النص بشكل أكثر دقة، ولنحاول تقديم مثال على هذا الزعم.

مثال:

وردت الآية الكريمة التالية في بداية سورة الإسراء:

- ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ۝٢﴾ [الإسراء: 2]

وتأكد المعنى في آية ثانية في سورة السجدة:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٢٣﴾ [السجدة: 23]

السؤال: على ماذا يعود الضمير في مفردة " وَجَعَلۡنَٰهُ "؟ هل يعود على موسى أم على الكتاب أم على الاثنين معاً؟

لو راجعنا معظم كتب التفاسير لوجدنا أن العلماء غالباً ما انقسموا في فهمهم لمثل هذه الجزئية التي قد تبدو للوهلة الأولى بأنها بسيطة، لكنها – بكل تأكيد – ذات أهمية كبيرة لما سيترتب عليها من نتائج.
ونحن هنا نؤكد على موقفنا الذي ربما يتخذ شكل الشعار الثابت وهو: متى اختلفت الآراء، ضاعت الحقيقة وهذا المبدأ يتناقض كلياً مع المقولة الشعبية السائدة التي فحواها أن في اختلاف الأمة رحمة للأمة، فنحن نظن العكس تماماً فنزعم أن في اختلاف الأمة مضيعة للحقيقة.

فالعلماء يختلفون – في رأينا – عندما لا يكون ما يقدمونه صحيحاً، وذلك لأن ظنهم عندئذ لا يكون أكثر من رأي غير مدعوم بالدليل المقنع، فلو كان لدى العلماء دليل مقنع (قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) لما كان هناك فرصة للاختلاف، لأنّ الدليل سيكون حجة على الجميع، وسنحاول في هذا المثال أن نقدم حجتنا بخصوص ماهية الضمير في الآية قيد الدراسة، فإن كانت حجتنا صحيحة مدعومة بالدليل المقنع (أي البرهان)، يصبح من الصعب على الكثيرين (خاصة من طلب المعرفة) أن يجادلوا فيها.

رأينا: نحن نعتقد جازمين أن الضمير في مفردة " وَجَعَلۡنَٰهُ" في هذه الآية الكريمة تعود على الكتاب فقط، ولا تعود على موسى ولا تعود على الاثنين معا. ولكن أين الدليل؟

الدليل

أولاً، نحن نرى أن الضمير هنا لا يعود على الاثنين (موسى والكتب معاً) لأنه لو كان هذا الضمير يعود على الاثنين معاً لجاء بصيغة التثنية كما في المثال التالي:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]

أو كما في المثال التالي الذي يتحدث عن موسى وأخيه هارون:

- ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: 42-43]

وهنا قد يحتج الكثيرون بالقول: لكن الفرق هنا واضح، ويتمثل في أن موسى بشراً بينما الكتاب شيء، لذا لم يجمعا معاً بضمير المثنى، فنقول لهم: ربما يكون كلامكم هذا صحيحاً، لذا نحن نحتاج إلى دليل آخر أكثر إقناعاً لإثبات الزعم الذي سقناه بأن الضمير هنا يعود على الكتاب فقط.

الدليل الثاني: نحن نحتاج أن نقرأ العبارة التي ورد فيها الضمير بشي من الدقة، فالله يقول " وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ، لنفهم أن للمفردة التي يعود عليها الضمير سواء كانت موسى أو الكتاب أو الاثنين معاً وظيفة ثابتة وهي أن يكون هدى لبني إسرائيل. لذا، إن كان الضمير يعود على موسى، يكون موسى بلا شك هدى لبني إسرائيل، وإن كان الضمير يعود على الكتاب يكون الكتاب هدى لبني إسرائيل، وإن كان الاثنان موسى والكتاب هدى لبني إسرائيل فلا ضير أن يعود الضمير على الاثنين معاً، ولكن – بالمقابل – إن تبيّن لنا أن موسى ليس هدى لبني إسرائيل، فلا يمكن أن يعود الضمير عندئذ على موسى، وإن تبيّن لنا أن الكتاب ليس هدى لبني إسرائيل، فلا يجوز أن نظن أنّ الضمير يعود على الكتاب، وهكذا.

نتيجة: الضمير يعود على الكينونة (سواء كان موسى أو الكتاب) شرط أن يكون هدى لبني إسرائيل.

وهنا نجد من الضروري أن نلفت الانتباه إلى أننا نتحدث هنا عن هداية الناس (أي أن يكونوا مؤمنين) وليس الهداية إلى الحق أو الطريق الصحيح، وذلك لأن الآية تتحدث عن هداية بني إسرائيل.

السؤال: من – يا ترى – يكون هدى لبني إسرائيل، موسى أم الكتاب (أم الاثنان معاً)؟

للإجابة على هذا السؤال ربما نحتاج أن نقرأ ما جاء في كتاب الله حول الهداية، ولنبدأ بقوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم:

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: 56]

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: 31]

إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباطات بعد قراءة هذه الآيات الكريمة هو أن الله ينفي أن يكون النبي محمد نفسه مصدر هداية للناس، فيستحيل أن يكون النبي (أي نبي كان) قادراً على هداية الناس، وذلك لأن وظيفة الرسول تتمثل في إبلاغ الرسالة فقط:

- ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: 99]

ولا يظنن أحد بأن هذه المهمة قد أنيطت بمحمد فقط، بل هي مهمة جميع رسل الله:

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: 35]
- ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ [يس: 16-17]

نتيجة (1): تنحصر مهمة الرسول (أي رسول) بإبلاغ الرسالة فقط، فالرسول ليس هادياً للناس

نتيجة (2): مادام أن الرسول يبلّغ ولا يهدي نستطيع أن نخلص إلى أن الضمير في الآية الكريمة التي نحاول تحديد الضمائر فيها (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) **لا يمكن أن يعود على موسى، وذلك لأن موسى ليس أكثر من رسول يبلّغ رسالة ربه إلى قومه ولكنّه لا يهديهم.**

ونحن نستنكر ما يقوله كثير من الخطباء على منابر الخطابة (عن قصد أو غير قصد) عندما يحاولون في بداية كلامهم أو في نهايته الثناء على النبي محمد بأنه الهادي الأمين، فلقد سمعت مثل هذه العبارة كثيراً، وهنا أتوقف لأسأل: كيف يجرؤ علماؤنا أن ينعتوا النبي محمد بأنه هادي وهم يتلون قول الحق:

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: 56]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: 31]

فلابد لهم من التفريق بين هداية الناس والهداية إلى الحق أو إلى الطريق المستقيم، فالنبي لا شك يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ولكنه لا يستطيع أن يهدي الناس. لأنه لو كانت الهداية للحق من عند النبي نفسه، لا يصبح هناك معنى للدعوة، فالرسول يمكن أن يهدي الناس إلى الطريق لكنه لا يستطيع أن يجعلهم مؤمنين. فيجب على علمائنا التنبيه إلى هذه الجزئية حتى لا يقع الإنسان في تناقض عندما يسمع كلامهم ومن ثم يستذكر الآيات السابقة التي تحصر هداية الناس بالله وحده.

لكن يبقى التساؤل التالي: إذا كان موسى لا يهدي، فهل يمكن للكتاب أن يهدي؟ دعنا لا ننسى أن الآيات التي قدّمناها تنفي الهداية عن موسى (لأنه رسول) وتحصرها في الله، لكنها في الوقت ذاته لا تثبت الهداية للكتاب، ولنعيد الآيات مرة أخرى لنتدبرها من هذا الجانب:

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص: 56]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾ [الفرقان: 31]

لاحظ أنه في حين أن الله هو هادياً ونصيرا معاً، فإن الكتاب يهدي لكنه لا ينصر.

نعم، تثبت هذه الآيات الهداية لله وتنفيها عن البشر (حتى لو كان رسولاً كمحمد)، فالبشر لا يهدون ولكن الله هو من يهدي، لكن هذا لا يجيب على التساؤل التالي:

السؤال: كيف يمكن للكتاب أن يهدي (مادام أن الله – كما تشير الآية نفسها- هو من يهدي)؟

الجواب: إن هذا السؤال يلزمنا استحضار آية أخرى من كتاب الله ستسعفنا في حل هذه الإشكالية، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسراء: 9]

نعم، القرآن هو مصدر هداية، لكن الرسول ليس مصدر هداية، ونحن نطلب من القارئ الكريم مراجعة جميع آيات الكتاب العزيز التي تتحدث عن الهداية ليجد أن الهداية تنحصر في

1. الذات الإلهية
2. كتب الله

ولكن قد يبادرنا البعض بالقول أن الآية السابقة تتحدث عن القرآن وليس عن كتاب موسى، فهل يمكن أن يكون كتاب موسى (كما القرآن) مصدر هداية؟

الجواب: نعم كل كتب الله (بما فيها القرآن وكتاب موسى) هي مصدر هداية، ولنقرأ الآية الكريمة التالية التي تجمع القرآن الكريم مع كتاب موسى على أنه مصدر هداية:

- ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]

وحتى يتيقن القارئ الكريم وجاهة ما نزعم، فإننا نجد لزاماً أن نذكره بما جاء في الآية الكريمة التالية التي تؤكد أن الله هو من جعل كتابه سبباً في الهداية:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52]

وهنا ربما نصل إلى ذروة ما نود أن نفصّله عن الفرق بين الهداية التي تخص الرسول والهداية التي تخص كتب الله، فكتب الله جميعاً هي هداية للناس مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران: 3-4]

نتيجة: كتاب موسى (كما القرآن الكريم) هو مصدر هداية

خلاصة: لقد خلصنا من المناقشة السابقة إلى الاستنباطات التالية:

1. البشر ليسوا مصدر هداية للناس (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ)
2. الله هو مصدر الهداية (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى)

   (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)
3. الكتاب مصدر هداية (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ)

   (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ)

   (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ)

   (نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ...)

في ضوء هذه الاستنباطات ربما يمكننا الآن الرجوع إلى الآية محط الدراسة وقراءة الضمير فيها بطريقة تتميز بشيء من الدّقة:

- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء: 2]

فعلى ماذا يعود الضمير في " وَجَعَلْنَٰهُ "، على موسى أم على الكتاب أم على الاثنين معاً؟ ماذا ترى عزيزي القارئ؟!

إن مثل هذا الطرح ربما يشكل حجة يصعب المجادلة فيها وربما ينهي الاختلاف في الرأي حول هذه الجزئية، ومن أراد أن يرد كلامنا هذا، فعليه أن يقدّم لنا حجة أكثر قوة وإقناعاً من حجتنا هذه، وإن هو فعل، فنحن - بلا شك - على استعداد أن نتخلى عن موقفنا على الفور ونتبنى الرأي الذي يظنه هو صحيحاً، فالعلم يؤخذ بالحجة وليس بالرأي.

نتيجة: نحن بحاجة أن نراقب الضمائر في مطلع سورة النجم مراقبة جيده لتسعفنا في فهم النص القرآني بشيء من الدقة المنشودة إن نحن أردنا فهم ماهية ما حصل فعلاً في ليلة الإسراء، ونحن نجزم أن الخطأ في فهم ماهية الضمائر قد سبّب إشكالات في الوقوف عند المعاني الحقيقية التي يجليها النص القرآني.

مشكلة المفردات

أما المشكلة الأخرى التي ربما لا نعدم الدليل أن نزعم بأن أهل العلم – كعادتهم – قد أخفقوا إخفاقا شديداً في فهمها فهماً صحيحاً ودقيقاً فهي مشكلة معاني المفردات، فنحن نتحدى أن يقدّم لنا أحد كلاماً يعتبر قولاً فصلاً في معاني مفردة واحدة من مفردات هذه الآيات الكريمة التي وردت في مطلع سورة النجم التي سنحاول تسليط الضوء عليها بعد قليل، وسنرى أن فهم (أو حتى محاولة فهم) هذه المفردات بالطريقة الصحيحة سترشدنا – بحول الله – إلى أفهام ربما تكون أكثر دقة وتميزاً مما ألف الناس في بطون الكتب الصفراء. ولكن قبل الدخول في تفصيل مفردات تلك السورة الكريمة لابد أن نقدم مثالاً واحد لنبين كيف يخفق العلماء (وبالتالي العامة الذين ينقادون لرأيهم دون عناء التفكر) في فهم آية كريمة عندما يكون فهمهم مدفوعاً بالفهم الشعبي السائد الذي قد لا يستند على الحجة من كتاب الله.

مثال: ماهو الوجه؟ ماهو الرأس؟

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

نقدم هذه الآية الكريمة لنسأل عن معنى مفردتين اثنتين وردتا في هذه الآية الكريمة وهما مفردة الوجه ومفردة الرأس، لنسأل بعدئذ سؤالاً قد يبدو للكثيرين بأنه بسيط وغريب (وربما غير ضروري):

1. ما هو الوجه؟ ما المقصود بالوجه في هذه الآية الكريمة؟

2. ما هو الرأس؟ ما المقصود بالرأس في هذه الآية الكريمة؟

لا أظن أن مثل هذه المفردات قد استوقفت أهل العلم كثيراً، فهي تعتبر من المسلمات التي يظنون أنهم يعرفونها، وسنحاول تبيان كيف أن معرفتهم تلك كانت على الدوام معرفة مغلوطة (وبالتالي فقد بنوا كثيراً من الأحكام التشريعية على هذه المعلومة المغلوطة) وذلك لسببين رئيسيين:

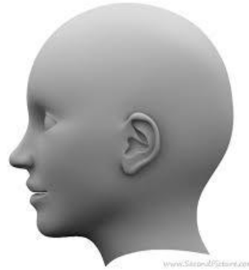
1. كانت معرفتهم مستندة على ما ألفوا من أفهام عند العامة
2. لم يحاولوا تهذيب معرفتهم تلك بالحجة المأخوذة من كتاب الله

ولكن كيف؟

لو فاجأت أحدهم بالسؤال عن معنى مفردة الوجه أو معنى مفردة الرأس، لربما أثار هذا السؤال السخرية في الرد عند الكثيرين لظنهم أن هذا سؤال عن بديهيات ومسلّمات لا يمكن المجادلة فيها، وكأن لسان حالهم يقول: ألا تعرف ما الوجه وما الرأس؟ هل أنت فعلاً جاد في سؤالك هذا؟

وعندما كنت ألح في السؤال (حتى في محاضرات طلبة الدراسات العليا) محاولاً أن أطلب من أي شخص أن يحدد لي ذاك الشيء الذي نسميه رأساً أو وجهاً، كان يفعل ذلك بالإشارة إلى الجزء من الجسم الذي يعرف الناس أنه هو الوجه أو أنه هو الرأس.

وهنا كنت أفاجئهم بالتساؤل التالي: إذا كان الرأس هو هذا الجزء من الجسم الذي يظهر في الشكل التالي كما



يحدده الناس عندما تسألهم عنه:

إذن، كيف يمكن أن نفهم قول الله في كتابه (وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ) في الآية التي تتحدث عن الوضوء؟

لم يكون المسح فقط على ذلك الجزء العلوي والخلفي من الرأس الذي يكون عادة مغطى بالشعر؟ لم لا نمسح على الوجه مادام أن الوجه (كما يظهر في الصورة وكما يفهم الناس) هو جزء من الرأس؟

كلا وألف كلا، ذلك ليس هو الرأس، فهناك فرق بين الرأس والوجه

نتيجة: إننا نفهم أن الرأس هو ذلك الجزء الذي يمسح مسحاً في الوضوء، بينما الوجه هو ذلك الجزء الذي يغسل غسلاً، فما يظهر في الصورة في الأعلى ليس كله رأساً بل هو رأس (الجزء العلوي والخلفي) ووجه (الجزء الأمامي)

مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

فتخيل – عزيزي القارئ – ما الذي يجب فعله حسب هذه الآية الكريمة لو كانت مفردة الرأس تشمل الرأس والوجه معاً (كما فهم علماؤنا الأجلاء)؟ ألا نصبح عندها ملزمين بحلق الشعر الذي ينبت في الوجه كاللحية والحاجبين وحتى رموش العينين؟ من يدري!!!

نتيجة مهمة جداً: الوجه ليس جزءاً من الرأس (و الرأس لا يشمل الوجه) لأنه لو كان الوجه جزءا من الرأس لجاز المسح عليه مسحاً ما دام أن الأمر الإلهي جاء بالمسح على الرؤوس، ولأصبح حلق شعر الوجه واجباً في الحالات التي طلب فيها منا بحلق رؤوسنا كشعيرة من شعائر الحج مثلاً.

وغالباً ما أخطأ الناس في الفهم عندما ظنوا أن رأس الشيء هو أعلاه، فلو كان كلامهم هذا صحيحاً لما خرج الناس – برأينا – بمفردات مثل رأس البصل، ورأس الثوم، ورأس الملفوف، ورأس الزهرة من الخضروات مثلاً (على الأقل هذا ما نقوله نحن في الأردن)، لأن الرأس من هذه النباتات هو أسفلها أو ما يكون أحياناً تحت التراب، ولو طرحنا السؤال التالي: لم يستخدم أبناء العربية مفردة الرأس مع هذه الخضروات مثلاً ولا يستخدموها مع الطماطم أو البطاطا أو مع الفواكه كالتفاح والبرتقال وغيرها بالرغم أنها متشابهة جداً في شكلها الدائري؟

رأينا: إننا نظن أن الرأس لا علاقة له بالشكل أو الصنف وغيرها وإنما هو مفردة متعلقة بالوظيفة، فلو راقبنا الخضروات التي يطلق عليها رأس (كالبصل والملفوف والزهرة وغيرها) لوجدنا أن الرأس منها هو منبت الحياة، لأنه متى قطف هذا الرأس انتهت حياة النبتة بأكملها، ولكن لو تمّ قطاف حبة الطماطم أو البطاطا أو التفاحة أو البرتقالة فذلك لا يعدو أكثر من قطف الثمرة التي لا تؤثر على حياة النبتة إطلاقاً، فتبقى النبتة حية لتنتج غيرها.

> إن ما يهمنا القول هو أن الرأس من الشيء (بغض النظر عن شكله وكينونته) هو منبت الحياة، ما أن يقطف الرأس حتى تنتهي الحياة، وبهذا المنطق يمكن فهم أي جزء من الانسان هو رأسه، فلو تم قطع اليد أو الرجل أو الكتف أو حتى الوجه، أو ... الخ. لما أنهى ذلك حياة الكائن الحي، ولكن متى قطف الرأس انتهت حياته. لذا نحن نظن أن حياة الإنسان في بطن أمه تبدأ من الرأس الذي يمد سائر الجسم بالحياة، لكن متى توقف ذلك الرأس عن امداد الجسم بالحياة تحول ذلك الجسم إلى جسد لا حراك فيه ولا فائدة منه.

عواقب هذا الفهم على أحكام الوضوء

الرأس: مادام أن الرأس – حسب فهمنا الآن – هو الجزء العلوي الخلفي من الشكل الذي يظهر في الصورة وهو – بلا شك – منفصل عن الوجه، فإن كل جزء منه يمسح مسحاً في الوضوء، لذا يمكننا الآن الإجابة على **السؤال** التالي: لماذا لا نغسل الآذان في الضوء ونكتفي بالمسح عليها (بالرغم أن الآية الكريمة التي تتحدث عن الوضوء لا تأتي على ذكر الآذان)؟

الجواب: لأن الآذان جزء من الرأس، لذا فهي تمسح مع الرأس مسحاً.

الوجه: مادام أن الوجه – حسب فهمنا الآن – هو فقط الجزء الأمامي من الشكل الذي يظهر في الصورة وهو منفصل عن الرأس، فإن كل جزء من الوجه يغسل غسلاً في الوضوء، وبهذا الفهم ربما يمكننا الإجابة على التساؤل التالي: لماذا نغسل الفهم (بالمضمضة) والأنف (بالاستنشاق) (بالرغم أن الآية الكريمة التي تتحدث عن الوضوء لا تأتي على ذكر الفم والأنف)؟

الجواب: لأنهما جزء من الوجه، لذا فهما يغسلا غسلاً

> يكون ذلك غسلاً متى توافر الماء، وإن لم يتوافر الماء يصبح الوجه مسحاً ويتعذر عندها المضمضة والاستنشاق.

نتيجة: غالباً ما اختلف أهل العلم في بعض أفعال الوضوء، فقسّموها إلى فروض (كغسل الوجه ومسح الرأس) وسنن (كالمضمضة والاستنشاق)، ونحن إذ لا نريد أن نخوض في آرائهم تلك، لكننا نطلب منهم أن يقدموا لنا حادثة واحدة توضأ الرسول فيها بالماء ولم يغسل فمه بالمضمضة أو أنفه بالاستنشاق (بل على العكس فقد طلب منّا المبالغة بالاستنثار عند الوضوء)، فأنا لا أعلم من أين جاءت تقسيماتهم هذه إلى فرائض وسنن غير فهمهم الخاطئ لمفردات النص القرآني، فعندما ظنوا أن الآية الكريمة لم تأتي على ذكر الآذان والفم والأنف جعلوها من السنن، واقتصرت الفرائض عندهم على الوجه واليدين إلى المرفقين والوجه والرأس (كما فهموها بالطبع). ولكننا نستميحهم العذر لمخالفتهم الرأي لنقول لهم: لو تدبرتم - يا علماءنا الإجلاء - معنى مفردة الوجه كما يحددها النص القرآني (وليس كما فهمتموها من آبائكم) لربما علمتم أن كل ما في الوجه (كالفم

والأنف) يغسل غسلاً مادام أنه جزء منه، ولو تدبرتم معنى مفردة الرأس لعلمتم أن كل ما في الرأس (كالأذنين) يمسح عليه مسحاً ولا يغسل غسلاً. ولما استعصى عليكم الفهم أن الرأس شيء والوجه شيء آخر.

سؤال: هل هناك مفردة واحدة في العربية تجمع الوجه والرأس معاً؟ أو ما هو ذاك الشيء الذي يظهر في الصورة السابقة ككتلة واحدة؟

الجواب: لازالت الغالبية الساحقة (إن لم يكن كل) أبناء العربية يظنون أن الرأس هو ذلك الشيء الذي فوق العنق، أليس كذلك؟ لكننا نستوقفهم هنا لنقول لهم بأننا لا نظن أن هناك مفردة في العربية تجمع الرأس والوجه معاً، وجل ما يمكن أن نسمي به ذلك الشيء الذي يجمع الرأس والوجه معاً هو "فوق العنق"، فالعنق مثلاً ليس جزءاً من الرأس أو الوجه:

- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: 12]

فمادام العنق ليس جزءاً من الوجه فهو لا يغسل في الوضوء، ومادام العنق ليس جزءاً من الرأس فلا يمسح عليه في الوضوء.

لاحظ كيف خاطب هارون أخاه موسى يوم أخذ برأسه وبلحيته:

- ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: 94]

فلو كان الرأس واللحية جزءاً واحد لما كان هناك حاجة للتفصيل فيهما، ولكن لما كان الشعر الذي ينمو على الرأس شيئا والشعر الذي ينبت على الوجه شيئا آخر كان لزاماً الفصل بينهما.

نتيجة: لقد قدمنا هذا المثال لنبين أن الحاجة ملحّة على الدوام للتوقف عند معاني المفردات مهما ظننا أنها بسيطة، لأن فهمها غالباً ما يكون مغلوطاً خاصة إن كان مدفوعا بالفهم العام السائد غير المستند على الحجة من كتاب الله.

عودة على بدء

سنحاول العودة الآن لنقدم فهمنا الخاص لآيات مطلع سورة النجم مركزين على أمرين أثنين وهما (1) ماهية الضمائر و (2) معاني المفردات في هذه الآيات الكريمة، علّنا نستطيع – إنْ أذن الله لنا بشيء من علمه

– أن نخرج بقصة لا نعدم الرجاء أن تكون أفضل مما توارثه الناس من تخاريف وتحريفات منقول جلها عن يهود.

أما بعد،

سنبدأ نقاشنا هنا بإثارة تساؤلات حول هذه الآيات الكريمة:

1. ما هو النجم؟ ولماذا يقسم الله بالنجم في بداية هذه السورة الكريمة بالذات؟
2. لم قال الله " مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ "؟
3. من الذي لا ينطق عن الهوى؟
4. من الذي كان قوله وحياً يوحى؟
5. مَنْ الذي علّم مَنْ؟
6. من هو شديد القوى؟
7. من المقصود ب "ذو مرة"؟ وما معناها؟
8. من الذي استوى؟ وما معناها؟
9. من الذي كان بالأفق الأعلى؟
10. من الذي دنا فتدلى؟
11. ومن الذي كان قاب قوسين أو أدنى؟
12. الخ.

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾
- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾
- وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾
- إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾
- عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
- ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾
- وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾
- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
- فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
- فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
- مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾
- أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾

- وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣
- عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤
- عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥

إنّ الإجابة الصحيحة – في رأينا – على هذه الأسئلة يجب أن تبدأ بمتابعة حركة الضمائر في هذه الآيات الكريمة، وذلك بإثارة السؤال التالي: من الذي قام (أو لم يقم) بكل فعل من هذه الأفعال كالضلالة والغوي والنطق والتعليم والاستواء والدنو والتدلي والاقتراب قاب قوسين أو أدنى، وهكذا؟

أما بعد،

لنبدأ بتفصيل هذه الآيات الواحدة تلو الأخرى مركزين على حركة الضمائر فيها

1. الضلالة والغوي في قوله تعالى " مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ". فمن الذي "ما ضل وما غوى"؟

لا شك عندنا أن الحديث هنا جاء عن النبي محمد، فهو صاحبنا، وهو الذي ينفي الله عنه أن يكون قد ضل أو أنه قد غوى، ولعل هذا هو قول معظم أهل العلم، فنحن لم نبتعد كثيراً بعد.

2. النطق " وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ "

لا شك لدينا أن المقصود هنا هو النبي نفسه، فهو الذي لا ينطق عن الهوى، والسبب في ذلك هو لأن قوله وحي من ربه " إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ"، وهذا أيضاً يوافق رأي معظم أهل العلم.

3. التعليم عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ

وهنا نتوقف أكثر لنتساءل: مَنْ الذي علّم مَنْ؟ لا شك لدينا أن الله هو من علّم نبيه؟ فلا داعي لإقحام جبريل في الموقف، فالتعليم حصل من المعلم (الله) إلى المتعلم (النبي) مباشرة، لذا فإن الله (شديد القوى) هو من علم نبيه، ولكن أين حصل ذلك؟

الجواب: وهو بالأفق الأعلى (وسنأتي على تفصيل هذه الجزئية بعد قليل)

4. من هو " ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ"؟

هنا تبدأ تفسيرات أهل العلم بالتباين. فهناك من يظن أن الآية الكريمة تتحدث عن النبي محمد وهناك من يرى أنها تخص جبريل وهكذا، لكننا نرى أن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الذات الإلهية، ولكن كيف؟

أولاً، من المعلوم بالضرورة لدينا أن الذي استوى هو الله، لأنه هو ذو مرة، ونحن نظن أنه لو كان المقصود هنا النبي محمد، لجاء اللفظ على نحو "ذي مرة" (أو ربما ذي مرة) لأن "ذو" - كما يعلم الجميع- من الأسماء الخمسة التي تكون مرفوعة إن عادت على مرفوع ومنصوبة إن عادت على منصوب، فالذي علّم في

الآية السابقة هو الله، والذي تعلم هو النبي محمد، لذا تعود "ذو مرة" على المعلم الله وليس على المتعلم النبي محمد.

ثانياً، ربما لا يجب علينا أن نغفل هنا أن الآية تدلنا على حدوث استواء " ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ "، ولو دققنا في النص القرآني لربما وجدنا أن حركة الاستواء لا تكون إلا لله، فالإنسان لا يستطيع أن يستوي إلا أن يكون هناك ما يستوي عليه كحالة نوح ومن معه عندما استووا على الفلك:

- ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: 28]

أو السفينة التي استوت على الجودي:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: 44]

أو الاستواء على ظهور الأنعام:

- ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: 12]
- ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: 13]

لذا لا نعتقد أن محمد يستطيع الاستواء ما لم يكن هناك ما يمكنه من الاستواء، أما الله فهو يستوي على الأشياء وإلى الأشياء كيفما يشاء ويريد، فهو الذي استوى على العرش:

- ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: 5]

وهو الذي استوى إلى السماء:

- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: 11]

5. من الذي كان بالأفق الأعلى (وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ) المعلم أم المتعلم؟

وهنا يزيد التباين في تفسيرات أهل العلم، ونحن إذ لا نقصد أن نعيد ما قال الأقدمون، نريد فقط أن نُمْنح فسحة من المكان والوقت لتمرير رأينا، ثم الانتظار لمعرفة ما ستؤول إليه الأمور في نهاية المطاف

رأينا: نحن نعتقد جازمين أن الذي كان في الأفق الأعلى هو المعلم (الله) وليس المتعلم (نبيه)، فيستحيل أن يكون المتعلم في الأفق الأعلى والله هو من قال عن نفسه:

- ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: 1]

فالوجود في المكان الأعلى يستحيل أن يكون لأحد غير الله، ويؤكد زعمنا هذا ما جاء في الآية التي تليها، لأن قراءة الآيات معاً تؤكد أن الفاعل الذي قام بهذه الأفعال هو نفس الكينونة:

- عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥
- ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦
- وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧
- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨

فالضمير في هذه الآيات جميعاً يعود – حسب زعمنا – على الفاعل نفسه، فإن نحن استطعنا أن نثبت من هو الفاعل في واحدة منها، استطعنا تعدية ذلك إلى الآيات الثلاثة الأخرى.

6. من الذي دنا فتدلى " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ "؟

إننا نعتقد أن الذي دنا فتدلى هو الله نفسه وليس النبي محمد (كما زعم الكثيرون)، فالاقتراب حصل من الله إلى نبيه وليس العكس كما كان ظن معظم أهل العلم، ولكن أين الدليل؟

لو ركزنا على اتجاه الحركة، لوجدنا أنها حركة من الأعلى إلى أسفل وليس العكس، فمن قام بهذا الفعل فقد نزل ولم يرتفع لأنها حركة دنو (اقتراب) وتدلي (نزول من الأعلى إلى أسفل)، فها هو وارد السيارة الذين وجدوا يوسف في البئر يدلي دلو:

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19]

فهو إذاً يقوم بحركة من الأعلى إلى أسفل، وبهذا المنطق يمكننا فهم أنه لو كان الذي قام بفعل الدنو والتدلي النبي محمد (كما زعم الكثيرون) لتصورنا المشهد على أن النبي محمد يدنو (أي يقترب) من الذات الإلهية ثم ما يلبث أن يتدلى (أي ينزل من الأعلى إلى أسفل)، وهذا ما لا يمكن قبوله أو حتى تصوره مادامت القاعدة العقائدية لدينا هي أن الله هو الأعلى. وأما من ظن أن ذاك يخص جبريل فنقول له: ما الداعي أن يقوم جبريل بفعل الدنو ثم التدلي وهو ما انفك يزور محمد في مكة صباح مساء؟ ويستحيل –بالمنطق نفسه- أن يكون جبريل هو من دنا ثم تدلى من الذات الإلهية لأن هذا يعني أن جبريل ما أن اقترب من الذات الإلهية (دنَا)

حتى اضطر أن ينزل (فَتَدَلَّىٰ) وبهذا يكون جبريل في مكان أعلى من المكان الذي يتواجد به الذات الإلهية، فهل يعقل مثل هذا الكلام؟!

7. من الذي كان قاب قوسين أو أدنى " فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ "؟

لا شك لدينا أن الضمير لازال يعود على من كان الخطاب عنه في الآيات السابقة، فلو تدبرنا هذه الآية مع الآية التي سبقتها لوجدنا أن الضمير لازال يعود على الكينونة نفسها، فليس هناك ما يدعو لتغيير ماهية الضمير:

- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨
- فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩

فالذي كان قاب قوسين أو أدنى هو من دنا فتدلى، فتلك الحركة من الدنو والتدلي هي من جعلته قاب قوسين أو أدنى، ولو تدبرنا الآية التي تليها لوجدنا أنها تعزز هذا الفهم.

- فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩
- فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠

8. فمن الذي أحوى إلى عبده ما أوحى؟

فمن هو المعبود (الذي أوحى) ومن هو العبد (الذي أوحي إليه) يا علماء الأمة؟ هل يعقل أن يكون محمد عبد لجبريل ليوحي إليه؟

9. " مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ"، على ماذا يعود الضمير في هذه الآية الكريمة؟

لا شك عندنا أن القارئ (حتى غير المتدبر للقرآن) لهذه الآية الكريمة يشعر أن ماهية الضمير قد اختلفت في هذه الآية الكريمة، فالآية تتحدث عن كذب وعن فؤاد، وينفي الله أن يكون ذلك الفؤاد قد كذب ما رأى، فنحن نعتقد جازمين أن الضمير هنا يخص النبي محمد.

10. وأخيراً نحن نعتقد أن باستطاعتنا تقديم الدليل الحاسم الذي يثبت أن النبي محمد لم يعرج إلى السماء (فليس هناك معراج) ولكن الله هو من نزل في تلك الليلة المباركة (فكان هناك نزول).
والدليل يأتي من الآية الكريمة التي جاءت في السورة نفسها، السورة التي استخدمها علماؤنا الأجلاء قروناً من الزمن لتسويق بضاعتهم بحصول معراج للنبي محمد إلى السماء العلى في تلك الليلة، والآية هي قول الحق:

- وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣

ألا تدلنا هذه الآية من سورة النجم نفسها – يا سادة – على أن هناك رؤيا أخرى ونزلة أخرى؟ فمتى إذن كانت الرؤيا الأولى والنزلة الأولى؟ ومن الذي رأى ومن الذي نزل؟
ألم تقرؤوا – يا علماء الأمة – مطلع سورة سبأ:

- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 2]

أو ما جاء في سورة الحديد:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: 4]

ألا تدلنا هذه الآيات الكريمة أن الحركة إلى السماء هي حركة عروج وأن الحركة من السماء إلى الأرض هي حركة نزول "وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا"؟ فما الذي حصل في تلك الليلة نزول كما تدل الآية الكريمة "وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ" أم عروج كما أحببتم أن تتخيلوها في أذهانكم؟ ومن يجب أن نثق به ونصدقه أكثر – نحن العامة – النص القرآن أم عقولكم يا سادة؟!!!

إن أول ما يمكن أن يفكر به أهل العلم لرد ما زعمنا في هذا الكتاب باستحالة حصول معراج للنبي إلى السموات العليا في تلك الحادثة هو حفنة من الأحاديث التي نسبوها للنبي محمد نفسه، لكني أدعو القارئ الكريم إلى تدبر بعض تلك الأحاديث نفسها ليجد فيها ما يرد ظن أهل العلم، فلقد اشتهر عن تلك الحادثة حوار المشركين مع الصديق أبي بكر ليخبروه بما "يزعم صاحبه" بحصول رحلة له في الليلة السابقة لحوارهم ذاك مع أبي بكر إلى بيت المقدس، فلقد اشتهر فيما يروى عن تلك الحادثة أن قريشاً جاءوا أبا بكر ليخبروه بأن صاحبه "يزعم" أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، فيجري ما يشبه الحوار التالي بينهم وبين أبي بكر:

أو قال ذلك؟
قالوا: نعم.
قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق.
قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح.
قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. (فلذلك سمي أبو بكر الصديق).

لو تدبرنا – عزيزي القارئ – هذه الحادثة لوجدنا أن الحوار بينهم كان عن الرحلة من البيت الحرام إلى بيت المقدس، ولا نجد كلاماً يدور بينهم عن معراج إلى السماء، فلو كان هناك معراج لبدأ الكافرون

حوارهم به لأنهم أصلاً جاءوا ليكذبوا ما يقول محمد، فيستحيل أن يتحدثوا عن رحلة أرضية إلى بيت المقدس ويغفلوا عن ما هو أعظم وأخطر – في نظرهم – وهي الرحلة إلى السماء، فالذي يريد أن يكذب شخصاً يستخدم الحجة الأقوى لديه، فلو علم المشركون أن النبي كان يتحدث عن عروج إلى السماء لما كانت رحلة أرضية إلى بيت المقدس ستأخذ حيزاً كبيراً في مجادلتهم، لأن لديهم عندئذ حجة أكبر يمكن لهم أن يسوقوها لتكذيب النبي محمد في تلك اللحظة.

ولو تدبرنا رد أبي بكر في نهايته لوجدنا أن أبي بكر هو من يتحدث عن تصديقه للنبي فيما هو أبعد من ذلك، وكأن لسان حال أبي بكر يقول للقوم" أتريدوني أن لا أصدقه في رحلة كهذه والوحي يأتيه في الليل والنهار بخبر ما هو أبعد من ذلك، أي خبر السماء".

إن ما يهمنا قوله هنا هو أنه لو كان الخبر آنذاك عن إسراء وعن معراج، لكان جل الخطاب من المشركين منصباً على المعراج لأن غايتهم تكذيب محمد وكفى، فيستحيل أن يتحدثوا بالتفصيل عن الإسراء ولا يأتوا في خطابهم ذاك على ذكر المعراج (وهو الحجة التي ستكون في صالحهم كما يظنون).

وللحديث بقية بحول الله وتوفيقه



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء العاشر)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (10)؟

هذا هو الجزء العاشر في كتابنا هذا تحت عنوان "لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟"، وقد حطّ بنا قطار الحديث (train of thought) في الجزء السابق عند محطة الإسراء، فزعمنا الظن أننا قد قدّمنا الدليل من كتاب الله على رد ظن أهل العلم بحصول معراج للنبي محمد إلى السموات العلى في تلك الليلة الكريمة، فظننا أننا قد وجدنا في كتاب الله ما يثبت أنّ الذي حصل في تلك الليلة المباركة هو نزول الذات الإلهية وليس عروج النبي محمد إلى السموات العلى، وقرئنا ذلك في قوله تعالى:

- وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾

فزعمنا بعد محاولتنا تدبر ماهية الضمائر في آيات سورة النجم أن الاقتراب الذي حصل كان من الذات الإلهية باتجاه نبيه (نزولاً) وليس العكس (عروجاً أو رفعاً) كما ظن معظم أهل العلم والدراية، وفهمنا ذلك من قوله تعالى:

- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾

إننا نظن أن الحركة إلى داخل السماء هي عروج مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: 2]

ولكن الوصول إلى الذات الإلهية يتطلب أكثر من العروج لأننا نعتقد أن الذات الإلهية هي خارج أقطار السموات والأرض (وسنناقش هذا الزعم في مقالات منفصلة بحول الله)، فالوصول إلى الله يتطلب رفعاً كما حصل مع عيسى بن مريم:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]

وسنتعرض لهذه الجزئية عندما في كتاب عن عيسى بن مريم بحول الله وتوفيقه

وقد حاولنا تبيان أن الهدف من تلك الرحلة كان ليري الله نبيه الكريم من آيات ربه الكبرى، فقرءنا ذلك في آية من آيات سورة النجم:

- ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: 18]

التي ربطناها بما جاء في آية الإسراء التي تحدثت بصريح اللفظ عن تلك الحادثة:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

وسنتابع الحديث في هذا الجزء العاشر عن تلك الحادثة، علّنا نستطيع - بحول الله - أن نسلط الضوء في نهاية المطاف على السبب الذي من أجله قلّب محمد وجهه في السماء باحثاً عن قبلة غير التي كان عليها قسطاً من الزمن:

- ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ ... ١٤٤﴾ [البقرة: 144]

حتى استجاب الله له طلبه، فولّاه القبلة التي يرضاها محمد بنفسه:

- ﴿... فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة: 144]

أما بعد،

لنبدأ النقاش بما انتهينا به في الجزء السابق وهو **السؤال** التالي: ماذا كانت آيات ربه التي رءاها محمد في رحلته تلك؟

الجواب: لقد زعمنا أن تلك الآيات كانت بعضاً من آيات ربه الكبرى، لذا نعيد صياغة السؤال نفسه ليصبح: ماذا كانت تلك الآيات الكبرى التي من أجلها جيء بالنبي إلى بيت المقدس في تلك الليلة؟
افتراء من عند أنفسنا: حاولنا البحث على عجل في كتاب الله عن رؤية الآيات الكبرى فما وجدناها تحصل لبشر إلا لمحمد في حادثة الإسراء (حسب زعمنا) كما يمكن أن يستنبط من الآية الكريمة التالية:

- ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: 18]

ولموسى عندما وجد هدى ربه في الواد المقدس:

- ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا

ٱلۡأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ۝٢٣﴾ [طه: 17-23]

وقد دفعتنا هذه المشاهدة إلى تقديم افتراء آخر من عند أنفسنا يتمثل بما يلي: إننا نظن أن الذي حصل مع محمد في تلك الليلة كان بالضبط كالذي حصل لموسى في ذلك الواد المقدس: إنها ملاقاة نبي كريم ربه في نفس المكان، ولنفس السبب.

نعم، هذا ما نريد أن نفتري في هذه المحطة من الحديث: تعيدنا حادثة الإسراء إلى قصة الميعاد الذي ضربه الله لموسى، فلنحاول النبش في الحادثتين علّنا نستطيع –إن أذن الله لنا بشيء من علمه- أن نؤسس لرابط بينهما.

أولاً، هناك في ذاك الواد حصل لقاء موسى مع ربه، فكان الهدف من مجيء موسى إلى ذلك المكان هو أن يريه الله من آياته الكبرى:

- ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ۝٢٣﴾ [طه: 23]

وهو بالضبط ما وجدناه في قصة الإسراء بالنبي محمد كما ترد في سورة النجم في قول الحق:

- ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: 18]

ثانياً، ربما من المعروف عند الجميع أن ملاقاة موسى ربه قد تكررت إلى ذلك المكان أكثر من مرة، فتمت في المرة الأولى عندما كان قافلاً العودة إلى مصر من أرض مدين:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 29-30]

وتكرر اللقاء عندما ضرب الله لموسى موعداً:

- ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ [البقرة: 51]
- ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

ونحن نظن أنّ لقاء محمد ربه قد تكرر مرة أخرى، ونزعم أن الآية الكريمة التالية ربما تشير إلى ذلك:

- ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم: 13]

لكن المفارقة العجيبة بين حالة موسى وحالة محمد ربما تكمن في أن موسى تجرأ وطلب الرؤيا المباشرة للذات الإلهية في ذلك الموقف:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

بينما لم يطلب محمد رؤية (البصرية) الذات الإلهية، ونحن نظن أن السبب ربما يكمن في أنّ محمد لم ينسى ما حصل مع موسى عندما طلب رؤية ربه، فهو يعلم استحالة الرؤيا البصرية المباشرة للذات الإلهية من حادثة موسى تلك، ولو استطاع موسى تحمل رؤية الجبل عندما تجلى الله له، ولو تمت الرؤيا المباشرة للذات الإلهية عندما طلبها موسى، لما تردد محمد – في رأينا – عن طلب رؤية الذات الإلهية في تلك الليلة.

ثالثاً، نحن نعلم كذلك أن الله قد من على موسى بالعلم عندما وجده في ذلك المكان:

- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝١٤٥﴾ [الأعراف: 144-145]

سنتحدث في مقالة منفصلة – إن شاء الله – عن الفرق بين رؤيا العين ورؤيا الفؤاد

وبالمنطق نفسه، ربما يمكننا الزعم أن النبي محمد قد عاد من تلك الليلة محملاً بالعلم أيضاً:

- ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: 5]

(وسنتعرض بعد قليل للفرق بين العلم الذي عاد به موسى محمولاً في يديه والعلم الذي عاد به محمد يحمله في صدره)

نتيجة: لقد تحصل لمحمد ما كان قد تحصل لأخيه موسى في ذلك الواد وهو ملاقاة ربه، فعاد محمد محملاً بعلم كما كان موسى قد عاد من هناك بعلم من ربه.

أما الآن فلنحاول التركيز على الرحلة نفسها بالعودة إلى تفاصيل الحادثة محاولين إثارة أوجه التشابه في الرحلتين: رحلة موسى لملاقاة ربه ورحلة محمد لملاقاة ربه، ولنبدأ بالتساؤل التالي: لماذا بدأت سورة النجم على وجه الخصوص بقوله تعالى:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النجم: 1]

وربما يكون **السؤال** أكثر دقة إن نحن طرحناه على النحو التالي: لماذا هوى النجم هنا على وجه التحديد؟ وما هو النجم الذي هوى؟

محاولة للإجابة: غالباً ما أخذ أهل العلم هذه الآية على الإجمال، فظنوا أن مفردة النجم هنا تعني النجم بشكل عام (أيْ أيُ نجم)، لكننا لا نرى بدأ من مخالفتهم الرأي لنزعم أن النجم هنا هو نجم واحد مقصود بذاته. ولكن كيف؟

افتراء خطير جداً: نحن نزعم الظن أن هناك نجما محددا إذا هوى كان دليلاً على نزول الذات الإلهية بالضبط كما حدث في تلك الليلة

الدليل

إن الذي دفعنا إلى تقديم هذا الافتراء الخطير جداً (لما سيترتب عليه لاحقاً من تبعات جمة) هو ما ظننا بأن الدليل عليه موجود في كتاب الله متى أشغلنا التفكير للتفريق بين مفردة النجم ومفردة النجوم، فقد تحدث الله في أكثر من موطن من كتابه الكريم عن النجوم (جمع مفردة نجم):

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ [الأنعام: 97]

فالمدقق في هذه الآية الكريمة يجد أن اللفظ جاء هنا بصيغة الجمع (النجوم)، وهذا بالضبط ما يثير فضولنا لنطرح سؤالنا هنا على نحو: لماذا لم تأتي المفردة هنا على صيغة النجم (بدل النجوم)؟ أي لماذا لم يقل الله في كتابه مثلاً "وجعل لكم النجم لتهتدوا به"؟

وبالمقابل، لماذا جاءت المفردة بصيغة المفرد " النجم" في سورة النجم (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)؟ ولِمَ لَمْ تأتي بصيغة الجمع، كالقول مثلاً "والنجوم إذا هوت"؟

جواب: إننا نزعم الظن أن الله هنا (في سورة النجم) لا يتحدث عن النجوم التي يهتدي به الناس بشكل عام، ولكنه يبرز نجما محددا بذاته يهتدي به نفر محدد من عباده (كما سنرى بعد قليل)، لذا قال:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النجم: 1]

وهنا لا يتردد صاحبنا المعهود أن يسأل: إنْ كان كلامك هذا صحيحاً، فما هو ذاك النجم الذي هوى؟ ولماذا هوى النجم أصلاً؟

جواب: ربما يرشدنا مثل هذا التساؤل إلى طرح سؤال أخر لا يقل أهمية عن سابقة، ويتمحور السؤال حول موقع مفردة "إذا" في الآية نفسها لنقول: لماذا جاءت "إذا" بعد الاسم النجم (وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ)؟ ولماذا لم تأتي قبل الاسم مثل (وإذا النجم هوى)؟

فلو تدبرنا آيات القرآن التي وردت فيها هذه المفردة "إذا" ملاصقة للأسماء الخاصة ببعض آيات الله الكونية كالنجوم والكواكب والشمس، لوجدنا أن مفردة "إذا" تسبق الاسم في أغلب الأحيان كما في الأمثلة التالية:

- ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨
- وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩
- وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠
- وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾ [المرسلات: 8-11]

- ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١
- وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢
- وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣
- وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤
- وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥
- وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦
- وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧
- وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨﴾ [التكوير: 1-8]

- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١
- وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢
- وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣
- وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾ [الانفطار: 1-4]

ولو حاولنا عقد مقارنة بين هذه الآيات التي سبقت فيها "إذا" تلك الأسماء كما في الأمثلة السابقة مع آيات أخرى لحقت فيها "إذا" بعض الأسماء كما في قوله تعالى:

- ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧

- وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ [التكوير: 17-18]

- ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾
- وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾
- وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾
- وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ [الشمس: 2-5]

- ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾
- وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾
- وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ [الليل: 1-3]

- ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾
- مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ [الضحى: 2-3]

وحاولنا فهم الفرق بينهما ربما يسعفنا ذلك في تسليط الضوء بدقة أكثر على قصة ذلك النجم الذي هوى، ولكن كيف؟

إننا نزعم القول أنه متى جاءت "إذا" سابقة للاسم المصاحب لها كانت تدل على مشهد من مشاهد الآخرة الذي سيحصل مرة واحدة (انظر السياقات السابقة التي تقدمت بها "إذا" على الاسم)، بينما إن جاءت "إذا" لاحقة للاسم المصاحب لها دلت على مشهد من مشاهد الحياة الدنيا الذي يحصل بشكل متكرر (انظر السياقات السابقة التي لحقت بها "إذا" الاسم)

وقد تباين هذا الاستخدام في السورة نفسها، فلو تدبرنا سورة التكوير مثلاً لوجدنا أن بدايتها تتعرض لما ستؤول إليه الأمور في يوم القيامة:

- ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾
- وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾
- وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾
- وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾
- وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾
- وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾

- وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧
- وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨﴾ [التكوير: 1-8]

ولكنها تنتقل بعد ذلك للتصوير بعض مشاهد الحياة الدنيا:

- ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧
- وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التكوير: 17-18]

إن ما يهمنا هنا هو مراقبة موقع "إذا" في الحالتين، ففي حين أن "إذا" كانت تسبق الاسم في مطلع السورة في الآيات التي تصور مشاهد يوم القيامة، جاءت "إذا" لاحقة للاسم عندما انتقل الحديث إلى تصوير مشاهد متكررة في الحياة الدنيا. وقد تكرر هذا التباين في سورة الانشقاق:

- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١
- وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢
- وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣
- وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤
- وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥﴾ [الانشقاق: 1-5]

- ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧
- وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨
- لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق: 17-19]

- ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤
- هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر: 4-5]

- ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١
- وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: 21-22]

- ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١
- وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ [الزلزلة: 1-2]

إن ما يهمنا القول هنا هو أنه إذا جاءت "إذا" لاحقة للاسم فإن ذلك يدل على حدث يحصل في الحياة الدنيا بشكل متكرر، وليس أدل على ذلك من ما جاء في سورة الفلق:

- ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣
- وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤
- وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: 3-5]

ولنعد بمثل هذا الافتراء لنقرأ ما جاء في بداية سورة النجم مرة أخرى:

- ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: 1]

لنفتري القول بأن هذا الحدث هو حدث من أحداث الحياة الدنيا التي تقع بشكل متكرر. ولكن ما فائدة مثل هذا الزعم؟
لو رجعنا إلى قصة لقاء موسى الأول ربه في الواد المقدس من بدايته وأثرنا جملة من التساؤلات ربما ترشدنا إلى التعرف أكثر على ذلك النجم، ولكن كيف؟
ها هو موسى يسير بأهلة راجعاً إلى أرض مصر بعد أن قضى سنين من عمره في مدين، وما أن يصل إلى مكان محدد حتى يأنس من جانب الطور ناراً فيقول لأهله:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: 29]
- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: 7]

وهنا نتوقف لنقرأ المشهد بطريقة ربما تكون جديدة، وذلك عند محاولتنا الإجابة على التساؤل التالي:
لماذا قال موسى لأهله إني آنست نار؟ وكيف يأنس موسى وحده تلك النار؟ لم لم يأنس أهله تلك النار؟ فهل تخفى رؤية النار على أحد؟

جواب: موسى آنس النار، ولكن كيف؟

هذا يدعونا إلى التفكر بمعنى هذه المفردة، فمعرفة معنى مثل هذه المفردات بالشكل المطلوب سيساعدنا - بلا شك- على الخروج باستنباطات تسعف في فهم المشهد بدقة أكبر، فما معنى أن يأنس موسى النار؟

لو دققنا في النصوص القرآنية التي تعرض تلك الحادثة كلها لوجدنا الآية الكريمة التالية التي تتطلب الوقوف عندها لنتأملها بدقة:

- ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10]

لاحظ - عزيزي القارئ- بداية الآية ووسطها، ففي بداية الآية جاء قول الحق عن موسى:

- إِذۡ رَءَا نَارٗا

لكن موسى لا يخبر أهله أنه قد رأى ناراً بل يقول لهم أنه آنس ناراً:

- فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا

السؤال: لماذا لم يقل موسى لأهله إني رأيت ناراً؟

جواب: إننا نعتقد أنه لو قال موسى لأهله إني رأيت ناراً، لربما فهمنا أن أهل موسى قد رءوا تلك النار أيضاً، لأن رؤية النار لا تخفى على الناظر، ولكن بعد أن رأى موسى ناراً وقال لأهله إني آنست ناراً، ربما نستطيع أن نستنبط بكل سهولة ويسر أن موسى وحده هو من رأى النار لكن أهله لم يروها، وحتى لا يدخل موسى في جدل مع أهله حول تلك النار، نظن أنه لجأ أن يختصر الموضوع (لعجلته المعهودة) ليلحق بها، فقال لهم إني آنست ناراً (فلا يشغلهم بالبحث عنها)، وبكلمات أخرى فإننا نزعم الظن أنه حتى لا ينشغل موسى في تلك اللحظة بمحاولة إثبات وجود النار (أو عدم وجودها) في ذلك المكان لأهله الذين لا يرون النار في تلك اللحظة بأم أعينهم، نظن أنه قال لهم إني آنست ناراً بدل أن يقول لهم إني رأيت ناراً. ولو كان أهله يستطيعون رؤية النار في تلك اللحظة لربما قال لهم إني أرى (بصيغة المضارع) ناراً، ولكن لما كان من التعذر على أهله رؤية تلك النار جاء الفعل بصيغة الماضي " إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ".

افتراء: موسى وحده يرى ناراً لكن أهله لا يرون تلك النار، فلا ينقل موسى خبر الرؤيا لأهله (ولكنه ينقل لهم الخبر على نحو أنه آنس ناراً)، ونحن نفتري الظن أيضاً أن موسى لربما كان يعلم أن أهله لن يستطيعوا رؤية تلك النار مهما حاولوا لأنها – في رأينا – نار من نوع خاص لا يستطيع كل الناس رؤيتها.

السؤال: ما هي تلك النار؟ وهل فعلاً هي نار من نوع خاص لا يستطيع كل الناس رؤيتها؟ ومن هم المؤهلون لرؤية تلك النار؟ وما الذي أشعل (ويشعل) تلك النار؟

عند محاولتنا الإجابة على هذه التساؤلات وجدنا ضرورة النبش في الهدف الذي من أجله ذهب موسى إلى ذلك المكان تاركاً أهله وراءه لوحدهم.

أهداف موسى من الذهاب إلى تلك النار

بعد تفقد السياقات القرآنية الخاصة بتلك الحادثة أصبح الظن عندنا يميل إلى اليقين أن موسى قد قدّم سببين لتلك الزيارة القصيرة وهما:

1. لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ
2. أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ

ولنبدأ النقاش بالهدف الأول طارحين السؤال التالي: ما هو الخبر الذي سيأتي به موسى؟
لقد فُصّل الخبر في سياقات قرآنية أخرى على نحو:

- ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10]

نتيجة مهمة جداً: لقد ذهب موسى إلى تلك النار باحثاً عن الهدى " أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ، فما هو إذاً الهدى الذي كان موسى يبحث عنه ويظن أنه سيجده عند تلك النار؟

لقد أخفق – في نظرنا – كثير من علمائنا الأجلاء عندما ظنوا أن في هذه الآية دليل على أن موسى ربما ضل طريقه، فذهب يبحث عن من يرشده إلى الطريق الصحيح التي تربط مدين بمصر، إلا أننا نرفض هذا الظن جملة وتفصيلاً للأسباب التالية:

1. لم يكن موسى من النوع الذي يمكن أن يضل طريقه وقد خبرها من ذي قبل، فهو الذي قدم من مصر (غرباً) إلى مدين (شرقاً) قبل أن يعود اليوم سالكاً الطريق نفسها ولكن بالاتجاه المعاكس، أي من الشرق إلى الغرب هذه المرة.
2. لو كان الأمر كذلك للجأ موسى إلى ربه أن يهديه إلى تلك الطريق، فلا أظن أن موسى من النوع الذي يغفل عن مناجاة ربه في مثل هذه الحالة، فعندما ذهب موسى في رحلته الأولى إلى مدين وقد كان لا زال لم يخبر الطريق بعد التجأ إلى ربه قائلاً:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: 22]

وكانت النتيجة أن وجد نفسه وارداً ماء مدين.

3. لو كان ما قاله سادتنا العلماء صحيحاً لجاء اللفظ بصيغة الجمع على نحو "أو نجد على النار هدى" لأن فقدان أو ضياع الطريق لن يكون حينئذ من نصيب موسى وحده، وإنما من نصيبه وأهله جميعاً، وعندها سيبحث موسى عن هدى لهم جميعاً وليس فقط لنفسه، فلا ننسى أنه قد استخدم ضمير

الجمع عند الحديث عن جذوة النار "لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ ". لذا نحن نستغرب أن يكون موسى قد ضلّ الطريق مع أهله ثم يعود ليقول:

- أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى

إن هذه النتيجة تنقلنا مباشرة إلى **السؤال** التالي: ما هو الهدى الذي كان يبحث عنه وموسى؟ والسؤال الأكثر وجاهة هنا هو: لماذا ظن موسى أنه سيجد على تلك النار هدى؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد كان ذلك بسبب النجم

ولكن كيف؟

جواب: إنه نجم الهدى الذي كان موسى باحثاً عنه طوال الوقت، والذي سنرى لاحقاً أنّ محمداً كان يقلب وجه في السماء باحثاً عنه. نعم - يا سادة - إننا نظن أن هناك نجم خاص بهداية بعض الناس وليس كل الناس.

السؤال: وأين الدليل على مثل هذه التخاريف التي تقول، سيرد صاحبنا على الفور.

جواب: لنقرأ قول الله تعالى:

- ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: 15-16]

فما هو النجم الذي جاء ذكره في هذه الآيات الكريمة؟ ومن هم الذين سيهتدون بذاك النجم؟

الجواب: إننا نظن أن الجواب موجود في قوله تعالى:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: 1]

نعم، إنّه ذلك النجم الذي يسمى نجم الهداية، أي الهداية التي تحصل عندما يهوي ذلك النجم، ولكن ليس كل الناس يهتدون بذاك النجم، بل نفر قليل من الناس هم الذين يمكن أن يهتدوا بذلك النجم، وهم الذين يكونون دائمين البحث عنه، لذا قال الحق في آية كريمة أخرى:

- ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: 16]

وهنا ندعو القارئ إلى تدبر السبب الذي من أجله جاء الضمير "هم" هنا؟ فسؤالنا يكون على نحو: لم جاء الضمير هنا ليفصل الاسم (النجم) عن الفعل (يهتدون)؟ لم لم تأتي الآية على نحو "وبالنجم يهتدون" مثلاً؟

الجواب: إنه ضمير التخصيص، فالهداية تكون هنا لنفر من الناس دون جميعهم، ولو تدبرنا السياقات القرآنية التالية لوجدنا التخصيص واضحاً عندما يأتي مثل هذا الاستخدام للضمائر:

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١
- ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢
- وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣
- وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤
- وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥
- إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦
- فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧
- وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨
- وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩
- أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠
- ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: 1-11]

نتيجة: عندما يهوي ذلك النجم يكون سبباً لهداية نفر بعينهم، لذا لن يستطيع أن يدركه إلا من كان باحثاً عنه على الدوام.

ولو أعدنا قراءة الآية الكريمة السابقة وتفكرنا بها من هذا المنظور عند الحديث عن موسى لربما وجدنا ما يلفت الانتباه:

- ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: 15-16]

نعم، هناك علامات على الأرض (تحدد المكان)، ولا شك لدينا أن موسى كان يخبرها، وهناك نجم يهوي في وقت معين في ذلك المكان، ولا شك لدينا أن موسى كان يبحث عنه، فمتى اجتمعت تلك العلامات

وهوى النجم فيها، عندها تحصل – دون أدنى شك – هداية لا تضاهيها هداية أخرى على وجه الأرض (وسنعود إلى هذه القضية لاحقاً بحول الله وتوفيقه)

ولو رجعنا إلى السياق القرآني الذي نظن أنه يتعرض لحادثة الإسراء في بداية سورة النجم بشكل أوسع، وحاولنا ربط الأمور مع بعضها البعض، لربما وجدنا أنفسنا في نفس المكان:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١
- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 1-2]

⇐ فصاحبنا (محمد) لم يضل طريقه ولم يغوي لأنه وجد الهدى هناك بالضبط كما وجد موسى الهدى هناك، فالذي لم يضل ولم يغوي، يكون قد اهتدى:

- أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى

⇐ وصاحبنا لم يأتي بشيء من عنده لأن الله علمه:

- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣
- إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤
- عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥
- ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦
- وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧﴾ [النجم: 3-7]

بالضبط كما عاد موسى من هناك بالآيات المرئية (اليد اليمنى تحمل العصا واليد اليسرى تدخل في جيبه وتضم إلى جناحه) والآيات المتلوّة (الألواح التي فيها تفصيلاً لكل شيء).

⇐ وصاحبنا قابل ربه هناك عندما نزل الله إليه (ولم يعرج هو إلى السماء)

- ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨
- فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩﴾ [النجم: 8-9]

بالضبط كما كان القرب المكاني الذي حصل لموسى في ذلك المكان عندما قابل ربه:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: 52]

ولا نظن أن صاحبنا كان ينتعل نعليه عندما قام من فراشه ليركب دابته التي تنقله إلى هناك، فدخل المكان المقدس بالضبط كما طُلِب من موسى أن يدخله خالعاً نعليه:

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١
- إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ [طه: 11-12]

نتيجة: إننا نظن أنّ رحلة الإسراء بالنبي إلى المسجد الحرام كانت بالضبط ميعاد الله نبيه محمد كما واعد نبيه موسى من ذي قبل، وقد حصلت – في ظننا – في نفس المكان ولنفس السبب.

مكان اللقاء

السؤال: أين هو ذلك المكان؟

الجواب: إننا نظن أن المكان هو البقعة المباركة من الشجرة عند جانب الطور الغربي:

- ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: 29]
- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤﴾ [القصص: 44]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦﴾ [القصص: 46]
- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 52]

نتيجة: لقد أسرى بمحمد ليلاً إلى نفس المكان الذي قابل فيه موسى ربه في البقعة المباركة من الشجرة

وسنرى لاحقاً انه المكان نفسه الذي وضعت فيه مريم بنت عمران ابنها عيسى، فالشجرة المباركة هي – في رأينا – النخلة نفسها التي طلب من مريم أن تهزها لتأكل من ثمارها بعد أن جاءها المخاض هناك، فهي قد اتخذت من دون قومها مكاناً قصياً لتضع فيه طفلها:

- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]

وأسري بمحمد إلى المسجد الأقصى:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

والصوت الذي ناداها من تحتها كان مصدره الصوت نفسه الذي نادى موسى هناك، أي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة

(وسنتعرض لهذا الموضوع بتفصيل أكبر عند الحديث عن عيسى بن مريم بحول الله)

توقيت الرحلة

سؤال: متى حصلت تلك الرحلة؟

جواب: نحن نظن أن رحلة الإسراء (كما ميعاد موسى) قد حصلت في نهاية فصل الصيف واقتراب موعد الشتاء

الدليل

لو تدبرنا الأسباب التي ساقها موسى لأهله لكي يتركهم ويذهب إلى تلك النار التي آنسها هناك، لوجدنا أنه يتحدث عن الهدى لنفسه (وهذا ما تعرضنا له قبل الآن)، ويتحدث أيضاً عن جذوة من النار (أو قبس) أو شهاب قبس:

- ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10]
- ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]
- ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ [النمل: 7]

إنّ ما يهمنا قوله هنا هو: لقد ذهب موسى إلى تلك النار، وقد وعد أهله أن يأتيهم بجذوة من النار لعلهم يصطلون، أليس كذلك؟

السؤال: لم كان أهل موسى بحاجة إلى جذوة من النار لعلهم يصطلون؟

جواب: إن هذا التساؤل ربما يسعفنا بالخروج بعدد من الاستنباطات نذكر منها:

- لا شك لدينا أن الوقت كان ليلاً (لأن النار قد لا ترى من بعيد في وضح النهار، فموسى يتحدث عن نار وليس عن دخان)
- ولا شك لدينا أيضاً أن الطقس كان يميل إلى البرودة وإلاّ لما كانوا بحاجة إلى ذلك القبس من النار ليصطلون بها، فالطقس أقرب إلى الشتاء منه إلى الصيف. ولكننا لا نظن أن الشتاء كان قد حلّ بعد، فمن غير المرجح أن يسافر موسى بأهله في برد الشتاء
- ولو دققنا النظر في قصة موسى أكثر لوجدنا أن موسى كان يعمل راعياً للغنم في مدين عند شعيب، وقد استأجره شعيب ثمان حجج (وأتممها موسى بعشر)، فعندما انتهى عقد إجارة موسى، أخذ موسى أهله وسار بهم إلى أرض مصر، ولا أظن أن موسى كان سيترك شعيباً في فترة الربيع، فذاك وقت المرعى وليس من أخلاق رجل كموسى أن يترك من أكرمه وهو في أمسّ الحاجة إليه، ولكننا نعلم أن أصحاب الماشية يبدؤون بكف المواشي عن المراعي وإدخالها الحظائر مع انتهاء فصل الصيف عندما تنتهي المراعي استعداداً لقدوم المطر
- كما نحن نظن أنه ما أن انقضى موسم المراعي (إي انتهى موسم الرعي) انقضت معها آخر حجة من إجارة موسى، لأن من الطبيعي جداً أن تنتهي الحجة مع انتهاء موسم الرعي (وليس في بدايته أو في وسطه)، فذاك هو الأجل بين الرجلين. لذا لمّا انقضى الأجل أدخل موسى غنم الرجل إلى حظائرها، وجهز أهله وانطلق بهم قافلاً العودة إلى أرض مصر.

> ولو دققنا جيداً فيما نقل عن حادثة الإسراء لوجدنا الكثير من الوقائع التي تؤكد هذا التصور، فنحن نعرف مثلاً أن حادثة الإسراء قد حصلت بعد عودة النبي وبصحبته زيد من دعوة أهل الطائف الذين صدوه صدوداً كبيرا، وكيف أنه جلس إلى ذلك البستان وجاءه من كان في البستان بشيء من العنب (لذا كان وقت قطاف العنب وهو آخر الصيف)
> ولو اطلعنا على بعض الجزئيات التي تم تناقلها، لوجدنا في واحدة منها أن النبي يخبر القوم بعد عودته عن قافلة لهم كانت عائدة من أرض الشام كانت قد أضاعت بعيراً لها، ويتيقن القوم من الخبر بعد عودة القافلة، إن ما يهمنا قوله هنا هو أن ذلك الوقت كان وقت عودة قوافل التجارة من الشام إلى أرض الحجاز (إنها وقت عودة رحلة الصيف)

- ولا ننسى كذلك أن موسى يخبر طبيعة المناخ في المكانين، ففي حين أن الشتاء سيحل في أرض مدين (شرقاً) ويميل إلى البرودة مع اقتراب فصل المطر، إلا أنه سيكون أكثر اعتدالاً في أرض مصر (غرباً)، فموسى سينتقل إلى مكان أكثر دفئاً من المكان الذي هو موجود فيه الآن.

> ولا يظنن أحد أننا نستخدم أسماء هذه المناطق كما يمكن أن تفهم على الخارطة السياسية الجغرافية المعاصرة، فتسميات المناطق الحديثة هي وليدة اتفاقية سايكس بيكو، وأعتقد أن القرآن الكريم لا يلتزم بالتقسيمات الجغرافية كما جاءت في سايكس بيكو، فعندما يذكر أسم مصر في القرآن يطير ظن الكثيرين إلى مصر الحديثة وهكذا. كلا، إننا نظن أن المنطقة الجغرافية التي جرت فيها أحداث قصة موسى تنقسم – حسب النص القرآني – إلى ثلاث مناطق رئيسية وهي مصر في الغرب ومدين في الشرق

> وسيناء بينهما، فقد عاش موسى طفولته في مصر وهرب إلى مدين، وحصل اللقاء مع ربه في الطريق الواصلة بينهما وهي سيناء (للمزيد حول معنى سيناء وهذه المناطق الجغرافية انظر مقالتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات)

العلم

⇐ ما هو العلم الذي حصل عليه موسى في ذلك المكان؟
⇐ ما هو العلم الذي حصل عليه محمد في ذلك المكان؟

علم موسى

في اللقاء الأول الذي ذهب فيه موسى ملاقياً ربه عاد موسى بالآيات المرئية التي تتمثل بـ :

1. العصا

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 17-21]

2. اليد

- ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾ [طه: 22-23]
- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: 32]

أما في اللقاء الثاني فقد عاد موسى بالآيات المتلوّة:

- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَكَتَبْنَا لَهُۥ

فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 142-145]

وهنا نتوقف قليلاً لنتعرف على آيات موسى المرئية والمكتوبة التي سنحتاج إليها كثيراً عن الحديث عن الآيات التي حصل عليها محمد عند لقاءه ربه.

آيات موسى المرئية

غالباً ما ظن الناس أن موسى قد جاء بآيتين اثنتين وهما آية العصا وآية اليد، وقد تحدثنا عن عصا موسى بشيء من التفصيل في مقالاتنا تحت عنوان (باب السامري)، فمن أراد التعرف على تلك الآية (كما نفهمها نحن)، فهو مدعو لمراجعة تلك المقالات، أما الذي دعانا للتوقف هنا هو آية اليد التي نظن أن أهل العلم قد فشلوا – كالعادة بالطبع – في تجليتها للناس كما يجب، لذا نحن نزعم الظن أن لدينا ما نقدمه في هذا السياق الذي سيختلف بشكل جذري عن كل ما سلف.

أما بعد،

إن محرك الاختلاف في التفسير (والذي دفعنا إلى مراجعة التفكير بآية موسى تلك) هو ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾ [القصص: 32]

السؤال: كيف يكون ما جاء في هذه الآية الكريمة عن يد موسى برهانان وليس برهان واحد؟

افتراء: لقد كانت يد موسى آية (تضاف إلى آية العصا) لكنها تختلف عن آية العصا بأنها برهانان

نتيجة: لقد كانت العصا آية واحدة وهي نفسها برهان واحد، بينما كانت اليد آية واحدة (كما العصا) ولكنها نفسها برهانان اثنان، فيكون موسى قد جاء بآيتين (العصا واليد) ولكنهما معاً (ثلاثة براهين)، ولكن كيف؟

إننا نظن أن أهل العلم لم يميزوا كثيراً بين الآية والبرهان، فأطلق اللفظ على الإجمال، أما نحن فنظن أن التفصيل أولى بالفهم، وفي هذا السياق، فإننا نزعم أن عصا موسى كانت آية (وكانت برهانا واحدا) لكن يد موسى كانت آية (ولكنها كانت برهانين اثنين)

الدليل

دعنا ندقق النظر بما جاء في الآيتين التاليتين عن يد موسى:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]
- ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾﴾ [طه: 22]

إن التمييز هنا يجب أن ينصب أولاً – في رأينا – على الفعل "وَأَدْخِلْ" والفعل "وَاضْمُمْ"، ثم على الاسمين "جَيْبِكَ" و "جَنَاحِكَ" ، فلا شك أن الله يتحدث عن فعلين كان ينفذهما موسى بيده وهما:

1. أن يدخل يده في جيبه (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)
2. أن يضمم يده إلى جناحه (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ)

وقد جمعا الفعلان معاً في آية كريمة أخرى

- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]

فكيف كان موسى يدخل (أو يسلك يده في جيبه)؟ وكيف كان يضمم يده إلى جناحه؟ وكيف يصبحا هذان الفعلان برهانين من رب موسى إلى فرعون وملئه؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن يد موسى كانت عبارة عن آية لكنها برهانين، فإدخال اليد في الجيب كانت برهان وضمّ اليد إلى الجناح برهان آخر، فيصبحا معاً برهانين.

> لذا نظن أن هذا الطرح يمكن أن يحل سبب أن يرد اللفظ بصيغة "فَذَانِكَ"، فلو كانت يد موسى آية واحدة ببرهان واحد، لجاء اللفظ بصيغة المفرد (فذلك)، ولو كان هناك آيتان ببرهانين لجاء اللفظ بصيغة المثنى "فذلكما"، ولو كان هناك أكثر من آيتين وأكثر من برهانين لجاء اللفظ بصيغة الجمع "فذلكم"، ولكننا نظن أنه لمّا كانت هي آية واحدة (يد موسى اليسرى) ببرهانين (تدخل في الجيب كبرهان وتضم إلى الجناح كبرهان آخر)، فإننا نعتقد أن المعنى لم يكن ليستقيم أن تأتي بصيغة المفرد لأنها ليست مفرد، ولا يستقيم المعنى أن تأتي بصيغة المثنى لأنها ليست مثنى، ولا يستقيم المعنى أن تأتي بصيغة الجمع لأنه ليست جمع، لكن لما كانت مفرد (وهي اليد) ببرهانين (مثنى) جاء اللفظ بصيغة "فَذَانِكَ"، أي اللفظ الذي يقع بين المفرد والمثنى.

ما الفرق بين أن يدخل (أو أن يسلك) موسى يده في جيبه من جهة وأن يضم يده إلى جناحه من جهة أخرى؟

جواب: إننا نظن أن موسى كان يدخل (أو يسلك) يده في جيبه لكنه كان يضم يده إلى جناحه.

ما الذي تقول يا رجل؟ ما الجديد في ذلك؟
جواب: دعنا نفهم أولاً ما هي يد موسى التي كان يسلكها في جيبه وما هي يده التي كان يضمها إلى جناحه.

سؤال: ما هي يد موسى؟

جواب: إن هذا السؤال يعيدنا مباشرة إلى اللقاء الأول الذي حصل لموسى مع ربه، فلنعيد السياق القرآني ذاك لنركز الآن على قضية يد موسى، ولنبدأ النقاش بالآيات التالية من سورة طه:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧
- قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨
- قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩
- فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠
- قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ٢١
- وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ٢٢﴾ [طه: 17-22]

لنقسمها إلى قسمين:

قسم أول يتحدث عن العصا:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧
- قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨
- قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩
- فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠
- قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ٢١

و**القسم الآخر** يتحدث عن اليد

- وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ٢٢﴾

السؤال: أي يد هي التي كان يدخلها موسى في جيبه ويضمّها إلى جناحه؟

جواب: إنها اليد اليسرى

لكن لماذا؟

جواب: لأن اليد اليمنى كانت تحمل العصا:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧
- قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨

فطلب الله منه أن يلقي العصا من يده اليمنى لتنقلب إلى حية تسعى:

- قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩
- فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠

ولكنه طلب منه بعد ذلك أن يأخذ العصا:

- قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١

نتيجة 1: لقد كانت العصا في يد موسى اليمنى فألقاها ثم عاد فالتقطها باليد اليمنى نفسها، ولو التقطها بغير اليد اليمنى لجاء شيء في النص يثبت ذلك، ولكن مادام السياق القرآني قد تحدث عن اليد اليمنى ولم يتحول الحديث عن ذلك، نستطيع أن نظن أن موسى كان على الدوام يحمل عصاه بيده اليمنى:

"قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ"

نتيجة 2: مادام أن يد موسى اليمنى كانت تحمل العصا فمن غير المتوقع أن تكون هي اليد التي أمره الله أن يدخلها في جيبه أو أن يضمها إلى جناحه وهو لازال في نفس الموقف، فهل يعقل أن يدخل موسى يده وهي تحمل عصاه التي أمره الله أن يأخذها في جيبه؟ أو أن يضمهما معاً إلى جناحه؟

الجواب: لا نظن ذلك.

ولكن حتى نثبت ذلك لابد من معرفة ما الجيب وما الجناح اللذان ذكرا في النص القرآني، وكيف كان موسى يسلك يده وكيف كان يضم يده

السؤال: ما هي اليد؟

جواب: عندما كنت أطرح مثل هذا السؤال في قاعة الدرس، كان الاستغراب هو ردة الفعل الأولى للطلبة، ولكن ما هي إلاّ لحظات حتى يتبين لهم مدى التفاوت في الفهم عندهم (وإن كانوا من أبناء العربية كما يزعمون وربما يتفاخرون)، فمنهم من يطبق ذلك على نفسه فيشير إلى جزء من الشكل الذي يظهر في الصورة، ومنهم من يشير إلى الشكل كله، وهكذا، والقارئ الكريم مدعو إلى طرح هذا السؤال على من حوله لينظر ردة الفعل عندهم.

أما نحن فنريد أن نصل إلى تعريف لليد مما يظهر في الشكل التالي عندما نطرح السؤال التالي: ما هي اليد؟



الجواب: إننا نظن أن ما يظهر في الصورة (ويظن كثير من الناس أنها هي اليد) يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام وهي: (1) اليد و (2) اليد إلى المرفق و (3) الجناح

1. **اليد**: أما اليد فهي المنطقة الأمامية التي يتجمّع فيها الأصابع الخمسة حتى بداية الرسغ، ودليلنا على ذلك قول الحق:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

2. **اليد إلى المرفق**: أما الجزء الذي يصل إلى المرفق فهو يسمى اليد إلى المرفق وليس اليد فقط:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

فلو كانت اليد تعني اليد إلى المرفق لما كان هناك ضرورة من أن يطلب الله منا أن نغسل أيدينا إلى المرفق عند القيام للصلاة، ولاكتفى بالقول فاغسلوا أيديكم وكفي.

3. **الجناح**: أما الشكل كله فيسمى الجناح، فالمنطقة التي تبدأ من الأصابع وتنتهي عند ملتقى الرقبة (أو الكتف مع الرقبة) فهي تسمى الجناح، فالإنسان له جناح كما للطائر جناح، ولكن الفرق بين جناح الإنسان وجناح بعض الطيور فيكمن – في رأينا – في أنّ جناح الإنسان لا يطير بينما جناح الطائر قد يطير، لذا نجد الروعة في التصوير القرآني في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

فلقد ظن البعض أن في هذه الآية شيء من الإطناب عندما قال الله (وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ)، فهل من الضروري أن يقول الله يطير بجناحيه لو كان الجناح يعني كما فهم الناس الجزء الذي يطير؟

كلا وألف كلا، لقد قال الله ذلك لأن الجناح قد يطير وقد لا يطير، فجناح بعض الطيور تطير بينما جناح الإنسان مثلاً لا يطير، لذا طلب الله من موسى أن يضمم يده إلى جناحه:

- ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه: 22]

فلقد كان لموسى جناح وطلب الله منه أن يضمم يده (الجزء الأمامي) إلى الجزء الخلفي ويكون ذلك بالضم

سؤال: ما الفرق بين أن يدخل يده في جيبه (أو أن يسلكها في جيبه) من جهة و أن يضمم يده إلى جناحه من جهة أخرى؟

لقد كانت حركة اليد إلى داخل الجيب حركة دخول (وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ) وسلك (ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ) بينما كان حركة اليد إلى الجناح حركة ضم (وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ)، ونحن نظن أنه عندما تدخل اليد في الجيب تدخل مفتوحة الأصابع كما في الشكل:



بينما عندما تضم تكون مقبوضة الأصابع كما في الشكل:



افتراء من عند أنفسنا: لقد كان إدخال يد موسى في جيبه برهان إلى فرعون وملئه وضم يده إلى جناحه برهان آخر إلى فرعون وملئه (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ)، ولكن لماذا؟

ينقلنا هذا **السؤال** إلى ذروة ما نود طرحه حول ماهية يد موسى كآية من ربه تضاف إلى آية العصا. فالعصا كانت تنقلب ثعبان مبين في كل مرة يلقيها موسى كآية إلى فرعون وملئه (انظر ما طرحناه بخصوص حية تسعى في مقالتنا تحت عنوان باب السامري 2)، أما اليد فقد كانت برهانين إلى فرعون وملئه، فكان موسى يدخل (أو يسلك يده في جيبه) وكان يضم يده إلى جناحه، فكان إدخال اليد في الجيب برهانا، وكان ضم اليد إلى الجناح برهاناً آخر (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ)، ولكن لماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أنه بإمكاننا استنباط الجواب من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]

تجمع هذه الآية الكريمة يد موسى مع التسع آيات التي جاء بها موسى فرعون وقومه، فما هي تلك الآيات التسعة؟

جواب: غالباً ما اختلف أهل العلم في تلك الآيات التسعة فعدّوا ما شاءوا وتركوا ما شاءوا، فكانت العصا وكانت اليد وكانت ... وكانت...الخ. ولو حاولنا أن نعدّ ما جاء به موسى إلى فرعون وملئه وإلى فرعون وقومه كما يرغب أهل العلم أن يفعلوا دون دليل أو برهان، لربما استطعنا أن نحصي العشرات من الآيات وليس فقط تسع آيات، فما هي تلك الآيات التسع التي جاء بها موسى فرعون وقومه؟

أولاً، لابد من التفريق بين الآيات التي (1) جاء بها موسى فرعون وملئه و(2) تلك التي جاء بها موسى فرعون وقومه.

هناك أدلة كثيرة في كتاب الله تتحدث عن الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وملئه:

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: 103]
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس: 75]

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود:96-97]
- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: 45-46]
- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزخرف: 46]

(2) ولكن – بالمقابل – هناك آية واحدة في كتاب الله تتحدث عن ما جاء به موسى إلى فرعون وقومه:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]

لذا يجب التمييز بين الآيات التي كانت موجهة إلى فرعون وملئه (أي حاشيته وخاصته) وتلك التي جاءت لتعم فرعون وقومه أجمعين، فنحن لم نجد في كتاب الله من الآيات ما يخص فرعون وقومه جميعاً سوى تلك الآيات التسعة.

نتيجة: لقد كانت الآيات الأولى التي جاء بها موسى (كالعصا واليد) هي آيات موجهه في الأساس إلى فرعون وملئه (أي حاشيته وبلاطه)، ولكن كانت تلك الآيات التسعة عامة على فرعون وقومه جميعاً (فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ)، ولكن ما علاقة ذلك باليد؟

جواب: إننا نظن أن العلاقة مباشرة، فلنعيد الآية السابقة ونتفقدها من هذا الجانب جيداً:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]

إن الملحظ الذي نود إثارته هنا هنا هو تلازم حدوث تلك الآيات التسعة مع إدخال اليد إلى الجيب، لذا فنحن نعتقد أن تلك الآيات التسعة كانت تحصل بمجرد أن يدخل موسى يده في جيبه لتخرج بيضاء من غير سوء.

السؤال: ماذا كانت تلك الآيات التسعة؟

جواب: إننا نعتقد أن الآيات التسعة التي جاء بها موسى فرعون وقومه (وليس فقط فرعون وملئه) قد وردت جميعها في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: 133]

نعم هذه هي الآيات التسعة التي جاء بها موسى إلى فرعون وقومه جميعاً وهي نفسها التي ارتبطت – على ما نظن- بشكل مباشر مع إدخال موسى يده في جيبه، فكان إذا أدخل موسى يده إلى جيبه يحصل الطوفان وإذا أدخل يده مرة أخرى حصل الجراد، وإذا أدخلها ثالثة حصل القمل وإذا أدخلها رابعة حصل الضفادع وإذا أدخلها للمرة الخامسة حصل الدم.

لكن – توقف يا رجل – ما الذي تقول؟ هذه فقط خمسة: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فكيف تفتري الكذب أنها تسع آيات؟ ألا ترى أنك تهذي؟

ربما، لكن دعنا لا ننسى ما فهمناه سابقاً حول آية اليد كما جاءت في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾ [القصص: 32]

ألم نزعم أنّ إدخال اليد إلى الجيب برهان وضمّها إلى الجناح برهان آخر؟

نعم، لكن ما علاقة ذلك بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؟

جواب: لنقرأ الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ [الأعراف: 134]

السؤال: كيف كان موسى يكشف الرجز عن فرعون وقومه (وليس فقط فرعون وملئه)؟

جواب: بيده

سؤال: كيف ذلك؟

جواب: بأن يضمها إلى جناحه

سؤال: ما علاقة ذلك بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أن إدخال موسى يده في جيبه لتخرج بيضاء من غير سوء هي برهان على حصول آية (كالجراد) وضم يده إلى جناحه هي برهان آخر على حصول آية أخرى (ككشف ضر الجراد)، فيصبح الجراد آيتين (حصول الرجز آية وكشف الرجز آية أخرى)، والبرهان على ذلك دخول اليد في الجيب وضم اليد إلى الجناح (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ). والمنطق نفسه ينطبق على الضفادع (فبإدخال اليد في الجيب يحدث الرجز كآية وبضم اليد إلى الجناح ينكشف الرجز كآية أخرى فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ)، فتصبح المعادلة على النحو التالي:

10 = 2 × 5
حصول (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) = 5
كشف (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) = 5

سؤال: ألا ترى أن هذه عشر آيات بينما يتحدث النص القرآن عن تسع آيات؟ ألا ترى أن هذا دليل على بطلان كلامك كله؟

جواب: ربما يكون ما تقوله صحيحاً، لكن لنعيد الآية الكريمة نفسها لنقرأها بشيء من الدقة؟

- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: 134]

إنّ أبسط ما يمكن أن نخرج بهش من استنباطات من هذه الآية الكريمة هو أن القوم يطلبون من موسى أن يكشف عنهم الرجز؟ أليس كذلك؟

نعم، لكن ما علاقة ذلك بالآيات التسعة؟

جواب: لم يطلب القوم من موسى أن يكشف عنهم كل شيء وإنما طلبوا منه أن يكشف عنهم الرجز فقط، فيكون السؤال على النحو التالي: هل كشف موسى عن القوم كل تلك الآيات التي حصلت؟

جواب: لا أظن ذلك، لم يكشف موسى عنهم إلا الرجز منها (وبالضبط ما طلب القوم منه أن يكشفه عنهم).

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن تلك الآيات الخمسة وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم قد حصلت جميعها بمجرد أن يدخل موسى يده في جيبه

حصول خمس آيات (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم)

لكن موسى لم يكشف عن القوم تلك الآيات جميعها عندما حصلت ولكنه كشف عنهم ما طلبوا هم أن يكشفه عنهم

نتيجة: لم يكشف موسى جميع تلك الآيات عندما حصلت

سؤال: ما هي الآيات التي كشفها موسى عنهم

جواب: الرجز

سؤال: ما هي الآيات التي لم يطلب القوم من موسى أن يكشفها عنهم

جواب: ما ليس برجز

ولكن كيف؟

لو دققنا جيداً في ماهية تلك الآيات وفي ترتيبها كما ترد في النص القرآني ربما نخرج ببعض الاستنباطات حول القضية قيد الدراسة، فلنرقب تلك الآيات في سياقها القرآني الأوسع:

- ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ۝١٣٥﴾ [الأعراف: 132-135]

افتراء من عند أنفسنا: إن الهدف من السطور التالية هو إعادة قراءة هذه الآيات الكريمة مرة أخرى محاولين أن نثبت زعمنا التالي:

لم يطلب القوم من موسى أن يكشف عنهم الطوفان ولكنهم طلبوا منه أن يكشف عنهم الجراد والقمل والضفادع والدم لأنها:

1. هي من الرجز الذي طلبوا كشفه
2. هي ما يمكن أن تحصل بطريقة تشبه السحر، فلا ننسى أنهم قد قالوا لموسى "وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ"، فالقوم إذاً يتحدثون عن حصول ما يشبه السحر (وهو ما سنتعرض لأهميته بعد قليل بحول الله)
3. أن الطلب جاء لموسى أن يكشف بنفسه ذلك الرجز، فهم يخاطبون موسى قائلين (قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ)، فالقوم إذاً يقرّون أن موسى هو من يقوم بكشف الرجز، فلم يرد موسى عليهم بالقول بأن الله هو من سيكشف عنهم الرجز ولكنه يقرهم على دعواهم تلك، ولهذا يمكن أن نفهم أن عملية كشف الرجز قد كانت تتم من قِبَلِ موسى نفسه وبطريقة يخيّل للناظر أنها تشبه السحر.

ونحن لا نتوقع أن يكون القوم قد طلبوا من موسى أن يكشف عنهم الطوفان عندما وقع عليهم وذلك للأسباب التالية:

1. لا نظن أن الطوفان من الرجز
2. لا نظن أن الطوفان يمكن كشفه بطريقة تشبه ما يمكن أن يفعل الساحر
3. لقد كان الطوفان هو الآية الأولى (حسب ترتيب الآيات كما ترد في كتاب الله)، فلا نظن أن القوم قد اقتنعوا جميعاً بأن حصول الطوفان كان بسبب إدخال موسى يده في جيبه، لذا لم يكونوا يتصوروا أن موسى يستطيع كشفه عنهم، لذا نحن نعتقد أنهم لم يطلبوا من موسى كشفه عنهم لأنهم لم يربطوا حصول الطوفان بموسى.
4. لا شك أن الطوفان سينتهي بالطريقة الطبيعية، فلا أظن أنهم بحاجة أن يتسرعوا بأن يأخذوا على أنفسهم تعهداً أن يؤمنوا بموسى وأن يبعثوا معه بني إسرائيل بمجرد أن ينقضي الطوفان (لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)، فهم يستطيعون أن ينتظروا بعض الوقت فينقضي الطوفان من تلقاء ذاته، ولا ننسى أن ذلك الطوفان لم يكن عظيماً جداً في حجمه كطوفان نوح مثلاً لأن ذلك كان سيعني نهايتهم عن بكرة أبيهم.

افتراء من عند أنفسنا: لقد طلب القوم من موسى أن يكشف عنهم الرجز فقط، فهم قد طلبوا منه أن يكشف عنهم ما يمكن ربطه مع موسى وما يكون حصوله وكشفه يشبه للناظر بأنه ضرب من أعمال السحر حتى قالوا هم بأنفسهم:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ [الزخرف: 47-50]
- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ [النمل: 12-13]

نتيجة: لقد طلب القوم من موسى أن يكشف عنهم الرجز وهي أربعة (الجراد والقمل والضفادع والدم) بينما لم يطلبوا من موسى أن يكشف عنهم الطوفان

الآيات التي كشفها موسى عنهم (الجراد والقمل والضفادع والدم)

والآن لو جمعنا الآيات التي حصلت فعلاً بمجرد أن يدخل موسى يده في جيبه وهي خمسه (الطوفان الجراد والقمل والضفادع والدم) مع تلك التي طلبوا منه أن يكشفها عنهم وهي أربعة (الجراد والقمل والضفادع

والدم) يصبح مجموع الآيات التي قام بها موسى بحركة يده بإدخاله في جيبه كبرهان وبضمها إلى جناحه كبرهان آخر تسع آيات عمّت فرعون وقومه جميعاً (وليس فقط فرعون وملئه):

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]

السؤال: لماذا كانت تخرج يد موسى بيضاء من غير سوء في كل مرة يدخلها في جيبه؟

جواب: إن هذا السؤال يعيدنا مرة أخرى للنبش بمعنى السوءة التي حصلت في أكثر من موضع من كتاب الله، وقد تعرضنا لهذه الجزئية أكثر من مرة في مقالاتنا السابقة ولكننا لا نجد بداً من إعادة بعض الأفكار السابقة التي يمكن أن ننطلق منه للحصول على أفهام جديدة حول قصة يد موسى التي نحن بصدد البحث فيها هنا:

عودة إلى ما سبق

لقد حصلت السوءة أول مرة عندما أكل آدم وزوجه من الشجرة:

- ﴿... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ... ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]

وقد حاولنا أنْ نفهم المعنى المقصود من "بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا"، أي كيف بدت لآدم وزوجه سوءاتهما؟

وحاولنا رد الفكر السائد الذي درج عليه الفكر الإسلامي قروناً من الزمن عندما حاول أن يسوّق فكرة أنّ السوءة تعني "العورة" أي أنّ عورة آدم وحواء بدت لحظة الأكل من الشجرة، فزعمنا الظن أن السوءة لا تعني فقط العورة وإنما الجسد بأكمله، أما دليلنا لإثبات زعمنا هذا فيأتي على النحو التالي:

أولاً، لعلنا جميعاً على دراية (ولو قليلة) بقصة ابني آدم:

- ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: 27-30]

ولكن ما الذي حصل بعد أنْ طوعت له نفسه قتل أخيه؟ إنه الندم ولا شك، ولكنّ الأمر كان قد فات، فلا يستطيع أنْ يعيد أخاه إلى الحياة، وجلّ ما يستطيع فعله هو عمل شيء بـ جثة أخيه، فلا شك أنّه في تلك اللحظة وقف حائراً لا يعلم ما يفعل حتى:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: 31]

لعل القارئ الكريم قد أدرك ما نجهد أنفسنا الوصول إليه باستعراضنا لحادثة ابني آدم، فهل تعني عبارة "سَوْءَةَ أَخِيهِ " "عورة أخيه"؟ أي هل كان ابن آدم يبحث عن مواراة عورة أخيه فقط؟ كلا وألف كلا، لقد كان يقصد مواراة الجثة بأكملها، فلربما أنّ عورة أخيه لم تكن مكشوفة لحظة أنْ قتله. وهنا لا بد أنْ نطلب من القارئ الكريم إمعان النظر بتطابق الألفاظ في حالة الحديث عن سوءة ابن آدم المصروع وما كان لآدم وحواء في مكان آخر من القرآن الكريم:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فهل تعني كلمة "سوءة" كلمة عورة في هذه الآية الكريمة؟ إنْ كان كذلك فإن المقصود بالمواراة هو ليس العورة وإنما جزء منها بدليل قوله تعالى " لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا "، أي هل تكشف جزء من العورة ووري جزء آخر؟ الجواب النفي بكل تأكيد، ولعل الروعة في هذه الآية القرآنية أنّها تشير إلى مواراة (ولنقل مجازاً تغطية) الجسد ولكن ليس كل الجسد، وإلا لربما فهمنا أنّ آدم وحواء قد غطوا أجسادهم بأكملها بما فيها الوجه والكفين وهكذا. وحتى لا يبدأ البعض الدفاع بالقول أن الحالتين مختلفتين (حالة آدم وزوجه من جهة وحالة ولديهما على الأرض من جهة أخرى) فقد لا نحتاج أن نرد بأكثر من التأكد من تطابق الألفاظ، ففي كلتا الحالتين استخدمت لفظة سوءة واستخدم الفعل "المواراة"، وفي كلتا الحالتين جاء الحديث عن السوءة "أي الجسد" بعد الوقوع في المحظور (كما يقال على لسان العامة)، فآدم يأكل من الشجرة وولده يقتل أخاه، أليس كذلك؟

فنخلص إلى القول بأنّ كلمة "سوءاتهما" تعني إذاً أجسادهم، وبهذا نعتقد أنّ الله سبحانه قد حذر آدم وزوجه من الأكل من الشجرة حتى لا تبدوا أجسادهم الآدمية الفيزيائية، وهذا يعني بالضرورة أنّ آدم وزوجه كانا يقطنا الجنة بدون تلك الأجساد التي نراها، لقد كانا في هيئة وماهية على غير هذه التي نعرف، وما بدت تلك الأجساد إلاّ لحظة الأكل من الشجرة، وهنا سيرد البعض بالسؤال: هل فعلاً كان آدم وحواء يقطنان الجنة بلا أجساد "سوءة"؟ نقول كلا، لقد كانا يسكنان الجنة بأجساد ولكنها لم تكن بادية "ظاهرة". وقد يقول البعض وكيف ذلك؟ فنرد على هذا التساؤل بتساؤل آخر أكثر إثارة ربما وقع في خاطر أحدكم في يوم ما وهو: لماذا لا

نرى نحن الآدميين الجن بينما الجن يرانا؟ ولماذا لا نرى نحن الملائكة بينما هم يرونا؟ لماذا نحن الجنس البشري فقط نُرى ولا نَرى؟

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

نعم لقد كان آدم وزوجه يقطنان الجنة بأجساد غير بادية كأجساد الجن أو الملائكة في كيفيتها ولكنها مختلفة في ماهيتها. فالشيطان بفعلته تلك نجح في أنْ ينزع عن آدم وزوجه لباسهما الذي كان يسترهما حتى لا يكونا عرضة للأذى، وبدلاً من ذلك اللباس أصبح آدم وحواء بحاجة إلى لباس جديد يواري سوءاتهما " وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ ".

(للتفصيل انظر مقالتنا السابقة أين كانت جنة آدم؟)

نتيجة: السوءة هي الجسم الآدمي

لنعود الآن بهذا الفهم لتسليط الضوء على قصة يد موسى:

- ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه: 22]

إنّنا ندعي أنّ موسى كان إذا أدخل يده في جيبه تخرج بيضاء "مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" أي بيضاء "من غير الجسد الآدمي الذي نعرف". ولكن لماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: عندما كانت يد موسى تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء كانت تبدو للناظر بأنها جسم نوراني يصعب على الناظر أن يحدّق النظر فيه طويلاً، فلم يكن القوم يستطيعوا أن يفهموا كيف تحصل الآية بمجرد أن يخرج موسى يده من جيبه، فكان أول (وربما آخر) ما ظنوا أنه ضرب من أصناف السحر، ولا ننسى أنهم على دراية بأن أكثر ما يتقن الساحر هو خفة ورشاقة حركة يديه:

- ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النمل: 12-13]

فالآية المبصرة هي الآية المضيئة، التي تكون ناصعة البياض، كبياض النهار الذي يميزه عن الليل:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: 12]

وربما يفسر مثل هذا الكلام كيف كانت ناقة ثمود آية، فلقد كانت تلك الناقة مبصرة:

- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: 59]

نتيجة: لقد كان موسى يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، عندها تحصل الآية (كالجراد مثلاً)، وما هي إلاّ أن يضم موسى يده إلى جناحه حتى تقع آية أخرى بانكشاف ذلك الرجز

السؤال: لماذا كان العدد تسعه؟ لماذا لم تكن سبعة أو خمسة عشر أو أكثر أو أقل من ذلك؟

جواب: إننا نزعم أن الفهم الذي يؤسس للعلاقة المباشرة بين تلك الآيات التسعة ويد موسى ربما يعطينا تفسيراً لعدد تلك الآيات، ولكن كيف؟

جواب: إننا نظن أن قوة موسى بالآيات المرئية التي جاء بها من لقاءه الأول بربه كانت تكمن في كلتا يديه، فيد موسى اليمنى تحمل – كما أسلفنا – عصاه التي كان يحدث بها آيات من نوع معين (سنتعرض لها بعد قليل بحول الله) ويده اليسرى تحدث آيات من نوع آخر عندما كانت تدخل في جيبه أو تضم إلى جناحه. ولو دققنا النظر في الآيات التي كانت تقع بواسطة العصا التي يحملها في يمينه لوجدنا أن جميعها كانت خيراً كشق البحر وتفجير الماء من الحجر وهكذا، ولم يكن ذلك يحدث رجزاً يتطلب من موسى أن يكشفه عن القوم (ولم يطلب القوم يوماً من موسى أن يكشف عنهم ما احدثته عصاه)، فكانت حركة اليد اليمنى هي حركة واحدة وهي الضرب (وسنرى لاحقاً أن الضرب لا يأتي إلا بخير عندما نتحدث بالجزء القادم من الكتاب بحول الله وتوفيقه عن قصة البقرة). ولكن – بالمقابل – نجد أن الآيات التي كانت تحدث بسبب يد موسى اليسرى التي كان يدخلها في جيبه كانت بمجملها آيات عذاب (كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم)، فهي تحدث رجزاً تطلب من موسى أن يكشفه عن القوم (كالجراد والقمل والضفادع والدم) بطلب منهم.

لكن يبقى **السؤال**: لماذا تسعة على وجه التحديد؟

جواب: لندقق النظر باليد، ألا تتكون اليد من خمسة أصابع؟

بلى، لكن ما علاقة ذلك بالعدد؟

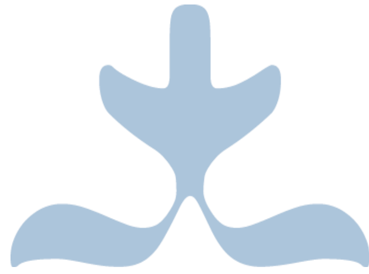
افتراء: إننا نزعم الظن أن في كل إصبع من أصابع اليد اليسرى الخمسة كانت آية تقع بمجرد أن يدخل موسى يده في جيبه الجيب، وتنكشف الآية بمجرد أن يضم ذلك الأصبع في قبضة اليد إلى الجناح، ولو حاول أي شخص منا أن يسلك يده في جيبه لأدخل اليد بأكملها:



ولكنه لو حاول أن يضم يده لما استطاع أن يضم غير أربعة من الأصابع فقط، لأن الإبهام (الأصبع الأكبر: الطوفان) لا يضم مع بقية الأصابع:



وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الحادي عشر)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (11)؟

تنبيه تنبيه تنبيه

نجد لزاماً التنبيه في بداية هذا الجزء أن ما سيجده القارئ الكريم في هذا الجزء ربما يكون من أخطر الافتراءات التي قدمناها (إن لم يكن أخطرها على الإطلاق)، لما فيها من أكاذيب وأباطيل من عند أنفسنا ظننا أنها صحيحة، وزعمنا أن الدليل عليها ربما يمكن استنباطه من كتاب الله، لكن بالرغم من الجهد الذي بذلناه في كتابة هذه السطور، إلا أن عقيدتنا لا تخرج عن النطاق التالي: **لا نعتقد أن ما نقدمه هنا موجود فعلاً في كتاب الله، بل هو ما كتبناه نحن بأيدينا وظننا أنه مستنبط من كتاب الله**، فهو لا يخرج عن نطاق الظن الذي يمكن أن يثبت خطأه، فنحن ندرك حجم المسؤولية إن نحن ظننا غير ذلك:

- ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: 79]

لذا ندعو (بكل صدق وأمانة) كل من ظن أن حجتنا ضعيفة لا ترقى أن تكون ملزمة (وهم بلا شك على صواب) أن يقوم بإلقاء الملف بأكمله في recycle bin على سطح شاشة جهازه، هذا إن هو أصلاً كلف نفسه عناء القراءة مادام أن عنده من وقت الفراغ الذي قد لا يجد طريقة أكثر نجاعة في تقضيته.

أما بعد،

تحت عنوان لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه، سنتابع في هذا الجزء الحادي عشر حديثنا عن آيات موسى المرئية التي عاد بها من لقاءه الأول بربه في الواد المقدس لننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الآيات المتلوّة التي عاد بها من لقاءه الثاني بربه، محاولين في الوقت ذاته ربط ذلك بما حصل مع محمد في رحلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث كان الهدف من الرحلة هو رؤية الآيات:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

حيث زعمنا الفهم أن رؤية الآيات تنقسم إلى قسمين:

1. رؤية قلبية للآيات (مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ)
2. رؤية بصرية للآيات (مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)

لنخلص إلى نتيجة مفادها أنّ ما حصل مع محمد كان موازياً تماماً لما حصل مع موسى في لقاءه بربه، فلقد رأى كلاهما آيات ربه رؤية قلبية (مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ) ورؤية بصرية (مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ).

أما بعد،

كنّا قد توقفنا في نهاية الجزء السابق عند آية يد موسى اليسرى التي كان يدخلها بجيبه لتخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]

وقد زعمنا الفهم أن يد موسى تلك كانت آية لفرعون وملئه ولكنها كانت تقدّم برهانين اثنين في كل مرة يستخدمها الرجل، تمثل البرهان الأول في إحداث الرجز (كالطوفان والجراد والضفادع والقمل والدم) وتمثل البرهان الثاني في كشفه، فكانت يد موسى اليسرى آية واحدة ببرهانين اثنين مصداقاً لقوله تعالى في كتابه الكريم:

- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]

وزعمنا القول أن موسى قد قدّم لهم خمس آيات وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم:

- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: 133]

ولكن القوم طلبوا من موسى أن يكشف عنهم أربعة منها وهي الجراد والقمل والضفادع والدم:

- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ۖ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: 134]

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

ولو تدبرنا هذه الآيات في سياقها الأوسع لوجدنا أن القوم ما انفكوا ينسبون الخير لأنفسهم والسوء لموسى ومن معه:

- ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: 131]

وما انفكوا أيضاً ينعتون ما جاءهم به موسى على أنه من باب السحر:

- ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: 132]

وفي الوقت الذي كان هذا هو ديدنهم إلا أنهم طلبوا من موسى أن يكشف عنهم الرجز الذي وقع عليهم:

- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝﴾ [الأعراف: 133-134]

وكعادتهم، ما هي إلا لحظات حتى ينكثوا بوعدهم الذي قطعوه على أنفسهم عندما كان الرجز واقعاً بهم:

- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝﴾ [الأعراف: 135]

فكانت نهايتهم الوخيمة أن أغرقهم الله في اليم لتكذيبهم تلك الآيات المرئية التي كانوا عنها غافلين:

- ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝﴾ [الأعراف: 136]

وقد كانت تلك الآيات على الترتيب هي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ولو تدبّرنا السياق القرآني التالي لربما استطعنا أن نخلص إلى نتيجة مفادها أن الترتيب كان ضرورياً، فقد كان يعكس شدة الرجز الذي يقع بهم:

- ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝﴾ [الزخرف: 48]

فكانت كل آية أكبر من سابقتها، فآية الجراد كانت أكبر من آية الطوفان، وآية القمل كانت أكبر من السابقتين، وهكذا، لذا لما استنفذت كل تلك الآيات المرئية وكان التكذيب هو سمة القوم الذين جاءتهم تلك الآيات كان لا مناص من وقوع الانتقام الرباني المتمثل بإبادتهم جميعاً:

- ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝﴾ [الأعراف: 136]

ولو دققنا النظر جيداً في النص القرآني لربما وجدنا أنّ موسى ما استخدم يده اليسرى تلك بعد أن أنجاه الله من فرعون وقومه، فلقد توقفت يد موسى اليسرى عن تقديم الآيات مع نهاية فرعون وقومه، ولم يتبقى مع موسى من الآيات المرئية سوى عصاه التي كانت تلازمه على الدوام، والتي ذكرنا أنها كانت سبباً في تقديم الخير (وليس الرجز)، فلقد شق موسى لقومه طريقاً في البحر بالعصا:

- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝﴾ [الشعراء: 63]

فالعصا كانت سبباً في نجاة بني إسرائيل من فرعون وجنده، ولو دققنا النظر جيداً لوجدنا أن العصا لم تكن سبباً في هلاك فرعون وقومه، فموسى لم يضرب البحر مرة أخرى بالعصا ليعود كما كان فيغرق فرعون وجنده، فلقد حدث الغرق لفرعون ومن معه بأمر من الله وليس بالعصا:

- ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشعراء: 64-66]

كما استسقى موسى لقومه بالعصا:

- ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: 60]
- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأعراف: 160]

نتيجة: لقد كانت عصا موسى التي كان يأخذها بيمينه سبباً في جلب الخير لبني إسرائيل بينما كانت اليد اليسرى لموسى سبباً في إيقاع الرجز على فرعون وقومه. فقد أنقذ موسى بني إسرائيل من استعباد فرعون لهم بما أمده الله من قوة بيده اليمنى، وأوقع الرجز على فرعون وقومه بما أمده الله من آيات في يده اليسرى، فقد وقف موسى سداً منيعاً بين فرعون وقومه من جهة وبني إسرائيل من جهة أخرى، كانت يده اليمنى ممتدة جهة بني إسرائيل ويده اليسرى مضمومة جهة فرعون وقومه.

فالمتفحص للنص القرآني ربما يجد أنه في اللحظة التي انقضى فيها أمر فرعون وقومه غابت يد موسى اليسرى عن المشهد كلياً، فخرج موسى من أرض مصر يحمل عصاه بيده اليمنى، وخرج قوم موسى يحملون المتاع من الزينة والأموال التي ورثوها من قوم فرعون بعد أن أهلكهم الله:

- ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

(وسنعود للحديث عن قصة موسى كاملة في كتاب منفصل بحول الله وتوفيقه، أما الآن فسنتوقف عن الحديث عن آيات موسى المرئية لنتحدث عن الآيات التي عاد بها موسى من لقاء ربه الثاني وهي الآيات المتلوّة)

آيات موسى المتلوّة

إن المتفحص لقصة موسى في لقاءه الأول بربه ربما يجد أن موسى لم يعد من ذلك اللقاء الأول بشيء مكتوب، ولكنه عاد فقد بآيتين اثنين وهما - في رأينا - يده اليمنى ويده اليسرى، فلقد كان موسى يحمل العصا بيده اليمنى (فكانت آية وكانت برهان واحد) ويدخل يده اليسرى في الجيب ويضمها إلى جناحه (فكانت آية وكانت برهانين اثنين)، وهذا ما شكّل جل نقاشنا في الجزء السابق، أما ما يهمنا الآن فهو الخروج بالاستنتاج المهم التالي: لم يعد موسى من لقاءه الأول بربه بآيات متلوّة ولكنه عاد من هناك بآيات مرئية يمكن أن ترى بالعين (رؤيا البصر).

فالآيات المرئية كانت موجّهة في الدرجة الأولى لفرعون وقومه (وهم الذين لم يؤمنوا برسالة موسى)، فكانت تلك الآيات دليلاً على صدق رسالة موسى كما طلبها فرعون وملئه:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف: 104-108]
- ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء: 30-33]

وهكذا كانت قصة الآيات المرئية التي جاء بها كل أنبياء الله دليلا على صدق رسالتهم، فها هم قوم نوح مثلاً يطلبون الدليل على صدق رسالة الرجل:

- ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 69-70]
- ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ [هود: 32]

وها هم أصحاب الناقة يطلبون الآية على صدق رسالة نبيهم صالح:

- ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨﴾ [الشعراء: 154-158]

- ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف: 77-78]

وها هم أصحاب الأيكة (قوم شعيب) يكذبون رسالة نبيهم ويطلبون العذاب بأنفسهم كدليل على صدق دعوة الرجل:

- ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: 176-189]

وهكذا كان ديدن قوم لوط: وقوع العذاب بطلب منهم كدليل على صدق دعوة الرسول:

- ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ [العنكبوت: 29-30]

وطلبت عاد (قوم هود) نفس الطلب: وقوع العذاب كدليل على صدق دعوة الرسول لهم:

- ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: 21-25]

نتيجة مهمة جداً: ما أن تأتي الآيات المرئية حتى تكون سبباً لهلاك القوم

سؤال: لماذا لم يأتي محمد بآيات مرئية لقومه كتلك التي جاء بها موسى أو صالح، وهكذا؟

جواب: إننا نظن أن محمداً كان يدرك عواقب المجيء بالآيات المرئية، فهو يعلم بأن الهلاك لا محالة نازل بالأمة التي ترى آيات ربها رؤيا العين وتكذبها، فلقد نزل على محمد قرآن يتلى بذلك:

- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: 59]

فمحمد يعلم تماما العلم عاقبة قوم ثمود وعاد وغيرهم من الأمم التي جاءتهم تلك الآيات المرئية وكذبوها، ولا أظن أن محمداً كان يقبل أن تكون عاقبة مكة (البلدة التي كان يمكن أن ترى تلك الآيات) كعاقبة البلاد التي أهلكها الله

كما يجب أن لا ننسى أمراً آخر نظن أنه غاية في الأهمية وهو: عندما تفقدنا السياقات القرآنية لم نجد أن قوم محمد (قريش) قد طلبوا (كما طلبت الأمم السابقة) وقوع العذاب عليهم كدليل على صدق رسالة نبيهم، وكان جل ما طلبوه هو آيات مثل تنزيل الملائكة:

- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ [الحجر: 6-7]

ولكن نظن أنه لعلم محمد بعواقب نزول مثل تلك الآيات المرئية (وهي وقوع العذاب لا محالة) اختار أن لا يلجأ إلى تنفيذ رغباتهم تلك بتحقيق تلك الآيات لتثبت صدق دعوته، واكتفى باستخدام الآيات المتلوّة التي جاء بها من عند ربه:

- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: 59]

إننا نظن أن محمداً ما كان ليولي تحدي القوم اهتماماً وهو على علم بعاقبة الأمور:

- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]

مقارنة بين محمد وموسى

ولو حاولنا عقد مقارنة سريعة بين ما جاء به موسى وما جاء به محمد وذلك بالرجوع إلى ميعاد الله موسى في الواد المقدس وإلى حادثة الإسراء لربما خرجنا بالاستنباطات التالي:

موسى	محمد

أولاً، لقد حصل لموسى لقاءين مع ربه

ثانياً، عاد موسى من اللقاء الأول بالآيات المرئية:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣﴾ [طه: 18-23]

ثالثاً: عاد موسى بالآيات المكتوبة في اللقاء الثاني، فعاد موسى يحمل بين يديه الألواح التي كتب له فيه من كل شيء:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 143-145]

أولاً، لقد حصل لمحمد لقاءين مع ربه (وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ)

ثانياً، عاد محمد من اللقاء الأول بالآيات المتلوّة:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ [النجم: 1-12]

ثالثاً، عاد محمد من اللقاء الثاني بالآيات المرئية:

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: 13-18]

نتيجة: في حين أنّ موسى قد عاد بالآيات المرئية قبل الآيات المتلوّة، حدث العكس تماماً مع محمد، فقد رجع محمد بالآيات المتلوّة (الوحي، والعلم) في اللقاء الأول بينما أتته الآيات المرئية في اللقاء الثاني

لو حاولنا ربط هذا الأمر بدعوة إبراهيم لهذه الأمة وكيفية استجابة الله لتلك الدعوة لربما وجدنا ما يجب التوقف عنده ملياً، فها هو إبراهيم يدعو لهذه الأمة على النحو التالي:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

لكن الاستجابة الربانية تأتي معكوسة:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: 2]

إن أبسط ما يمكن أن نستنبطه هنا هو أن المنة على أمة محمد (على غير الأمم السابقة) سبقت فيها الزكوة على علم الكتاب والحكمة (انظر مقالتنا تحت عنوان النظرية العالمية)

عواقب هذا الفهم: لم يستخدم محمد الآيات المرئية لأنه كان قد لجأ إلى الآيات المتلوّة أولاً، وقد آمن نفر من قومه بدعوته، والحالة هذه لم يكن محمد بحاجة أن يستخدم الآيات المرئية – في رأينا – على الأقل لثلاثة أسباب:

1. كان محمد يعلم عاقبة استخدام الآيات المرئية إن هو قدّمها للقوم وكذّبوا بها
2. كان محمد يعلم أن ليس من المتوقع أن يؤمن كل الناس بدعوته، فهو يعلم أن سنة الله الكونية تقضي بأنه لو شاء الله لهدى الناس جميعاً، ولكن تكمن مهمته هو في إبلاغ الرسالة، وكفى.
3. يميل الاعتقاد عندنا إلى الإيمان اليقيني بأن محمدا كان على علم يقيني من ربه أنّ الآيات المرئية (المبصرة) ما كانت يوماً سبباً في هداية قوم من الأقوام. وهذا ما سنحاول تبيانه في الجزء التالي من هذا الكتاب.

حكمة محمد

إننا نعتقد أنّ الفرق بين محمد ومن سبقه من الأنبياء والرسل تكمن - في رأينا- في أن محمداً قد استفاد من تجارب الأنبياء السابقين فسخر ذلك في خدمة رسالته.

وهنا يجب التنبيه إلى عقيدة عندنا نخالف فيها معظم أهل العلم تتعلق بأفضلية محمد على سائر الرسل، فغالباً ما تغنى أهل الإسلام بأفضلية محمد على بقية أنبياء الله ورسله حتى ذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن الكون ما كان ليكون لولا محمد. هذه في نظرنا مغالاة لا أساس لها في النص الديني، ولا تعدو – في نظرنا – أكثر من تحريف للعقيدة الصحيحة، فمحمد ليس أكثر من رسول كما كان من سبقه من الرسل:

- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144]
- ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: 40]

أنا أعي مقدار خطورة مثل هذا الافتراء الذي لن يتقبله كثير من أهل الإسلام بصدر رحب، لذا سنحاول بحول الله أن نفرد له مقالات مستقلة نحاول فيها – إن أذن الله لنا بشيء من علمه- إثبات زعمنا ونتعرض فيها لتبعات هذا الظن.

فليس من المتوقع أن يقع النبي (أي نبي) في محظور وقع به من سبقه من الأنبياء والرسل، فلقد ذكرنا في أجزاء سابقة أن لوطاً مثلاً قد استفاد من تجربة نوح، ففي حين أن نوحاً قد لجأ إلى ربه ليتعرف على صحة نسب ولده (لعلمه بخيانة امرأته) عندما قال:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: 45]

لم يطلب لوط مثل هذا الطلب من ربه بالرغم من تطابق الحالتين (خيانة المرأة)، فقد أصبح لوط يعلم – في رأينا – أن من سينجو من أهله سيكون من صلبه ومن سيهلك لن يكون من صلبه، فآثر أن ينتظر ليرى النتيجة بأم عينه مادام أن الله قد وعده بنجاة أهله إلا امرأته:

- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: 33]

والمنطق نفسه ربما ينطبق في حالة محمد عند الحديث عن الرؤيا المباشرة للذات الإلهية، فلقد ذكرنا أن موسى قد طلب الرؤيا المباشرة لربه في لقاءه الأول فلم تتحصل له لاستحالة القدرة البشرية على تحمل تلك

الرؤيا، لذا ما كان محمد ليطلب مثل تلك الرؤية عندما أسري به إلى المسجد الأقصى وهوة قد خبر ما حصل في حالة أخيه موسى.

وها هم قريش يطلبوا من محمد أن ينزّل عليهم ملائكة من السماء أو أن تكون له جنة ... أو ... :

- ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان: 7-8]

لا أن محمدا لم يفعل مثل هذا، أي لم يتوجه إلى ربه ليطلب منه أن يحقق لهم ما يطلبون، والسبب في ذلك من وجهة نظرنا تتمثل في أن محمداً كان قد استفاد من خبرة أخيه عيسى عندما طلب بنو إسرائيل منه مائدة من السماء:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: 112-115]

فمحمد يعلم العاقبة الوخيمة التي ستحل بالقوم لو تحصلت لهم مثل تلك الآيات المبصرة:

- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٧﴾ [الأنعام: 37]

نتيجة مهمة جداً: لقد آثر محمد الصبر على قومه وعلى أذاهم وعلى تكذيبهم لدعوته فلم يلجأ أن يقدم لهم دليلاً مادّياً (آية مبصرة) تثبت صدق دعوته كما فعل بعض من سبقه من الرسل لخوفه من عاقبة الأمور.

إننا نعتقد أن محمد يتقاطع مع جده إبراهيم في هذا الفهم، فنحن لم نجد في كتاب الله دليلاً على أن إبراهيم قد قدّم لقومه آيات مبصرة ربما للسبب نفسه، ولا نجد أن قوم إبراهيم قد طلبوا بأنفسهم العذاب كدليل على صدق دعوة إبراهيم (كما فعلت بعض الأقوام السابقة).

فوجود الآيات المرئية (المبصرة) يتبعها العذاب الذي لا محالة نازل بالقوم إن هم كذبوها، ونحن نظن أن محمداً كان يستطيع أن يقدم لهم مثل هذه الآيات كما فعل بعض الأنبياء الرسل السابقون إلا أنه آثر أن لا يفعل لأنه – برأينا – كان يدرك أن الآيات المرئية ما كانت يوماً سبباً في هداية القوم:

- ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام: 158]

إن السنّة الكونيّة التي تعلمها محمد جيداً تتمثل في أنّ آيات ربه المبصرة لا تنفع القوم ما لم يكونوا مؤمنين من قبل، لذا نجد من الضرورة بمكان التنبيه إلى وجوب التمييز بين طريقتين في تنزيل الآيات المبصرة:

1. أن تنزل الآيات على قوم لم يؤمنوا بعد، كما حدث مع قوم صالح وثمود وغيرهم، فكان الهلاك نازل بهم لا محالة لأن تلك الآيات لم تشكل دليلاً مقنعاً لمن أراد أن يكفر ويتحدى كما فعل فرعون وملئه، فعندما نزلت عليهم الآيات وهم لا زالوا غير مؤمنين كانت سبباً في هلاكهم ولم تكن سبباً في هدايتهم
2. أن تنزل بعض الآيات بعد أن تكون أنفسهم قد آمنت وقبلت الدعوة كما حدث مع الحواريين، فها هم يطلبون من نبيهم عيسى بن مريم تنزيل المائدة من السماء، فتنزل عليهم المائدة ولم تكن سبباً في هلاكهم وذلك لأن أنفسهم كانت قد آمنت من قبل:

- ﴿... يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا... ١٥٨﴾ [الأنعام: 158]

لذا، ولو تدبرنا الحوار الذي جرى بين عيسى بن مريم من جهة والحواريين من جهة أخرى لوجدنا بصريح اللفظ أن إيمانهم كان سابقاً لتلك الآيات:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: 112]

وقد كان إيمانهم واضحاً في ردهم:

- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

عندها فقط أيقن عيسى بن مريم أن العذاب المباشر لن ينزل بهم ما داموا أنهم أصلاً مؤمنين:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114]

ولكن الله حذرهم من عاقبة الأمور إن هم نكثوا عهدهم وعادوا إلى الكفر:

- ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 115]

والمنطق نفسه ربما ينطبق في حالة طلب بني إسرائيل رؤية ربهم:

- ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النساء: 153-154]

إن الملحوظ الذي يجب التأكيد عليه هنا هو أنّ بني إسرائيل قد طلبوا الآيات بعد أن كانوا مؤمنين، لذا جاء العفو الرباني عن ذلك نتيجة لإيمانهم، أما الدليل على أنهم كانوا مؤمنين يوم أن طلبوا من موسى رؤية الله مباشرة فقد جاء في بداية طلبهم حيث قالوا:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 55-57]

فنحن نزعم الفهم أن مشكلة بني إسرائيل لم تكن في إيمانهم بربهم وإنما بنبيهم موسى (وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ)، فالقوم لم يقولوا أننا لن نؤمن بالله أو بربنا أو برب موسى (للتفصيل حول رؤية بني إسرائيل ربهم انظر مقالتنا النظرية العالمية) ولكن مشكلتهم تكمن في الاطمئنان إلى نبيهم.

إن ما يهمنا القول فيه هنا هو التفريق بين تقديم الآيات المبصرة لمن آمن وتقديم الآيات المبصرة لمن لم يؤمن بعد.

افتراء من عند أنفسنا (1): إننا نظن أن تقديم الآيات المبصرة لمن كان قد آمن من قبل لا يزيد ذلك إلا اطمئنان القلوب المؤمنة، فنبي الله إبراهيم نفسه طلب رؤية مثل هذه الآيات ليطمئن قلبه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ ... ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

فقدم الله له الآيات المبصرة ليطمئن قلبه:

- ﴿... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

وهكذا كان هدف الحواريون عندما طلبوا من عيسى تنزيل المائدة:

- ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]

وهكذا كان هدف الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها:

- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: 259]

وأظن أنه هو السبب نفسه الذي من أجله طلب بنو إسرائيل من موسى رؤية ربهم:

- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: 59]

ولا يظنن أحد أن الصاعقة إلي أخذت بني إسرائيل حينئذ كانت عقاباً لهم بل هي نتيجة تحقيق طلبهم برؤية الله مباشرة، فتلك الصاعقة كانت مصاحبة لتجلي الله لبني إسرائيل (للتفصيل انظر مقالتنا النظرية العالمية).

نتيجة: إن تقديم الآيات المبصرة لمن كان قد آمن من قبل تكون من أجل أن تطمئن القلوب، فتزيدها إيماناً وتثبيتاً.

افتراء من عند أنفسنا (2): لكن – بالمقابل- يكون تقديم الآيات المبصرة لمن لم يؤمن بعد سبباً في هلاكهم لأن الآيات المبصرة ما كانت يوماً سبباً في هداية من لم يكن قد اهتدى من قبل وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 95-97]
- ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]

نتيجة وافتراء: إننا نزعم القول أنّ الآيات المبصرة ما كانت يوماً سبباً في هداية أحد لم يكن قد اهتدى من قبل، ولما كان محمد – برأينا- على علم يقيني بذلك، لم يكن ليقدم مثل تلك الآيات المبصرة لقومه (وإن كانت عنده) وذلك لسببين اثنين:

1. لعلمه أنهم لن يؤمنوا حتى لو قدمها لهم، فهم لن يختلفوا في ذلك عن من سبقهم من الأمم.
2. ليقينه بعاقبة ما ستؤول إليه الأمور وهم لا محالة كالأمم السابقة سيكذّبوا تلك الآيات:

- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: 59]
- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]

نتيجة: فانحصر ما قدمه محمد لقومه بالآيات المتلوّة وهي التي كان قد عاد بها من لقاءه الأول بربه ليلة أن أسري به من البيت الحرام إلى بيت المقدس. ولم يستخدم الآيات المبصرة التي رءاها بأم عينه في لقاءه الثاني بربه.

لذا سنترك الحديث عن الآيات المبصرة لننتقل الآن للحديث عن الآيات المتلوة، على أن نعود بحول الله وتوفيقه للحديث عن الآيات المبصرة بشيء من التفصيل خاصة آيات موسى المبصرة كالعصا، لظننا أن في تلك العصا أمر عظيم جداً خاصة أن الله قد قال لموسى عندما ألقى عصاه:

قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ

محاولين حينئذ التركيز على سؤال واحد وهو: ماذا كانت السيرة الأولى للعصا التي وعد الله نبيه أن يعيدها؟

ومفترين الظن أن لتلك العصا سيرة (قصة) قديمة عادت مرة أخرى يوم التقطها موسى بأمر من ربه بعد أن ألقاها في ذلك الواد المقدس. نسأل الله تعالى أن يأذن لنا بشيء من علمه حتى نستطيع من خلاله الوصول إلى السيرة الأولى لتلك العصا.

دعاء: أسأل الله – ربي وربكم – أن أعلم منه ما لا تعلمون.

الآيات المتلوة

آيات موسى المتلوّة: الألواح

ربما لا نحتاج إلى كثير عناء لإثبات زعمنا التالي: إن الآيات المتلوّة التي عاد بها موسى من لقاءه الثاني بربه قد جاءت جملة واحدة. فعندما حصل اللقاء الثاني لموسى بربه كانت الجائزة الكبرى التي عاد بها موسى إلى قومه من ذلك اللقاء هي ما كان يحمل بين يديه من الألواح التي كتب الله لموسى فيها من كل شيء:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 143-145]

وهنا سنحاول إمعان التفكير في هذه الآيات الكريمة، علّنا نستطيع من خلال هذه الآيات الكريمة الخروج باستنباطات عديدة ستسعفنا عند الحديث عن الآيات المتلوّة التي عاد بها محمد من لقاءه الأول بربه، ومن هذه الاستنباطات يمكننا أن نذكر ما يلي:

1. عدم قدرة موسى على الرؤيا المباشرة للذات الإلهية بالرغم من أنه هو نفسه من طلبها وبالرغم أن الله لم يكن يعاقب موسى نتيجة طلبه الرؤيا الإلهية عندما تجلى للجبل. ونحن نستغرب من علمائنا الأجلاء أن ينظروا بعين الشك والريبة لطلب بني إسرائيل رؤية الله جهرة، فينعتون ذلك بكل عبارات الاتهام والريبة (وربما التوبيخ)، بينما ينظرون – بالمقابل- بعين الوقار والإجلال لطلب موسى الرؤيا المباشرة للذات الإلهية، هذا على الرغم أنه هو الطلب نفسه (الرؤيا المباشرة للذات الإلهية)، فبنو إسرائيل لم يطلبوا إلا ما كان نبيهم قد طلبه من ذي قبل.

سنحاول تباين كيف أن هذا الطلب سيحل إشكالية عظيمة بخصوص عيسى بن مريم عندما نتعرض له في مقالات منفصلة، وقد يقول قائل وما دخل عيسى بن مريم هنا ونحن نتحدث عن موسى وعن محمد؟ فنرد بالقول أننا سنحاول أن نبين لم طلب الحواريون من عيسى تنزيل المائدة على وجه الخصوص؟ لم لم يطلبوا رؤية الله مباشرة كما فعل أجدادهم من بني إسرائيل عندما طلبوا من موسى رؤية الله مباشرة؟ إن مثل هذا التساؤل ستقودنا – إن أذن الله لنا بشيء من علمه- إلى نتيجة هائلة ربما تحل إشكالية عظيمة تخص عيسى بن مريم.

2. رجع موسى إلى قومه من ذلك اللقاء يحمل بين يديه الألواح
3. كتب الله لموسى في تلك الألواح من كل شي (وليس كل شيء) - الرجاء الانتباه جيداً لهذه الجزئية المهمة -، وفي هذا حكمة عظيمة نظن أننا بحاجة أن نتدبرها جيداً لأننا سنتعرض لها بشيء من التفصيل عند الحديث عن الآيات المتلوة التي عاد بها محمد، فنحن نزعم الظن أن تلك الألواح لم يكن مكتوب فيها كل شيء (أي لم يذكر فيها كل شيء) ولكن كتب فيها من كل شيء (وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ)، ولكن بالرغم من محدوديتها تلك كانت في الوقت ذاته مفصلة لكل شي (مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ) أي لم يفرط الله في الكتاب من شيء.

للتفصيل حول هذا الموضوع، أي ضرورة التفريق بين عدم الذكر (وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ) وعدم التفريط (وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ) نرجو مراجعة ما جاء في مقالتنا تحت عنوان "مصادر التشريع في الإسلام" حيث زعمنا الظن أن القرآن الكريم بالرغم أنه لم يذكر كل شي:

- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27]

إلا أنه في الوقت ذاته لم يفرط بشيء:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

4. جاءت آيات موسى المتلوة مكتوبة كتابة " وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ "
5. جاءت الألواح المكتوب فيها من كل شي والمفصلة لكل شيء جملة واحدة، فلم يعد موسى من ذلك اللقاء بجزء من الآيات المتلوة لتتبعها الأجزاء الأخرى بعد حين، كلا، لقد جاءت جملة واحدة، وكفى.
6. كان التفاوت في ماهية ما جاء في تلك الألواح واضحاً بصريح اللفظ، فلم تكن كلها – إن صح القول – بنفس "الجودة"، ومصداق ذلك قول الحق: وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا.

آيات محمد المتلوّة

إن العناء الأكبر الذي سنحاول أن نقحم أنفسنا فيه هنا هو إثبات ماهية الآيات المتلوة التي عاد بها محمد من لقاءه الأول بربه ليلة أن أسري به، وسيكون جزء من ذلك العناء متمثلاً في محاولة إثبات افتراءات من عند أنفسنا تخالف جل ما ألفه الناس من أقوال معظم أهل العلم والدراية، فنحن ندرك حجم الصعوبة التي قد يواجهها من يحاول تقديم فكرة جديدة، ولكننا ندرك أكثر أن الصعوبة ستكون مضاعفة عندما يحاول تقديم فكرة تخالف ما ألفه الناس وقبلوه لفترة طويلة من الزمن. لذا فنحن نرى أن من الضروري بداية أن نقدم النصيحة لمن ظن أن أهل العلم قد جاءوا بالقول اليقين الفصل من ذي قبل ولا مجال للتشكيك بآرائهم خاصة ما دام أن تلك الأفكار المقترحة للبحث قادمة من أناس لا علاقة لهم بأصول العلم من أمثالنا، فنحن ننصح من كانت هذه عقيدته أن لا يتابع القراءة بعد هذه الفقرة وذلك لأننا نظن أننا سنفتري ما لم يفترى من قبل، وسنخالف معظم (إن لم يكن كل) أهل العلم مخالفة جذرية ربما تضعنا في مواجهة غير محسوبة النتائج، ربما يكون أقلها أن تنصب لنا المحاكم الدينية (كما فعلوا من قبل) حيث لا تتعدى التهمة المنسوبة لنا أكثر من مخالفة ما ألفنا عليه أباءنا وأجدادنا. لكن الذي يمكن أن يشفع لنا ويخفف وطء المواجهة قد يتمثل - في رأينا - بأمرين اثنين وهما:

1. أننا نتحدث عن عقيدة، لذا لا مجال للتهاون بها مهما كلّف الأمر، فنحن نظن أن عقيدتنا صحيحة حتى يأتي من أراد ردها بالدليل الدامغ من كتاب الله، عندها نكون على استعداد أن نعود إلى جادة الصواب، وحتى يأتي ذلك الدليل ستبقى هذه هي عقيدتنا حتى لو كلف الأمر ضرب رقابنا.
2. أننا لا نقول ذلك لظننا أننا أهل علم ودراية، ولكننا نقول ذلك متيقنين أننا أهل تخريف وتحريف. فنحن لن نعدم الظن أن تتسع صدور أمثالكم من أهل العلم والدراية لمن هو مثلنا من أهل الجهالة والظلالة، فعقيدتنا تتمثل في قول الحق:

- ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ: 25]

فنحن أهل إجرام وأنتم أهل علم، ولا يمكن أن يفصل بين طرفين هذه هي صفتهم إلا الله الواحد الأحد مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبأ: 25-26]

دعاء: اللهم ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

أما بعد،

سنحاول في الصفحات التالية مناقشة ماهية الآيات المتلوة التي نظن أن محمداً قد عاد بها من لقاءه الأول بربه ليلة أن أسري به من المسجد الحرام الذي ببكة إلى المسجد الأقصى في الأرض المباركة، مفترين الظن أنه:

1. عاد محمد بالآيات المتلوّة من ذلك اللقاء الأول ولم يعد بالآيات المبصرة، فلم يقدّم لقومه بعد عودته من الآيات ما يمكن لهم أن يشاهدوه بأم أعينهم (كما فعل موسى مع فرعون وقومه):

- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: 50-51]

وهنا يجب الملاحظة أن موسى عندما عاد بالآيات المبصرة عاد بها وهي موجهة أصلاً إلى فرعون وملئه وفرعون وقومه وليس لبني إسرائيل، فلا أظن أن موسى كان يقدّم تلك الآيات المبصرة لبني إسرائيل ليصدّقوا دعوته، لذا فنحن نجزم الظن أنه لو كانت تلك الآيات المبصرة التي عاب ها موسى موجهة لبني إسرائيل لوقع بهم الهلاك كما حل بفرعون وقومه.

2. عاد محمد بالآيات المتلوّة غير مكتوبة (كما كان الحال بالنسبة لموسى)، وإنما محفوظة في الصدور (وليست منقوشة في سطور):

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: 48-49]

(انظر مقالتنا هل للغة العربية قدسية خاصة: جدلية القرآن و الكتاب**؟)**

3. عاد محمد بعلم القرآن (أي الكتاب) كاملاً من ذلك اللقاء، فعلم القرآن لم ينزل على فترات وإنما نزل جملة واحدة (بالضبط كالذي حصل في حالة ألواح موسى).

4. أنزل الله ذلك الكتاب (علم القرآن) في قلب محمد جملة واحدة

- ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: 1-3]
- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: 1]

نتيجة 1: الكتاب نزل جملة واحدة

---

5. جاء وحي القرآن على مراحل:

- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: 16-19]
- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه: 114]
- ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: 106]

نتيجة 2: القرآن نزل مفرقاً

افتراء من عند أنفسنا 1: نحن نزعم الظن بأن الفرق الأول بين الكتاب والقرآن يكمن في طريقة التنزيل، ففي حين أن الكتاب نزل جملة واحدة في ليلة مباركة جاء تنزيل القرآن مفرقاً

6. علّم الله محمدا تفصيل ما أنزل على قلبه في تلك الليلة:

- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [النجم: 4-7]

7. القرآن الذي نتلوه هو تصديق الذي بين يديه:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ [يونس: 37]

8. القرآن الذي نتلو هو تفصيل الكتاب الذي نزل في تلك الليلة المباركة:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ [يونس: 37]

نتيجة 3: الله نفسه هو من علم محمدا تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب قرآناً عربياً

9. لم يذكر في القرآن كل شيء، فالله قد كتب لمحمد في القرآن من كل شيء وليس كل شيء:

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل: 76]

فمادام أن القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون فهو إذاً لا يقص عليهم كل الذي هم فيه مختلفون.

10. ولكن، بالرغم أن القرآن لم يذكر به كل شيء إلا أن الله قد صرّف (ضرب) فيه للناس من كل مثل:

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: 89]
- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الروم: 58]

11. أما الكتاب، فإن الله لم يفرط فيه من شيء:

- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]
- ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49]

افتراء من عند أنفسنا 2: نحن نزعم أن الفرق الثاني بين الكتاب والقرآن يتمثل في الشمولية، ففي حين أن القرآن لم يكتب فيه كل شيء، كان الكتاب شاملاً لا يفرط في شيء، لذا نحن نفتري الظن أن الله قد كتب لمحمد في القرآن من كل شيء (كما كان قد كتب لموسى في الألواح من كل شيء) ولكن بالرغم من ذلك فالكتاب (علم القرآن كما الألواح) جاء مفصلاً لكل شيء:

- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

12. جاءت نسبة الكتاب إلى الله مباشرة:

- ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: 29]

13. جاءت نسبة القرآن إلى محمد:

- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: 40-43]
- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: 19-21]

الافتراء الأخطر 3: نحن نفتري الظن أن الكتاب هو كلام الله الأزلي بينما القرآن هو قول محمد بوحي من الله

الكتاب	القرآن
1. مادة مكتوبة	1. مادة مقروءة
2. نزل دفعة واحدة	2. أنزل مفرقاً
3. مذكور فيه كل شيء	3. لم يذكر فيه كل شيء، وإنما ذكر فيه من كل شيء
4. جاء فيه كل مثل	4. جاء فيه من كل مثل
5. صاغه الله بكلماته الأزلية	5. صاغه محمد بلسان قومه

نتيجة كبيرة وافتراء من عند أنفسنا خطير جداً: إننا نزعم الفهم أن الكتاب هو ما أنزل الله على قلب نبيه في تلك الليلة جملة واحدة، أما القرآن الذي نتلوه الآن فهو تفصيل لذاك الكتاب بلسان قوم محمد (بعلم من الله جاء وحيه على مراحل).

هذه – لا شك – افتراءات كبيرة وكبيرة جداً ربما تغيّر فكر الأمة وللأبد إن ثبت أنّ فيها شيء من الحق، وسنحاول في الصفحات التالية الدفاع عن عقيدتنا هذه،

سائلين الله سبحانه أن يهدينا سوا السبيل فلا نفتري عليه الكذب، وأن يهدينا فلا نقول عليه غير الحق، إنه نعم المجيب.

الدليل

أما بعد،

لنعود إلى سورة النجم متسلحين بالظن أن تلك السورة المباركة تصوّر ما حدث فعلاً لمحمد في لقاءه بربه ليلة أن أسري به من المسجد الحرام الذي ببكة إلى المسجد الأقصى في الأرض المباركة، مركزين هذه المرة على ما تلقى محمد من ربه من علم في ذلك اللقاء العظيم:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١
- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢
- وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣
- إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤
- عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥

- ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦
- وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧
- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨
- فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩
- فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠
- مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١
- أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢
- وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣
- عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤
- عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥
- إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦
- مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧
- لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: 1-18]

الافتراء الأول: نظن أن هذه السورة الكريمة تخبرنا بأن محمدا قد لقي ربه مرتين

ويمكن أن نثبت ذلك إن نحن قرأنا الآيات السابقة على مرحلتين على النحو التالي:

المرحلة الأولى:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١
- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢
- وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣
- إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤
- عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥
- ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦
- وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧
- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨
- فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩

- فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠
- مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١
- أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ [النجم: 1-12]

المرحلة الثانية:

- ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣
- عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤
- عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥
- إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦
- مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧
- لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: 13-18]

وربما يثبت زعمنا هذا ما جاء في موضع آخر من كتاب الله مخاطباً نبيه الكريم على وجه التحديد:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾ [القصص: 85]

(للتفصيل حول هذا الموضوع انظر الجزء السابق من هذا الكتاب)

الافتراء الثاني: حصل محمد على الآيات المتلوّة (الكتاب) في لقاءه الأول الذي تصوره المرحلة الأولى

الافتراء الثالث: حصل محمد على الآيات المبصرة في لقاءه الثاني الذي تصوره المرحلة الثانية

نتيجة: ما دام أننا نتحدث عن الآيات المتلوّة، لذا ينحصر التركيز على الآيات الكريمة التي جاءت في المرحلة الأولى والتي نعيدها هنا للتدبر:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١
- مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢
- وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣
- إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤
- عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥

- ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾
- وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾
- ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
- فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
- فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
- مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾
- أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ [النجم: 1-12]

إنّ جل النقاش يتمحور حول تدبّر الآيات التي وضعنا تحتها خط، مركزين على ما يمكن أن نخرج به من استنباطات ستسعفنا (إن كانت صحيحة طبعاً) في فهم ماهية العلم الذي حصل عليه محمد من اللقاء.

افتراءات من عند أنفسنا: ربما تثبت هذا الآيات الكريمة ما يلي:

1. حصول الوحي (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)
2. حصول العلم (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ)
3. حصول الرؤيا (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ)
4. وجود الفؤاد (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ)

لذا سنتعرض للإجابة على الأسئلة التالية:

⇐ ما هو الوحي؟
⇐ ما هو العلم؟
⇐ ما هي الرؤيا؟
⇐ ما هو الفؤاد؟

ما هو الوحي؟

جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تتحدث عن الوحي، وذهب أهل العلم إلى أفهام متباينة تخص الوحي الذي ذكر في كتاب الله، ومن أراد جزء من الحقيقة فعليه أن يراجع مؤلفات أهل العلم، أما نحن فسنحاول في السطور التالية الإجابة على **سؤال واحد** وهو: ما هي ماهية الوحي المذكور في كتاب الله؟

جواب مقترح: إننا نزعم الظن أن الآية الكريمة التالية تشكل القاعدة الأساسية التي تمثل سنة الله الكونية في تكليمه البشر:

- ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورى: 51]

فيكون هناك – بما يمكن لنا أن نفهمه حتى الساعة من هذه الآية الكريمة – ثلاث طرق يمكن أن يكلم الله فيها البشر، وهي:

1. وحياً، أو
2. من وراء حجاب، أو
3. يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء

ولو دققنا النظر جيداً لوجدنا أن الوحي يكون في الطريقة الأولى (إِلَّا وَحْيًا) وفي الطريقة الثالثة (يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ)، فيكون الوحي – برأينا – على نوعين:

1. الوحي المباشر من الذات الإلهية:

- ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: 9-10]

2. الوحي غير المباشر عن طريق الرسول:

- ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النساء: 163-164]

أما الطريقة الثانية وهي من وراء حجاب (كما حصل لموسى) فلا تكون بالوحي وإنما بالكلام المباشر لقول الحق:

- ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النساء: 164]

فموسى هو الرسول الوحيد الذي حظي بالكلام المباشر من الله، ومحمد وهو الرسول الوحيد الذي حظي بوحي الله المباشر (وحياً)، ولو تدبرنا الآية الكريمة نفسها لوجدنا أن الله قد قدّم طريقة الوحي المباشر على الكلام من وراء حجاب:

- ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١﴾ [الشورى: 51]

نتيجة وافتراء: الوحي المباشر فهو يمثل العلاقة التي لا وسيط فيها، فيكون الموحي هو الله نفسه والموحى إليه هو واحد من البشر، لكن الوحي غير المباشر لا يتم إلا عن طريق الواسطة بين الموحي الله والموحى إليه وهو البشر ويكون الوسيط هو الرسول.

سؤال: من هو الرسول الذي يكون واسطة بين الموحي الله والموحى إليه البشر في طريقة الوحي غير المباشر (يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ)؟

جواب: غالباً ما درج الناس على أن الرسول هو النبي الرسول، فنقول كلا، لأن هذا النبي الرسول هو في النهاية بشر والله لا يكلم البشر أساساً (كما تنص الآية القاعدة) إلا وحياً (مباشرا) أو من خلال الرسول، فهناك العديد من الآيات الكريمة التي تبين أن هؤلاء الأنبياء الرسل هم في نهاية المطاف بشر:

- ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٣﴾ [الإسراء: 93]
- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٤﴾ [الإسراء: 94]

نتيجة مهمة: إننا نظن أن علاقة الله مع الرسول البشر بطريقة الوحي لا تكون إلا مباشرة (وحياً) أو من خلال رسول آخر ليس من البشر، لكن أين الدليل على ذلك؟

أما إذا كانت العلاقة ليست علاقة وحي فيكون ذلك من وراء حجاب كما حصل مع موسى، ففي حالة لقاء موسى ربه لم يكن هناك وحياً مباشراً أو غير مباشر، فكان الحجاب فقط بينهم، وهو الحجاب الذي طلب موسى كشفه، فما استطاع تحمل الرؤيا. لذا نزعم الظن أنه في حين أن اللقاء الذي حصل لمحمد مع ربه في حادثة الإسراء كان وحياً مباشراً، كان اللقاء الذي حصل لموسى مع ربه في الواد المقدس خطاباً من وراء حجاب.

ربما نقرأ الدليل على أن الرسول الذي يكون واسطة بين الله والبشر (سواء كانوا بشراً عادين أو رسلاً بشرا) لا يكون من البشر من قصة مريم بنت عمران:

- ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: 18-19]

إن عقيدتنا تتمثل في استحالة أن يكون هذا الرسول الذي جاء مريم من عند ربها بشراً، لأنّ ذلك يعني أن عيسى بن مريم يكون كغيره من البشر قد ولد من أب وأم من البشر (وهو ما لا يمكن أن نقبله)، لكننا نؤمن أن جل ما كان من أمر ذلك الرسول هو أن يتمثل لها بشراً، لأنه هو ليس أصلاً من البشر:

- ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ [مريم: 17-20]

نتيجة: لقد كان التواصل بين الله ومريم بنت عمران (كامرأة من البشر) عن طريق الرسول الذي لم يكن أصلاً من البشر.

نتيجة وافتراء من عند أنفسنا: إن الخطاب الذي يجري بين الله (الموحي) والبشر (الموحى إليه) بطريقة الوحي يكون على شكلين:

- الوحي المباشر

- الوحي غير المباشر عن طريق الرسول الذي ليس من البشر

وربما نحتاج أن نذكّر من يظن أن الله قد أوحى إلينا نحن البشر كافة عن طريق الأنبياء الرسل كمحمد وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح مثلاً **بالسؤال** التالي: كيف أوحى الله لهؤلاء الرسل ما نقلوه لنا من عند ربنا؟)، إننا نظن أن طرحنا السابق لا تناقض فيه، لأنه يعيدنا إلى السؤال الأول وهو: كيف أوحى الله إلى محمد وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح أصلاً مادام أنهم من البشر؟

جواب: إما أن يكون ذلك وحياً مباشراً من الله إلى رسوله (كما حصل مع محمد في ليلة الإسراء) أو أن يكون وحياً غير مباشر عن طريق رسول من غير البشر (كجبريل الذي كان يأتي محمد بخبر من رب محمد).
تساؤلات: لكن لماذا؟ لماذا لا يوحي الله لبشر إلا بهاتين الطريقتين؟ ومتى يحدث الوحي المباشر؟ ومتى يحدث الوحي غير المباشر؟

جواب: إننا نظن أن التواصل المباشر من الله مع البشر لم يحدث إلا مرتين فقط:

1. عندما كلم الله موسى تكليما (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا)

2. عندما أوحى الله إلى عبده محمد في ليلة الإسراء (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ)

وما حصل تواصل مباشر من الله لبشر قبل ذلك ولا بعده إلا بالوحي غير المباشر، فحتى محمد وموسى كان الله يوحي إليهم في غير هاتين الحادثتين بطريقة الوحي غير المباشر، أي عن طريق الرسول الذي ليس من البشر كجبريل مثلاً.

سؤال: لكن لماذا؟ لماذا حصل التواصل المباشر في هاتين الحادثتين فقط؟ ولماذا حصل الاتصال المباشر للذات الإلهية مع هذين النبيين الكريمين فقط؟ لماذا لم يحصل في غيرهما؟ لماذا لم يحصل ذلك لإبراهيم أو لعيسى بن مريم أو لنوح أو... الخ؟

إننا نظن أن الإجابة على هذا السؤال المحوري ربما يتطلب الخوض في سؤال آخر وهو "ما هي ماهية الوحي؟ وكيف يحصل الوحي المباشر؟

لفهم هذه الجزئية لابد من الخوض في معنى الوحي اللغوي، لنجيب بعدها على سؤال واحد وهو: كيف يحصل الوحي؟

للإجابة على مثل هذا التساؤل نجد لزاماً علينا أن نجلب سياقات قرآنية عديدة تتحدث عن الوحي، نحاول أن نربطها معاً علّنا نستطيع الخروج بتصور لكيفية حدوثه، والحالة هذه فإننا نظن أننا بحاجة في هذه اللحظة أن نركز على موقفين قرآنيين مهمين وهما (1) ما فعل زكريا و (2) ما فعلت مريم بنت عمران، لنجد أن الوحي قد يحصل من البشر، أي يمكن للبشر أن يقوموا بفعل الوحي، ولكن كيف؟

ماذا فعل زكريا؟

لنتذكر ما فعل زكريا بعد أن جاءته بشرى ربه بيحيى، فها هو زكريا يطلب من ربه أن يجعل له آية ربما تكفّ ألسنة الناس عن التخريص في حمل زوجته غير المتوقع:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 10]

إذن، كانت آية زكريا التي جاءته من ربه أن لا يكلم الناس ثلاث ليال سويا، أليس كذلك؟ وهنا تكمن المفارقة العظيمة فيما فعل زكريا بعد ذلك، فها هو يخرج على قومه فيوحي إليهم:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]

السؤال: كيف أوحى زكريا إلى قومه؟ إي كيف حصل الخطاب بين زكريا وقومه وهو أصلاً ممنوع من الكلام معهم؟

جواب: بطريقة الوحي " فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ "،

نتيجة: زكريا يوحي إلى قومه.

السؤال: كيف أوحى زكريا إلى قومه؟

جواب: لا يكون ذلك بالكلام المألوف، فزكريا موقوف عن مخاطبة قومه كلاماً ثلاث ليال سوياً " قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا "

سؤال: إذن، كيف تم وحي زكريا إلى قومه إن لم يكن بالكلام؟

جواب: إننا نزعم الظن أننا قد وجدنا الإجابة على هذا السؤال فيما يمكننا أن نفهمه من قول الحق:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 41]

لابد من جلب انتباه القارئ إلى الفرق بين اليوم والليلة، فاليوم هو النهار والليلة هي انقضاء النهار وحلول الليل، وهما معاً يشكلان الفترة الزمنية التي مدتها أربعة وعشرين ساعة، لذا جاء الخطاب عن زكريا مرة بلفظ الليلة (أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ) ومرة أخرى بلفظ اليوم (أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ) ربما لنفهم أن زكريا كان ممنوعاً عن الخطاب بالكلام مع الناس طوال الأربعة وعشرين ساعة (ليلاً ونهاراً)، فلا نظن أن هناك مفردة في العربية تستخدم لتدل على الفترة كلها (أي الليل والنهار معاً)، فالله يقول عن عذاب عاد:

- ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقة: 7]

افتراء عظيم من عند أنفسنا: نعم الوحي يكون بالرمز، فلقد كلّم زكريا الناس بالرمز عندما أوحى إليهم. وهكذا – في نظرنا – يكون الوحي.

نتيجة: الوحي هو توصيل المراد من الكلام بالرمز (كما فعل زكريا عندما أوحى إلى قومه)

ماذا فعلت مريم؟

ولكن – بالمقابل – ها هي مريم تتحسّر (إن صح القول) على ما حلّ بها بعد أن أجاءها المخاض إلى جذع النخلة:

- ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾ [مريم: 22-23]

لأنها ربما كانت تظن أنها لن تستطيع أن تبرر ما حل بها لقومها. لكن يأتيها النداء الذي من تحتها على النحو التالي:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم: 24-26]

لابد من جلب انتباه القارئ إلى تفاوت آخر بين ما جاء بخصوص زكريا وما جاء بخصوص مريم وهو الفرق بين مفردة الناس في حالة زكريا (قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا) ومفردة انسيا (فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا) في حالة مريم. وهذا التفاوت ربما يدعم ما ذهبنا إليه في مقالات سابقة لنا بخصوص معنى مفردة الناس، فزعمنا الظن أن الناس لا تعني إلا البالغين من الرجال (أي القوم) بينما مفردة إنسيا فتشمل الجميع من الذكور والإناث البالغين وغير البالغين، لذا نحن نظن أن الكلام الذي منع عنه زكريا كان مع الناس (أي الرجال فقط) فلا ننسى أن زكريا كان يكفل الأيتام، فمن غير المتوقع أن لا يكلم هؤلاء لأنهم لم يكونوا يشكون بما حل بالرجل وزوجته، ولا أظن أن زكريا كان ممنوعاً عن الكلام مع زوجته، فحاله هي حالها. لكن مريم قد اتخذت القرار بأن لا تكلم أحداً سواء كان من الرجال أو النساء أو حتى الأطفال لأن مشكلة مريم كانت مع الجميع، فالنساء ربما كن أكثر حيرة من الرجال بما حل بمريم. ولو دققنا النظر في سياق قرآني آخر لربما تعزز مثل هذا الظن:

- ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ [الفرقان: 49-50]

ففي حين أن السقاء سيكون للجميع (وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا) كان التكذيب سمة المكلفين من البشر وهم الناس (فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

فعادت حاملةً طفلها لينهال عليها الجميع سألين مستغربين ما فعلت:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: 27-28]

فما يكون منها إلا أن تدافع عن نفسها بالإشارة إلى الطفل:

- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: 29]

نتيجة مهمة جداً: لو دققنا في النص جيداً لما وجدنا أن مريم تقوم بفعل الوحي (كما فعل زكريا)، ولكنها قامت بفعل الإشارة وليس الرمز (كما فعل زكريا)، فمريم لم تكن بنص القرآن توحي إلى قومها كما فعل زكريا. لذا نحن نظن أنه لو جاء اللفظ عند مريم على أنه وحي، لفعلت ذلك بالرمز وليس بالإشارة، فالخطاب بالإشارة ليس وحياً لكن الخطاب بالرمز هو – في رأينا – ما يقع في باب الوحي.

نتيجة: لا يكون الوحي إلا بالرمز

سؤال: ما هو الوحي بالرمز؟ أي كيف يتم الوحي بالرمز؟

جواب: ربما تتعزز فكرة الوحي بالرمز (وقد تفهم بشكل أكثر دقة) إن نحن علمنا أن الخطاب بين الله والمخلوقات الأخرى ربما تكون أيضاً بالرمز:

- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: 68]
- ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: 2-5]
- ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: 12]

فالخطاب بين الله والنحل أو بين الله والملائكة أو بين الله والأرض يتم عن طريق الوحي، أليس كذلك؟
سؤال: كيف يخاطب الله النحل مثلاً؟

جواب: لا أظن أن ذلك يكون بكلام كالذي نستخدمه نحن البشر، ولا يتم بالإشارة كما فعلت مريم، وإنما بالوحي. وما دام أن الوحي يتم بالرمز، فهناك طريقة خطاب تستخدم الرمز يتم من خلالها الخطاب بين الله (الموحي) والنحل (الموحى إليه).

نتيجة مهمة جداً: عندما يحدث الوحي بين الله (الموحي) والبشر (الموحى إليهم) يكون ذلك بالرمز، فنحن لا نعتقد أن الله يتحدث العربية أو العبرية أو الفارسية أو الإغريقية أو السنسكريتية، الخ. حتى يستخدمها في خطابه مع البشر، فالله لا يكتسب جنسية من لغة البشر، لأن الله – في رأينا – لم يكن عبرانياً عندما تحدث مع موسى وتحول ليصبح عربياً عندما خاطب محمد، أو ربما كان سنسكريتياً عندما أوحى إلى نوح، وأصبح كلدانياً عندما أوحى إلى إبراهيم:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيداً لوجدنا حقيقة صارخة وهي أن الله قد أوحى إلى محمد كما أوحى إلى جميع أنبياءه (إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ)، فلقد كانت طريقة الوحي التي جاءت محمد هي نفسها التي جاءت إلى نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق وموسى وعيسى وجميع رسل الله الذين قصّهم علينا والذين لم يقصّهم علينا، ونحن نظن أن الطريقة كان طريقة الوحي بالرمز. لكن أين الدليل على ذلك؟

يوصلنا هذا السؤال إلى ذروة ما نودّ طرحه من افتراءات هنا، فربما نستطيع أن نقدم الدليل على زعمنا بأن طريقة الوحي من الله إلى البشر تكون باستخدام الرمز فقط، وهذا الافتراء الذي هو لا شك من عند أنفسنا ربما يمكن أن يستنبط عندما نقرأ بشيء من التدبر الآيات الكريمة التالية في بداية سورة الشورى:

- ﴿حمٓ ١
- عٓسٓقٓ ٢
- كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشورى: 1-3]

تدبر – عزيزي القارئ – هذه الآيات الكريمة جيداً، وتدبر بداية الآية الثالثة على وجه التحديد " كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ " لنسأل: ما المقصود ب كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ ...؟.

ألا تعود "كذلك" هنا على ما جاء في الآيتين السابقتين وهما:

- حمٓ ١
- عٓسٓقٓ ٢

سؤال: ما الذي يمكن أن تستنبطه من ذلك؟

جواب: ألا تدلنا هذه الآيات الكريمة على أن هذه هي لغة الرمز التي استخدمها الله في وحيه لنبيه محمد ولكل الذين جاءوا من قبله (حمٓ ، عٓسٓقٓ)؟

نعم، هذه عقيدتنا التي لا يمكن أن نحيد عنها قيد أنملة إلا بالبرهان الصادق من عند الله: إنها العقيدة التي تتمثل في أن الله لا يتحدث لغة قوم من البشر، لكن للإله لغته الخاصة التي يجب على من أن أراد مخاطبة الله أن يتقنها، ولا شك أن الحديث بين الله والبشر يكون بالوحي، لذا لابد للبشر من أن يفهموا تلك الرموز لمخاطبة ربهم.

نتيجة خطيرة جداً: لم يأتي محمدا والنبيين من قبله من ربهم من آيات ربه المتلوة إلا بطريقة الوحي بالرمز، لذا فإننا نزعم أن توصيل مراد الكلام بين الله (الموحي) والبشر (الموحى إليهم) لا يكون إلا باستخدام الرمز. لذا فإننا نظن أن كل ما نزل من الله من وحي إلى نبيه محمد (وكل النبيين من قبله) كان رمزا.

افتراء خطير جداً: إن ما نزل إلى محمد من قرآن بطريقة الوحي وصله رمزا، فكانت مهمة محمد كرسول تكمن في أن يفك تلك الرموز لتصبح ميسرة للفهم عند الناس. وهذا – في رأينا- هو علم محمد الذي تعلمه مباشرة من ربه في تلك الليلة المباركة.

ما هو العلم؟

بعد أن تحدثنا عن معنى الوحي وماهيته التي يمكن لنا أن نستنبطه من السياقات القرآنية الخاصة بالوحي، وخلصنا إلى افتراء من عند أنفسنا مفاده أن الوحي هو توصيل المراد من الكلام بالرمز. لننتقل الآن لنتحدث عن العلم الذي تلقاه محمد في تلك الليلة المباركة عندما أسري به إلى الأرض المقدسة:

- ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: 4-5]

إن هذه الآيات الكريمة تطرح سؤالاً كبيراً جداً وهو: إذا كانت مهمة الرسول تكمن فقط في نقل الرسالة التي تأتيه من ربه إلى الناس (كما فهم العامة عن طريق أهل العلم والدراية)، فما هو إذاً علم ذلك الرسول؟ هل يحتاج الرسول أن يتعلم؟ ألا يكون الرسول فقط ناقل للرسالة؟ ألا يكون إذاً " وَحۡيٞ يُوحَىٰ "؟ فما الحاجة أن يتعلم " عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ "؟

ربما توصلنا مثل هذه التساؤلات إلى **سؤال كبير جداً** ألا وهو: ما هي مهمة الرسول؟

جواب: نحن نعتقد جازمين أن للرسول (أي رسول) مهمتان أساسيتان وهما:

1. الوحي (أي نقل رسالة الله إلى الناس)
2. التبيان (تبيان تلك الرسالة)

أما بعد،

إننا نظن أن مهمة الرسول (أي رسول) تكمن أولاً في نقل الرسالة (الوحي) من الله إلى الناس بكل أمانة كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام: 50]
- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]
- ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأحقاف: 9]

ولكن هناك أيضاً مهمة أخرى غالباً ما غفل عنها أهل العلم لصالح المهمة الأولى (نقل الوحي) ألا وهي مهمة التبيان، قال تعالى:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

تناقضات

عند قراءة الآية الكريمة السابقة قد يقع القارئ البسيط مثلي في تناقض هائل يصعب الخروج منه بسهوله وهو: كيف تكون مهمة الرسول التبيان والله هو نفسه من يبين للناس آياته كما في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: 187]

- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]
- ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: 242]
- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: 266]
- ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: 103]
- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: 89]
- ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور: 18]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور: 58]
- ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور: 59]
- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: 61]

لذا، قد لا يصعب علينا (بالرغم من ركاكة منطقنا) تسويق التناقض الظاهري التالي: تفيد هذه الآيات جميعها أن الله هو من يبين للناس آياته، أليس كذلك؟ والحالة هذه، كيف بنا سنفهم إذن قول الحق حول مهمة الرسول بأنه يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: 4]
- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]

تساؤلات: إن كانت مهمة النبي تتمثل (كما تشير هاتان الآيتان الكريمتان) في أن يبين للناس ما نزّل إليهم من ربهم "لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" و" لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ "، فستثار التساؤلات التالية:

- ما هو التبيان الذي سيقوم الرسول بفعله؟
- وكيف سيبين الرسول للناس ما نزّل إليهم من ربهم؟
- أليس ما نزل من ربنا أصلاً مبينا؟
- وهل يحتاج المبين إلى إبانه؟
- وهل محمد مثلاً أكثر قدرة على التبيان من ربه ليبين لنا ما نزّل إلينا من ربنا؟!
- وكم مرة ذكر الله أن ما أنزل على نبيه هو أصلاً مبين؟

- ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف: 1]
- ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الشعراء: 1-2]
- ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [القصص: 1-2]
- ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الزخرف: 1-2]
- ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: 1-3]
- ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [الحجر: 1]
- ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: 69]

ألا تدل هذه الآيات الكريمة على أن الكتاب الذي نزل من ربنا هو أصلاً مبين؟ ألا تدل هذه الآيات الكريمة على أن القرآن مبين؟ فكيف إذاً بمحمد سيبين لنا ما هو أصلاً مبين؟

جواب مقترح: لن نخوض هنا في أقوال العلماء التي غالباً ما ركّزت على أن ما نزل إلينا من ربنا يحتاج إلى رسول ليبينه ويشرحه للناس، لأننا نظن أن في ذلك مخالفة عقائدية هائلة فحواها أن هناك من البشر ما

يمكن أن ينوب عن الإله في إيضاح المراد من كلامه، ويكأننا في قاعة محكمة يقوم المحامي بإيضاح الرسالة عن موكله، فحاشا لله أن يكون هذا هو تصورنا للأمر.

إن عقيدتنا هنا تتمثل في أمرين اثنين وهما:

1. أن كلام الله مبين لا يحتاج إلى من يوضحه (إن كانت الإبانة تعني الشرح والتوضيح).
2. لكننا في الوقت ذاته نجرؤ على طرح افتراء من عند أنفسنا وهو أن الإبانة تحمل معنى غير معنى التوضيح والشرح، إنها التفصيل.

افتراء: نحن نظن أن الإبانة التي يقوم بها النبي لا تعني الشرح والتوضيح والتفسير ولكنّها تعني التفصيل، فما الفرق؟

فما هو التفصيل؟

جواب: إننا نظن أن التفصيل هو نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى (ولنقل تجاوزاً أنها الترجمة)، وهذا ما يمكننا أن نفهم من معنى التفصيل (أو تفصيل آيات الله)، إنها ترجمة كلام الله الموحى إلى نبيه رمزاً إلى كلام يفهمه قوم النبي نفسه:

- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: 44]

نعم، يميل الظن عندنا إلى الاعتقاد اليقيني أن الذي نزل من الكتاب على نوح وإبراهيم وموسى وداوود وعيسى هو نفسه الذي نزل على محمد باستثناء شيء واحد وهو تفصيله عربياً بلسان محمد:

- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: 3]

لذا تكمن مهمة النبي ليس فقط في الوحي (أي نقل الخبر من الله إلى البشر) ولكن أيضاً في التبيان "أي تفصيل الخبر بلسان قومه"، لأن ما نزل إلى الرسول جاءه وحياً بالرمز فيحتاج إلى من يفصل الكلام المبين (رمزاً) إلى كلام مبين لغة بشرية، وهذه بالضبط ما يمكن أن نفهمه من معنى التبيان الذي يقوم به الرسول.

سؤال: كيف كان محمد يبيّن (يفصل) للناس ما نزل إليهم من ربهم؟

جواب: نحن نعتقد أن الجواب يمكن أن يستنبط من الآية الكريمة التالية:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]

نعم، إنه الذكر، فلقد تعلم محمد الذكر، أي العلم الذي من خلاله كان يستطيع أن ينقل كلام الله المبين الذي نزل إليه رمزاً إلى قرآن عربي مبين:

- ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: 52]
- ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: 1-3]
- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٤٤﴾ [فصلت: 44]
- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1]

ويمكن توضيح الفكرة بالتصور التالي (ولله المثل الأعلى):

المصدر	الوسيلة	النتيجة
الكتاب المبين	الذكر	القرآن المبين





فالكتاب هو المصدر والقرآن هو النتيجة والأداة المستخدمة لتفصيل الكتاب قرآن عربي هو الذكر، والتطابق بينهما يستحيل أن يتم دون علم بالذكر، ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة إلا من امتلك هذا العلم.

استراحة قصيرة: الإنجيل والقرآن

غالباً ما تغنى أهل الإسلام بأن القرآن نسخة واحدة، بينما الكتب الأخرى كالإنجيل مثلاً هو أكثر من نسخة، وقد ثارت تساؤلات عديدة حول هذه القضية: هل الإنجيل كالقرآن؟ هل قام عيسى بن مريم بتفصيل الكتاب بلسان قومه؟ لماذا نحن المسلمين نملك نسخة واحدة من القرآن بينما لدى أهل الديانة المسيحية أكثر من نسخة من الإنجيل؟ وهكذا.

جواب: لا أريد أن أدخل في جدلية صحّة الكتب المقدسة، ولكني سأقصر الإجابة هنا على سؤال واحد وهو: لماذا يوجد نسخة واحدة من القرآن بينما يوجد أكثر من نسخة من الإنجيل؟

للاجابة على مثل هذا التساؤل نرى وجوب رد التهمة التي يلقيها أهل الإسلام جزافاً على الأمم الأخرى أولاً، ولكن لماذا؟

رأينا: غالباً ما ظن أهل الإسلام أن أتباع الديانات السماوية الأخرى قاموا بتحريف كتبهم بطريقة تبديل الكلمات، وقد حاولنا في مقالات سابقة لنا تبيان استحالة أن يقوم بشر بتبديل كلمات الله:

- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 64]
- ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]
- ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: 115]
- ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف: 27]

لذا، نحن نظن أن أهل الديانات الأخرى قد حرفوا كلمات الله ولكنهم لم يبدلوها لأنهم ببساطة لا يستطيعون القيام بذلك وقد تكفل الله نفسه بأن لا تبدّل كلماته (انظر سلسلة مقالاتنا ماذا كتب في الزبور؟ لمعرفة رأينا بمعنى التحريف الذي قاموا به). لكننا نعود إلى رد التهمة التي يلقيها أهل الإسلام على غيرهم بطرح السؤال التالي: إذا كان هؤلاء القوم (كما يظن أهل الإسلام) يحرفون كلام الله (بمعنى التبديل الذي يفهمه أهل الإسلام) فلماذا فعلوا ذلك بالإنجيل ولم يفعلوا ذلك بالتوراة؟ أي لماذا هناك أكثر من نسخة من الإنجيل بينما لا يوجد إلا نسخة واحدة من التوراة؟

لو كان كلام أهل الإسلام صحيحاً في أن ديدن تلك الأقوام هو تحريف كلام الله بمعنى تبديله، لفعلوا بالتوراة ما فعلوه بالإنجيل، ولربما كان هناك نسخ عديدة من التوراة كما أن هناك نسخ عديدة من الإنجيل. ولا ننسى أن التوراة كان بين أيديهم فترة أطول من الزمن، فلو قام القوم بتبديل كلمات الله (بالمعنى الذي يفهمه أهل الإسلام)، لكان الأحرى أن يفعلوا ذلك على مدى الآف السنين والتوراة بين أيديهم؟

نتيجة: إننا نظن أن ما يقوله أهل الإسلام عن الكتب السماوية الأخرى في هذه الجزئية بالذات ليس أكثر من محض هراء لا حجة عليه من كتاب الله، ولكن هذه النتيجة تعيدنا مرة أخرى إلى السؤال نفسه ولكن بطريقة جديدة: لماذا يوجد هناك أكثر من نسخة من الإنجيل على وجه التحديد بينما لا يوجد إلاّ نسخة واحدة من التوراة ونسخة واحدة من القرآن؟

رأينا: إننا نظن أنه يمكن تقديم إجابة جديدة لهذا السؤال مبنيّة على التصور الذي نقدمه هنا والمتمثل بالاعتقاد اليقيني بأن جميع كتب الله جاءت من المصدر نفسه بلغته الأصلية (من الكتاب)، وتم تفصيل ما

جاء من عند الله إلى توراة وإنجيل وقرآن بلسان الرسول الذي بعث بتلك الرسالة شريطة امتلاكه الذكر (أي العلم الذي من خلاله يمكن للرسول أن يبين لقومه ما نزّل إليهم من ربهم)، فمحمد تلقى كلمات الله كما هي موجودة أصلاً في الكتاب المبين فقام بتبيانها (أي تفصيلها) للناس بلسان عربي مبين لامتلاكه علم الذكر الذي يستطيع من خلاله أن يبين للناس ما نزّل إليهم من ربهم (انظر الشكل السابق)، وهكذا فعل موسى عليه وعلى جميع رسل الله أفضل السلام.

نعم، هذا هو زعمنا، لكن ما حقيقة الإنجيل؟ لماذا يوجد أكثر من نسخة للإنجيل إن كان ما تقوله صحيحاً؟ ألم يقم عيسى بن مريم بتبيان ما نزّل للناس من ربهم كما فعل موسى من قبله وكما فعل محمد من بعده؟

جواب: كلا، لم يفعل عيسى بن مريم ذلك. لذا فإننا نقدّم الافتراء التالي: لم يكن عيسى بن مريم هو من بيّن (فصل) الإنجيل. وهذا - في رأينا- هو السبب الذي جعل الإنجيل (على عكس التوراة والقرآن) أكثر من نسخة واحدة، ولكن كيف؟

هذا التصور المفترى من عند أنفسنا يثير مباشرة السؤال التالي: من الذي فصّل كتاب الله إنجيلا للناس؟

افتراء من عند أنفسنا: لم يكن لعيسى بن مريم قوم حتى يفصّل لهم ما نزّل إليهم بلسانهم وذلك لأنّ مهمة الرسول أن يبين للناس ما نزّل إليهم بلسان قومه:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: 4]

فبعد تفقد السياقات القرآنية وجدنا أن جميع رسل الله يخاطبون أقوامهم بصيغة " يَا قَوْمِ":

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾ [البقرة: 54]
- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨﴾ [الأنعام: 78]
- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩﴾ [الأعراف: 59]
- ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56]

- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]
- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: 85]
- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ٧٨﴾ [هود: 78]
- ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ٩٠﴾ [طه: 90]
- ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: 20]

بينما جاء عيسى بن مريم موجهاً الخطاب إلى بني إسرائيل، ولم يتوجه لهم بالخطاب على أساس أنهم قومه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦﴾ [الصف: 6]

وعندما توجه الله بالخطاب إلى عيسى ابن مريم، جاء كلامه على نحو أن من كان حوله هم الناس (وليس قومه):

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]

نتيجة وافتراء: لم يكن لعيسى بن مريم قوم حتى يبين لهم ما نزّل إليهم من ربهم بلسانهم.

سؤال: من الذي بيّن لبني إسرائيل ما نزّل إليهم من ربهم إن لم يكن فعلاً هو عيسى بن مريم؟

جواب: إننا نظن أن القرآن الكريم يقدّم لنا إجابة قد تستنبط من قوله تعالى:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]
- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

فالوحي جاء للحواريين من الله، لذا فهم من كانوا يملكون ما جاءهم الوحي به (وهو – في رأينا- الذكر) ، الأمر الذي مكنهم من القيام بنقل كتاب الله كما آتاه الله لعيسى بن مريم:

- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]

> وسنرى لاحقاً كيف يكن لم يملك الذكر أن يفسر الحقائق، فها هو صاحب موسى يقول:
>
> - ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70]
>
> فالرجل سيحدث لموسى مما فعل ذكرا (بالألف الممدودة)، أي سيفسر له حقيقة ما فعل.

إلى كتب يفهمها قوم عيسى بن مريم، ولما كان هناك أكثر من واحد من الحواريين الذين جاءهم الوحي من ربهم، كان من الطبيعي أن يخرج كل واحد منهم بنسخته من الإنجيل الذي آتاه الله عيسى بن مريم **(وسنتعرض لهذ الجزئية بالتفصيل عند الحديث عن عيسى من مريم إن أذن الله لنا بشيء من علمه).**

أما ما يهمنا من ذلك فهو العودة إلى موضوع نقاشنا الرئيس بالافتراء التالي: الوحي هو -في نظرنا- "العلم اللّدني (مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) الذي يؤتيه الله نفر من عباده يمكنهم من تحويل كلام الله إلى قول يفهمه أقوامهم. فالكتاب فصل على علم من لدن حكيم خبير، وقد فصل القرآن عربياً ولم يفصل أعجمياً، والآيات التالية لربما تثبت مثل هذا الزعم:

- ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: 52]
- ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 1-3]
- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44]
- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]

ويمكن تبسيط التصور للأفكار باستذكار ذلك العلم الذي تحصل لذاك العبد الصالح الذي ذهب موسى طالباً صحبته ليتعلم منه:

- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: 65]

(وسنتعرض بحول الله وتوفيقه لعلم ذلك الرجل في مقالات منفصلة خاصة بقصة موسى)

لكن الذي يهمنا هنا هو العلم الذي تعلمه محمد في تلك الليلة مباشرة من ربه، إنه العلم ألّدني، أي علم الذكر الذي كان من خلاله يستطيع محمد أن يبين للناس ما نزّل إليهم من ربهم بلسان قومه:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]

ما هو العلم ألّلدني؟

إننا نزعم الفهم أن العلم ألّلدني هو ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: 37]
- ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: 111]

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن العلم ألّلدني هو ذلك العلم الذي بين يديه. ولكن أين الدليل على ذلك؟

جواب: لو أمعنا التفكير بما جاء في آية يونس (37) السابقة لوجدنا أن القرآن الكريم يحتمل حقيقتين لا يمكن المجادلة فيهما وهما:

1. القرآن الكريم هو تصديق الذي بين يديه (وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ)
2. تفصيل الكتاب الذي لا ريب فيه (وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

تحدثنا سابقاً كيف كان القرآن الكريم تفصيلاً للكتاب وزعمنا الظن أن القرآن الكريم والكتاب مكتوبان بلغتين مختلفتين، فالكتاب هو كلام الله الأزلي والقرآن هو تفصيل لذاك الكتاب بلسان محمد، ولكننا هنا نحاول أن نفهم كيف يكون الكتاب تصديقاً للذي بين يديه؟ أي، كيف يمكن أن نفهم أن القرآن الكريم هو تصديق الذي بين يديه؟

إننا نظن أن عبارة " مِن لَّدُنْ" التي ترد في كثير من آيات الكتاب هي صفة لعبارة " ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ":

- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1]

فيكون بذلك كل ما يأتي من لدن الله الخبير العليم قادم من الذي بين يديه، وهي كما ذكرنا سابقاً الذكر. ولو حاولنا جلب الأمور مع بعضها البعض لربما خرجنا ببعض الاستنباطات المهمة جداً نذكر منها:

1. إن لله كتاب:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝٧٥﴾ [الأنفال: 75]

2. لا نجد موضعاً واحداً في القرآن الكريم يصور ذلك الكتاب على أنه موجود بين يدي الله

3. نجد أن هناك شئ متوافر بين يديه، فالقرآن الكريم مثلاً هو تصديق للذي بين يديه:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ [يونس: 37]

4. نجد أن هناك شيء متوافر بين يديه لأن الكتاب هو أيضاً مصدقاً للذي بين يديه:

- ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ [الأنعام: 92]
- ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٣١﴾ [فاطر: 31]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: 30]
- ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾ [يوسف: 111]

5. نجد الفصل واضحاً بين القرآن من جهة وبين الذي بين يديه من جهة أخرى:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: 31]

6. إن الذي بين يديه لا شك سابق في الزمان للكتاب وللقرآن، فها هو عيسى بن مريم يصدق ما هو بين يديه:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

افتراء عظيم: الكتاب ليس موجود بين يدي الرحمن ولكنه مكنون لا يمسه إلا المطهرون نزل منه ما نزل ليصدق الذي بين يديه، فتم تفصيله قرآناً عربياً وبقي مصدقاً الذي بين يديه، فما هو الذي بين يديه؟

افتراء عظيم: إنه الذكر، وهو موجود بين يدي الرحمن وقد سبق الكتاب وسبق القرآن وسبق التوراة وسبق الإنجيل لأنهم جميعاً يصدقون.

وبمثل هذا الافتراء، ربما يمكننا تسليط الضوء على بعض آيات القرآن الكريم مرة أخرى، كالآية التالية:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

فالله لم يتكفل بحفظ الكتاب أو القرآن أو التوراة أو الإنجيل (كما يحب البعض أن يتغنى)، لكنه –بكل تأكيد -تكفل بحفظ الذكر فقط (انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان ماذا كتب في الزبور؟)
ويمكننا إعادة التفكر بالآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

فالذكر تقدّم على الزبور كما تقدم على جميع كتب الله كالقرآن والإنجيل والتوراة وحتى الكتاب المكنون نفسه، لأنهم جميعاً جاءوا ليصدقوا الذي بين يديه:

- ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

فالذي جاء به محمد من ربه ليس فقط قرآناً ولكنه ذكر أولاً وقرآناً بعد ذلك.

وهنا نظن أن علينا التوقف قليلاً لنشير إلى نقطة غاية في الأهمية غالباً ما أشكل على الناس فهمها وهي الفرق بين الذكر من جهة والحكمة من جهة أخرى كما جاء في الآيتين التاليتين:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: 63]

فلو تدبرنا هذه الآيات الكريمة جيداً لربما استطعنا الخروج بتصور عن الفرق بين الذكر من جهة والحكمة من جهة أخرى، ففي حين أن الذكر يستخدم ليبيّن للناس ما نزل إليهم من ربهم، تأتي الحكمة لتبين للناس ما هم مختلفون فيه، وفي هذا فرق عظيم. فمن أراد أن يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم فهو بحاجة أن يمتلك الذكر لا سيما أن الذي نزل من ربنا – كما ذكرنا- آنفاً هو أصلاً مبين (انظر النقاش السابق)، أما من أراد أن يبين للناس ما هم مختلفون فيه، فيكفي أن يكون ممن يملكون الحكمة.

وربما لن نأتي بالعجيب إن نحن زعمنا أن الذكر لا يمكن أن يتوافر بسهوله فهناك أهل للذكر من المصطفين الأخيار:

- ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: 58]
- ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: 6]
- ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: 29]
- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: 11]
- ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: 1]
- ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص: 8]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت: 41]
- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾ [الزخرف: 5]
- ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر: 25]
- ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم: 51]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: 43]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: 7]
- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]

ولا شك أن العاقبة وخيمة على من نسي الذكر الذي جاءهم من ربهم:

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾ [الفرقان: 18]

أما الحكمة فهي متوافرة بشكل أكبر للناس، يستطيع كثير من الناس الحصول عليهم لأنه يمكن تعليمها:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]
- ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: 151]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة: 231]
- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: 251]
- ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]
- ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: 48]
- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النساء: 54]
- ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: 113]

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١١٠﴾ [المائدة: 110]
- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: 125]
- ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 39]
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ١٢﴾ [لقمان: 12]
- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ [الزخرف: 63]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢﴾ [الجمعة: 2]

خاتمة

لنحاول إنهاء هذا الجزء بالافتراء العظيم التالي: الكتاب صناعة الله والقرآن صناعة محمد والذكر هو العلم الذي من خلاله استطاع محمد تبيان آيات الكريم المبين قرآناً عربياً مبيناً.

وقبل أن تقوم الدنيا ولا تقعد فوق رؤوسنا عندما يقتبس هذا الافتراء خارج سياقه ليتم من خلاله تسويق حجم الضلالة التي وقع بها رشيد الجراح وتبرير المحاكمات الدينية التي نصبت وستنصب له من الذين يدافعون عن الله ودينه، نطلب فقط قراءة الدليل في الأسطر التالية:

لقد أنزل الله الكتاب على قلب محمد مبيناً وكان ذلك بالوحي (أي بالرمز) فقام محمد بما علمه الله من تفصيل الكتاب (الذكر الذي من خلاله يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم) بتحويل ذلك الكتاب من لغته الأم إلى قرآن بلسان عربي مبين، واقرأ – يرحمك الله- قول الحق التالي بشيء من التدبر:

- ﴿حمٓ ١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: 1-4]

نعم، تبدأ الآية الكريمة بالرمز (حم) تم تنتقل في الآية الثانية لتؤكد أنه كان هناك الكتاب (وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ)، تم جعله (أي تحويله: إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ)، فتملت له عملية جعل إلى قرآن عربي (قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا)، وكانت الغاية من عملية التحويل تلك حتى يمكننا أن نعقله (لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)، لذا يمكن الاستنباط أنه لو لم تتم عملية الجعل تلك لما استطعنا نحن البشر أن نعقله، فكيف يمكن أن نعقل ذاك الكتاب لو نزل إلينا وبقي بصيغته الرمزية الأول؟ (وهذا ما سنتعرض له بعد قليل)، ولكن يجب أن لا ننسى أنه كان موجود أصلاً في أم الكتاب لدى الرحمن (وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ)، فكان العلو والحكمة من أهم خصائصه هناك (لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)، وبكلمات بسيطة يمكننا تقديم الافتراء مرة أخرى على النحو التالي: لقد تمت عملية "جعل" للكتاب قرآناً عربياً، أي تحول من الصيغة التي كان عليها في أم الكتاب (حم، الم، الر، طس، طسم، المص، طه، ن، ق، الخ) إلى الصيغة التي نقرأها الآن باللسان العربي، فأصبح بذلك قرآناً مبين، فتحول الكتاب المبين إلى قرآن مبين، وقد كان الذكر الذي نزل مع القرآن الأداة التي من خلالها تمت عملية التحول بالدقة المطلوبة.

ولا يفوتنا أن نعيد الافتراء القديم الذي قدمناه سابقاً وهو أن الكتاب قد نزل بصيغته الرمزية على قلب محمد جملة واحدة في ليلة الإسراء، وتم تفصليه قرآنا عربياً بوحي من الله على مراحل.

سؤال: كيف كان محمد يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم؟

جواب مفترى: لقد كانت مهمة محمد تكمن في أن يفصل للناس تلك الرموز المبينة قرآناً مبيناً بلسان قومه متى جاءه الأمر الرباني بذلك.

الدليل

لنتدبر الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١
- وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢
- نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣
- عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤
- بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥
- وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: 191-196]

سنحاول من خلال هذه الآيات الكريمة أن نثبت افتراءنا الخطير جداً وهو: عندما نزل الروح الأمين بما نزل به على قلب محمد لم يكن ذلك الشيء عربيا، والذي فصله قرآناً عربياً هو محمد نفسه.

الدليل

إننا نظن أن الدليل على هذا الافتراء قد يكون ميسراً إن نحن تأملنا مكان وجود عبارة "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" في سياقها القرآني، فهذه العبارة جاءت بعد أن دخل محمد في سياق الحديث:

- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]

سؤال: ما الذي يمكننا أن نستنبطه من مكان وجود هذه العبارة في موقعها من النص القرآني؟

جواب: إننا نظن أنه لو نزل الروح الأمين بذلك الشيء الذي نزل به على قلب محمد بنسخته الأصلية عربياً لجاءت الآيات القرآنية مقلوبة على النحو التالي:

- نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ
- بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ
- عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ
- وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ

ولأصبح المعنى على نحو أن الروح الأمين قد نزل به على قلب محمد عربياً في نسخته الأصلية، وعندها لا تتعدى مهمة محمد من أن تكون أكثر من ناقل للخبر كما جاءه، لكننا نظن أن الروح الأمين قد نزل به كما كان في نسخته الأصلية في أم الكتاب، فألقاه في قلب محمد لتصبح لمحمد مهمتان رئيستان وهما (1) أن يقوم محمد (لامتلاكه الذكر) بتحويل تلك الرسالة من نسختها الأصلية المبينة أصلاً إلى نسختها العربية الجديدة المبينة أيضاً، وهذا ما فهمناه من معنى أن يقوم محمد بتبيان ما نزّل إلى الناس من ربهم:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44]

و(2) أن يقوم محمد بعد ذلك بإبلاغ تلك الرسالة إلى قومه بكل صدق وإخلاص:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: 19-21]
- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة: 40-47]

لذا ندعو القارئ الكريم أن يراجع الآيات الكريمة التي تتحدث عن تنزيل الكتاب على قلب محمد مرة أخرى لكن ليقرأها هذه المرة على ثلاث مراحل، فتكون المرحلة الأولى ما قام به الروح الأمين

- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣

وتكون المرحلة الثانية ما قام به محمد،

عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]

وتكون المرحلة الثالثة حقيقة تخص كل ما نزل من الله إلى البشر عن طريق الوحي:

- وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: 196]

إن أكثر ما يهمنا هنا هو المرحلة الثانية حيث يتم ربط الآية 194 مع الآية 195 معاً وخاصة عبارة "لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" مع عبارة " بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ":

- ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: 194-195]

عندها ربما يمكننا أن نفهم أن محمد هو من كان منذراً بلسان قومه وليس الوحي الذي جاء بالنسخة الأصلية.

إن هذه النتيجة الكبيرة والخطيرة جداً ربما تسعفنا في تسليط الضوء على قضايا عديدة أعيت الفكر الديني لقرون، مثل آلية اصطفاء الرسل، وقضية النسخ والاستنساخ، الخ. وهو ما سنتعرض له في الجزء القادم إنْ أذن الله لنا بشيء من علمه، أنه هو السميع العليم.

دعاء: أسأل الله نفاذ قوله بمشيئته لي خاصة (دون خلقه أجمعين) الإحاطة بشيء من علمه الذي بين يديه:

فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الثاني عشر)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (12)؟

زعمنا الظن في الجزء السابق أنّ سورة النجم) التي غالباً ما فهمت على أنها تعرض في بدايتها لرحلة الإسراء) قد تعرضت في سياق ذلك الحديث لعدة قضايا ظننا أنها – في رأينا – ملحة للوقوف عندها للتدبر، جازمين الاعتقاد أنه سيترتب على فهمنا لها فهماً صحيحاً تبيان قضايا هائلة ربما تمس جوهر العقيدة. وكانت تلك المحاور تخص حصول الوحي (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) وحصول العلم (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) ووجود الفؤاد (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ) وحصول الرؤيا بنوعيها القلبية (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ) والبصرية (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ). فكان جل النقاش منصباً على إمعان التفكر بهذه القضايا، وقد تناولنا في الجزء السابق محورين من هذه المحاور الأربعة وهما قضية الوحي، وقضية العلم، وسنحاول في هذا الجزء الخوض في قضيتي الفؤاد والرؤيا. ولكن قبل الولوج في هذه المحاور الجديدة نجد من المفيد أن نعيد هنا الخطوط العريضة للاستنباطات المفتراة التي خرجنا بها في حديثنا عن المحورين السابقين لنربط ما افترينا سابقا بما يمكن أن نفتري عند حديثنا عن المحورين اللاحقين.

عودة على ما سبق

أما بخصوص الوحي، فلقد ظننا أن الوحي الذي نزل على قلب محمد جاء على نوعين: (1) وحياً مباشراً و(2) وحياً غير مباشر، فقرأنا ذلك في قول الحق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورى: 51]

وزعمنا القول بأن الوحي المباشر حصل لمحمد في ليلة الإسراء، وكان نتيجة ذلك الوحي نزول الكتاب جملة واحدة على قلب محمد في تلك الليلة:

- ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: 1-3]

أما الوحي غير المباشر فهو – في رأينا- ما كان قد تحصل لمحمد على امتداد فترة دعوته لقومه، وفي ذلك، جاء الوحي غير المباشر ليفرّق الكتاب المبين الذي نزل على قلب محمد مرة واحدة قرآناً مبيناً ليقرأه محمد على الناس على مكث:

- ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: 106]

وكان جل النقاش يحاول إثبات الافتراء بأن الوحي (مباشراً كان أم غير مباشر) ما كان يتم إلا رمزا، وزعمنا أن هذا الظن يمكن استنباطه من قوله تعالى:

- ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى: 1-3]

(انظر الجزء السابق للتفصيل في هذه القضية)

أما بخصوص العلم، فقد زعمنا أن العلم الذي تحصل لمحمد كان علم تفصيل الكتاب، وهو – في رأينا – العلم الذي كان يمكّنه من تبيان آيات الكتاب المبين (الذي نزل عليه رمزاً جملة واحدة) قرآناً مبيناً بلسان قومه على مكث، وكان ذلك العلم هو – كما زعمنا – علم الذكر:

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44]

وظننا أيضاً أنه هو نفسه العلم المتواجد بين يدي الرحمن (أو العلم اللّدني). وحاولنا تبسيط الفكرة بالشكل التوضيحي التالي:

المصدر	الوسيلة	النتيجة
الكتاب المبين	الذكر	القرآن المبين



فزعمنا الفهم أن الكتاب هو المصدر والقرآن هو النتيجة والأداة المستخدمة لتفصيل الكتاب قرآن عربي هو الذكر.

وحاولنا تقديم بعض الأدلة التي ظننا أنها ربما تثبت ما افترينا من عند أنفسنا، فكان من جملة ما قدمناه ما يلي:

أولاً، إنّ المتدبر للسياقات القرآنية قد يجد أنها تارة تتحدث على أن ما نزل على محمد جاء جملة واحدة:

- ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: 1-3]
- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: 1]

وتارة أخرى تتحدث على أن ما نزل على محمد كان مفرقاً

- ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: 106]

- ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: 16-19]

فزعما الظن أن ما نزل جملة واحدة كان هو الكتاب أما ما نزل مفرقاً فهو القرآن، والدليل على هذا التحول من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية واضح في كثير من السياقات القرآنية:

- ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 3]

فكان الافتراء الكبير الذي خرجنا به هو أن الكتاب هو ما نزل جملة واحدة وأن القرآن هو ما تم تفريقه

ثانياً، ربما يجد المتدبر للسياقات القرآنية أن ما جاء في هذا الكتاب هو كلام رب العالمين:

- ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: 16-19]
- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114]
- ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: 32]

ولكنه لا يعدم الدليل من سياقات أخرى أن هذا قول رسول كريم:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ [التكوير: 19-21]
- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾ [الحاقة: 40-47]

وكان الافتراء الخطير الذي خرجنا به يتمثل في الظن بأن الكتاب هو كلام الله الأزلي ولكن القرآن هو قول الرسول الكريم

ثالثاً، ربما يجد المتدبر للسياقات القرآنية أن بعضها يؤكد على شمولية ما نزل من عند الله:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

ولكنه في الوقت ذاته لن يعدم الدليل على أن ما جاء من عند الله لم يكن شاملاً :

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: 76]

(انظر الجزء السابق للتفصيل في هذه القضية)

وكان الافتراء الكبير الذي خرجنا به هو أن الكتاب هو الشامل الذي لم يفرط فيه، ولكن القرآن لم يكن كذلك.

رابعاً، ربما يجد المتدبر للسياقات القرآنية أن بعضها يؤكد أن كلمات الله لا تنفذ:

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 109]
- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27]

ولكنه في الوقت ذاته لا يجد أن ما يقرأه بين دفتي المصحف يتجاوز بضع مئات من الصفحات.
وكان الافتراء الذي خرجنا به يتمثل في أن الكتاب هو الذي لا يمكن أن تنفذ كلماته (مادام أنه هو كلام الله) بينما لا يتوافر في القرآن كل كلمة من كلمات الله.

(وسنتعرض لهذه الجزئية بشيء من التفصيل بعد قليل بحول الله وتوفقه)

وقد حاولنا جمع كل الافتراءات السابقة معاً لنخرج بعدئذ بالافتراء الأشد خطورة على عقيدة الأمة وهو إننا نرى أن الفرق بين الكتاب والقرآن يكمن في أن الكتاب صناعة الله والقرآن صناعة محمد، لذا كانت تكمن مهمة محمد كرسول في تحويل كتاب الله المبين إلى قرآن مبين بلسان قومه، وكان يقوم بذلك بما أنزل الله عليه من علم الذكر. وزعمنا أن فهم السياق القرآني التالي:

- ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: 1-4]

ثم محاولة ربط ذلك بما جاء في السياق القرآني التالي:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]

ربما يسعف في النظر إلى الأمور من هذه الزاوية الجديدة

(انظر الجزء السابق للتفصيل في هذه القضية)

استراحة قصيرة: قصة الوحي في غار حراء

كان أول ما نخر أهل الدين في أذهاننا من العقيدة في أول عهدنا بالمدرسة (كمؤسسة من المفترض أنه وجدت لتعلّم) تلك الحادثة الأولى لنزول الوحي على النبي محمد في غار حراء، ولعلي أجزم أن أبناء المسلمين لا يكادون يشكّون قيد أنملة بتلك الحادثة، لا بل ويحفظونها ويرددونها على مسامع أطفالهم ليحفظوها بدورهم عن ظهر قلب، ظانين أنهم بذلك يعلمونهم الدين الصحيح. وهنا أجد من الضروري بداية أن أؤكد على أني لا أود أن أدخل في جدلية هذه القضية هنا، ولكني أود أن أستغل فهم أبناء المسلمين لتلك الحادثة لأطرح عليهم سؤالاً واحد بعد إعادة الخطوط العريضة لتلك الحادثة الشهيرة.

أما بعد،

إننا نعلم أن أول عهد للنبي بالوحي كان في غار حراء عندما نزل عليه الوحي، وكان أول قوله له "اقرأ"، فرد عليه النبي بالقول "ما أنا بقارئ"، فيكرر الوحي عليه الأمر ثانية بالقول "اقرأ" فيعيد النبي محمد جوابه نفسه "ما أنا بقارئ"، فيكرر الوحي الأمر للمرة الثالثة بالقول نفسه "اقرأ"، فما يكون من محمد إلا أن يعيد الإجابة نفسها "ما أنا بقارئ"، عندها فقط يقول الوحي للنبي – كما تقول الرواية – قرآناً يتلى حتى يومنا هذا:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: 1]

أليس هذا ما تعلّمناه عن تلك الحادثة؟ والآن لنطرح السؤال: إذا كانت مهمة النبي محمد تكمن في نقل ما يقوله الوحي بلا زيادة ولا نقصان (كما يروج لذلك تقريباً كل أهل العلم والدراية)، فلم لا يصبح القرآن على نحو

اقرأ اقرأ اقرأ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ؟

ألم يقل "جبريل" (كما تقول الرواية) تلك الكلمة الأولى "اقرأ" لمحمد ثلاث مرات قبل أن يقرأ عليه القرآن (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ)؟ لم تم نقل جزء من قول جبريل (إن ظننا أن الوحي هو جبريل نفسه) كقرآن يتلى؟ ولم لم ينقل قول جبريل من بدايته حتى نهايته؟!

كلا وألف كلا، إننا نظن أنه لو كانت مهمة محمد تكمن بالنقل المباشر فقط (كما ظن أهل العلم)، لما كان من محمد إلاّ أن ينقل تلك الحادثة كما حصلت فعلاً حتى لو تكرر اللفظ ألف مرة (والقارئ مدعو لقراءة سورة الرحمن أو سورة الكافرون ليتدبر كيف تتكرر الألفاظ نفسها).

سؤال: لماذا لم يتم نقل كلمات جبريل (أو الوحي بكلمات أكثر دقة) الأولى قرآناً بالرغم أن جبريل هو نفسه من قالها (كما أفهمنا علماؤنا الأجلاء)؟

جواب: إننا نظن أنه لمّا كانت مهمة محمد لا تكمن فقط في النقل وإنما بالتبيان ثم النقل، ولمّا كان جبريل (إن كان هو فعلاً جبريل) قد خاطب محمد بلغة الوحي (رمزاً) وليس بلسان قوم محمد (فأنا لست ممن يعتقدون أن لجبريل لسان كـ لساننا، ولا أعتقد أن له قوم كقومنا أيضاً):

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: 4]

كان ما توافر بين أيدينا هو تفصيل ذلك الوحي من الكتاب المبين (كما نقله الوحي جبريل) إلى قرآن مبين كما نقله محمد بلسان قومه بما كان محمد يمتلك من علم الذكر.

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

تبعات هذا الافتراء

لعلّنا نكاد نجزم الظن بأن من أهم تبعات هذا الافتراء الذي من عند أنفسنا هو الحاجة إلى إعادة التفكر بفواتح السور المرموزة في كتابنا الكريم. فلقد جاء في بداية بعض سور القرآن الكريم حروفاً مقطّعة مثل ألم، الر، المص، كهيعص، عسق، حم، طس، طسم، طه، يس، ن، ق، وقد حارت بذلك عقول العلماء منذ أن نزل القرآن وحتى يومنا هذا، ولمّا (نحن نظن) استحال عليهم فهم الأمر، ذهب كثير منهم إلى الظن بأن مجرد التفكر بذلك قد لا يكون ضرورة ملحّة، ولكن كانت الكارثة الكبرى على الأمة الإسلامية (لا بل والبشرية كلها) تكمن في أن كثيراً من أهل العلم والدراية قد شجعوا العامة من الناس (وربما استطاعوا إقناع السواد الأعظم منهم) بعدم جدوى (بل أحيانا بعبثية) التفكر في ذلك، فخرجوا على الناس بافتراءات (نظن نحن) أن لا أصل لها في العقيدة، وكان من أكبر تلك الافتراءات أن هذه الحروف لا يعلم سرها إلا الله (انظر كتب التفاسير)، ولما كانت ثقة كثير من الناس بعلمائهم قد أصبحت شبه مطلقة، تعطلت عند الكثيرين منهم (خاصة من كان عقيدته أن يتبع دين أبآءه وأجداه) نعمة التفكر بهذه الأمور، ومرت قرون طويلة لم يخرج على الناس أحد ينبّههم إلى خطر مثل هذه الفتاوى التي أهلكت و(لا زالت) تهلك الأمة.

أما نحن فنرى أن الحقيقة تكمن في غير ما ظن أهل العلم وزعموا، فنرد على حجتهم تلك بالقول: إذا كانت تلك أمور لا يمكن أن يعلمها إلا الله (كما تظنون)، فلم ينزلها الله علينا لنقرأها صباح مساء؟ ولم يدعونا الله بعد ذلك إلى التفكر بكتابه مادام أن فيه ما لا يمكن التفكر فيه؟ ثم أين هي تلك الأمور التي يمكن لنا إمعان التفكير بها وتلك التي لا يحق لنا التفكر بها؟ وكيف يمكن لأسيادنا العلماء أن يحددوا لنا ما يجب علينا أن نتفكر به وما لا يجب علينا أن نتفكر به؟ ثم ألا ترون – يا سادة – أنه إنْ صح كلام أسيادنا العلماء (بأن هناك ما لا يجب علينا أن نتفكر به)، ألا ترون أنه سيكون للناس بذلك حجة على الله؟ فأنا شخصياً على استعداد أن أقف بين يدي الله في يوم الحساب الأكبر لأقول له: لم أنزلت علينا ما لا يمكن لأي منا أن يفهمه وها أنت تحاسبنا اليوم جميعاً إما إلى جنة أو إلى نار؟

كلا، وألف كلا، إن عقيدتي (والتي لا شك فيها من الانحراف ما فيها) تتمثل في أنه ليس هناك في كتاب الله ما لا يمكن تدبره (لا بل) وفهمه، هذه هي عقيدتي التي أبدي كل استعداد أن أتحمل عواقبها مهما كانت، نعم ليس في كتاب الله ما لا يمكن تدبره، لأنّ الله نفسه هو من طلب منا أن نتدبر القرآن (كل القرآن):

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: 24]
- ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: 29]

فـ لربما أوافق السادة العلماء الرأي (بأن هناك ما لا يجب علينا تدبره) إن هم قبلوا أن لا تكون تلك الأحرف المتقطعة جزءاً من القرآن. أو أنها ليست من آيات الكتاب التي أنزلت على محمد وأمرنا الله بتدبرها كما جاء في آية ص (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ). أما بالنسبة لي، فإن عقيدتي تتلخص بالتالي: مادام أنّ هذه الأحرف المتقطعة هي جزء من القرآن، وهي لا شك من آيات الكتاب، فلابد (لا بل يجب) علينا أن نتدبرها كما نتدبر القرآن كله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ).

خروج عن النص

إنني أعتقد جازماً أن جزءاً من مشكلة الفكر الإسلامي الذي توقف عن الحركة لقرون ربما تكمن في هذه العقائد "المصطنعة الكاذبة" التي ظن كثير من الناس أنها جزء من العقيدة وهي – نحن نظن – لا تعدو أكثر من تحريف للعقيدة الصحيحة، لا بل وطعنا في العقيدة نفسها، وسأحاول في هذا الجزء التعرض لبعض الأمثلة التي شكّلت على الدوام عائقاً وهمياً كاذباً منع الناس من أن يتدبروا كلام الله كما أمرهم الله (لا كما وجههم أسيادهم ممن ظنوا أنهم أهل علم ودراية).

المثال الأول: من قال أنه علم فقد جهل

خرج علينا أحد علماء زمانه بهذه المقولة التي نعتقد نحن أنها "كاذبة"، فأصبحت على مر السنين (لا بل والقرون) نبراساً يهتدي به أهل العلم والدراية، وأخذت حناجر الخطباء على المنابر تنفجر مرددة مثل هذه العبارة، لا بل ويحذرون الناس ممن يظن في نفسه أنه قد علم فسولت له نفسه أن يقول مثل هذا القول (كما نفعل نحن أحياناً)، ولما كان التكرار "يعلم الحمار" (كما تقول أمثلتهم الشعبية")، تعلمت هذه العبارة ... كثير، فن.. بها دون أن يعوا ما يقولون، فأصبحوا يرددونها ويكأنها آية من كتاب الله (حاشاه جل وعلا).

وقد يرد علينا الكثيرون مستغربين مثل هذه اللهجة التي نتحدث بها عن هؤلاء الناس، ظانين أننا ربما قد تجاوزنا حدودنا، فنرد بالقول: إذا كنتم قد غضبتم من مثل كلامي هذا وأنا لا أهاجم إلا بشراً مثلي ومثلكم، أفلا يحق لنا أن نهاجم من يفتري على الله الكذب ويسوّق كلامه ويكأنه من عند رب العالمين؟ فلو روّج العلماء لمثل هذه البضاعة وأفهموا الناس أنها على أنها من عند أنفسهم (كما نفعل نحن) لربما التمسنا لهم كل العذر،

فهم في نهاية المطاف بشر يصيبون ويخطئون، أما أن يسوقوا بضاعتهم تلك ويكأنها من عند الله، فذاك أمر جد خطير.

ثم ماذا ستفعلون – يا سادة – لو علمتم أن في مثل مقولة علمائكم هذه شتم صريح لنبي من أنبياء الله؟ ألا يحق لنا عندها أن نشتم من ألحق الأذى بنبي كريم؟

وقد يرد البعض على الفور بالقول: ماذا تقول يا رجل؟ كيف يكون في مثل هذه العبارة (من قال أنه علم فقد جهل) شتم لنبي كريم؟

جواب: دعنا نحتكم إلى كتاب الله، ونرى النتيجة التي ربما سننتهي إليها إن نحن صدّقنا دعوى فقيهكم الذي صدقتموه عندما قال "من قال أنه علم فقد جهل"، فلنقرأ – يا سادة – ما جاء على لسان يوسف ابن يعقوب ابن اسحق ابن إبراهيم:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

هذا – يا سادة – ما يقوله يوسف (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم)؟ ألا ترون – يا سادة- أن يوسف يشهد لنفسه بالعلم (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ)؟ بالله عليكم دلوني على مخرج من هذه "الورطة"؟!

هل نصدق ظنّ فقيهكم بأن من قال عن نفسه أنه عليم فقد جهل لنوجه اللّوم بعدئذ ليوسف: "ما لك يا يوسف تشهد لنفسك بالعلم؟ ألا ترى أنك قد "جهلت" حسب رأي فقيهنا (ومن ظن ظنه وروّج لبضاعته) مادام أنك تشهد لنفسك بالعلم؟

كلا، وألف كلا، إنّ الجاهل هو من قال مثل تلك المقولة، والأكثر جهلاً منه هو من صدّقها وروّجها للناس، إن أبسط ما يمكن أن ننعت به من قال مثل تلك العبارة هو أنه أبعد ما يكون عن العلم لأنه ببساطة لم يعرض مقولته تلك على كتاب الله؟ فلو تدبر "فقيهنا" الجليل قول يوسف هذا، لما تجرأ أن ينطق لسانه بمثل تلك المقولة الكاذبة، وإلاّ فهو مدين لنا جميعاً أن يفسر مقولته تلك في ضوء ما جاء في كتاب الله على لسان نبي الله ورسوله يوسف عليه السلام، وإن هو لم يفعل، فهو عندنا – بلا شك - ممن يفترون على الله الكذب، لأنه ينعت رسول كريم مثل يوسف بالجهل، ويكأن يوسف لا يعي ما يقول!!!

فأي الأمرين – يا سادة – أحق أن يتبع، قول يوسف (وهو من ظن نفسه أنه قد علم) أم قول "عالمنا" الجليل (الذي ظن أن من ظن أنه يعلم فقد جهل)؟ من يدري!!!

المثال الثاني: علم لا ينفع وجهل لا يضر

جاء في كتاب الله الكريم في معرض الحديث عن بقرة بني إسرائيل قوله تعالى:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 73]

وعندما حاولنا البحث في ذلك، كان لزاماً في مرحلة ما التعرض لمعنى مفردة " بِبَعْضِهَا " التي ترد في الآية الكريمة (فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا)، فحاولنا الخوض في ذلك ظانين أننا بحاجة أن نفهمها في سياقها القرآني الصحيح، وكانت الوظيفة البيتية التي كنت أطلب على الدوام من طلابي في مساقات الدراسات العليا القيام بها، خاصة في مساقي علم المعاني (semantics) وتحليل النص (Text Analysis)، تتمثل في مراجعة كتب التفاسير للبحث فيها عن معنى هذه المفردة (بَعْضِهَا)، كما كنت أطلب منهم أيضاً طرق أبواب أهل العلم (مادام أن العلم – حسب ظنهم – يؤتى ولا يأتي!)، ومحاولة سؤالهم عن معنى مثل هذه المفردات، وكانت المفارقة العجيبة تكمن في أن أغلبية الطلبة كانوا يرجعون إليّ بخفي حنين، محمّلين مقولة تحمل طابع الشعار (وجدوها في كتب التفاسير التي تشكل مرجعاً أساسياً لكل طلاب العلم، ورددها على أسماعهم كثيرون ممن بحثوا عن الإجابة في مكاتبهم على تراب جامعاتنا العتيدة) شعار مفاده "أن العلم بذلك لا يفيد والجهل به لا يضر"، وبكأن لسان حال المسؤول من أهل العلم يقول لمن يسأل من أهل الجهالة من مثلي: ما لك ولهذه الأمور؟ وما الذي ستستفيده من العلم بها؟ ولم تسأل عنها أصلا؟ لم لا تبحث لك عن شيء ربما تجد فيه فائدة؟!!!

كان أكثر الذي يقلقني على الدوام من هذه المواقف أمور ثلاثة: أولها، أن طلابي لم يعودوا يوماً إلي يحملون إجابة شافية لما كانوا يسألون عنه، فجل ما كانوا يجدون في كتب التفاسير وعند أهل العلم والدراية هو "قال فلان وقال علان" دون دليل على ما زعموا (انظر كتب التفاسير في هذه الجزئية مثلاً)، فالطلبة أنفسهم هم من كانوا يعودون بالقول بأنهم ليسوا راضين عن كل ما وجدوه في بطون الكتب الصفراء أو على ألسنة أهل العلم والدراية. وثانيها، وهو الأهم، هو محاولة أهل العلم أن يسكتوا الناس عن طرح السؤال ظانين عدم جدوى البحث عن معلومة كهذه. وثالثها، لقد كان أكثر ما يمكن أن يثير الحيرة من طريقة رد أهل العلم أنهم لا يرددون مثل هذه العبارة إلا على الأشياء التي استعصى عليهم فهمها، فعندما كنا نسألهم عن قصة البقرة أو قصة (ما يسموه) الخضر، أو ذي القرنين، أو شق البحر بالعصا (الأمور التي درجوا على تسميتها بالمعجزات) كان جوابهم على الدوام أن العلم بذلك قد لا ينفع والجهل بها قد لا يضر، ولكن - بالمقابل- إن أنت سألتهم عن شيء ربما لديهم علم به، فقد لا يتوقفون عن الكلام عنه لساعات، فيضخمون أهميته وبكأن الدين كله منصباً على ما عندهم من علم. فنحن لا ندري ما هي الأشياء التي يمكن أن تنفع فنسأل عنها، وما هي الأشياء التي قد لا تنفع حتى نتوقف عن السؤال عنها، فيا ليت أهل العلم قد وضعوا للبسطاء من مثلي جدولاً من خانتين تكون احدهما لما ينفع فيسأل عنه والأخرى لما لا ينفع فيسكت عنه!!!

والآن، تدبر -عزيزي القارئ- ما يمكن أن تفهمه من قولهم أن هناك علم لا ينفع وجهل لا يضر بعد طرح جملة من التساؤلات:

هل هناك فعلاً علم لا ينفع؟ هل هناك فعلاً جهل لا يضر؟ وهل هناك شيء أكثر منفعة من العلم؟ وهل هناك مضرة أكثر من الجهل؟ فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

- ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: 9]

وماذا يمكن أن نقول لموسى وهو نفسه من استعاذ بالله في سياق الحديث عن البقرة نفسها من أن يكون من الجاهلين:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة: 67]

ثم ليتذكر كل علماء الإسلام أننا نبحث عن علم يخص كتاب الله، فهل هناك - يا سادة - علم يمكن أن يستنبط من كتاب الله قد لا ينفع (كما تزعمون)؟ وهل هناك جهل أكبر (وأعظم خطراً) من الجهل بما في كتاب الله؟ من يدري!!!

إن ما أود أن أقوله لسادتنا العلماء أننا نزعم الظن أننا عندما حاولنا الخوض في تلك الآيات الكريمة التي ربما استعصى عليكم علمها لقرون خرجنا نحن بفهم لمفرداتها (كمفردة بِبَعْضِهَا) في قوله تعالى (فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) يختلف بشكل جذري عن كل ما ظننتم. ونحسب أننا قد توافر لنا علماً قد يفيد من تساءل يوماً عن قصة تلك البقرة التي حارت بها عقول العلماء قروناً من الزمن، وسنحاول في مقالة منفصلة (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) أن نتعرض لقصة البقرة ليرى العامة من الناس (قبل أهل العلم والدراية أنفسهم) كيف أن الباب لا زال مفتوحاً لطرح السؤال، وأن العلم الذي قد يتوفر لنا (على جهلتنا) ربما لم يتوافر لكم (على علمكم)، والأهم من ذلك كله هو اعتقادنا اليقيني في أن علم الله لن ينفذه جيل من الأجيال مهما بلغ من العبقرية المزعومة التي صورتموها للناس وكأنها أسطورة يصعب أن تتكرر.

دعاء: نسأل الله أن يعلمنا كل ما جهلتم، وأسأله تعالى أن يأذن لي بشئ من علمه لم يحط به أحد قبلي، وأسأله تعالى أن أعلم منه ما لا تعلمون، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

عودة على بدء

لقد قدّمنا هذين المثالين لنزعم القول أن ما يتناقله الناس من بعض كلام أهل العلم والدراية (والتي ربما أصبحت جزءاً من مسلمات الأمة) قد لا يعدو في بعض الأحيان أكثر من خرافات لا أصل لها في عقيدتنا، فهم كالذين يشرّعون القوانين والتعليمات الوضعية التي هي من عند أنفسهم ثم ما يلبثوا أن يصدّقوها ليصبحوا

عبيداً لها، فيحتكمون لها ويكأنها من سنن الله الكونية. أما نحن فإننا نظن أن وظيفة تلك "الموضوعات" البشرية لا تعدو أكثر من المخدر الذي يحقن به المريض ليسكت عنه الألم فترة من الوقت، لكنه بكل تأكيد لا يشفيه من مرضه، فما هي إلا ساعات حتى يفيق المريض من غيبوبته ليكتشف الحقيقة المؤلمة أن ذلك لم يكن أكثر من حيلة أسكتت عنه الألم فترة من الزمن.

لذا، فإننا نظن أنه مهما حاول أهل العلم إسكات الناس عن السؤال عن مثل هذه الأمور التي أشكلت على الفهم فترة طويلة من الزمن (كالسؤال عن الأحرف المتقطعة في بدايات بعض السور مثلاً) فإنهم لن ينجحوا، لأن الغريزة في حب المعرفة جامحة عند الناس لا يمكن أن تتوقف إلا لفترة قصيرة من الزمن (بالفعل كما يعمل المخدر للمريض)، وما هي إلا لحظات حتى تثور من جديد كلّما شعر الناس أن هناك فرصة سانحة للمعرفة.

لقد كانت ردة الفعل الأولى لكل طلابي على هذه المواقف هو محاولتهم السؤال في كل فرصة عن هذه الأشياء متى ما أثيرت، وقد كنت أحاول أن أرد على الدوام بالقول: إذا كانت عقيدتكم التي جئتموني بها وحملتموها في صدوركم عقوداً من الزمن تتمثل بما قاله أهل العلم سابقاً وهو صعوبة (لا بل واستحالة) الوصول إلى معرفة هذه الأمور لأنّ علمها – كما ظننتم- عند الله وحده، فلم تصدقون شخصاً مثلي ربما يدّعي أن الله قد أذن له بشيء من ذلك العلم؟

إن الهدف الأكبر عندنا هو إشاعة فكر السؤال عند العامة، والكف عن ترداد ما تناقله الناس عن بعض أهل العلم بأن إثارة السؤال حول مثل هذه القضية ربما يندرج في باب إثارة الشبهات. فنحن ممن لا يؤمنون بعقيدة تحمل في ثناياها الحاجة "إلى عدم إثارة الشبهات" لأننا لا نرى أن في شريعة محمد شبهة يمكن أن تثار أصلاً، ولسنا كذلك من أهل العقيدة الذين يؤمنون بالتستر والتقية لأن عقيدتنا تتمثل في أن ليس هناك في الشريعة التي جاء بها محمد مسألة لا يمكن أن يفتح ملفها للبحث والنقاش، إن جوهر العقيدة التي نؤمن بها في صدورنا تلخصه الآية الكريمة التالي:

- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾
[يوسف: 108]

ولما كانت هذه هي عقيدتنا، فإننا لا نجد بداً من فتح الملفات العالقة جميعاً، رضي من رضي وغضب من غضب، ولنبدأ بمسألة الأحرف المتقطعة في بداية بعض سور القرآن الكريم.

سائلين الله أن يهدينا الحق فلا نفتري عليه الكذب. ولا نعدم الرجاء أن يغفر لنا إن نحن فعلنا ذلك عن غير قصد منا.

أما بعد،

سؤال: لماذا الأحرف المتقطعة في بداية بعض سور القرآن؟ هل هذا أمر لا يمكن فهمه فعلاً؟ هل هذا علم لا يعلمه إلا الله وحده كما حاول كثير من أهل العلم أن يفهمونا؟

كلا، وألف كلا. نحن نظن أن كثير من أهل العلم والدراية ما فعلوا ذلك إلا ليسكتوا الناس عن طرح السؤال حول القضايا التي لا يملكون هم إجابة شافية لها. فلو كان عندهم شيء من علمها – نحن نفتري الظن – لتغنوا به صباح مساء، (والقارئ الكريم مدعو لتأمل افتراءات بعض الذين يروجون للاكتشافات العلمية من القرآن)، فيا سبحان الله، لم تكن تلك الكنوز في القرآن إلا بعد أن اكتشفها الغرب! فما لكم – يا علماء الإسلام – لا تقومون أنتم باكتشافها وتسويقها للعالم بدلاً من أن تستوردوا منهم كل اكتشاف لتضعوه في القرآن؟ ما لكم لم تتركوا حشرة ولا جرثومة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا ووضعتموها في كتاب الله بالدليل وبدون الدليل؟

كلا، إننا نظن إن جل ما أجدتموه لم يكن – في رأينا – أكثر من سياسة التسكيت وكتم الأفواه، حتى يأتيكم خبراً من وراء البحار تلاحقونه بكل ما أوتيتم من قوة، لتروجوه على أنه حقيقة قرآنية، وكم يصبح مخجلاً أن نرى أنّ ما جلبتموه بالأمس لم يعد صحيحاً اليوم!

إننا نعتقد أن العلم الحقيقي هو الذي يصدر من القرآن وليس الذي يستورد إليه، فلو كنتم أهل علم حقاً، ولو كان ما تقولونه صحيحاً، لكنتم أنتم المبادرين إلى تسويقه للعالم، لا أن تستوردوا بضاعة فاسدة من كل زاوية من زوايا الكون لتروجها إعجازاً علمياً في كتاب الله على كل شاشات الفضائيات على حفنة من الأميين الذين لا يجدون حتى القراءة والكتابة. فهل يا ترى يملك من لا يجيد القراءة والكتابة (بمعنى الجاهل) القدرة أن يكذب أمثالكم من أهل العلم والدراية؟!!!

أما نحن، فإننا نرى أن سياستكم تلك وإن نجحت بعض الوقت فهي لن تنجح كل الوقت، ونحن لا نعدم الإيمان بأن الحقائق ستتكشف مع توالي الأيام والأشهر والسنوات، وسينكشف للدّاني والقاصي كثير من الزيف الذي سوقتموه للناس على أنها حقائق قرآنية وهي لا تعدو – في نظرنا – أكثر من افتراءات من عند أنفسكم، فحالكم لن تكون أفضل من حالنا ما دام أننا جميعاً نخرّص دون دليل من كتاب الله. والأهم من ذلك كله هو أن الكثيرين سيستيقظون من غيبوبتهم ليعيدوا إلى طرح السؤال نفسه من جديد، كالسؤال التالي مثلاً: ما هي قصة تلك الأحرف المتقطعة في بداية بعض سور القرآن الكريم؟

ألم، الر، حم، ...

جواب مقترح بزعم مفترى: إننا نزعم الظن أن طرحنا السابق حول الفرق بين الكتاب والقرآن ربما يحل جزء من هذه الإشكالية، ولكن كيف؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم الفهم بأن هذه الأحرف هي لغة الكتاب المبين الذي فصّله محمد قرآناً مبيناً بلسان قومه. فتلك هي لغة الإله نفسه، إنها الرموز التي يتم بها الوحي.

الدليل

لقد نزل الكتاب على قلب محمد جملة واحدة بالوحي (أي بلغة الرمز)، وكانت مهمة محمد كرسول (كما كانت مهمة من سبقه من الرسل) هو إخراج ما في قلبه من الكتاب (المتواجد رمزاً) قرآناً مبيناً بلسان قومه، وكان ذلك يحدث بشكل مفرق، وقد استنبطنا هذا الافتراء من قول الحق:

- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: 16-19]
- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114]
- ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: 106]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32]
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 192-195]

إن المتدبر لهذه السياقات القرآنية يجد حقائق صارخة تخص القرآن على وجه التحديد نذكر منها:

1. أن القرآن نزل مفرقاً (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ)
2. الطلب من الرسول أن لا يعجل به (وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ)
3. أوكلت مهمة جمعة وقرآنه إلى غير محمد (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ)
4. جاء الأمر لمحمد بإتباع قرآنه (فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ)
5. نزل به الروح الأمين (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ)
6. جاء تنزيله بتلك الطريقة تثبيتاً لفؤاد محمد (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ)

وجاء تنزيل الكتاب، فكانت مهمة الرسول على وجه التحديد خاصة بتبيان ما نزل من الله إلى الناس:

- ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: 64]

وكانت الوسيلة المتبعة في تبيان آيات الكتاب إلى لغة يفهمها الناس أنفسهم هي احداث الذكر:

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 44]

ولم تكن تلك هي مهمة محمد فقط بل كانت مهمة كل من جاء رسولاً من الله إلى الناس:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

السؤال: كيف كان الكتاب ينزل بلغة الوحي وكيف كان يفرق قرآناً بلسان قوم الرسول؟

جواب: لقد حاولنا في الجزء السابق تسليط الضوء بما قدمنا من افتراءات على جملة من هذه القضايا، لكننا نجد من الضروري أن تناول قضية نظن أنها ستكون ذات صلة وثيقة بموضوع النقاش هنا، والقضية تتعلق بالتبادل اللفظي بين مفردتين اثنتين وردتا في صلب الحديث عن قضية التنزيل، والمفردتان هما القلب والفؤاد، لنطرح السؤال المعهود عندنا الذي يتعلق بتبيان الفرق بين الألفاظ المتشابهة التي درج الناس على الظن بأنها تعود على نفس الكينونة.

التساؤلات:

1. ما هو القلب؟
2. ما هو الفؤاد؟
3. ما الفرق بين الفؤاد والقلب؟
4. كيف نزل به الروح الأمين على قلب محمد؟
5. كيف كانت طريقة التنزيل تثبيتاً لفؤاد محمد؟
6. الخ.

وبعد أن نخرج ببعض الافتراءات التي نظن أنها صحيحة حول موضوع التفريق بين الفؤاد والقلب سنجد أنفسنا ملزمين أن نربط ذلك بقضية الرؤيا.

القلب

تحدثنا في مقالات سابقة لنا (انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان هل لعلم الله حدود؟) عن هذا العضو في جسم الإنسان، وزعمنا الظن بأن القلب هو أداة التفكير الأولى في الإنسان، كما زعمنا الظن بأن القلب هو العضو القادر على اتخاذ القرار، لذا فهو الذي يتحكم بالدماغ (وليس العكس):

- ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

وكان اليقين عندنا قاطعاً أن القلب هو ذلك العضو المتواجد داخل الصدر وليس الموجود في الرأس

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

وقلنا أنه يمثل المستقر بينما يمثل الدماغ المستودع:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98]

لذا فإن عملية اتخاذ القرار (أي قرار) لابد – في رأينا – أن تنبع من القلب الذي في الصدر(فَمُسْتَقَرٌّ)، ثم يتم نقلها بعد ذلك إلى الدماغ الذي في الرأس، فما يجري في الدماغ لا يعدو أكثر من عملية تخزين للمعلومات أو الخبرات التي يمر بها الإنسان (وَمُسْتَوْدَعٌ)، وإن هو احتاج إلى استرجاع تلك المعلومة بحث عنها في دماغة وليس في قلبه، فالطالب الذي يدرس المادة يخزنها في دماغه ليتم له استرجاع المعلومة من هناك في يوم الامتحان، فوظيفة المدرسة (كمؤسسة تعليمية) لا تتعدى أكثر من الاهتمام بالدماغ (وَمُسْتَوْدَعٌ) لكنها نادراً ما تهتم بالقلب (فَمُسْتَقَرٌّ)، فالتدريس التلقيني هو الذي يشجع الدارس على تخزين أكبر قدر من المعلومة، لكنّه قلما يحثه على تدبرها، ليخرج هو منها بشيء ربما لم يدركه أحد قبله. فها هي أمم قد حملت التوراة والإنجيل قروناً من الزمن، وها هم آلاف من الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ولكن يبقى السؤال الذي لا مفر من طرحه على كل واحد منا هو: ما الذي خرجت به من تلك المادة العظيمة التي خزنتها في دماغك سنوات وسنوات؟ إن أخشى ما أخشاه أن نصبح نسخة طبق الأصل لمن حمل التوراة من قبل:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: 5]

فهل يا ترى يستفيد الحمار من الأسفار التي لا تعدو مهمته أن تكون أكثر من حملها على ظهره؟

دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون (عند حملي شيء من كتابك) كالحمار الذي يحمل أسفارا

ويمكن تبسيط فكرة المقارنة بين القلب (الذي يعقل) والدماغ (الذي يخزّن) بالنظر إلى الأمر بمفهوم مفردات علم الكمبيوتر، فالقلب يمثل السوفتوير (software) المشغل للجهاز أو المعالج للمعلومة، بينما يمثل الدماغ الذاكرة التي يتم تخزين المعلومات فيها.

وقد زعمنا أن ذلك القلب لا يمكن لأحد أن يدخل إلى داخله، فهو عبارة عن جهاز يمكن قفله:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: 24]

افتراء خطير ومهم جداً: لابد لأي معلومة جديدة من أن تنفذ إلى داخل ذلك الجهاز ليتم معالجتها فيه، لتخرج منه بعد ذلك متشكلة بالفهم الذي حصل لها داخل تلك الآلة (إنْ صح التعبير) قبل أن تصل إلى مرحلة التخزين في الدماغ. وهذا يعني بالضرورة أن المعلومة نفسها يمكن أن تدخل في قلبي فيعالجها قلبي بطريقته ليتحصل لي بعد ذلك فهماً بها ربما يختلف عن الفهم الذي تحصل لك بعد أن عالجها قلبك. فالقلب هو عبارة عن جهاز معالجة المعلومة (information processing machine).

نتيجة هذا الافتراء: إننا نظن أن لهذا الظن تبعات خطيرة جداً، يمكن أن نلخص أهمها بـ (1) التأويل و (2) التحريف.

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن القلب عندما يعالج المعلومة إما أن يؤولها أو أن يحرفها فالقلب هو الذي يحرف الكلم من بعد مواضعه:

- ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: 13]

ولابد من أن يطهّر القلب لكي يستطيع أن يؤول (فلا يحرّف):

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: 41]

فحتى يفقه الإنسان مثل هذا الكلام لابد من إزالة الأكنة التي تغلّف قلبه:

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: 25]
- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: 46]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]
- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: 5]

ولا بد من إزالة ما طبع وما ختم على قلوبهم به:

- ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: 87]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: 3]

لأن القلوب التي يتم تغليفها وطبعها وختمها، تصبح قلوب مريضة لا تستطيع أن تعمل بشكل سليم:

- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: 125-127]

فعندما تغلف تلك القلوب بالأكنة وتغلق بالأقفال، تصبح قلوباً فيها مرض وقلوب قاسية أيضاً:

- ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: 53]

وتكون النتيجة أن هؤلاء الناس من الذين لا يعلمون:

- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: 58-59]

والتضرع إلى الله هو السبيل لأن تلين القلوب:

- ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43]

ولا يمكن أن يتم تدبر القرآن ما لم يتم إزالة تلك الأقفال عنها:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: 24]

ولو تدبرنا السياق القرآني التالي لربما وصلنا إلى ذروة ما نود طرحه حول هذه القضية:

- ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: 45-46]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: 3]

فالآية الكريمة تدلنا على أن السبب الأول الذي يمنع الكثيرين من أن يفقهوا هذا القرآن وهو بسبب وجود تلك الأكنة على قلوبهم، فلو تم إزالة ما على القلب من أكنه، ولو تم فتح ذلك القفل الذي أغلق به القلب، لأصبح هناك مجال لأن نفقه هذا القرآن العظيم. ولكن الكفار والمنافقون – لا شك- لا يفقهون:

- ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: 7]

ولا شك لدينا أن الذي "يفقه" هو من يفقه القول:

- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: 91]
- ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: 27-28]

دعاء: اللهم إنّا نتضرع إليك أن تكشف الأكنة عن قلوبنا وأن تفتح أقفالها لتلين فتفقه القول

التأويل

لما كان قلب محمد غير مقفل، ولما كان قلبه لم يختم ولم يطبع عليه، ولما كان قلب محمد لم تلفّه الأكنة، كان إذاً قلباً مستعداً أن يفقه ما يقرأ عليه من القول:

- ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة: 18]

سؤال: كيف كان يفقه محمد قول الوحي مادام أن ما جاء به الوحي كان رمزاً؟

إننا نظن أن هذا السؤال هو ذروة العلم الذي نبحث عنه. فإن استطعنا أن نفقه القول كما كان يفقهه محمد لوصلنا بكل تأكيد إلى مراتب متقدمة جداً في العلم. فنحن نظن أن هذا هو علم التفصيل، أي تفصيل الكلام من لغة رمزية (لغة الوحي: ألم، ألر، عسق، طسم، ...) إلى لغة بشرية كلسان قوم النبي:

- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1]
- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: 3]
- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾ [فصلت: 44]

فكيف كان يستطيع محمد القيام بذلك؟

ذكرنا في الجزء السابق أن محمد ما كان يستطيع القيام بذلك بدون ما أنزل الله عليه من علم الذكر، فبالذكر كان يستطيع محمد أن يبيّن للناس ما نزّل إليهم من ربهم:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44]

وهكذا كانت مهمة كل رسل الله إلى الناس:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: 4]

وذكرنا أيضاً أن ذلك العلم (علم الذكر) هو العلم اللّدني:

- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1]

وزعمنا القول أن ذلك العلم موجود بين يدي الرحمن:

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]

استراحة قصيرة: الفرق بين التأويل والتفصيل

لو توقفنا عند قصة موسى مع ذاك العبد الصالح، وحاولنا النظر إلى جزئية فيها من هذا الجانب، ربما نخرج باستنباط هام جداً قد يساعدنا في فهم ما نحن بصدد الخوض فيه.

فها هو موسى يذهب مع غلامه حاثاً الخطى لملاقاة ذاك العبد الصالح:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ [الكهف: 60]

وعندما وجده موسى كان الرجل يتمتع بصفات عظيمة أنعمها عليه ربه:

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]

فيطلب موسى صحبة الرجل ليطلب العلم على يديه:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]

ويحصل موسى على صحبة الرجل بعد جهد، لكن الرجل ينبّه موسى بالكلمات التالية:

- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70]

وهنا نجلب انتباه القارئ الكريم إلى ملاحظة – نظن أنها – غاية في الأهمية هنا تتعلق بمفردة " ذِكۡرٗا "، فالرجل يطلب من موسى السكوت على ما يجد من أمره حتى يحدث هذا الرجل بنفسه لموسى من الأمر ذكرا، أليس كذلك؟

سؤال: ما معنى أن يحدث الرجل لموسى من الأمر ذكرا؟

لننتظر قليلاً لنرى ما الذي حصل فعلاً. فها هو موسى يصاحب الرجل قسطاً من الزمن، إلا أنه لا يستطيع أن يصبر على كل ما يرى من أمر الرجل، فيقوم الرجل بفضّ الصحبة تلك بعد محاولة موسى استطلاع الخبر للمرة الثالثة. ولكن قبل أن يترك موسى، نجد الرجل يقول لموسى ما يلي:

- ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ [الكهف: 78]

إن أكثر ما يهمنا لفت الانتباه إليه هنا هو مفردة "بِتَأۡوِيلِ"، فلو أمعنا التفكر في هذا الموقف لوجدنا أن الرجل لم يحدث لموسى من الأمر ذكرا (كما وعده في بداية رحلته معه)، بل قام بتأويل ما لم يستطع موسى

الصبر عليه. إن لب القول هو في حين أن الرجل قد طلب من موسى أن يسكت حتى يحدث له من الأمر ذكرا، قام فقط بتأويل ما صعب على موسى السكوت عليه.

السؤال: لماذا قام الرجل بالتأويل ولم يحدث لموسى من الأمر ذكرا كما وعده في بداية الرحلة؟

جواب: إن هذه الحادثة تنبهنا إلى الحاجة أن نميّز بين إحداث الذكر والتأويل

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم الظن بأنه لو صبر موسى على صحبة الرجل حتى وصلا إلى المكان الذي كانوا يقصدونه لقام ذاك الرجل بإحداث الذكر لموسى، ولكن لمّا لم يصبر موسى على الأمر اكتفى الرجل بالتأويل.

(للتفصيل انتظر مقالتنا القادمة بحول الله تحت عنوان باب الخضر)

نتيجة وافتراء: نحن نفتري القول بأن التأويل أقل درجة من إحداث الذكر (أي التفصيل)

وسنرى - إن أذن الله لنا بشيء من علمه - في مقالة مستقلة عن هذه الحادثة الكثير من المفارقات التي لابد من التنبيه لها، ولنترك قصصا وأوهاما توارثت عن يهود (ربما لا تسمن ولا تغني من جوع)، وسنحاول عند التعرض لحادثة هذا الرجل الصالح وحادثة البقرة الصفراء أن نبين - بحول الله وتوفيقه- كيف يقص هذا القرآن فعلاً على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون، وسنترك للقارئ بعدئذ أن يتخذ القرار بنفسه في أيهما أحق بأن يتبع: الأوهام والتحريفات التي تناقلها يهود وأخذتها أمم أخرى دون تمحيص، أم استنباطات يمكن أن تدعم من كتاب الله بالحجة والدليل.

إن أكثر ما يهمنا هنا هو التفريق بين تأويل الحديث (كالذي كان يفعله يوسف وما فعله الرجل الصالح مع موسى) أم إحداث الذكر، أي استخدام علم الذكر الذي يؤخذ من لدن حكيم عليم (كالذي وعد به الرجل الصالح موسى إن هو صبر على صحبته).

إحداث الذكر

إن إحداث الذكر هو بكل تأكيد – في نظرنا – العلم الأعظم، إنه علم تفصيل الكلام، أي نقل الكلام من لغة الوحي إلى لغة البشر والعكس، إنها الشيفرة التي بها تفكك الرموز بالطريقة الصحيحة.

محمد كان يمتلك الذكر

لا شك لدينا أن الله قد نزّل على محمد علم الذكر الذي من خلاله كان يقوم محمد بتفصيل (إحداث الذكر) لما يُقرأ عليه من الكتاب وحياً. فالكتاب كله نزل على قلب محمد رمزاً، وطلب من محمد أن لا يتعجل بما في قلبه:

- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: 16-19]

فكان محمد مأمور بإتباع وحي القرآن، فيخرج ما في قلبه بأمر من ربه، فيقوم الوحي بقراءته برمزيته:

- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه: 114-115]

ويقوم محمد بتبيان ذلك للناس بلسان قومه:

- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]

فكان محمد يقوم بتلك المهمة بنجاح لامتلاكه علم الذكر:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44]

سؤال: ما هي ماهية ذلك العلم؟

افتراء من عند أنفسنا: يميل الظن عندنا أن ذلك هو العلم الذي علّمه الله لآدم " وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ":

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة: 31]

فاستحق آدم لامتلاكه ذلك العلم أن تسجد له الملائكة:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: 33]

وتسخر له ما في السموات والأرض:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ [لقمان: 20]
- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [الجاثية: 13]

لاحظ كيف تدعم هذه الآيات الكريمة ما ذكرناه في مقالات سابقة لنا بأن الله موجود خارج السموات والأرض، فالله ليس في السماء كما قد يظن البعض لأن الظن بذلك يعني أن الله نفسه مسخر لنا، فالله يقول بأنه سخر لنا وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا. فالسماء ليست أكثر من حاجب (حاجز بيننا وبين الإله). وقد ذكرنا أن حرف الجر "في" يستخدم في العربية لحجب الرؤيا فقط، وربما يصدق ظننا ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: 210]

فعندما يأتي الله في ظلل من الغمام، لن يكون موجود في داخلها ولكن لتحجب الرؤيا فقط (للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان معنى حرف الجر على في العربية)

فكان آدم يعيش حياة رغدا في الجنة حتى ضاع منه ذلك العلم بسبب وسوسة الشيطان له:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

وقد حصل أن نسي آدم ما علمه الله من قبل من ذلك العلم الأزلي:

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه: 115]

فلم يكن لآدم عزم، فنسيه.

ولو راجعنا قصة وحي القرآن لوجدنا الترابط العجيب بين قصة آدم تلك ودعوة الله لنا طلبه الاستزادة من ذلك العلم:

- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه: 114-115]

دعاء: اللهم رب أنفذ مشيئتك وإرادتك لي بالزيادة من ذلك العلم، واجعلني لأهل الذكر إماما.

سؤال: ما الذي كان يقرأه الوحي مما في قلب محمد من الكتاب

جواب: لقد كان الوحي يقرأ ما أمر الله به "أن يوحى" مما في قلب محمد، وعندما يخرج ما أمر الله به من ذلك العلم الموجود أصلاً في قلب محمد، يقوم محمد بتفصيل (أي ترجمة) ما خرج من قلبه بلسان قومه.

افتراء خطير: كان محمد يفصل "أي يترجم" لغة الوحي الرمزية قرآناً عربياً بما أمر الله به من الوحي.

سؤال: ما الذي كان في قلب محمد؟

جواب: الكتاب كله بلغة الوحي

سؤال: وما هو؟

افتراء خطير خطير: إننا نزعم القول أن الكتاب الذي كان في قلب محمد هو تلك الأحرف المتقطعة المتواجدة في بداية بعض سور القرآن، وهذا هو – في نظرنا- الكتاب كله.

ألا ترى أنك تهذي يا رجل؟ ما الذي تقول؟ هل الكتاب كله هو عبارة عن أربعة عشر حرفاً؟

جواب: نعم هذا هو الكتاب كله.

سؤال: ولكن كيف يكون الكتاب كله 14 عشر حرفاً والله يقول "مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ"؟

جواب: هو كذلك. الكتاب هو تلك الأحرف المتقطعة الأربعة عشر لا غير. فانتظر - عزيزي القارئ - قليلاً لترى ما ستؤول إليه الأمور بعد أسطر قليلة. ولكن لابد أولاً من العودة إلى بناء جملة من الأفهام نعتقد أنها ضرورية لفهم الصورة التي نود أن نطرحها. ومن هذه الأساسيات التي لابد من أن نعرج عليها قبل الخوض في ذلك العلم قضية اللغة نفسها. لنطرح السؤال على النحو التالي:

ما هي اللغة؟

ملاحظة (نرى ضرورة أن يقرأ هذا الجزء بعد العودة إلى مقالتنا السابقة تحت عنوان: علم اللغة و هل للغة العربية قدسية خاصة؟

أولاً، غالباً ما تحدّث الناس عن اللغة، وفهموا أنها رموز صوتيه منطوقة (وأحياناً تكون مكتوبة) تتجمع معاً لتكوّن كلمات يستطيع الناس أن يفهموا معانيها، ومن ثم يتم تجميع الكلمات معاً لتعبر عن معاني يمكن أن تكون موضوع الخطاب بين المتحادثين، وهكذا. ولو دققنا جيداً في كيفية تكوين ما يسمى لغة لوجدنا أن هناك على الأقل حاجة إلى عاملين أساسين وهما (1) تلك الرموز الصوتية التي ربما يرغب البعض أن يسميها بالحروف عند الكتابة وبالأصوات عند النطق و (2) طريقة تركيب هذه الرموز الصوتية لتشكيل مفردات اللغة.

فعندما تتجمع الأحرف الثلاث التالية (ر-ج- ل) أو الأصوات الخمسة التالية (رَ-جُ-ل) لتكون معاً مفردة رَجُل، يفهم الناس الكلمة على أنها تدل على تلك الكينونة التي نسميها في العربية رجل ويقابلها في الإنجليزية (MAN)، وهكذا، ولكن لو طرحت على أحدهم السؤال التالي: لماذا يسمي الناس تلك الكينونة الذكرية البالغة من العمر سناً معيناً رجلاً وليس دلواً أو حجراً مثلاً، لردوا عليك بالقول: ألا تهذي يا رجل: هي كذلك؟ وكفى. فهموا ألفوا تلك الكلمة وألفوا معناها، ولكنهم لا يستطيعون أن يبرروا العلاقة بين لفظ الكلمة ومعناها، فهم لا يعلمون لم نسمي هذا الشيء كرسي وتلك طاولة، وليس العكس مثلاً. وهم لا يعلمون –بكل تأكيد- لم الكرسي في العربية مذكرا بينما الطاولة مؤنثة، وهذا ينطبق على كل لغات البشر.
(للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان علم اللغة)

نتيجة ضرورية سنحتاج إليها لاحقاً: إن من أهم ميزات لغة البشر أنها لا تبرر العلاقة بين لفظ الكلمة ومعناها. فالعلاقة بينهما غالباً ما فهمت على أنها علاقة اعتباطية (ARBITRARY).

ثانياً، لابد أيضاً من تسليط الضوء على الأصوات التي يستخدمها البشر في لغاتهم، فلغات البشر تختلف في عدد الأصوات التي تتبناها لتشكل منها مفرداتها، فهناك في العربية بضع وعشرون حرفاً (حوالي بضع وأربعون صوتاً)، والرقم يكاد يكون متقارباً في الإنجليزية أو الفرنسية، ولكن هناك لغات قد لا تتعدى عدد حروفها الخمسة عشر حرفاً، وهناك لغات يزيد عدد حروفها عن الخمسة والثلاثين، وهكذا. المهم في الموضوع هو القول بأننا لا نجد كل الحروف في كل لغة، فالخاء والحاء والعين والغين والقاف أحرف متواجدة في اللغة العربية لكنها غير متوافرة في اللغة الإنجليزية، وبالمقابل هناك ch، g، v، p...الخ تقع ضمن مجموعة أحرف اللغة الإنجليزية ولكنها غير متوافرة في العربية (كحروف وليس كأصوات بالطبع).

نتيجة ضرورية سنحتاج إليها لاحقاً: كل لغة تختار عدد الحروف التي تشكل منها مفرداتها

ثالثاً، تختلف اللغات أيضاً في كيفية تركيب الأحرف في كلمات (phonotactic constraints)

إن الحاجة ملحة لإدراك حقيقة ثابتة تخص اللغات بشكل عام وهي أن اللغات تختار طريقتها الخاصة بها في تشكيل أحرفها في كلمات ذات معنى، فلا تتطابق اللغات في ذلك، فلو أخذنا كلمة man من اللغة الانجليزية لوجدنا أنها تتألف من ثلاثة حروف هي m---a---n لتشكل معاً الكلمة التي نعرفها نحن بالعربية بمعنى رَجُلْ. ولكن لو أمعنا التفكر في أحرف مفردات الكلمة الإنجليزية man لوجدنا أنها جميعاً موجودة في اللغة العربية، فهناك الميم والألف والنون، ولكن هل هناك كلمة في العربية مثل "مان"؟ لا، لا يوجد.

سؤال: لماذا؟

جواب: بالرغم أن الأحرف متوافرة في اللغة، إلا أننا لا نجد أن كل تجمع لعدد من الأحرف يشكل كلمة في اللغة، فحتى تتشكل كلمة في لغة ما، فلابد من توافر الأحرف (الأصوات) أولاً، وأن تركب تلك الأحرف بطريقة ما تسمح بها اللغة نفسها لينتج عن ذلك مفردة ذات معنى في اللغة نفسها.

نستخدم هنا لفظة الأحرف لتدل على ما هو مكتوب ولفظة الأصوات لتدل على ما هو منطوق

نتيجة مفيدة سنحتاجها لاحقاً: كل لغة تختار طريقتها في تركيب أحرفها في كلمات، فليس كل تجمع لعدد من الأحرف ينتج عنه كلمة من كلمات اللغة نفسها

ولكن تبقى هناك مشكلة أخرى تتعلق بمعنى التراكيب التي تنتج عن تجميع الحروف مع بعضها البعض، فلو أخذنا مفردة بسيطة مثل can من اللغة الانجليزية، لوجدنا أن أحرفها جميعها موجودة في العربية، ولو حاولنا تشكيل كلمة من هذه الأحرف في العربية لخرجنا بكلمة مثل "كان"، وهي كلمة موجودة في العربية، لكن بالرغم أن اللغة الانجليزية تقبل هذا "التوليفة" (CLUSTERING) لهذه الأحرف كما تقبلها العربية إلا أن كل لغة خرجت بمفردة مختلفة في المعنى، فكلمة can الانجليزية لا تعطي معنى مثل معنى "كان" العربية.

سؤال: لماذا؟

جواب مفترى: إننا نزعم الفهم أنه بالرغم من كثرة الأحرف في اللغات البشرية إلا أنها غير معبرة بالدقة المنشودة، وهو ما ذكرناه سابقاً تحت الافتراض بأن اللغات البشرية لا تبرر العلاقة بين اللفظ والمعنى وتعتبر أن العلاقة لا تعدو أكثر من علاقة اعتباطية (ARBITRARY).

ما فائدة هذا الزعم؟

جواب: مادامت لغات البشر من صنع البشر أنفسهم، فمفرداتها لا تبرر

- ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: 23]

فنحن أذاً نستخدم المفردة بمعناها الدارج لا لشيء إلا لأننا نظنها كذلك، أي إتباعا للظن وما تهوى الأنفس (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ)، ولو دققنا النظر في تكملة الآية نفسها لوجدنا أن علماً غير ذلك قد جاءنا من الله من قبل (وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ)، فلقد جاءنا الهدى يوم أن علم الله آدم الأسماء كلها، ولكن عندما أضاع آدم ذلك العلم لم يكن أمامنا بدأ من إتباع الظن وما تهوى الأنفس:

- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 37-38]

نعم، لقد هبط آدم من تلك الجنة التي كانت الحياة فيها رغداً بسبب ما أودع الله فيه من علم الأسماء إلى مكان آخر حاملاً كلمات من ربه وليس علماً. لقد خرج آدم من الجنة بعد أن أضاع ذلك العلم.

ولم كانت حياة آدم في المكان الجديد غير مستندة إلى علم الأسماء الأول، اختلفت التسميات باختلاف الظنون والأهواء، وأصبح لك قوم لغتهم التي تميزهم عن غيرهم من الأمم. فأصبحت هناك – كما نشهد اليوم مثلاً – العربية والإنجليزية والألمانية والعبرية والسنسكريتية، والصينية، وهكذا.

تخيلات: ماذا كان سيحصل لو لم يضيع آدم ذلك العلم الذي علمه إياه ربه؟

افتراء مهم جداً: إننا نعتقد جازمين أنه لو كان كذلك، لأصبحت كل حرف في لغة البشر (وبالتالي كل كلمة وكل جملة) معبرة بالدقة المطلوبة بلا زيادة ولا نقصان، ولما دخل الظن والهوى في الموضوع. ولكانت النتيجة على نحو أن أي تركيب للأحرف بأي ترتيب كان، سينتج عنه كلمة ذات معنى حقيقي (لا ظني). ولما اختلف الناس بالتسميات، ولاتبعوا الهدى بدلاً من إتباعهم الظن والهوى، ولكن كيف؟

مثال

لنأخذ الكلمة الانجليزية cat ونحاول أن نتلاعب بترتيب أحرف هذه المفردة، فعندها ستنتج الخيارات الستة التالية:

Cat, act atc, tac, tca, cta

ولو أمعنا التفكر جيداً لوجدنا أنه من بين الخيارات جميعاً، نجد اثنتين فقط ذات دلالة ومعنى، وهما cat و act، بينما الخيارات الباقية فضلة لا قيمة لها.

ولو حاولنا تطبيق المنطق نفسه على كلمة عربية تتكون من ثلاثة حروف فقط مثل "رجل" لوجدنا الخيارات على النحو التالي:

جرل، جلر، لرج، لجر، رجل، رلج

ولوجدنا بكل سهولة ويسر أن واحدة منها فقط هي كلمة عربية ذات دلالة، بينما البقية المتبقية لا تعدو أكثر من فضلة (زيادة) لا حاجة لنا بها. فالعربية تستفيد من هذه الأحرف الثلاثة مجتمعة لتشكل كلمة واحدة في قاموسها، بينما لا تستفيد من تشكيلات خمسة أخرى محتملة.

نتيجة: هناك في العربية وفي الإنجليزية (كأمثلة على لغات بشرية) عدد كبير من الأحرف، لكن لا يتم الاستفادة منها بالطاقة القصوى.

نتيجة: إن هذا هو – في رأينا- السبب الرئيس على محدودية القاموس في أي لغة، فكلمات أي لغة محدودة لأن الأحرف لا يتم استغلالها بالطاقة القصوى، فما يتم الاستغناء عنه أكثر بكثير مما يتم الاستفادة منه، وتخيل عزيزي القارئ لو كانت الحال على نحو أن كل تجمع للأحرف يشكل كلمة ذات دلالة، فكم سيصبح حجم قاموس تلك اللغة؟

جواب: لا يمكن أن تنفذ كلماته

الدليل

لنعقد مقارنة بين علم اللغة وعلم الحساب، فعلم اللغة يستخدم الأحرف (الأصوات) بينما يستخدم علم الحساب الأرقام، ولكن لماذا الكلمات في لغة البشر محدودة بالرغم أن هناك كمية كبيرة من الأحرف (تصل إلى أكثر من خمسة وعشرين في العربية أو الإنجليزية مثلاً)، ولكن – بالمقابل- ليس هناك حد للأعداد بالرغم أن كل الأعداد تتألف من عشرة أرقام فقط وهي:

0 -1- 2- 3 – 4 - 5 - 6 – 7 – 8 - 9

أليست هذه هي أرقام الحساب كلها؟ ولكن لم لا يوجد حد لعدد الأرقام؟

الجواب: لأن كل رقم له معنى، لذا لو أخذت أي عدد من الأرقام مثل (765) وحاولت أن تتلاعب بترتيبها سينتج عندك ستة توليفات (CLUSTERING) مختلفة، يكون كل رقم جديد ذات دلالة ومعنى:

567 576 657 675 765 756

فهل هناك رقم من هذه الأرقام الجديدة زيادة لا حاجة لنا به؟
كلا، وألف كلا. كل واحد من هذه الأرقام له قيمته الخاصة التي تميزه عن غيره

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن هذا النوع من التفكير (على بساطته) ربما يسعفنا في تسليط الضوء على قضايا عديدة أعيت الفكر الديني لقرون، مثل آلية اصطفاء الرسل، وقضية النسخ والاستنساخ، وهي قضايا جوهرية سنحاول – إن أذن الله لنا بشيء من علمه- أن نتعرض لها في مقالات منفصلة، لكننا نحتاج أن نعود (بمثل هذا الفهم المشوش) إلى موضوع حديثنا عن كتاب الله لنرى ما ستؤول إليه الأمور.

كيف هي كلمات الله في الكتاب؟

لتقريب الصورة إلى الأذهان باستخدام عنصر المشابهة، فإننا نظن أن كلمات الله في الكتاب تشبه في عملها أرقام الحساب، لذا:

1. لكل حرف معناه
2. وكل تجمع للأحرف بأي توليفة (CLUSTERING) كانت، ينتج عنه كلمة ذات دلالة ومعنى

مثال: عسق

لا شك لدينا أن هذه من كلمات الأحرف المتقطعة التي ابتدأت بها سورة الشورى:

- ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى: 1-3]

وهي - لا شك عندنا - كلمة ذات دلالة ومعنى في كتاب الله (وإن كنا نحن لا نعرف معناها)، فعدم معرفتنا لدلالتها ومعناها لا يعني أنها لا تعني شيئاً بعينه، بالضبط كالكلمة الروسية أو اليابانية أو الصينية التي لا نعرف معناها، فحقيقة أننا لا نعرف معناها، لا يعني بأي حال من الأحوال أنها ليست كلمة ذات دلالة ومعنى في لغتها الأم. المهم بالموضوع القول هو أن "عسق" هذه هي إحدى مفردات الكتاب. ولكن يبقى السؤال مطروحاً على النحو التالي: ماذا لو حاولنا تغيير ترتيب تلك الأحرف على نحو:

عسق، عقس، سقع، سعق، قسع، قعس

هل نقول أن مفردة عسق هي فقط مفردة ذات دلالة ومعنى في الكتاب بينما المفردات الأخرى التي نتجت عن إعادة ترتيب الحروف ليست كلمات ذات دلالة ومعنى في الكتاب؟

كلا، وألف كلا. إنّ كل كلمة يمكن أن تتشكل من تلك الحروف بغض النظر عن الترتيب هي كلمة ذات دلالة ومعنى في كتاب الله، وهذا الظن نابع من الإيمان اليقيني التي يمكن أن نلخصه على النحو التالي: لا يوجد في كتاب الله ما يمكن أن يعتبر زيادة لا حاجة له. فكل حرف في كتاب الله بغض النظر عن الترتيب الذي يأتي فيه ينتج عنه معنى جديد (بالضبط كما لو تصورنا ترتيب الأرقام في الحساب).

سؤال: لماذا 14 حرفا فقط؟ لماذا ليس هناك 25 أو 27 أو ربما 35 حرفاً بدلاً من أربعة عشر أو حتى عشرة كما في حالة أرقام الحساب مثلاً؟

جواب: إن ذلك العدد هو الحد الأدنى من الحروف التي يمكن أن تفي بالغرض لتكون كلمات الله غير نافذة:

- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27]

فحتى لا تنفذ كلمات الله، فقد تألفت جميعها من تلك الحروف الأربعة عشر، ومادام أن 14 حرفاً يمكن أن تفي بالغرض ليكون عدد كلمات الكتاب غير نافدة، فلا حاجة لـ 15، وهذا الظن نابع من الاعتقاد اليقيني بأنه لا يوجد في كتاب الله نقص، لأن الإله القدير لا يستخدم ما يمكن الاستغناء عنه. فلو كان العدد أقل من ذلك لأصبح هناك خلل بسبب نقص لا يمكن تعويضه، ولو كان العدد أكثر من ذلك لأصبح هناك خلل بسبب الزيادة التي لا حاجة لها.

نتيجة: 14 حرفاً هي عدد الأحرف اللازمة لتكون كلمات الكتاب غير نافدة:

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 109]
- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27]

ولكن كيف؟

جواب: لا شك عندنا أن كل حرف من تلك الأحرف الأربعة عشر هو كلمة مستقلة بحد ذاته، لذا نجد في كتاب الله أن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحرف واحد:

- ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق: 1]
- ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: 1]

ولا شك عندنا أيضاً أن أي تجمع لتلك الأحرف (بغض النظر عن عددها بالضبط كما يحصل في علم الحساب) يشكل كلمة جديدة، لذا تبدأ بعض سور القرآن الكريم بكلمات من الكتاب تتألف من حرفين:

- ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: 1-2]
- ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: 1-2]

- ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النمل: 1]

وهناك بعض سور القرآن تفتتح بكلمات متقطّعة من ثلاثة أحرف:

- ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 1-2]
- ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣﴾ [آل عمران: 1-3]
- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 1-2]
- ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [القصص: 1-2]
- ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الشعراء: 1-2]

وهناك بعض السور التي ابتدأت بكلمات من الكتاب تتكون من أربعة أحرف:

- ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد: 1]

وهناك سور ابتدأت بكلمات تتألف من خمسة أحرف:

- ﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ [مريم: 1-2]

نتيجة وافتراء من عند أنفسنا: الحرف الواحد في كتاب الله هو كلمة، والحرفان يشكلان كلمتين بغض النظر عن ترتيبهم، والكلمة قد تتألف من ثلاثة أو أربعة أو خمسة، (الخ) من عدد من الأحرف بغض النظر عن ترتيب تلك الحروف، ولا يمكن أن تنتج توليفة من تلك الحروف لا تكون ذات دلالة ومعنى وذلك لأن كتاب الله لا يمكن أن يكون فيه زيادة تشوبه أو نقص يعيقه.

سؤال: لماذا اصطفى الله بعض خلقه ليكون هم رسلاً ولم يصطفي غيرهم؟ لماذا لا أكون أنا أو أنت رسول من ربنا إلى الناس؟

جواب: لأننا لا نعلم كيف نفصّل آيات ربنا إلى الناس، فنحن لا نملك العلم بتلك اللغة، ولا نملك كيف يمكن أن نفصّلها (أي نترجمها) إلى لغة بلسان قومنا.

سؤال: من يكون رسولاً؟

جواب: لا يمكن أن يكون رسولاً إلا من كان يستطيع أن يبين (يفصل) للناس ما نزّل إليهم من ربهم

وهنا يبرز سؤالان مهمان جداً وهما:

1. كيف كان يقوم محمد بذلك؟
2. هل نستطيع نحن البشر أن نحيط بشيء من ذلك العلم؟

أما بالنسبة للسؤال الأول "كيف كان يستطيع محمد القيام بتلك المهمة التي أوكلها الله إليه؟"، فأننا نظن أنّ محمداً كان يمتلك العلم بتفصيل آيات الكتاب المبين (كما هي في نسخته الأصلية) بسبب ما أنزل الله إليه من علم الذكر:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]

أما بالنسبة للسؤال الثاني: هل يمكن لنا نحن البشر الإحاطة بشيء من ذلك العلم؟ فإننا نزعم الظن بأننا قد نستطيع القيام بذلك. صحيح أننا لن نستطيع الإحاطة به كله، لكنا – بلا شك – نستطيع الإحاطة بشيء منه، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]

دعاء: اللهم ربنا نسألك أن تنفذ مشيئتك وإرادتك لي الإحاطة بشئ من علمك لم تأذن لغيري العلم به.

سؤال: كيف يمكننا القيام بذلك؟

جواب: بواحدة من طريقتين: إما (1) بطريقة الوحي كما أوحى الله إلى بعض عباده (فالله قد أوحى إلى أم موسى وإلى الحواريين) أو (2) بطريقة العلم اللّدني الذي يمنّ الله به على من يشاء من عباده (كحالة صاحب موسى وجليس سليمان).

سؤال: وكيف السبيل إلى ذلك؟

1. طريقة الوحي

لنبدأ النقاش حول طريقة الوصول إلى علم التفصيل بالوحي بالسؤال التالي: كيف كان يقوم محمد بتلك المهمة؟

جواب: ربما نحتاج أن نتدبّر قوله تعالى كما جاء في سورة النجم مرة أخرى:

- ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 10-11]

ربما يجد المتدبر لهذا السياق القرآني التلازم العجيب بين الوحي والفؤاد، وهنا يُطرح السؤال الذي لا مفر منه وهو: ما سبب التلازم بين الوحي في الآية رقم 10 والفؤاد في الآية التي تليها (11)؟
ولو تدبرنا سياقاً قرآنياً آخر لوجدنا تلازماً عجيباً بين الكتاب والرؤيا:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ [النساء: 105]

وهنا يبرز التساؤل الأكبر وهو: ما هي العلاقة بين الكتاب والفؤاد والرؤيا؟ وكيف سيحكم الرسول بين الناس بما أراه الله؟

جواب: إننا نظن أن الوحي (أي فك رموز الشيفرة) يتم في الفؤاد. فالفؤاد عندما يري يكون ذلك وحياً من الله. وهنا ربما يطرح سؤالان اثنان وهما:

1. كيف يرى الفؤاد؟
2. وكيف يعمل الفؤاد على فك الشيفرة؟

كيف يرى الفؤاد؟

لا شك لدينا أولاً أن الفؤاد هو أحد وسائل الوصول إلى العلم (أي الحصول على المعلومة)، فالله قد أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيء، ولكنه في الوقت ذاته زودته وبالوسائل التي يستطيع من خلالها الوصول إلى العلم وهي السمع والابصار والأفئدة:

- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: 78]

وعندها أصبح الإنسان محاسباً لمتلاكه هذه هذه النعم الثلاثة، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: 36]

فوسائل الحصول على العلم (أو الوصول إلى المعلومة) حسب الآية الكريمة السابقة هي ثلاث:

1. السمع ويكون ذلك عن طريق عضو يسمى الأذن

2. البصر ويكون ذلك عن طريق عضو يسمى العين
3. والفؤاد ويكون ذلك عن طريق عضو يسمى القلب.

ويمكن أن نروج لزعمنا هذا من خلال الآية الكريمة التالية:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]
- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]

فمادام أن الآذان هي آداة السمع والأعين هي أداة البصر فإن القلوب هي آداة العقل.
ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لربما خرجنا باستنباط غاية في الأهمية يتمثل في أنّ الفؤاد لا يبصر ولكنه يرى:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

فهناك حاجة للتفريق بين الإبصار (الذي يتم عن طريق العين) والرؤيا (التي تتم عن طريق الفؤاد)، فالمعلومة يمكن أن يتم التوصل إليها بالطرق الثلاثة التالية:

1. السمع عن طريق الأذنين،
2. البصر عن طريق العينين (أو هي رؤيا العين)،
3. والرؤيا عن طريق الفؤاد (أو هي رؤيا الفؤاد)

ولو دققنا أكثر في العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين هذه النعم الإلهية الثلاثة في الوصول إلى المعلومة والقرآن الكريم نفسه لوجدنا السياقات القرآنية التالية ذات دلالات عظيمة:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32]

فهناك تلازم عظيم بين القرآن الكريم من جهة والفؤاد من جهة أخرى، ولو دققنا في سياقات قرآنية أخرى لوجدنا تلازماً عظيماً بين ما أنزل على محمد وقلب محمد:

- ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: 97]

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ [الشعراء: 192-196]

فما هي العلاقة بين الفؤاد والقلب؟ أو ما الفرق بين القلب والفؤاد؟

جواب: ربما يمكننا التوصل إلى الفرق بينهما عند عقدنا مقارنة مع النعم الأخرى التي أنعم الله بها علينا وهي السمع والبصر، فالذي على عينيه غشاوة لا يبصر:

- ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: 9]
- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: 7]
- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية: 23]

والذي في أذنيه وقرا لا يسمع:

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ [الأنعام: 25]
- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦﴾ [الإسراء: 46]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ [الكهف: 57]

ولو دققنا أكثر لوجدنا التلازم العجيب بين القلب والآذن على وجه التحديد، فهما العضوان اللذان يختمان ختماً:

- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: 7]
- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية: 23]

ولكن العيون لا تختم، ولكن يمكن أن تغشى:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]

ولو حاولنا تدبر ذلك لوجدنا أن التكليف يقع على من لديه قلب يعقل وآذان تسمع حتى لو كان لا يبصر بعينيه (كالأعمى مثلاً)، لأن إعاقة البصر لا تعيق التدبّر، ولكن من ليس له أذنين يسمع بهما فهو يصبح أصم أبكم لا يستطيع تدبر المعلومة، وكذلك من كان قلبه مختوماً (أو مغلفاً بالأكنة) فيصبح كما الأصم الأبكم الذي لا يعقل، أو بكلمات أكثر دقة، فهو يصبح كالأنعام:

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]

أو كنوع من الدواب:

- ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: 22-23]

وستكون النتيجة على هؤلاء الدواب أنهم لا يؤمنون:

- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: 55]

نتيجة وافتراء: إن طرق الوصول إلى الإيمان هما طريقان: السمع والقلب فقط.

لذا حتى يتم تعقل هذا القرآن لابد من أن يدخل للإنسان بالسمع عن طريق أذنيه ولا بد أن يتدبره بقلبه:

- ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: 1-5]

افتراء من عند أنفسنا: القرآن لا يرى وإنما يسمع بالأذنين ويعقل بالقلب (انظر مقالتنا تحت عنوان هل للغة العربية قدسية خاصة: جدلية الكتاب والقرآن)

دعاء: اللهم أسألك أن لا تختم على سمعي ولا على قلبي، رب أسألك أن تزيل الأكنة عن قلبي والوقر من أذني حتى أستطيع أن أعقل هذا القرآن:

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)

القلب والفؤاد

وهنا يبرز **السؤال** التالي: ما علاقة القلب بالفؤاد؟ فلقد بدأنا الحديث عن الفؤاد وانتهينا بالقلب، فكيف يمكن أن نفرّق بينهما؟

إنّ تدبّر الآية الكريمة التالية ربما يسعفنا في تسليط الضوء على التفريق بين القلب من جهة والفؤاد من جهة أخرى:

- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: 10]

فها هي أم موسى نفسها، وهذا نص القرآني يتحدث عن فؤاد أم موسى وعن قلب أم موسى في الآية نفسها، فكيف يمكن أن نفرق بين الإثنين؟

تساؤلات:

1. لماذا أصبح فؤاد أم موسى فارغاً؟
2. كيف أصبح فؤاد أم موسى فارغاً؟
3. لماذا ربط الله على قلبها؟
4. كيف ربط الله على قلبها؟
5. وما علاقة فؤاد أم موسى بقلبها؟

جواب: إننا نظن أن فؤاد أم موسى قد أصبح فارغاً بعد أن فعلت ما أوحى الله إليها في أمر رضيعها:

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: 7]

ولكن لمّا ألقت رضيعها في اليم وانتهى الأمر به في يد فرعون، أصبحت (أي في اليوم التالي) فارغة الفؤاد:

- ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10]

فكانت النتيجة أنها تحاول أن تبدي به (أي تظهر الخبر لشدة خوفها وحزنها على طفلها)، وهنا تتدخل القدرة الإلهية لتربط على قلبها، أليس كذلك؟

نتيجة وافتراء: إن أبسط ما يمكن أن يستنبط من هذا السياق القرآني هو أن القلب قد تدخل في آخر الحدث، فلقد كان هناك خوف وكان هناك حزن وكان هناك قبل هذا وذاك وحي من الله إلى أم موسى، ولكن عندما كاد ذلك الحزن وذلك الخوف (وربما ذلك الوحي) أن يظهرا، تدخلت القدرة الإلهية لتربط على قلبها.

افتراء: إننا نظن أنه لما كان القلب وهو أداة التعقل (أي أداة اتخاذ القرار) كان الفؤاد هو الوعاء الذي شمل الوحي والحزن والخوف. فالفؤاد هو الوعاء الذي تدخل إليه المعلومة ليتم معالجتها بالقلب بعد ذلك، فلا شك لدينا أن الله قد أوحى إلى أم موسى حسب نص الآية الكريمة نفسها:

- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: 7]

وهنا يبرز السؤال الذي لا مفر منه وهو: كيف كانت طريقة الوحي الذي جاء إلى أم موسى؟

جواب مفترى: إننا نظن أنه ما دام أن العلم قد جاء لأم موسى وحياً فلابد من الرؤيا، ولا شك لينا أن الذي يرى الوحي هو الفؤاد مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ [النجم: 11-12]

فالذي يرى الوحي هو – لا شك عندنا – الفؤاد. ولكن الذي يعالج المعلومة هو القلب. لذا عندما حاولت أم موسى أن تعالج المعلومة الموحاة إليها بقلبها (ولم تتوقف عن الوحي كما جاءها)، كادت أن تبدي به. وهنا فقط تدخلت القدرة الإلهية بأن تربط على قلبها لتصدها عن ما يمكن أن يخرجه قلبها مما في فؤادها. ولو دققنا التدبر في اللفظ نفسه، لربما احتجنا أن نطرح السؤال التالي: كيف يتم الربط على القلب؟ أو ما معنى أن يتم الربط على القلب:

- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: 11]
- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾ [الكهف: 13-14]
- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: 10]

فلا شك أن عملية الربط على القلب تأتي في آخر مراحل اتخاذ القرار، لذا يمكننا الخروج بالاستنباط المفترى التالي: تدخل المعلومة الموحاة من الله إلى الإنسان عن طريق الفؤاد وتخرج عن طريق القلب بعد أن يتدبرها.

لذا، عندما جاء الوحي إلى أم موسى، دخلت المعلومة الموحاة إلى فؤادها، وأخذ القلب يعالجها (ليعقلها)، فكانت شدة الخوف والحزن الذي رافق تلك المعلومة يدفع به لتخرج من فؤادها إلى عقلها دون تدبر كبير يعي نتائج ما يمكن أن تؤول إليه الأمور بعد ذلك، ولولا أن تدخلت القدرة الإلهية لخرج الخبر عن طريق قلبها، ولربما انتشر أمر الوحي الذي رأته أم موسى في فؤادها على الملأ، وعندها كان يمكن أن يحدث ما لا تتمناه المرأة وترجوه (وسنرى لاحقاً عندما نفرد مقالة خاصة لطفولة موسى هذه – إن أذن الله لنا بشيء من علمه – كيف أن أم موسى لم تطلع أحداً على خبر الرؤيا تلك).

إن جل ما يهمنا في نقاشنا هنا هو الظن بأن القلب والفؤاد هما كينونة عضوية واحدة داخل صدر الإنسان، يكون الفؤاد هو مدخلها والقلب هو مخرجها، فما يدخل عن طريق الفؤاد لا يمكن أن يخرج إلا من خلال القلب بعد أن يعقلها بالطريقة التي يريدها الإنسان نفسه، وبالتالي فذلك العضو في داخل صدر الإنسان هو عبارة عن جهاز بمدخل واحد وبمخرج واحد، فالفؤاد هو المدخل الذي تتراكم فيه المعلومات والعقل هو المخرج لتلك المعلومات بعد أن يعالجها.

سؤال: كيف يمكن أن تربط ذلك بتنزيل الكتاب وتفريق القرآن؟

جواب: لقد رأى محمد الكتاب بفؤاده:

- ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [النجم: 11-12]

فجاء الأمر الإلهي لمحمد أن يحكم بين الناس بما أراه الله:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء: 105]

افتراء من عند أنفسنا: الكتاب يرى بالفؤاد ويعقل بالقلب على غير القرآن الذي يسمع بالأذنين ويعقل بالقلب.

(دعاء: اللهم أسألك أن تجعلني ممن يرون آياتك فيعرفونها وممن يسمعون آياتك فيعقلونها)

ولم يكن تنزيل الكتاب والحكم بما يراه الرسول أمراً خاصاً بمحمد فقط، بل كانت تلك هي سنة الله في جميع رسله:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]
- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

فكان محمد يحكم بين الناس بالحق بما رأى من الكتاب، ولكن لمّا كان الناس لا يستطيعون أن يفهموا آيات الكتاب كما هي في نسختها الأصلية، ولما كان محمد لا يستطيع أن يري الناس آيات الكتاب كما رأها هو، كان لابد أن تخرج تلك الآيات من فؤاد محمد عن طريق قلبه بعد أن يعالجها، فخرجت قرآن يسمع بالأذنين ويعقل بالقلب.

2. طريقة العلم

السؤال: كيف نستطيع نحن أن نصل إلى ذلك العلم؟

جواب: لقد يسر الله القرآن للذكر:

- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: 17]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾ [طه: 113]
- ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠﴾ [الطلاق: 10]

ولو دققنا جيداً، لوجدنا أن الله الذي أنزل إلينا هذا الذكر كان قد أنزله إلى أنبياءه من قبل، فلقد جاء موسى وهارون كما جاء محمد نفسه:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: 48-50]

نتيجة: إن تدبر هذا القرآن بالطريقة الصحيحة (كما يجب) سيرشدنا بكل تأكيد إلى ذلك الذكر، وسنحاول – إن أذن الله لنا بشي من علمه – أن نثبت مثل هذا الزعم بالدليل العملي من كتاب الله.

وربما يمكننا أن نفتري القول أن لدينا الدليل بأن الله قد أذن لبعض عبادة بشيء من ذلك العلم، وليس أدل على ذلك من قصة صاحب موسى الذي رافقه موسى ليحدث له شيئاً من الذكر الذي من الله به على ذلك العبد الصالح:

- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: 70]

أسأل الله أن ينفذ قوله بمشيئته وارادته لي الإحاطة بشي من ذلك العلم، فادعوه بالقول "اللهم آتني رحمة من عندك وعلمني من لدنك علماً"، فأسأله تعالى أن أعلم منه ما لا تعلمون، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي اللّٰه لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الثالث عشر)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (13)؟

خلصنا في الجزء السابق أن القرآن الكريم يمكن تدبره بالسمع وبالقلب، بينما لابد من تدبر آيات الكتاب بالرؤيا والقلب، ففي حين أن القرآن يسمع ولا يرى فإن آيات الكتاب الحكيم يمكن رؤيتها بالفؤاد (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ)، وظننا أنّ الهدف من رحلة الإسراء التي انطلقنا منها في الأصل كانت لهدف رؤية الآيات:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

فلو كان الهدف هو سماع الآيات فقط، لربما استطاع محمد أن يسمع تلك الآيات من المكان الذي كان يتواجد فيه حينئذ وهو المسجد الحرام، ولكن لمّا كانّ الهدف هو الرؤيا (لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ)، لم يكن بدّاً من الانتقال لأن آيات الكتاب – نحن نفتري القول – يمكن أن ترى ولكن ليس من أي مكان شئت، فلابد من الوصول إلى مكان محدد بذاته لتتمكن من رؤيتها. فمن أراد رؤية الآيات عليه الانتقال إلى المكان المناسب الذي يتيح له رؤية تلك الآيات (وسنرى تبعات مثل هذا الافتراء في الحكمة من بعض التشريعات في العقائد كشعيرة الحج مثلاً، لنطرح حينها التساؤل التالي: لم يحتاج الناس إلى الذهاب إلى مكان محدد في الحج دون غيره؟ لم لا نستطيع أن نحج إلى أي مكان آخر؟).

خروج عن النص

لنستعين بجزء من قصة موسى مع ذلك العبد الصالح لتسليط الضوء بشكل أكثر دقة على ما نريد تقديمه خاصة افتراءنا الذي مفاده أن رؤية الآيات لا يمكن أن تتم من أي مكان وإنما من مكان محدد بذاته.

أما بعد،

ها هو موسى يطلب صحبة الرجل ليتعلم منه:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: 66]

وقد يظن البعض أن موسى يستطيع أن يكسب الخبرة من الرجل عندما يتبعه، لكننا نعتقد جازمين أن هناك ملاحظة غاية في الأهمية يجب التنبيه إليها وهي أن الرجل قد أخذ موسى وانطلق به، أليس كذلك؟

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: 71]

> سنتحدث في مقالاتنا الخاصة بقصة موسى لاحقاً – بحول الله وتوفيقه – عن سبب ركوبهم السفينة، طارحين السؤال التالي: لم بدأت رحلة موسى مع ذلك العبد الصالح في السفينة؟ فإلى أين كانا ذاهبين في تلك الرحلة البحرية؟

وهنا نبادر القارئ الكريم لنطرح عليه السؤال التالي: لم لم يعلّم الرجلُ موسى ما أراد وهم في المكان نفسه؟ لم أخذه وانطلق به؟ وهذا - لا شك - يقودنا إلى التساؤل الأكبر هو: إلى أين كان الرجل ينطلق بموسى؟

جواب: لو تدبرنا السياقات القرآنية الخاصة بلفظة "الانطلاق" لوجدنا أنها تدل على الدوام على أن الانطلاق يحدث إلى هدف وإلى مكان محدد بعينه:

- ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: 15]
- ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القلم: 21-24]
- ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات: 29-31]

إذن، إلى أين كان الرجل ينوي أن ينطلق (يذهب) بموسى؟

جواب: لو تدبرنا قول الرجل من بدايته وحاولنا ربطه بهذا السؤال، ربما يمكننا أن نخرج باستنباط ذات صلة وثيقة بالموضوع قيد الدراسة، فالرجل يقول لموسى منذ البداية ما يلي:

- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: 70]

إذن، الرجل يريد أن يحدث لموسى من ما سيرى من أمر الرجل في طريقه ذكرا، أليس كذلك؟ دقق – عزيزي القارئ – ملياً بما قاله الرجل خاصة إحداث الذكر (أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا).

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أنه مادام أن الرجل يريد أن يحدث لموسى من الأمر ذكرا، فلابد أن يأخذه إلى مكان معين ليستطيع موسى رؤية ذلك. فنحن نفتري القول بأن إحداث الذكر يتطلب رؤية الآيات. فالرجل كان منطلقاً بموسى إلى مكان محدد بذاته ليريه الآيات، ولكن لمّا لم يصبر موسى على صحبة الرجل، ولمّا لم تكن الرحلة قد وصلت إلى نهايتها التي كان من المفترض أن تصل إليه، اكتفى الرجل بتأويل (وليس إحداث الذكر) ما لم يستطع موسى الصبر عليه:

- ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: 78]

إننا نظن أنه لو صبر موسى على صحبة الرجل لانتهى بهم المطاف إلى مكان محدد بعينه بدليل أنهم كانوا قد انطلقوا في بداية الرحلة ليصلوا إليه في نهايتها، حيث يستطيع الرجل من هناك أن يحدث لموسى من

الأمر ذكرا بعد أن يريه الآيات، ولكن لمّا لم تنتهي الرحلة إلى المكان الذي كان من المفترض أن يصحب الرجل موسى إليه، لم يكن بالإمكان أن يحدث لموسى من الأمر ذكرا واكتفى بتأويل الأمور تأويلاً.

نتيجة وافتراء: إن رؤية الآيات لا يمكن أن تتم من أي مكان، فلابد من الوصول إلى مكان محدد بذاته لرؤيتها من هناك.

عودة على بدء

يميل الظن عندنا إلى الاعتقاد الجازم بأن انتقال محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في رحلة الإسراء، كان الهدف منه – كما تنص الآية الكريمة نفسها – أن يتمكن محمد من رؤية آيات الكتاب من هناك:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]

فلقد وصل محمد إلى ذلك المكان ورأى بفؤاده:

- ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [النجم: 10-12]

وتكررت الحادثة فرأى بأم عينه رؤيا البصر:

- ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: 13-18]

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

وهنا ننحرف بالنقاش في اتجاه جديد طارحين التساؤل التالي: هل أسرت "رحلة الإسراء" تلك محمدا؟

الجواب: نعم ولا (في الوقت نفسه).

ولكن كيف؟

جواب: لا شك أن تلك الرحلة قد أدخلت السرور على قلب محمد جزءاً من الوقت، فلقد رأى من آيات ربه الكبرى، ولكن ما هي إلا لحظات – نحن نفتري القول – حتى عاد محمد محزوناً مهموماً.

نعم، إننا نظن أنه بالرغم أن تلك الرحلة قد أسرت النبي عندما رأى بفؤاده آيات الكتاب، وعندما رأى من آيات ربه الكبرى ببصره، إلا أنها في الوقت ذاته أقلقته (لا بل) وسببت له الانزعاج وعدم الرضا.

ما الذي تقول يا رجل؟ أين الدليل على تخريصاتك هذه؟

جواب: إننا نجد عدم الرضا (وربما الحزن) في قلب محمد بسبب تلك الرحلة في قوله تعالى:

- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: 144]

رحلة الإسراء وقضية تغير القبلة

لقد صلّى محمد بأصحابه بعد أن عاد من رحلة الإسراء قسطاً من الزمن مولّياً وجهه قبلة الناس الأولى وهي بيت المقدس، ولا أظن أن السبب في ذلك كان عشوائياً، فتلك القبلة التي انتهت إليها رحلته في الإسراء هي المكان الوحيد على وجه الأرض التي يمكن للإنسان أن يوليها وجه حتى ذلك الوقت، ولكن لماذا؟ لماذا لم يولّ المسلمون وجههم في الصلاة إلى أي مكان مادام أن القاعدة الأساسية هي على نحو:

- ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: 115]

وهنا نطرح على من يصدّق قول السابقين في أن الرسول قد عرج إلى السماء بعد وصوله إلى بيت المقدس التساؤل التالي:

تقول الرواية أن الرسول قد صلّى إماماً بالأنبياء عندما وصل إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء، ثم تزيد الرواية نفسها أنه ما أن وصل إلى السماء السابعة حتى فرضت عليه الصلاة هناك، وهنا يأتي سؤالنا على النحو التالي:

كيف يكون النبي قد صلى قبل أن يعرج به والصلاة قد فرضت أصلاً (حسب الرواية نفسها) بعد أن عرج به؟ فما نوع الصلاة التي صلاها بإخوانه من الأنبياء.

ثم، ها هو يصعد السموات، الواحدة بعد الأخرى – كما تقول الرواية- وكان كلما وصل إلى واحدة من السموات وجد أحد إخوانه من الأنبياء، وهناك يبادر جبريل – كما تقول الرواية – بالسؤال عن ذلك النبي بالقول: من هذا يا جبريل؟ فيرد جبريل بالقول هذا أخوك موسى، وهذا أخوك إبراهيم، وهذا عيسى، وهذا.. الخ. وهنا يأتي سؤالنا الثاني على النحو التالي:

> ألم يصل النبي بهم في بيت المقدس قبل أن يصعد إلى السماء حسب الرواية؟ هل نسي من كان قد قابلهم قبل قليل؟ ألم يسأل عنهم عندما صلى بهم في بيت المقدس؟ لماذا انتظر حتى وجدهم قد سبقوه إلى السماء؟!
>
> ثم ها هي الصلاة تفرض خمسمئة صلاة، ويبقى الرسول ينتقل بين موسى والعرش ليطلب التخفيف بعد مشورة موسى حسب الرواية، فيا سبحان الله! هل موسى أكثر رأفة بالناس من ربهم؟ والأهم من ذلك أن النبي محمد يخجل أن يعود في رحلة أخرى بعد أن أصبحت خمس صلوات، إذن نحن نصلي خمس صلوات باليوم والليلة – حسب ما يمكن أن نفهمه من تلك الرواية- بسبب حياء النبي، فلو لم يخجل النبي من العودة ثانية – نحن نتساءل- هل كانت الصلاة ستصبح مرة واحدة في اليوم؟ وماذا لو عاد النبي مرة أخرى إلى ربه؟ وهل كان من الممكن أن تصبح مرة واحدة في الأسبوع (كما يفعل أهل الديانة النصرانية مثلاً) لو عاد مرتين؟ ألا تظنون – يا سادة- أن في هذا اتهام خطير لجوهر ركن مهم من أركان الدين ألا وهو ركن الصلاة الذي غالباً ما أفهمنا سادتنا وعلماؤنا بأنها عامود الدين!!!

جواب: نحن نعتقد أن تولية الوجه باتجاه المسجد الأقصى كان بسبب أنه المكان الوحيد الذي يمكن من عنده أن ترى آيات الله:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]

فكان المسجد الأقصى هو المكان الذي أسري بالنبي إليه ليرى من هناك آيات ربه، وكان هو المكان الذي ولى محمد وجهه إليه في صلاته يوم أن فرضت عليه. فنحن نجزم الاعتقاد أنه لو كانت آيات الله ترى من غير ذلك المكان، لما كان محمد يحتاج أصلاً أن يذهب في تلك الرحلة، ولربما تمت رؤية تلك الآيات من المكان الذي كان يتواجد فيه حينئذ وهو المسجد الحرام. ولربما لم يؤمر بتولية وجهه قبل المسجد الأقصى بحد ذاته. ولكن لما كانت رؤية الآيات لا يمكن أن تحدث إلا من ذلك المكان بعينه، أصبح لزاماً الانتقال بمحمد من المكان الذي كان يسكنه (المسجد الحرام) إلى المكان الذي يمكن فيه أن ترى آيات الله (المسجد الأقصى)، فولى وجهه قبل المسجد الأقصى لإدراكه أنه المكان الذي يجد فيه ربه.

توقف يا رجل، ما الذي تقوله، هل المسجد الأقصى هو المكان الذي وجد فيه ربه؟

جواب: نعم، هو المكان الذي ذهب إليه ليجد ربه هناك.

فلو تدبرنا قصة ميعاد الله موسى التي تطرقنا لها أكثر من مرة لوجدنا أن موسى يذهب إلى مكان محدد بعينه ليلاقي ربه فيه (انظر مقالاتنا السابقة أين حصلت مناداة الله نبيه موسى وأين كانت جنة آدم)، ولكننا سنحاول تأكيد ذلك الظن بدليل من قصة نبي الله إبراهيم التي سنتعرض لها بشيء من التفصيل بعد قليل.

أما بعد،

فها هو نبي الله إبراهيم يخرج من نار قومه العظيمة بعد أن أنجاه الله منها:

- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: 24]

ولكن لو تدبرنا ما قاله إبراهيم بعد تلك الحادثة لوجدنا ما يثبت صدق ظننا:

- ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: 97-99]

السؤال: ألم ينجي إبراهيم من النار؟ كيف إذن بإبراهيم يقول " إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى "؟ ألم يكن ربه عنده عندما أنجاه من النار؟ وإلى أين سيذهب إبراهيم ليجد ربه؟

جواب: عند تفحص تلك السياقات القرآنية نجد أن الرحلة قد حطّت بإبراهيم في الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: 68-71]

نعم، لقد أراد إبراهيم أن يذهب إلى ربه فوجد نفسه في الأرض ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ، وواعد الله موسى فوجد نفسه في ذات المكان، وأسرى بمحمد ليلاقي ربه فوجد نفسه في المكان نفسه، وسنجد لاحقاً أن مريم قد وضعت طفلها عيسى في ذات المكان، فكانت تلك هي الأرض ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ، وكانت هي المكان الأنسب أن يولّي الناس جميعاً وجوههم نحوه في صلاتهم.

لكن هنا يطرح السؤال التالي: لم لم يرض محمد عن تلك القبلة؟ ولم بقي يقلب وجهه في السماء باحثاً عن البديل؟

- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: 144]

جواب مفترى: يميل الظن عندنا إلى الاعتقاد اليقيني بأن رؤية الآيات بحد ذاتها قد أدخلت السرور على قلب محمد، ولكن تولية وجهه في الصلاة شطر المسجد الأقصى لم يكن هدفاً يرض محمدا، ولكن لماذا؟

جواب: لقد أيقن محمد بأن رؤية الآيات لا يمكن أن تتم إلا من هناك، وهذا – في رأينا – هو الأمر الذي أقلق النبي محمدا وسبب له عدم الرضا، لذا فقد عاد محمد – نحن نفتري القول – مهموماً محزوناً لإدراكه أن آيات الله لا يمكن أن ترى إلا من هناك، فكان لزاماً عليه أن يتوجه بصلاته (والمسلمين جميعاً من وراءه) شطر المسجد الأقصى، ولو بقي الحال على تلك الشاكلة، لكان لزاماً – نحن نفتري القول أيضاً – أن يشد المسلمون الرحال في الحج إلى هناك.

لذا، نحن نفتري الظن بأن محمد كان يعتقد أنه إن بقيت الحال على ما هي عليه فسيبقى هو وأمته (من وراءه) تابعين للأمم الأخرى التي سبقته، وما كان محمد سيكون أكثر من حلقة جديدة في السلسلة نفسها، أي لأصبح محمد (كما كان عيسى) امتداداً طبيعياً لتلك السلسلة، ولأصبح القرآن الذي جاء به محمد ليس أكثر من عهد آخر جديد لا يمكن أن ينفصل عن العهود التي سبقته (التوراة والإنجيل). ولكن لمّا كان محمد – في ظننا- يريد أن يستعيد حقه الذي سلب منه قسطاً طويلاً من الزمن، فقد بحث عن الاستقلال بأمته هذه عن موروث الأمم التي سبقته، فكان دعاءه في ختام صلاته يتمثل بما لا زلنا نردده على ألسنتنا في صلاتنا حتى يومنا هذا تحت مسمى الصلاة الإبراهيمية على النحو التالي:

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد

نعم، لم يكن محمد ليرض أن يبقى تابعاً لأمة إبراهيم (من اليهود والنصارى)، ولكنه أراد أن يكون أمة موازياً لها مستقلاً بذاته وبأمته.

فلقد كان إبراهيم بنفسه أمة:

- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: 120]

فكان محمد يريد أن يكافئ إبراهيم نفسه كأمة (اللهم صلي على محمد كما صليت على إبراهيم)، وجهد في أن تكون أمته مكافئة لأمة إبراهيم نفسها (اللهم صلي على آل محمد كما صليت على آل إبراهيم)، لا أن تكون فقط جزءاً من أمة إبراهيم كما اليهود أو كما النصارى، فاليهود ليسوا أكثر من طرف من أمة إبراهيم، والنصارى ليسوا أكثر من طرف ثاني لأمة إبراهيم نفسها، لكن محمد لم يكن ليرضى أن تكون أمته طرفاً ثالثاً في أمة إبراهيم تلك، ولكنه أرادها أن تكون أمة جديدة مكافئة (ولا تقل في الأهمية) عن الأمة الأصل وهي أمة إبراهيم نفسه.

نتيجة وافتراء: لقد زعمنا في الأجزاء السابقة أن رحلة الإسراء كانت مكافأة لمحمد في ملاقاة ربه بالضبط كما حصل لأخيه موسى في لقاءاته مع ربه، فلقد حصل محمد ما حصل عليه موسى في تلك اللقاءات (انظر

الجزء السابق)، ونحن نفتري الظن أيضاً أن ذلك لم يكن نهاية المطاف بل سنرى بعد قليل أن رحلة الإسراء ستمكّن محمد مما تمكّن منه إبراهيم، وليحصل محمد على ما حصل عليه إبراهيم نفسه.

الدليل

لقد خلصنا في نقاشنا في الأجزاء السابقة عند الافتراء بأن رحلة الإسراء كانت – في رأينا- سبباً في أن يستعيد محمد موروثه الديني والدنيوي، أما بخصوص ميراثه الديني فقد تحصل لمحمد ذلك في رحلة الإسراء – في رأينا- عندما عرضنا في الأجزاء السابقة كيف أن ميعاد الله لمحمد كان بالضبط يشبه ما حصل لأخيه موسى في ميعاده مع ربه ورؤية الآيات الكبرى. فهما النبيّان الكريمان اللذان رءا آيات ربهم الكبرى:

موسى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: 23-24]

محمد: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: 13-18]

فلقد ذهب محمد في رحلة الإسراء إلى نفس المكان الذي تمت فيه مواعدة الله نبيه موسى، وقد نزل الله بذاته لملاقاة نبيه بالضبط كما حصل في حالة موسى، (ولم يكن هناك معراج كما حاول أهل العلم والدراية أن يفهمونا – انظر الأجزاء السابقة)، ولكن كان هناك على الأقل اختلافان رئيسان بين لقاء الله نبيه محمد ولقاء الله نبيه موسى وهما:

1. أن محمد لم يطلب الرؤيا المباشرة للذات الإلهية وذلك لخبرته بما حصل في حالة موسى، فلم تحصل الصاعقة في لقاء الله نبيه محمد كما حصلت يوم أن تجلى الله للجبل في لقاءه مع نبيه موسى.
2. عاد محمد يحمل في فؤاده (وقد رأى ببصره) من الآيات التي لا تقل عن تلك التي حصل عليها موسى. وفي حين أن الله قد كتب لموسى في الألواح:

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]

فلقد علّم الله محمدا فقذف ذلك العلم في صدره:

- ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [الأعراف: 2]
- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: 12]

- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 1-4]

فلم يكن محمد يعرف القراءة والكتابة كما كان موسى، فعاد يحمل في صدره ما عاد يحمله موسى بين يديه.

وهنا نوجه انتباه القارئ الكريم إلى مسألة تتعلق بما طرحناه سابقاً عما حصل عليه موسى بخصوص الألواح، فالله يقول أنه قد كتب لموسى في الألواح موعظة وتفصيلاً لكل شي:

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ۝١٤٥﴾ [الأعراف: 145]

السؤال: مادام أن الله قد كتب لموسى في الألواح تفصيلاً لكل شيء، ف ألا تظن – عزيزي القارئ- أن كل سفن الأرض وطائرات شحنها وسيارات النقل فيها لن تستطيع أن تحمل تلك الألواح مادام أن الله قد كتب فيها لموسى من كل شيء؟ فكيف إذن يعود موسى يحملها بين يديه؟

- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

إننا نظن أن الذي كتبه الله لموسى في الألواح هو الكتاب (وهو نفسه الذي عاد به محمد يحمله في صدره)، فاقرأ قوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝١٥٤﴾ [الأنعام: 154]

نعم، هو الكتاب الذي يكون فيه كل شيء، ولكن الفرق بين ما جاء به موسى وما جاء به محمد هو الطريقة، ففي حين أن موسى كان يقرأ ويكتب لذا كتب الله له في الألواح، ولكن لما كان محمد لا يعرف القراءة والكتابة عاد بذلك العلم محمولاً في صدره.

ولو دققنا أكثر في الآية نفسها لوجدنا أن الله يقول " وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ "، فما كتب الله لموسى كان خاصاً بموسى لا يستطيع أحد غيره أن يفهمه، لذا عندما ألقى الألواح لم نجد أن أحداً غير موسى قد حملها، فبقيت كذلك حتى سكت عن موسى الغضب وعاد ليحملها بنفسه، ولكن ما استطاع القوم أن يفهموه هو نسختها (التوراة بلسان قوم موسى) وليس الألواح نفسها:

- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: 154]

فلقد جاء محمد بالذكر الذي يمكنه من تبيان آيات ربه التي رأها في لقاءه مع ربه بلسان قومه بالضبط كما حصل مع موسى، فكان القرآن لمحمد وكانت التوراة لموسى (تفصيلاً للكتاب)، ولو حاولنا عقد مقارنة بين محمد من جهة وموسى من جهة أخرى لوجدنا التطابق العجيب على النحو التالي:

محمد	موسى
1. الكتاب	1. الكتاب
2. الذكر	2. الذكر
3. الفرقان	3. الفرقان
4. الآيات	4. الآيات
5. القرآن	5. التوراة

وباختصار، يمكننا القول أن محمدا حصل بالضبط على ما حصل موسى عليه في لقاءه مع ربه من ذي قبل. وهنا يجدر إعادة التأكيد على نقطة أثرناها في الأجزاء السابقة وهي على الرغم أن موسى قد استخدم بعض آيات ربه المرئية (العصا واليد).

لكن يجب أن لا ننسى أن موسى قد كان يقدم الآيات لقوم فرعون لتكون سبباً في هلاكهم إن هم كذبوها.

لم يستخدم محمد مثل تلك الآيات ليقينه بسوء العاقبة، فلقد آثر محمد أن لا يقدّم لأمته من الآيات المرئية ما يمكن أن تسبب لهم الهلاك في نهاية المطاف وهو على علم بأن أمته (كما الأمم السابقة) لن تصدق تلك الآيات وستستهزئ بها كما فعلت الأمم السابقة وعندها ستكون العاقبة وخيمة. فالرسول عندما يرسل من ربه يكون بشيراً ونذيرا، بشيراً بالخير ونذيراً لهم من العقاب، لقد آثر محمد أن يبقى بشيراً فلا يضطر أن يصبح نذيرا.

أما وقد حصل محمد على حقه في موروثه الديني، فهل حصل على حقه في موروثه الدنيوي؟

جواب: كلا، لم يكن ذلك ليرضي محمدا تمام الرضا، فبقي يقلب وجهه في السماء ما دام أنه لا زال تابعاً لغيره من الأمم في قبلته التي يولّي إليها وجهه، وكان يخشى أن تضيع هوية هذه الأمة في تراث غيرها من الأمم، لذا أراد محمد أن يسترجع حقاً سلب منه منذ زمن، حق أخذ منه يوم أن فصل إبراهيم إسماعيل عن أخيه

إسحق، حقاً أعطى الأولوية والأهمية لذاك الفرع الذي خرج منه بنو إسرائيل (فرع إسحق)، وظنوا أنهم هم شعب الله المختار.

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم القول أن محمداً لم يكن ليرضى أن يأخذ ما أخذ موسى وكفى، ولكنه أراد أن يأخذ ما أخذ إبراهيم نفسه.

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

إبراهيم: العلاقة بين بيت المقدس والبيت الحرام

لا شك لدينا أن إبراهيم قد ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى يوم أن فصل بين امرأته القديمة سارة وطفله الثاني إسحق من جهة وامرأته الجديدة وطفله الأول إسماعيل من جهة أخرى:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وكان الرجل يتنقل كما تظهر السياقات القرآنية بين بيت المقدس والبيت الحرام، فلقد أسكن إبراهيم امرأته الثانية (الشابة) هاجر مع طفلها إسماعيل في ذلك الواد غير ذي الزرع عند بيت الله الحرام، وقفل عائداً إلى امرأته الأولى سارة (العجوز) وطفلها إسحق، وربما يجد بعض الناس أن في تصرف الرجل بعض القسوة على الزوجة الشابة وطفلها إسماعيل، ليطرح السؤال عن الحكمة في أن يترك إبراهيم امرأته وطفله في ذلك الواد المقفر ليقفل راجعاً إلى امرأته العجوز وابنها إسحق. وقد حاولنا في أجزاء سابقة تفصيل السبب عن مثل هذا التصرف الذي أقدم عليه إبراهيم من تلقاء نفسه وليس بأمر رباني، فإبراهيم هو من يقول أنه قد أسكن من ذريته في ذلك الواد:

- رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

وقد كانت إقامة الصلاة دافعاً رئيسيا لتصرف إبراهيم ذلك؟ وهنا يطرح السؤال التالي: ألا تقام الصلاة إلا في هذا المكان؟ ألا يمكن أن تقام الصلاة في المكان نفسه الذي تسكنه امرأته العجوز سارة مع طفلها إسحق؟

رأينا: لقد تحدثنا سابقاً أن إبراهيم فض الخلاف بين نساءه (وذريته من بعده) في وراثة الأرض، فاختار لكل طرف منهم المكان الذي يقيم فيه الصلاة، فاختار لإسحق (وذريته من بعده) بيت المقدس، واختار لإسماعيل (وذريته من بعده) البيت الحرام. وهما المكانان على وجه الأرض اللذان تقام فيهما الصلاة (بمعنى تولية الوجه). فالأول هو الأرض التي بارك الله فيها للعالمين:

- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء: 71]

والثانية هي أول بيت وضع للناس:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران: 96]

وهنا يطرح **السؤال** مرة أخرى: لماذا هذان المكانان على وجه التحديد؟

رأينا: لقد تحدثنا في أجزاء سابقة أنها الرحلة نفسها التي سلكها آدم وزوجه يوم أن أخرجهما الشيطان من الجنة، فلقد سكن آدم وزوجه الجنة على الأرض في الأرض التي باركنا فيها للعالمين (انظر مقالتنا أين كانت جنة آدم؟) وأمر بالهبوط منها بعد أن أخرجهما الشيطان منها، فنزل إلى ذلك الواد غير ذي الزرع، فكان هناك أول بيت وضع للناس. وقد افترينا القول أن آدم عندما كان في الجنة لم يكن بحاجة إلى مسكن يؤويه وزوجه، لأن سؤاتهما (أي أجسادهم) لم تكن بادية بعد، فلم يكن هناك جوع ولا عري ولا ظمأ ولا ضحى:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: 117-119]

ولكن الشقاء حلّ بآدم وزوجه يوم أن بدت لهما سؤاتهما وأمر بالهبوط إلى المكان حيث الجوع والعري والظمأ والضحى:

- بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

ولما كان آدم لا يعرف كيف يؤوي نفسه وزوجه من تقلبات عوامل الطقس، فقد افترينا الظن أن الله قد أنعم عليهم بأن وضع لهما هناك البيت وضعاً:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران: 96]

افتراء دون دليل: أعتقد أن الاسم "بكة" قد جاء من فعل البكاء، فلا شك أن آدم وزوجه قد بكوا كثيراً يوم حط بهم الترحال في ذاك الواد غير ذي الزرع، نادمين على ما تركوا وراءهم من الجنان:

- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤﴾ [الأعراف: 23-24]

فكانت العداوة الأولى قد نشبت بين ابني آدم، فقتل الأخ أخاه لا لشيء وإنما لصراع بينهما (وسنتعرض لماهية هذا الصراع بعد قليل)

فالبيت وضع وضعاً ولم يبنى بناء حتى عاد إبراهيم ليرفع قواعده من جديد:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: 127]

نتيجة وافتراء: نحن نظن أن إبراهيم قد اختار هذا المكان لأنه المكان الذي عاش فيه آدم وزوجه يوم أن هبطا من الجنة (بيت المقدس). فلقد عاد إبراهيم في رحلته تلك ليسير على خطى الأب الأول آدم، فكان لإبراهيم ولدان إسماعيل وإسحق كما كان لآدم ولدان (وسنرى لاحقاً من هم ولدا آدم بالأسم).

ولما كان إبراهيم لا يرضى أن تنتهي الحال بولديه كما انتهى الحال بولدي آدم:

- ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٢٨ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: 27-30]

كانت حكمة إبراهيم تكمن في أن لا يبقى الولدان في المكان نفسه معاً، (ربما لظنه أن نهايتهما ربما تكون مشابهة لنهاية ابني آدم)، فأقدم على قسمة بيته (كما الحال بالنسبة للعنكبوت أو للنحل، انظر الأجزاء السابقة) وبالتالي قسمة الأرض بينهما: أحدهما يسكن بيت المقدس والآخر يسكن البيت الحرام ببكة. وسنرى بعد قليل أن إبراهيم قد سار في رحلته تلك على خطى الرحلة الأولى لآدم وزوجه، ولكن لابد من طرح عدة تساؤلات قبل المضي قدماً في النقاش.

1. كيف عرف إبراهيم ذلك المكان "البيت الحرام" وهو أصلاً قادم من الشرق؟
2. كيف استطاع إبراهيم أن يصل إلى ذلك المكان؟
3. كيف كان إبراهيم يتنقل بين المكانين وهو في ذلك السن (الشيخوخة)؟
4. كيف طوعت لإبراهيم نفسه أن يترك امرأته وطفلها لوحدهما في ذلك المكان المقفر؟
5. لماذا اختار إبراهيم أن يسير على خطى آدم؟
6. من هم ابني آدم اللذان آثر إبراهيم أن لا تتكرر قصتهما في حالة ولديه إسماعيل وإسحق؟
7. ما علاقة ذلك برحلة الإسراء والمعراج؟
8. ما علاقة ذلك بتغير القبلة؟
9. ما علاقة ذلك باستقلالية أمة محمد؟

10.الخ.

أما بعد،

لا أظن أن إبراهيم قد ترك امرأته وطفلها في ذلك الواد مرة وللأبد، فنحن نعلم أن الرجل – بنص القرآن- يعود أكثر من مرة ليتفقد امرأته وطفلها في ذاك الواد غير ذي الزرع، وما أن يكبر الطفل حتى يقوم الشيخ الكبير برفع القواعد من البيت مع ولده الشاب إسماعيل:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

وما أن يبلغ معه السعي حتى يخبره بتلك الرؤيا:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

> لابد من الإشارة هنا إلى أنه في حين أن القرآن الكريم يذكر إسماعيل باسمه في حالة رفع القواعد من البيت، لكنه لا يذكره باسمه في قصة الذبح، ولقد سببت هذه القضية أحدى نقاط الاختلاف بين الفكر الديني الإسلامي والفكر اليهودي، ففي حين أننا نحن المسلمين نظن أن إسماعيل هو من قدّمه والده للذبح يرى اليهود أن الذبح كان من نصيب إسحق. وسنحاول في مقالة مستقلة – إن أذن الله لنا بشيء من علمه أن نخوض في تفاصيل هذه القضية، علنا نخرج بأفهام ذات دلالة لا تكون مدفوعة الشوفانية المتمركزة حول حب الذات، ولكن بالعلم النافع الذي يجلي الحقائق كما هي. أسأل الله ربي أن يعلمني منه ما لا تعلمون.

استفسار غريب

في ضوء ما سبق، لا نستطيع أن نمضي قدماً في النقاش قبل أن نطرح سؤالاً غاية في الغرابة لا أظن أن أهل العلم والدراية قد طرحوه كثيراً، ألا وهو: كيف كان إبراهيم (وهو شيخ كبير) يستطيع أن يقطع كل تلك المسافة بين بيت المقدس والبيت الحرام ذهاباً وإياباً؟

جواب: لا أظن أن حجوزات الدرجة الأولى (أو رجال الأعمال أو VIP) على متن الخطوط الجوية الأردنية أو السعودية أو الإماراتية أو حتى القطرية (مع ذلك الطاقم الجميل من المضيفين والمضيفات ذوات العيون الزرقاء والعيون الخضراء والقوام الرشيق والطول الفارع من بنات الصحراء) قد بدأت بعد، ولا أظن كذلك أن التطبيع مع الكيان الصهيوني قد وصل بعد إلى درجة أن شركة طيران العال الإسرائيلية قد بدأت تشغيل رحلاتها إلى الديار المقدسة آنذاك.

والحالة هذه، كيف كنت تتنقل يا إبراهيم بين الشمال والجنوب في موسم هجرتك إلى الجنوب؟!
لنتأمل الخريطة الجغرافية جيداً:



تقدر المسافة بين المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في القدس بحوالي: 1235.82 كيلومتر كخط مستقيم، ولو أخذنا تعرجات الطريق بالنسبة للمسافر على راحلته أو على قدميه لربما زادت تلك المسافة أكثر من ذلك، وهنا نطرح سؤالنا نفسه: كيف كان يستطيع إبراهيم أن يقطع كل تلك المسافة وهو قد بلغ من العمر الشيخوخة، فلا ننسى أن إبراهيم قد رزق بإسحق أصلاً وهو شيخ كبير:

- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 72]

لاحظ التناوب اللفظي بين مفردتي عجوز (خاصة بالنساء) و شيخ (خاصة بالرجال).

وكان قد رزق بإسماعيل من ذي قبل "على الكبر" بنص القرآن حسب قول إبراهيم نفسه:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

وسيقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر لا يقل أهمية عن سابقه وهو: كيف تعرّف إبراهيم إلى ذلك المكان وهو الذي كان يسكن أصلاً بلاد الشرق (بلاد الرافدين) كما تقول الروايات؟ (انظر مقالتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات للغوص في تفاصيل مواطن الرسل).

رأينا: غالباً ما يغلف علماؤنا الأجلاء مثل هذه الأسئلة بالطابع العقائدي الغيبي، أي يفسرون ذلك بربطه بإبراهيم النبي وليس إبراهيم الإنسان، فيجعلون ذلك ويكأنه جزء من رسالة الرسول التي تميزها العقائد التي قد لا تبرر جميع تفاصيلها – حسب ظنهم- بطريقة التفكير المادي المجرد، ولكننا لا نعدم الحيلة أن نطرح

عليهم السؤال بطريقة جديدة: كيف كان إبراهيم النبي الرسول يتنقل بين بيت المقدس والبيت الحرام وهو في ذلك العمر؟ هل كان يتنقل كإنسان عادي بالطريقة التقليدية أم كنبي يمتلك من التأييد الرباني ما لا يمتلكه الإنسان العادي؟ وفي كلا الحالتين، كيف يمكن أن نفهم ما كان يقوم به الرجل حتى يصل إلى ذلك المكان بالرغم من البعد الجغرافي الهائل بين المكانين وبالرغم من تقدم العمر بالرجل؟

رأينا: إننا نظن أنه للإجابة على هذا التساؤل فإننا بحاجة أن نعود إلى قصة إبراهيم الأولى بما فيها هجراته من مكان إلى مكان.

فلقد كانت هجرة إبراهيم الأولى بدأت من أرض العراق إلى الأرض التي بارك الله فيها:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]
- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]

فلقد كانت هجرة إبراهيم الأولى إلى الأرض المباركة، وقد حصل ذلك بعد أن ألقاه قومه في النار:

- ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 98-99]

السؤال: كيف هاجر إبراهيم من أرض العراق إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين؟

جواب: لقد كان الرجل في ربيع شبابه، وقد كان وحيداً قادراً على تحمل أعباء السفر، ولم يكن تحت ضغط السرعة والحاجة، فلقد كان هدف هجرته هو أن يذهب إلى ربه:

- ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 98-99]

ولو تدبرنا هذا السياق القرآني جيداً لوجدنا أن إبراهيم ما أن خرج من نار قومه حتى قال " وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ "، وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: أين كان رب إبراهيم عندما خرج إبراهيم من النار حتى يقول إبراهيم أنه ذاهب إليه؟ ألم يكن معه عندما خرج من النار؟ ألم ينجيه الله من النار للتو؟ وكيف ذهب إليه؟ ما هي الوسيلة التي استخدمها حتى يصل إلى ربه (حيث حط به المقام في الأرض التي باركنا فيها للعالمين)؟

تقودنا مثل هذه التساؤلات فوراً إلى سؤال آخر لا يقل أهمية عن سابقة وهو: كيف خرج إبراهيم من الجحيم الذي ألقي فيه؟

نار إبراهيم

لابد من تدبر حادثة النار التي ألقي فيها إبراهيم بشي من التفصيل، فإبراهيم يدعو قومه لعبادة الله الواحد الأحد لكنهم يصروا على عبادة الحجارة التي لا تسمع، فيقوم بتدبير المكيدة لأصنامهم:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

فيقوم بتكسير (تجذيذ) تلك الأصنام، فيجعلهم جذاذا إلا كبيرهم:

- ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾ [الأنبياء: 58]

فعندما يرى القوم ما حلّ بآلهتهم يسألوا عن الفاعل:

- ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩﴾ [الأنبياء: 59]

فينتهي الخبر إليهم أن إبراهيم هو من فعل ذلك:

- ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠﴾ [الأنبياء: 60]

فيكون قرارهم أن يأتوا بإبراهيم على أعين الناس ليشهدوا ما يفعل به:

- ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١﴾ [الأنبياء: 61]

فيذهب نفر منهم ليحظروا إبراهيم إلى مكان المحاكمة العلنية:

- ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ٩٤﴾ [الصافات: 94]

وما أن يحضر إبراهيم حتى يحصل حوار بين إبراهيم من جهة وقومه من جهة أخرى، حوار يظهر القوم ويكأنهم أهل عدل وأهل حجة:

- ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢﴾ [الأنبياء: 62]

ولمّا كان الله قد آتى إبراهيم حجته على قومه، كانت الغلبة بالحجة والحوار لإبراهيم على قومه:

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

وكاد القوم أن يصدّقوا دعوة إبراهيم (لما أقام عليهم الحجة التي تبين عجز آلهتهم):

- ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾ [الأنبياء: 64]

لولا تلك الشرذمة من علّية القوم اللذين لا يمكن أن يصدّقوا إبراهيم ربما ليس تكذيباً لدعوة الرجل وإنما (في رأينا) حفاظاً على مصالحهم، فكانت النتيجة أن نكسوا على رؤوسهم:

- ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾ [الأنبياء: 65]

فما يكون عندها من إبراهيم إلا أن يسفههم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله:

- ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [الأنبياء: 66-67]

وهنا تحصل المفارقة العجيبة أنهم اتخذوا القرار بحرق إبراهيم

- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: 68]

وهنا يأتي السؤال على الفور على النحو التالي: لم كان قرارهم يقضي بحرق إبراهيم؟ لم كانت العقوبة هي الحرق على وجه التحديد؟

رأينا: نحن نظن أن عقوبة الحريق لم تكن بسبب شتم إبراهيم آلهة القوم، ولكنها جاءت – في رأينا- لأن إبراهيم تطاول على القوم أنفسهم خاصة علية القوم منهم، فعلْية القوم يحاولون أن يثأروا لأنفسهم ولكن باسم الدين (بالضبط كما يفعل أهل السياسة والمتكسبون من أهل الدين عندما يخرج عليهم من الناس من يعريهم ويظهر زيف عقائدهم، فما يكون منهم إلا أن ينصبوا له المحاكم الدينية التي تتخذ القرارات باسم حماية الدين ورب الدين، ولا أعتقد أن أنسانا عاقلا يفعل ذلك إلا لعلمه بأن الإله الذي يعبده لا يستطيع أن يدافع عن نفسه كآلهة قوم إبراهيم، فيقوموا هم بمهمة نصر ألهتهم التي لا تنصر نفسها، فلو كانت عقيدتهم – نحن نزعم الظن- متمثلة بأن ربهم قادر على نصرة نفسه، لما لجأوا إلى الدفاع عنه بالاعتداء على أهل الرأي ومن يخالفهم العقائد). ولكن أين الدليل؟

لو تدبرنا الحوار الذي جرى بين إبراهيم من جهة وأبيه من جهة أخرى، لوجدنا أن الرجم (وليس الحرق) هو عقوبة من يخالف العقيدة السائدة آنذاك، فالأب يتوعد ولده بالرجم بسبب خروج إبراهيم عن عقيدته:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]

فعقوبة من يخرج عن دين آباءه كانت الرجم وليس الحرق، وقد كانت هذه العقوبة معروفة ليس فقط في شريعة قوم إبراهيم وإنما في شرائع من سبقهم من الأمم:

- ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: 116]
- ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ [يس: 16-18]

لكن الوضع الآن في حالة إبراهيم قد تجاوز "النّيل" من الشرائع، فإبراهيم "يتطاول" عليهم أنفسهم وعلى آلهتهم معاً (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)، فكان لزاماً تغليظ العقوبة عليه، ربما ليكون رادعاً له ولكل من تسول له نفسه أن يتجرأ على سادة القوم، فكان القرار بالحرق (وليس الرجم) هو ما انتهت إليه محاكمة إبراهيم على الملأ:

- ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: 68]

وهنا تتدخل القدرة الإلهية لتنقذ إبراهيم من النار:

- ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: 69]

وهنا نجد لزاماً علينا أن نتوقف لطرح جملة من التساؤلات حول هذه الحادثة:

1. كيف تم إلقاء إبراهيم في النار؟
2. كيف نجى إبراهيم من النار؟
3. كيف خرج إبراهيم من الجحيم؟

إلقاء إبراهيم في النار

عند تدبر ما جاء في كتاب الله حول كيفية إلقاء إبراهيم في النار، وجدنا السياق القرآني التالي:

- ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: 97]

وعند محاولتنا تدبر هذه الآية الكريمة، وجدنا أننا بحاجة أن نقف عند الألفاظ لنفهمها جيداً، فهناك البناء (ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا) وهناك الإلقاء (فَأَلْقُوهُ) وهناك الجحيم (فِي الْجَحِيمِ)، أليس كذلك؟

سؤال: كيف يمكن تصوير المشهد بناء على هذه المفردات الواردة في النص القرآني؟

أولاً، إن وجود عبارة (ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا) تدلنا – ربما بما لا يدع مجالاً للشك – أن القوم قد قاموا ببناء بنيان خاص ليتم إلقاء إبراهيم من فوقه في الجحيم، فيكون إبراهيم قد ألقي من أعلى البنيان إلى أسفل الجحيم. ولو تدبرنا مفردة البنيان لوجدنا أنها عبارة عن لبنات يشد بعضها بعضاً:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: 4]

ولا شك أنها تتصف بدرجات من المتانة:

- ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٩﴾ [التوبة: 109]

ولا شك أنه فعل يستطيع الناس القيام به، فهو من صناعة القوم أنفسهم:

- ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١١٠﴾ [التوبة: 110]

ولا شك أن ما يهمنا هنا هو ارتفاع البنيان حتى يصل إلى السقف:

- ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾ [النحل: 26]

ولا شك أنه بناء قائم بذاته:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾ [الكهف: 21]

إن ما يهمنا قوله هنا فيما يخص البنيان الذي بنوه لإبراهيم هو الظن أنه بناء مرتفع قائم بذاته منفصل عن الحجيم التي سيلقونه فيها:

- ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧﴾ [الصافات: 97]

ولو تدبرنا مفردة الإلقاء لوجدنا أنها حركة تتم من أعلى إلى أسفل بشكل قوسي، فها هو موسى يلقي عصاه، وها هم السحرة يلقون حبالهم وعصيهم، وها هم الكافرون يلقون في النار:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ [فصلت: 40]

نتيجة وافتراء: فمن يلقى من فوق البنيان إلى أسفل لا ينزل بشكل مستقيم ولكن بشكل قوسي يتناسب طردياً مع ارتفاع البنيان، فكلما ارتفع البنيان زادت المسافة التي سيحط بها الجسم الملقى من فوقه إلى الأسفل، فيبتعد الجسم الملقى من فوق البنيان عن البنيان نفسه بمقدار ارتفاع البنيان فوق الأرض:



k6848442 www.fotosearch.com

وهذا يدلّنا على أن البنيان الذي بنوه لإبراهيم لم يكن ملاصقاً للجحيم التي سيلقونها بها، وفي هذا تصور طبيعي لأن النار ستكون في تلك اللحظة مشتعلة، فمن الطبيعي إذن أن يكون البنيان الذي سيلقون بإبراهيم من فوقه بعيداً عن ألسنة اللهب، فنفر من القوم سيكونوا متواجدين فوق البنيان ليقوموا هم بأنفسهم بإلقاء إبراهيم في الجحيم (فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ)، إذن لابد أنهم قد حسبوا الأمر بطريقة تجعلهم أنفسهم في مأمن من ألسنة النار، وربما يرشدنا هذا إلى الظن أن يكون البنيان مرتفعا جداً ليحط إبراهيم في سواء الجحيم، فما هو الجحيم؟

لا شك لينا أن الجحيم ليست النار، ولكنها المكان المنخفض الذي تشتعل في داخله النار، فالجحيم – في تصورنا – هو وعاء النار، ولكن لابد أن يكون مكانا منخفضا كالحفرة (أو الوادي)، ولو تدبرنا سياقات الجحيم في النص القرآني لوجدنا أن الجحيم هو عبارة عن مكان:

- ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: 23]

ولا شك أنه مكان منخفض:

- ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: 55]

ولما كانت الجنة تزلف كانت الجحيم تبرّز، والبروز لا يكون إلا لشيء منخفض يتم رفعه إلى أعلى:

- ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: 90-91]
- ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: 36]

والجحيم يمكن أن تسعر بازدياد كمية اللهب فيها:

- ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ [التكوير: 12-13]

وليس أدل على انخفاض الجحيم مما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤﴾ [الصافات: 64]

نتيجة: القوم إذن سيلقون بإبراهيم بالجحيم.

وهنا يأتي الأمر الإلهي للنار (وليس الجحيم) أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم:

- ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

نتيجة وافتراء: إننا نظن أن القوم قاموا بتشييد بناء مرتفع جداً يلقوا بإبراهيم من فوقه، وقاموا – في الوقت ذاته – بحفر ما يشبه الوادي (أو أن ذلك الواد كان أصلاً موجودا في جغرافية المنطقة ذاتها) ليكون هو الجحيم الذي سيستقر فيه إبراهيم بعد أن يلقوه فيه من فوق البنيان الذي بنوه على شفا تلك الحفرة، وقاموا بإشعال نار عظيمة في ذلك الوادي (الجحيم) أو أنها أصلاً كانت مشتعلة على الدوام هناك (كأن تكون بركاناً نارياً مثلاً)، وحملوا إبراهيم إلى أعلى البنيان، وألقوا به من أعلى البنيان إلى سواء الجحيم.

وهذا التصور يثير حفيظتنا في طرح الأسئلة حول ما حلّ بإبراهيم جراء ما فعل القوم به، فلو تدبرنا النص القرآني لوجدنا أن الأمر الإلهي جاء للنار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، أليس كذلك؟

- ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

فالنار إذاً لم تحرق إبراهيم لأن الله أمرها أن لا تفعل، لكن تبرز هنا عدة تساؤلات منها:

1. كيف خرج إبراهيم من الجحيم؟
2. ألم يصب إبراهيم بأذى بسبب إلقاءه من ذلك المكان المرتفع (البنيان) إلى ذلك المكان المنخفض (الجحيم)؟ ألم تتكسر عظام إبراهيم بسبب ذلك السقوط؟ ألم يتأذى جسم إبراهيم بسب الإلقاء من الأعلى إلى أسفل؟
3. كيف استطاع إبراهيم أن يخرج من تلك الحفرة التي سقط بها؟
4. ماذا حل بالقوم الذين ألقوه في الجحيم؟
5. ماذا حل بقوم إبراهيم بعد أن خرج إبراهيم من النار ويكأنه في نزهة؟

6. ألم تشكل تلك حجة دامغة على صدق إبراهيم؟
7. ألم يكن الأولى (ولو بنفر قليل منهم) أن يصدّقوا دعوة الرجل بعد أن رأوا منه هذا الأمر الذي لا يكاد العقل البشري أن يتحمله؟
8. الخ.

هذه أسئلة حاولنا البحث عن إجابات لها في بطون الكتب التقليدية فما وجدنا أنها قد طرحت أصلاً في أغلبها، ووجدنا أن من طرحها منهم غالباً ما غلّفها بالطابع العقائدي الغيبي الذي لا يقدّم التفسيرات بالأدلة، وإنما تخيلات مبنية على غيبيات مفتراة وظنون من عند بعض أهل العلم والدراية، أما نحن فقد جهدنا للوصول إلى تصورات ربما تكون مدعومة بالأدلة من كتاب الله، نسأل الله أن يهدينا إلى قول الحق فلا نفتري عليه الكذب، إنه نعم المولى ونعم النصير.

أما بعد،

سؤال: ما الذي حل بقوم إبراهيم بعد أن ألقوه من فوق ذلك البنيان في سواء الجحيم؟

إننا نظن أن الآية الكريمة التالية تصور ما لحق بهم من العذاب:

- ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: 26]

فهم القوم الذين خر عليهم السقف ولحق بهم العذاب، فهم القوم الذين مكروا لما أرادوا بإبراهيم كيداً، فجعلهم الله الأخسرين:

- ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: 69-70]

وهم الذين ألقوا إبراهيم في الجحيم، فجعلهم الله الأسفلين:

- ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: 97-98]

لذا نحن نفتري الظن أنه لو خرج إبراهيم من النار ولم يكن قد أصيب بأذى، لربما عاد إبراهيم إلى قومه ليتحداهم وليثبت لهم صدق دعواه، ونحن نفتري الظن أيضاً أنه لو بقي القوم على حالتهم دون أن يصيبهم العذاب، لربما شاهد الذين ألقوا إبراهيم في النار ما حل بإبراهيم، ولربما أصابهم الفزع والهلع من هول الصدمة، فهل يعقل أن يرى الناس إنساناً عادياً يلقى في نار عظيمة (مثل تلك النار التي أضرموها له) ويخرج منها دون أذى ولا يثير ذلك حفيظتهم؟ ألن يشكل ذلك دليلاً دامغاً على صدق دعواه؟ ألم يكن ذلك سيسبب التساؤل والحرج عند الكثيرين منهم خاصة وأن نفر منهم كادوا يصدّقوا الرجل عندما أقام عليهم الحجة في البداية

(فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)؟ ألم يكن ذلك سبباً كاف أن يؤمن لإبراهيم ولو نفر قليل من قومه؟ فلا أظن أن الموقف يمكن أن يختلف عندها عن ما حل بسحرة فرعون عندما رأوا الآيات على يد موسى، فلقد آمنوا لموسى متحدين فرعون نفسه الذي توعدهم بالتصليب والقتل.

فلو تدبرنا السياقات القرآنية في حالة إبراهيم لما وجدنا أنه قد صدّق دعوة إبراهيم وآمن له من قومه سوى لوط:

- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]

وأخال أن لوطاً قد آمن لإبراهيم وصدق دعوته قبل أن يقدموا على حرقه، لأن لوط هاجر إلى ربه لحظة أن آمن بدعوة إبراهيم:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

والحالة هذه، فإننا نفتري الظن أن إبراهيم لم يرجع إلى قومه بعد أن أنجاه الله من النار:

- ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 98-99]

افتراء من عند أنفسنا: لما لم يؤمن ويهاجر مع إبراهيم سوى لوط بالرغم من البرهان العملي (الآيات المبصرة) على صدق دعوة هذا النبي الكريم، فإننا نتجرأ على الزعم بأن قوم إبراهيم قد حاق بهم سوء مكرهم فكانوا هم الأسفلين بعد أن آتى الله بنيانهم من القواعد، فخر عليهم سقف بنيانهم الذي بنوه عندما أقدموا على إلقاء إبراهيم من فوقه في الجحيم.

وهنا يجب أن نتوقف للحظة للحديث عن الفرق بين هجرة إبراهيم إلى ربه بعد أن ألقاه قومه في سواء الجحيم واعتزاله قومه جميعاً بما فيهم أبيه بعد ذلك الحوار الشهير بين إبراهيم من جهة وأبيه من جهة أخرى:

- ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 42-48]

لنصل إلى ملاحظة ذات دلالة تخص العذاب الذي لحق بالقوم. فعند تدبر هذا السياق القرآني نجد من المناسب التنبيه إلى ملاحظتين اثنتين وهما (1) أن إبراهيم قد أعتزل القوم (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) ولكنه هجر والده على وجه الخصوص (وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا)، و (2) أن إبراهيم يحذر والده من احتمالية أن يمسه عذاب من الرحمن بسبب موقفه العقائدي ذاك (يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ)

نتيجة وافتراء: لقد هجر إبراهيم أباه فلم يعد يسكن في بيت والده، ولكنه أعتزل القوم ولم يهجرهم، فهو إذاً قد بقي في ديار قومه لكنه لا يخالطهم ولا يتعامل معهم، ونحن نظن أن هذا هو السبب الذي أدى بإبراهيم أن يصل إلى درجة السقم:

- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات: 88-90]

فإبراهيم يعتزل القوم ويبقى باحثاً عن ربه في النجوم، فيصيبه السقم، فيتولى القوم عنه مدبرين، فيبقى يعيش في ديار قومه بعيداً عن (هاجراً) بيت والده، معتزلاً قومه، فيحل به السقم.

افتراء: إننا نظن أن السقم يحل بالإنسان بسبب تجربة قاسية يمر فيها يكون خلالها وحيداً لا يتكلم مع الناس، فينقطع عن الطعام حتى يحل بجسده الهزل (أي السقم)، فها هو يونس يلتقمه الحوت، فيبقى وحيداً في بطن الحوت، وما أن يلفظه الحوت إلى اليابسة حتى يكون سقيماً (وحيداً جائعاً)، فينبت الله عليه شجرة من يقطين:

- ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات: 142-146]

> سنتحدث في مقالة قادمة – إن أذن الله لنا بشيء من علمه عن شجرة اليقطين هذه لنتحدى من سبقونا بأفهام حول هذه الشجرة، فلقد ظن كثير من الناس أن شجرة اليقطين هذه تشبه اليقطين الذي يعرفونه هم، فهم بذلك يرتكبون خطأ شنيعاً وهو ما نسميه نحن بإدخال المعرفة البشرية المغلوطة في النص الديني، فالناس يعرفوا تلك النبتة التي تسمى اليقطين، لذا عندما يقرؤون المفردة في النص القرآني يظنون أنها نفسها التي يعرفونها في حياتهم اليومية، وهنا تحصل الكارثة، فنحن نقول لمن ظن أن شجرة اليقطين التي أنبتها الله على يونس يوم أن قذف في العراء هي اليقطين الذي يعرفه الناس، هل هذا اليقطين الذي تعرفونه هو شجرة؟ وكيف سيستظل به الرجل بعد أن قذف في العراء؟ ألم يقل الله في كتابه أنه قد أنبت تلك الشجرة على الرجل " وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ"، ثم لم لم يقل الله أنه قد أنبت عليه شجرة يقطين لم قال عنها "شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ؟
> هذه التساؤلات وغيرها ستكون موضع نقاش في مقالة منفصلة عن صاحب الحوت بحول الله وتوفيقه.

فلقد حلّ بإبراهيم وهو معتزل قومه هاجراً أبيه ما حل بيونس وهو في بطن الحوت: إنه السقم، فهناك في الحالتين إنسان مؤمن باحث عن ربه بين قوم منكرون له، لا يتواصل معهم بالكلام ولا يأكل من طعامهم بسبب ظروفه القاسية فيحل به السقم، فما الذي فعله إبراهيم بعد أن حلّ به السقم؟

تخيلات من عند أنفسنا: يشعر إبراهيم بحاجته إلى الطعام، فيقوم بإحضار الطعام ويروغ إلى آلهة القوم، فيحصل المشهد التالي:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ٩٣﴾ [الصافات: 91-93]

نعم، كان ذلك ما يحتاجه إبراهيم في موقفه ذاك، يقدم لهم الطعام ليرى فعلهم (فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ)، ويحتاج إلى من يخاطبه بعد أن أعتزل القوم (مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ)، ولما كان إبراهيم قد وصل إلى يقين بأن هذه الآلهة لا تضر ولا تنفع، راغ عليهم ضرباً باليمين (فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ).

سؤال: لماذا قدّم لهم الطعام؟ ألم يكن يعلم إبراهيم أنهم لا يأكلون أصلاً؟ لم أحضر الطعام معه إلى ذلك المكان؟

جواب مفترى: نحن نظن أن إبراهيم كان قد وصل إلى درجة السقم بسبب (لنقل تجاوزاً) إضرابه عن الطعام بعد أن هجر أبيه واعتزل قومه؟

سؤال: لماذا ترك إبراهيم الطعام بعد أن اعتزل قومه؟

جواب مفترى: لقد كان إبراهيم مشغولاً بالبحث عن ربه.

سؤال: لماذا عاد إبراهيم إلى تناول الطعام في تلك الليلة بالتحديد؟

جواب مفترى: لقد اهتدى إبراهيم إلى ربه في تلك الليلة.

سؤال: كيف حصل ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن إبراهيم كان دائم البحث عن ربه، وفي واحدة من تلك الليالي حصل لإبراهيم ما كان يبحث عنه، ولنتدبر المشهد القرآني التالي من هذا المنظور:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ

أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 75-79]

فبعد أكثر من محاولة لإبراهيم ليهتدي إلى الحقيقة في تلك الليلة، اهتدى إبراهيم إلى النتيجة التالية: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ. ولم يكن ذلك ليحصل لإبراهيم لولا أنه كان قد جاء ربه بقلب سليم، فكان يبحث عن ربه بكل صدق وإخلاص:

- ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 84]

ولم يكن ذلك ليحصل لولا فضل الله على إبراهيم بأن أراه ملكوت السموات والأرض:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75]

نتيجة: لقد كان نتيجة تدبر إبراهيم وبحثه الطويل عن ربه بقلب سليم أن أراه الله ملكوت السموات والأرض فأصبح من الموقنين، لذا نحن نعتقد أنه ما أن رأى إبراهيم (بفضل ومنّة من ربه) ملكوت السموات والأرض حتى أصبح من الموقنين، فكان أول ما فعل أن ذهب إلى أبيه لينصحه بترك عبادة الأصنام وترك عبادة الشيطان:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 41-42]

وحاول إبراهيم إقناع أبيه بالحجة موضحاً له أنه قد جاءه من العلم ما لم يأتي أبيه:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 43-44]

وحذر والده من عاقبة الأمور إن هو لم يهتد إلى الطريق المستقيم:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 45]

فما يكون من أبيه إلا أن يرفض دعوة إبراهيم له، ويحذره من الاستمرار في هذه الطريق، لا بل ويطلب من إبراهيم أن يهجره:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]

ولما كان إبراهيم يعلم أن من حق الأب على ولده أن يصاحبه في الدنيا معروفا حتى وإن لم يتقبل الهداية، تأتي ردة فعل إبراهيم على تهديد والده على نحو ما يجب:

- ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم: 47]

وفي تلك اللحظة يقرر أن يعتزل القوم جميعاً:

- ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]

فيهجر إبراهيم أباه ويعتزل القوم جميعاً، وهنا نتوقف قليلاً لنحاول تدبر مفردة واحدة وردت في هذا السياق القرآني وهي مفردة الاعتزال "وَأَعْتَزِلُكُمْ" لنطرح السؤال التالي: ما معنى أن يعتزل إبراهيم قومه؟ أي لِمَ لَمْ يهجرهم كما هجر والده؟

جواب: عند ملاحقة هذه المفردة في السياقات القرآنية وجدنا أنها لا تعني بالضرورة مغادرة المكان، فقد تعتزل من حولك وأنت تسكن بين ظهرانيهم، فلنتدبر معنى المفردة في السياق القرآني التالي:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

فاعتزال النساء في المحيض لا يتطلب مغادرة المكان الذي تتواجد فيه تلك المرأة، وتكتفي بالكف عن جماعها في تلك الفترة، فينقطع الاتصال بينك وبينها للسبب الذي جعلك تعتزلها وهو المحيض، فأنت تبقى تكلّمها وتأكل معها، وتخالطها في كل شي إلا في الجماع، فأنت مأمور باعتزالها فقط في المحيض، فلو أنت اعتزلت عائلتك في الأكل مثلاً فأنت تكف عن الأكل معهم ولكنك قد لا تكف عن الحديث معهم، ولو اعتزلت عائلتك في المنام فأنت تكف عن النوم معهم، ولكن إن أنت اعتزلتهم بكل شيء فأنت تكف عن التعامل معهم في كل شيء حتى وإن بقيت متواجدا بين ظهرانيهم. ولو تدبرنا المفردة جيداً في سياق الحديث عن إبراهيم لوجدنا أن إبراهيم قد اعتزل قومه في كل شي:

- ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]

ولو حاولنا ربط هذه الجزئية بحالة إبراهيم يوم أن خرج من عند قومه لربما خرجنا باستنباط ذات دلالة كبيرة سنحتاج إليه لاحقاً عند الحديث عن رحلات إبراهيم، فإبراهيم خرج هاجرا قومه بعد أن ألقوه في النار وكان - بلا شك- وحيداً:

- ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: 98-100]

ولم يكن قد آمن مع إبراهيم من ذي قبل سوى رجل واحد وهو "لوط" الذي كان قد سبق إبراهيم في هجرته:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

إن ما يهمنا قوله هنا هو أن إبراهيم لم يرزق الذرية إلا بعد أن اعتزل قومه (إي كف عن التعامل معهم في كل شي)، وهذا يقودنا إلى الخروج بالافتراء التالي الذي هو بلا شك من عند أنفسنا:

افتراء: إبراهيم لم يتزوج من قومه (لأنه كان قد اعتزلهم وذهب إلى ربه وحيداً):

- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]

نعود إلى موضوع نقاشنا الرئيس بالفهم أن إبراهيم قد أعتزل قومه (فلم يتزوج منهم، لم يخالطهم، لم يأكل معهم، لم يحادثهم، الخ)، وهنا يشعر إبراهيم (ربما بسبب تلك العزلة الناجمة عن حالته النفسية والجسدية) بالسقم، وما أن يشعر بالحاجة إلى الطعام حتى يحضره ليتناوله وحيداً، لكنه في تلك اللحظة يروغ إلى أصنام القوم ليشاركهم طعامه ويتحدث معهم، والحقيقة ليستهزئ بهم وهو على يقين تام من ربه بأن الأمور يجب أن تسير على هذا النحو:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ٩٣﴾ [الصافات: 91-93]

ولمّا لم يجد منهم ردة فعل، أخذ يحطم تلك الأصنام حتى جعلهم جميعاً جذاذاً إلاّ كبيرهم:

- ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾ [الأنبياء: 58]

سؤال: ما معنى أنه جعلهم جذاذاً؟ أي كيف أصبحت تلك الأصنام بعد أن راغ عليها إبراهيم ضرباً باليمين؟

جواب مفترى: إننا نظن أن إبراهيم لم يحطم الأصنام تحطيماً كاملاً، فهو لم يطحن تلك الأصنام ويكأنها أصبحت كسراً صغيرة جداً كما جاء في كثير من كتب التفاسير، ولكن جل ما قام به إبراهيم في هذا الصدد – نحن نفتري القول- لم يكن أكثر من تشويه تلك الأصنام وذلك بتكسير أجزاء منها، كأن يكسر أنف بعضها، ويحطم يد أخرى، ويكسر رجل ثالثة، وهكذا؟

الدليل

لو تدبرنا بقية السياق القرآني لربما وجدنا الدليل الذي يمكن أن يثبت صحة هذا الزعم:

- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: 63]

دقق – عزيزي القارئ – جيداً بمفردة " فَسْـَٔلُوهُمْ " على وجه التحديد، فلو تدبرنا هذا السياق القرآني لوجدنا إبراهيم يطلب من القوم أن يسألوهم (ضمير الجمع) إن كانوا ينطقون، إذاً فإبراهيم يطلب من القوم أن يسألوا الأصنام المكسرة وليس الصنم الكبير الذي تركه دون أذى، فإبراهيم قد ترك ذلك الصنم لسبب:

- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: 58]

ولكنه عندما طلب منهم أن يسألوا، كان يطلب منهم أن يوجهوا السؤال للأصنام المجذوذة (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ)، فمن غير الطبيعي أن تسأل الفاعل عن ارتكابه للجريمة (الصنم الأكبر) ولكن من الطبيعي جداً أن توجه السؤال لمن وقع عليه الأذى (الأصنام المجذوذة)، فلو قام إبراهيم بتحطيم تلك الأصنام لدرجة أن أصبحت كسراً صغيرة لما كان هناك وجاهة أن يطلب إبراهيم من القوم توجيه السؤال لتلك الكسر التي لا يمكن أن يوجّه إليها السؤال، ولكن لمّا كان إبراهيم قد ترك الأصنام على كليتها ولكنه قام فقط بتجذيذها (أي تشويها) كان توجيه السؤال لها أمراً ممكناً، فلا زال هناك كينونة قائمة يمكن أن يشار إليها. ثم لا بد من التنبيه إلى أن حاجة إبراهيم لم تكن إبادة تلك الأصنام كلياً (لأن القوم يستطيعون أن يصنعوا غيرها)، ولكن جل ما كان يريده إبراهيم هو إقامة الحجة على قومه، فيكفي إبراهيم إذن أن يبيّن للقوم أن ربهم الذي يعبدونه لم يستطع أن يدافع عن نفسه حتى كسرت يده، أو جدع أنفه، أو فقئت عينه، فواحد من تلك الأصنام لم يستطع أن يدافع عن نفسه فجدع أنفه وفقئت عينه، ورب آخر كان غير قادر على الهروب من الضربات فكسرت رجله، وثالث لم يستطع أن يقي نفسه الضربات عندما كسرت يده، وهكذا.

وهذا التصور يرشدنا إلى الاستفسار عن الأداة التي استخدمها إبراهيم "لتجذيذ" تلك الأصنام. فماذا استخدم إبراهيم في تنفيذ مراده ذاك؟

جواب: عند تدبرنا للسياقات القرآنية نفسها، وجدنا أن الآية الكريمة التالية – في رأينا – ذات أهمية عظيمة ربما تكون ذات علاقة لتحل لنا هذه الإشكالية:

- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: 93]

دعنا نتدبر هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن كيفية قيام إبراهيم بتكسير (أو بكلمات أدق تجذيذ) أصنام قومه، فلا شك عندنا أن الإنسان عندما يروغ إلى شيء أو إلى مكان يذهب إليه وحيداً باحثاً عن الخصوصية، فلقد انتهز إبراهيم الفرصة التي لا يتواجد في ذلك المكان غيره حتى لا يصده أحد عن ما هو مقدم عليه، فبعد أن تولّى القوم عن إبراهيم مدبرين، راغ بمفرده إلى ألهتهم وأجرى حواراً من طرف واحد مع تلك الآلهة:

- ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: 90-93]

وانتهى الأمر به أن يضربهم باليمين " فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ "، أليس كذلك؟

السؤال: كيف إذن كان إبراهيم يضرب آلهة القوم تلك باليمين؟

لعلي لا أرى وجاهة في أن يضرب إبراهيم تلك الأصنام بيده، وإلاّ لجاء الخطاب على نحو "فراغ عليهم ضرباً بيده"، ولكن لما كان الخطاب على نحو " فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ " كان المقصود هو يد إبراهيم اليمنى على وجه التحديد.

نتيجة: لم يستخدم إبراهيم كلتا يديه في ضرب الأصنام وإنما ضربهم فقط بيده اليمنى

افتراء من عند أنفسنا: لم يستخدم إبراهيم فأساً (كما تصور المشهد ذاك بعض روايات الأقدمين) في تكسير الأصنام لأن ذلك كان يتطلب من إبراهيم أن يحمل الفأس بكلتا يديه، فلا أظن أن الإنسان يستطيع تكسير صنم بفأس (بمعنى الفأس التقليدي) وهو يحمله بيد واحدة.

رأينا: إننا نظن أن النص القرآني غاية في الدقة في تصور المشهد على نحو أن إبراهيم كان يضرب تلك الأصنام بيده اليمنى فقط، ولكن هل يمكن أن يكسر الإنسان مثل تلك الأصنام بيده فقط؟ ألم يكن يستخدم أداة لكسر تلك الأصنام؟

إن المتدبر لاستخدام اليمين كما ترد في النص القرآني يجد أن اليمين لا يمكن أن تستخدم في تنفيذ عمل ما إلا ويكون فيها الأداة اللازمة لذلك. لذا فإننا نقدم الافتراء التالي: إننا نظن أن اليمين هي اليد التي تحمل شيئاً كأداة تستخدمها عند الحاجة، ولكن أين الدليل؟

جواب: لنتدبر السياق القرآني التالي جيداً:

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: 48]

فالذي يخط باليمين لابد له من قلم يحمله بيمينه ليخط به، انظر التلازم بين الفعل " تَخُطُّهُ " واليمين، وعند تطبيق المنطق نفسه في حالة إبراهيم نجد التلازم بين الحدث " فَرَاغَ " واليمين، فالذي يستخدم اليمين في الضرب لابد له من الأداة التي يستخدمها للضرب.

سؤال: ما هي الأداة التي كان يستخدمها إبراهيم بيمينه ليضرب بها الأصنام حتى أصبحت جذاذاً؟

جواب: لما كان جل ما يحتاجه إبراهيم هو فقط "تجذيذ" وليس تحطيم الأصنام كلياً، فعلينا أن نبحث عن أداة يمكن حملها باليمين وتستخدم للضرب ويمكن أن تقوم بالغرض المطلوب، فما هي تلك الأداة؟

افتراء من عند أنفسنا: مادام أن إبراهيم كان يستخدم اليمين، فعلينا أن نستذكر قصة اليمين نفسها في السياقات القرآنية الأخرى، وعند بحثنا عن ذلك وجدنا لزاماً التوقف عن قصة يمين موسى، فالله يسأل موسى عند لقاءه الأول به على النحو التالي:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه: 17]

فيرد موسى على سؤال ربه بالقول:

- ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: 18]

رأينا: نعم، هذا هو ظننا، فنحن نعتقد أن إبراهيم كان يحمل بيمينه عصا، فضرب أصنام القوم بتلك العصا حتى جعلهم جذاذاً.

وهذا الظن يعيدنا على الفور إلى السؤال الذي ابتدأنا به النقاش عندما تحدثنا عن إلقاء إبراهيم في النار، فلنعيد ذاك السؤال مرة أخرى لنحاول ربطه بهذه النتيجة التي خلصنا إليها للتو.

عودة على بدء

السؤال: لقد صدر الأمر الإلهي للنار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم فلم يتأذى إبراهيم من تلك النار، لكن ماذا حل بإبراهيم نتيجة سقوطه من فوق البناء (المرتفع) في سواء الجحيم (المنخفض)؟

جواب مفترى: لم يتأذى إبراهيم من ذلك السقوط بسبب تلك العصا، لقد ساعدت تلك العصا إبراهيم في سقوطه وفي الخروج من الجحيم الذي ألقي فيه. ولكن أين الدليل على ذلك؟ وكيف حدث ذلك؟ أي ما هي الطريقة التي كانت تعمل بها تلك العصا حتى ساعدت إبراهيم في سقوطه من أعلى إلى أسفل؟

الدليل: علاقة عصا موسى بإبراهيم

عندما حاولنا سابقاً البحث في قصة عصا موسى (انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان باب السامري)، لم نتطرق بالتفصيل إلى جزئية مهمة في الحوار الذي جرى بين الله ونبيه موسى في الواد المقدس حول قصة عصا موسى، فلنقدم السياقات القرآنية الخاصة بذلك المشهد، محاولين بعد ذلك إثارة النقاش حول الفكرة التي نود تسليط الضوء عليها هنا:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 17-21]

لنجلب الانتباه إلى الآية الأخيرة في هذا السياق القرآني وهي قول الحق:

- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 21]

فهنا نجد أن الله يطلب من موسى أن يأخذ العصا، وفي الوقت ذاته يحصل موسى على تعهد من الله بأن يعيد تلك العصا سيرتها الأولى " سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ "

السؤال: ما هي سيرة تلك العصا الأولى التي تعهد الله لموسى بأن يعيدها؟ ثم لنطرح السؤال الأكبر: لماذا هي "عصا" على وجه التحديد؟ لم جعل الله سر قوة موسى في عصا يحملها الرجل معه بيمينه؟

جواب مفترى: إننا نظن أنه لولا أن تلك العصا ذات دلالة "وسيرة" عظيمة سابقة، وأنها مهمة بذاتها، لما كان جل قوة موسى متركزة في تلك العصا، فالله – من حيث المبدأ – يستطيع أن يؤيد موسى في قصته مع فرعون بطريقة أخرى، والله – من حيث المبدأ – يستطيع أن يؤيد موسى ليقهر السحرة بطريقة أخرى، والله – من حيث المبدأ – يستطيع أن يشق البحر لموسى بوسيلة غير العصا، والله – من حيث المبدأ – قادر على أن يشق الحجر لتنفجر منه عيون الماء لموسى وقومه بوسيلة أخرى، وهكذا. ولكن – نحن نفتري الظن – لما قضت إرادة الله أن تتم كل تلك الأمور باستخدام العصا، كان هناك سر عظيم في تلك العصا بذاتها.

وهنا يتبادر سؤال آخر ذات صلة كبيرة بالموضوع يتعلق بطريقة رد موسى على سؤال ربه:

- ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: 18]

السؤال: لم قال موسى " هِىَ عَصَاىَ "؟ أي، لم نسب موسى العصا لنفسه؟ لم لم يقل هي عصا وكفى؟

لا شك أن موسى يدّعي ملكية تلك العصا ويكأن خلافاً حول ملكيتها قد وقع من ذي قبل، فموسى لا يؤكد فقط أنها عصا وكفى، ولكنه يؤكد أنها عصا كما يؤكد حقه في ملكيتها (قَالَ هِيَ عَصَايَ). تأمل جيداً – عزيزي اللغوي – ياء النسبة (أو POSSIVE ‘S باللسان الأعجمي)

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أنه لو لم تكن العصا بذاتها ذات قيمة عظيمة بالنسبة لموسى لما نسب ملكيتها لنفسه، ولربما اكتفى بالقول أنها عصا ولما أضطر أن يؤكد حقه في ملكيتها، لذا نحن نعتقد أن عصا

موسى كانت ذات قيمة عظيمة يعلمها موسى، ونظن كذلك أن تلك العصا لم تصل إلى موسى عن طريق الصدفة وإنما وصلت إليه كحق ميراثي يستطيع صاحبها أن يدّعي ملكيتها متى ما ورثها بطريقة شرعية.

(وسنحاول الخوض في ملكية تلك العصا عند حديثنا عن طفولة موسى في مقالة قادمة بحول الله وتوفيقه)

لذا، لو حاولنا ربط هذا التصور المفترى من عند أنفسنا بأمر التعهد الإلهي لموسى بأن يعيد للعصا سيرتها الأولى، لربما استطعنا الخروج بالاستنباط التالي: إن سيرة تلك العصا لم تبدأ عند موسى ولكنها بدأت من قبل ذلك، وهو بالضبط ما نفهمه نحن من قوله تعالى:

- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 21]

السؤال: من أين جاءت عصا موسى؟ كيف وصلت تلك العصا إلى موسى؟ ما هو مصدر تلك العصا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد جازمين أن عصا موسى التي كانت بيده يوم أن لقي ربه في الواد المقدس هي نفسها العصا التي كسر (جذّ) بها إبراهيم أصنام قومه فجعلهم جذاذاً، وهي نفسها التي استخدمها إبراهيم للخروج من الجحيم بعد أن ألقاه القوم فيه من فوق البنيان. افتراء خطير خطير خطير، أليس كذلك؟ وهنا ستثار بكل تأكيد عشرات بل مئات التساؤلات المشروعة حول هذا الزعم الخطير جداً، لكننا سنحاول التركيز على أسئلة مفصلية في هذا الشأن نذكر منها:

1. كيف وصلت العصا إلى موسى؟
2. لماذا استخدم إبراهيم تلك العصا؟
3. كيف وصلت تلك العصا إلى إبراهيم؟
4. من أين حصل إبراهيم على تلك العصا؟
5. من كان يملك تلك العصا قبل إبراهيم؟
6. الخ.

من أين وصلت تلك العصا إلى موسى؟

(لما كانت هذه قصة طويلة جداً ذات تفاصيل دقيقة لا يمكن المرور عليها بسرعة في هذا النقاش حيث التركيز على قصة إبراهيم، فإننا سنحاول أن نفرد لهذا السؤال مقالة خاصة عندما نتحدث عن تفاصيل قصة موسى كطفولته وقصة البقرة ورحلته مع ذاك العبد الصالح (من يرغب الكثيرون تسميته بالخضر)، الخ. ونكتفي هنا أن نطلب من القارئ الكريم أن يراجع أولاً ما جاء في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان باب السامري)

لماذا استخدم إبراهيم تلك العصا؟

إن هذا السؤال يعيدنا إلى سؤال طرحناه سابقاً يخص قصة تنقل إبراهيم من مكان إلى مكان؟ وقد حاولنا تسليط الضوء على رحلة إبراهيم بين المسجد الأقصى حيث تتواجد امرأته سارة مع طفلها إسحق والبيت الحرام ببكة حيت تتواجد امرأته هاجر مع طفلها إسماعيل، وقد كان إبراهيم دائم الترحال بين المكانين، فكيف كان يستطيع إبراهيم أن يتنقل بين المكانين وهو قد وصل من العمر الشيخوخة، فالمسافة بين المكانين كبيرة جداً، ولا أخال أن رجلاً بسن إبراهيم يستطيع تحمل أعباء السفر التقليدي بين المكانين. ثم إن هذا المشهد قد أثار أسئلة أخرى تتعلق بمعرفة إبراهيم بالمكان وهو الذي كان يعيش في بلاد أخرى. فإبراهيم جاء من الشرق متجهاً إلى بيت المقدس حيث كان ذاهبا إلى ربه بعد أن ألقاه قومه في النار، واستقر هناك مع نساءه قسطاً من الزمن، وما أن يرزق بإسماعيل ويرزق من بعده بإسحق حتى يقرر أن يأخذ إسماعيل وأمه ليسكنهما بواد غير ذي زرع بعيد جداً عن المكان الذي يسكنه مع أهله في بيت المقدس:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

تساؤلات:

1. كيف تعرّف إبراهيم على هذا المكان الجديد على وجه التحديد؟
2. كيف كان إبراهيم يتنقل بين المكانين بالرغم من البعد الجغرافي بينهما وبالرغم من تقدمه في السن؟

جواب مفترى: إننا نعتقد أن السياق القرآني التالي ربما يرشدنا إلى طريق جديدة في التفكير:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75]

نعم، هذا هو رأينا: لقد تمكن إبراهيم (بفضل ومنّة من الله) أن يرى ملكوت السموات والأرض، ولمّا كان إبراهيم قد رأى ملكوت السموات والأرض، كان يستطيع أن يتعرف على كل الأماكن على الأرض دون الحاجة إلى الانتقال إليها فعلياً، لذا فهو يخبر المكان حتى ولو لم يسكنه من قبل، ويستطيع كذلك أن يتنقل بين الأماكن بكل سهولة ويسر، ولكن كيف؟

إن هذا يدعونا إلى تدبر معنى مفردة "ملكوت" في سياق الحديث عن "مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"؟ فما هو الملكوت؟

جواب: لو تدبرنا السياق القرآني التالي لربما خرجنا باستنباط ذات دلالة:

- ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨﴾ [المؤمنون: 88]

- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: 185]

نتيجة: لكل شيء ملكوت، إذاً للسموات والأرض ملكوت كما أن لكل شيء ملكوت:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: 185]

ما الذي حصل مع إبراهيم؟

جواب: لقد رأى إبراهيم (بفضل من ربه) ملكوت السموات والأرض:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75]

ما الفرق بين الله (رب إبراهيم) وإبراهيم في هذا الجانب؟

جواب: في حين أن الله بيده ملكوت السموات والأرض كان إبراهيم قد رأى فقط ملكوت السموات والأرض:

- ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 83]

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن قدرة إبراهيم على رؤية ملكوت السموات والأرض تساعدنا على فهم أمور عديدة منها السؤال التالي: لم ترك إبراهيم امرأته وطفله في ذاك المكان وقفل عائداً فيما يبدو للوهلة الأولى أنه نوع من القسوة؟

جواب: ولو تدبرنا السياق القرآني الخاص بهذه الحادثة لوجدنا فيه من الغرابة الكثير، فتأمل – عزيزي القارئ – قول إبراهيم عندما ترك من ذريته في ذلك الواد غير ذي الزرع جيداً:

- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

لاحظ – عزيزي القارئ – جملة من الحقائق:

1. إبراهيم هو من أتخذ القرار بأن يسكن من ذريته (وليس كل ذريته) في ذلك المكان (رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ)
2. إبراهيم يسكن جزءاً من ذريته في مكان مقفر " بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ "
3. إبراهيم يعلم أن ذلك المكان فيه بيت الله المحرم " عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ "
4. يفعل إبراهيم ذلك من أجل إقامة الصلاة في ذلك المكان " رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ "
5. يطلب إبراهيم من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم " فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ "
6. يطلب إبراهيم من ربه أن يرزقهم من الثمرات " وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ".

لكن المفارقة العجيبة – في رأينا – تكمن في أن إبراهيم لم يطلب من ربه أن يرعاهم أو أن يحفظهم من أي اعتداء محتمل عليهم في ذلك المكان. فهل كان إبراهيم موقناً أن مكروهاً لن يصيبهم في ذلك المكان؟ وكيف يمكن لإبراهيم أن يطمئن إلى ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن إبراهيم لم يكن بتلك القسوة التي ربما يمكن أن تفهم للوهلة الأولى من تصرفه ذاك، فربما يظن الكثيرون (خاصة أهل المنطق) أن في تصرف إبراهيم ذلك شيء من القسوة؟ وربما يرد آخرون (خاصة أهل الدين والغيبيات) أن ذاك نبي يتصرف بأمر من ربه؟ أما نحن (من نقع في نقطة المنتصف بين أهل الإلحاد وأهل الإيمان) فإننا نرى أن الأمر مختلف تماماً عن ما يظن هذا الطرف أو يدعي ذاك الطرف.

رأينا (1): لمّا كان الرجل قد رأى (بفضل ومنّة من ربه) ملكوت السموات والأرض لم يكن وجود الأم مع طفلها في ذلك المكان بعيداً عن عين إبراهيم نفسه. فالرجل كان على الدوام قادراً أن يرى ما يحل بهم حتى لو كان بعيداً عنهم مكانياً.

رأينا (2): لما كان الرجل قد رأى (بفضل ومنّة من ربه) ملكوت السموات والأرض كان يستطيع التنقل بين المكانين بالسرعة التي لا تقل عن السرعة التي انتقل فيها محمد في ليلة الإسراء من مكة عند البيت الحرام إلى المسجد الأقصى في الأرض التي باركنا فيها. فانتقال محمد بين المكانين في ليلة واحدة تشكل أنموذجاً عملياً لما كان يستطيع إبراهيم القيام به، فمحمد كان قد أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة، وكذا – نحن نفتري القول – كان انتقال إبراهيم بين المكانين.

سؤال: ما هي الواسطة (الأداة التي استخدمها محمد مثلاً في انتقاله بين المكانين)؟

غالباً ما حاول أهل الفكر الديني تسويق فكرة أن النبي محمد قد امتطى البراق في رحلته تلك، وأخذ أهل العلم والدراية مجدهم في تقديم تخيلاتهم التي يصورون من خلالها ذلك الكائن العجيب، تارة ويكأنه دابة أو حيوان وتارة أخرى ويكأنه كائن أسطوري، الخ. بأجنحة عملاقة تطوي الأرض بزمن يصعب على العقل

البشري تدبره، حتى ذهب أكثرهم إلى أن ذلك الكائن قد كان الوسيلة التي عرج بها محمد إلى السموات العلى. ولما كان موقفنا قد تلخص بإنكار المعراج، نكتفي أن نتحدث عن واسطة النقل تلك في رحلة الإسراء:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

طارحين السؤال نفسه: ما هي الواسطة (أداة التنقل) التي استخدمها محمد في رحلته تلك؟

جواب مفترى: بعيداً عن جدلية التسميات (سمّه براقاً أو ما شئت) فإني أعتقد جازماً أن القرآن الكريم قد أثبت الواسطة عندما جاء فيه قول الحق "أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ"، لكنه لم يذكر اسمها على وجه التحديد. والدليل لدينا هو وجود حرف الجر بـ الذي يدل على استخدام الواسطة "أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ"، لذا نحن نرى وجاهة أن نسوق الظن التالي: لقد استخدم محمد في رحلة تلك واسطة للتنقل، ولكن ما هي:

رأينا: إننا نظن أنها ملكوت السموات والأرض بالضبط كما كان يستخدم إبراهيم ملكوت السموات والأرض في تنقلاته بين طرفي عائلته في القدس ومكة.

الحجة: لما كان لكل شيء ملكوت حسب الآية التالية:

- ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون: 88]

ولما كان الله هو من بيده ملكوت كل شيء:

- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 83]

كان قادراً على التحكم بالسموات والأرض، فالله هو المسيطر على كل شيء هو من يسير الأمور بطريقته ويتحكم بها كيفما يشاء.

ولما اختص الله إبراهيم بأن يريه ملكوت السموات والأرض، فقد سخر الله ذلك الملكوت لخدمة إبراهيم.

الدليل: خروج عن النص

ها هو إبراهيم يطلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ... ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

فيأتي الرد الإلهي على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

نتيجة: يطلب الله من إبراهيم أن يصرّ إليه أربعة من الطير ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن ليأتينه سعيا، أليس كذلك؟

سؤال: لم طلب الله من إبراهيم أن يضع على كل جبل منهن جزءا؟ لم لم يتم الأمر من أمام إبراهيم مباشرة كأن يذبحهن ثم يدعوهن مباشرة دون أن يجعل على كل جبل منهن جزءا؟

ثم، كيف بإبراهيم سيرى كيف يحيي الله الموتى وقد حصل ذلك على رؤوس الجبال بعيداً عنه؟ وكيف بإبراهيم سيتأكد بأن الطيور التي جاءته تسعى هي نفسها التي صرهنّ إليه وجعل على كل جبل منهن جزءا؟

والأهم من ذلك كله، لم لم يحصل الأمر مع إبراهيم كما حصل مع الرجل الذي مر على القرية الخاوية على عروشها في الآية التي سبقت مباشرة قصة إبراهيم مع الطير تلك؟

- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: 259]

فالله هنا يري الرجل مباشرة أما ناظريه كيف يحي الموتى، ولم يطلب منه أن يضع على كل جبل جزءاً من تلك العظام؟

جواب مفترى: لمّا كان إبراهيم قادراً أن يرى ملكوت السموات والأرض فإن البعد المكاني عنه لا يعيق الرؤيا البصرية عنده، فإبراهيم يستطيع أن يرى أي مكان على وجه الأرض من المكان الذي يتواجد فيه. لذا فإن إسكان إبراهيم لـ امرأته وطفله في ذلك الواد البعيد جداً لم يكن ليمنع إبراهيم أن تبقى عينه مراقبة لهم في سكنهم ذاك، فهم لا يغيبون عن ناظريه إطلاقاً (وذلك لسبب بسيط أن الله قد أراه ملكوت السموات والأرض).

ولكن كيف تم تسخير ذلك لإبراهيم؟

جواب مفترى: لما كان موسى بحاجة أن يشق البحر استخدم العصا، ولما كان يحتاج أن يسقي قومه استخدم العصا في ضرب الحجر فانبجست منه عيون الماء، ولما كان بحاجة أن يقهر السحرة وكذبهم استخدم العصا، لذا نحن نظن أن العصا هي الأداة التي كانت تمكن موسى من فعل كل ما كان يحتاج إلى فعله.

نتيجة مفتراة: نستطيع تطبيق المنطق نفسه في حالة إبراهيم، لما كان إبراهيم يحتاج إلى تنفيذ ما يحتاج إليه كان يستخدم تلك العصا التي استخدمها في تجذيذ أصنام قومه، وهي نفسها التي استخدمها للخروج من الجحيم الذي ألقي فيه دون أن يصيبه أذى، وهي نفسها التي كان يستخدمها لمّا كان يريد أن يتنقل من مكان إلى مكان.

افتراء من عند أنفسنا: لقد كانت قصة إبراهيم جزءاً من سيرة تلك العصا التي وعد الله نبيه موسى أن يعيدها سيرتها الأولى:

- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: 21]

(وسنرى لاحقاً كيف انتقلت تلك العصا حتى وصلت إلى يد موسى)، ولكن هنا يطرح السؤال الأكبر وهو: من أين وصلت تلك العصا إلى يد إبراهيم؟ هل كانت تلك هي سيرة العصا كاملة؟

كلا، إننا نظن أن تلك العصا قد جاءت إبراهيم من مصدر آخر؟ فما هو ذلك المصدر؟

لو تدبرنا العلاقة بين بيت المقدس مكة في سير رسل الله، لوجدنا أن الرحلة الأولى بين المكانين قد قام بها آدم من ذي قبل، فلقد ذكرنا في سياق الحديث عن جنة آدم وعن مناداة الله نبيه موسى أن جنة آدم الأولى على الأرض كانت في الأرض التي باركنا فيها للعالمين (أي بيت المقدس وما حوله التي ترد في النص القرآني باسم سيناء)، ولما حصلت المعصية أمر الله آدم وزوجه بالهبوط من تلك الجنة والانتقال إلى مكان آخر، فحط بهم الترحال في مكة، حيث يتم هناك وضع أول بيت للناس:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

فإبراهيم لم يضع البيت الأول ولكنه قام برفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّاۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

فالرحلة بين المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في القدس حصلت بدايةً في عهد آدم، وسار إبراهيم في رحلته تلك على خطى الرحلة الأولى، وأسري بمحمد في خط سير الرحلة نفسها. فالرابط بين هذين المكانين حصل ثلاث مرات في تاريخ البشرية: في عهد آدم، وفي عهد إبراهيم، وفي عهد محمد.

علاقة إبراهيم بآدم

إن أهم أوجه الشبة بين آدم من جهة وإبراهيم من جهة أخرى - في رأينا- هما وجهان:

1. الانتقال بين المكانين (المسجد الأقصى في الأرض التي باركنا فيها للعالمين والمسجد الحرام ببكة)
2. الذرية

ولمّا كنّا قد تحدثنا في أكثر من مقالة عن الانتقال بين المكانين، نجد الآن الحاجة ملحّة أكثر للحديث عن الذرية

ذرية آدم وذرية إبراهيم

ربما من بديهيات المعرفة في الفكر الديني أن آدم كان له ذرية من البنين وكذلك كان لإبراهيم، ولكن وجه المقاربة تكمن في العدد، فكلاهما كان له اثنين من البنين، أما بالنسبة لإبراهيم فلا أخال أن الناس يختلفون في ذريته، فجميع الشرائع تتفق أن إبراهيم قد رزق باثنين من الذكور هما إسماعيل وإسحق على الترتيب، ولكنّ الاختلاف يقع في ذرية آدم، ففي حين أن النص القرآني يثبت أن ابني آدم هما ولدان من الذكور لا نجد اتفاقاً بين علمائنا على تسميتهم، ولعل مثل هذا الخلاف قد دبّ من ذي قبل بين علماء بني إسرائيل.

وسنحاول في الصفحات التالية تبيان كيف أن هذا القرآن الكريم يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون:

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل: 76]

فغالباً ما جاء الاتهام ضمنياً أو صراحة لهذا الكتاب بأنه لا يردد أكثر من المعلومة التي وردت في الكتب التي سبقته، فهو في نظرهم لا يضيف معلومة جديدة لم تكن متوافرة في كتبهم السابقة، وسنحاول أن نبين في الصفحات التالية كيف يقص القرآن الكريم الصورة كاملة غير منقوصة (اللهم إن هي فهمت على حقيقتها وخلت من تحريفات المخرصين من أمثالنا).

تساؤلات

- من هم ابني آدم؟
- ما أسماء ابني آدم؟
- هل يذكر القرآن الكريم أسماء الرجلين كما ذكر أسماء ابني إبراهيم إسماعيل وإسحق؟

- لماذا اختلف الرجلان حتى قتل أحدهما الآخر؟
- من هو القاتل ومن هو المقتول منهما؟
- ما علاقة ذلك بولدي إبراهيم إسماعيل وإسحق؟
- كيف انعكس ذلك على تاريخ البشرية وتاريخ الشرائع السماوية؟
- الخ.

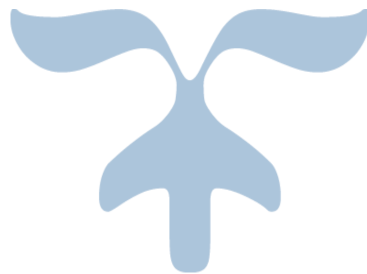
هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيقه في الجزء التالي، فالله – أنا وعلي نسأل- أن يعلمنا الحق فلا نفتري عليه الكذب، ونسأل الله أن نعلم منه ما لا تعلمون إنه هو العليم الحكيم.

وللحديث بقية



لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

(الجزء الرابع عشر)



لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (14)؟

انتهى الجزء السابق عند طرح التساؤلات التالية:

- من هم ابني آدم؟
- ما أسماء ابني آدم؟
- هل يذكر القرآن الكريم أسماء الرجلين كما ذكر أسماء ابني إبراهيم إسماعيل وإسحق؟
- لماذا اختلف الرجلان حتى قتل أحدهما الآخر؟
- من هو القاتل ومن هو المقتول منهما؟
- ما علاقة ذلك بولدي إبراهيم إسماعيل وإسحق؟
- كيف انعكس ذلك على تاريخ البشرية وتاريخ الشرائع السماوية؟
- الخ

أما بعد،

ترد قصة ابني آدم الأولى في القرآن الكريم على النحو التالي:

- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 27-32]

لمّا كانت القصة معروفة على الإجمال، فربما لن أحتاج في الوقت الراهن أن أدخل في كثير من جزئياتها، وقد تحدثنا عن بعض جوانبها في أكثر من موضع في مقالاتنا السابقة، لكن جلّ ما يهمنا هنا على وجه التحديد هو الآية الأخيرة رقم 32 في هذا السياق القرآني:

- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 32]

والآن لنحاول التفكر في هذه الآية الكريمة ضمن سياقها القرآني الذي ترد فيه (قصة قتل أحد أبناء آدم أخيه)، والسياق القرآني في سطوره العريضة على النحو التالي:

يختلف الرجلان لسبب ما (تقديم القربان ونتيجة ذلك العمل)، فيتوعد من لم يتقبل الله منه ذاك القربان من تقبل الله القربان ذاته منه بالقتل، فتطوع له نفسه قتل أخيه، فيقدم على قتل أخيه، أليس كذلك؟

المفارقة المهمة في هذا السياق التي نود أن نجلب الانتباه إليها هي السنّة الإلهية التي نجمت عن ذلك الفعل: فهنا يأتي القرار الرباني على نحو أنه بسبب تلك الحادثة (مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ) تقضي مشيئته على بني إسرائيل على وجه التحديد (كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ) على نحو أنه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً:

- مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ...

والآن حاول - عزيزي القارئ- أن تربط الأحداث مع بعضها البعض بعد طرح التساؤلات التالية:

- ما علاقة بني إسرائيل بتلك الحادثة؟
- لِمَ تقضي مشيئة الله على بني إسرائيل فقط بسبب تلك الحادثة "مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ"؟
- كيف إذن كانت مشيئة الله على من سبق بني إسرائيل من الأمم؟
- وكيف هي مشيئة الله على من جاء بعد بني إسرائيل من الأمم؟
- لم انتظر الله طويلاً (كل الفترة الفاصلة بين ابني ولد آدم ومجيء بني إسرائيل) لتقضي مشيئته عليهم بسبب تلك الحادثة؟
- لم ارتبطت تلك الحادثة ببني إسرائيل فقط ولم ترتبط بغيرهم من الأمم؟
- الخ.

رأينا: إننا نظن أن التناقضات التي تثيرها هذه الأسئلة في الفكر الديني السائد قد جاءت - في رأينا- بسبب سوء فهم متعلق بعبارة واحدة وهي عبارة "بني إسرائيل"، فنحن نظن أن الفكر الديني الإسلامي على وجه التحديد قد أخفق إخفاقاً لا مثيل له في فهم عبارة بني إسرائيل التي ترد كثيراً في السياقات القرآنية، فلقد وقع أهل العلم والدراية في "المطب" نفسه الذي وقع فيه من سبقهم من الأمم. فلا أظن أن فهم علماء المسلمين لتلك العبارة نبعت من عقيدتهم نفسها، ولكنهم – نحن نفتري الظن- قد لحقوا بمن سبقهم من الأمم (كاليهود والنصارى) في تصوراتهم الخاطئة دون تمحيص ولا تدقيق.

من هم بنو إسرائيل؟ تفنيد الفكر السائد

لعل الكثيرون لا يتوقفون عند هذه المفردة طويلاً عندما يقرؤونها في النص القرآني، فهم يظنون (كما ظن من سبقهم من الأمم) أن عبارة "بني إسرائيل" تعود على تلك القومية التي جاءت من نسل يعقوب عليه السلام، والمفارقة العجيبة أن كثيراً من أهل العلم والدراية غالباً ما سوّقوا للعامة ما جاء في تراث الأمم الأخرى

زوراً وبهتاناً، افتراء مفاده بأن إسرائيل هو نفسه يعقوب عليه السلام. فأخذ الناس يتحدثون عن بني إسرائيل ويكأنهم يتحدثون عن سلالة إسرائيل (أي يعقوب النبي)، ونحن نرى أن هذه واحدة من الأكاذيب التي تقبلها الناس قروناً طويلة من الزمن، فأعشت الأبصار عن النظر إلى الأمور بطريقة ربما تكون مختلفة عن ما توارثته أمتنا من تحريفات من سبقها من الأمم.

افتراء من عند أنفسنا: يميل الظن عندنا إلى الاعتقاد اليقيني بأن إسرائيل ليس يعقوب وأن يعقوب عليه السلام ليس إسرائيل.

الدليل

جاء في كتاب الله الكريم عن إسرائيل ما يلي:

- ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: 93]

ونحن نتحداهم – مرددين التحدي الذي جاء في كتاب الله- أن يأتوا بالتوراة وأن يتلوها من أولها إلى أخرها ليثبتوا لنا افتراءهم بأن إسرائيل هو يعقوب نفسه. فنحن على يقين أن التوراة تتحدث عن الرجلين (يعقوب وإسرائيل) على أنهما شخصان مختلفان تماماً (ونترك لأهل التخصص في مقارنة الأديان مهمة التقصي والبحث). ولكن لماذا؟ وما الدليل لدينا باستحالة أن يكون إسرائيل هو يعقوب نفسه؟

جواب: لا شك أن يعقوب هو نبي كريم، أليس كذلك؟ لذا فإن يعقوب كنبي لا شك يتبع ما يوحى إليه من ربه:

- ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأحقاف: 9]

فالنبي (أي نبي) يستحيل أن يتبع إلا ما يوحي إليه من ربه، ويستحيل أن يسير إلا على خطى من سبقه من رسل الله، أليس كذلك؟ ولمّا كان يعقوب هو ابن اسحق ابن إبراهيم وهم جميعاً بيت النبوة والرسالة، فيستحيل أن يستقيم المعنى أن يكون الرجل يحرّم على نفسه ما يشاء أو أن يحل لنفسه ما يشاء، ألم يقرأ علماؤنا الأجلاء قول يعقوب نفسه لأبنائه لحظة أن حظره الموت:

- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]

فهل يعقل أن يقوم من يطلب من أبناءه إتباع شريعة آباءه إبراهيم وإسحق فهل يعقل أن يحرّم على نفسه ما يشاء، وماذا نقول ليوسف (ابن يعقوب النبي) الذي يقول لصاحبيه في السجن أنه يتبع ملة آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب؟

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: 38-37]

فهل كان يوسف أيضاً يحرم على نفسه ما حرم والده يعقوب على نفسه من ذي قبل؟!!!

ألا ترى - عزيزي القارئ- أن الزعم بأن نبياً مثل يعقوب يحرم على نفسه ما يشاء فيه اتهام خطير لنبي كريم مثل يعقوب عليه السلام لا بل ولكل نبي كريم مثل يعقوب؟ فهل يعقل إذاً أن يكون إسرائيل (من يحرم على نفسه ما يشاء) هو نفسه يعقوب (الذي يتبع تعاليم ربه)؟

وهنا ربما ينبري البعض لطرح التساؤل التالي: ماذا سيحصل لو أن النبي الرسول قد حرّم على نفسه ما يريد؟ ما المانع أن يقوم النبي بفعل كهذا؟

جواب: ألم ينزل قرآنا يتلى ينهى محمدا نفسه عن فعل كهذا:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [التحريم: 1-2]

نتيجة وافتراء: إننا نظن أنه لو قام يعقوب بمثل هذا العمل لجاء الأمر الإلهي له (كما جاء الأمر الإلهي لمحمد نفسه) بالكف عن ذلك (أي تحلة الأيمان) وذلك لسبب بسيط وهو ليس من حق أي نبي أن يحلّ أو يحرّم على نفسه ما يشاء من تلقاء نفسه، فالتحريم والتحليل هو أمر يأتي من الله فقط، وليس على النبي إلا أن يرضى بما أحلّ الله له وليس له إلا أن يرضى بما حرّم الله عليه، وإلاّ لأصبح الدين إتباعا لشهوات الأنبياء ورغباتهم، لذا عندما نقرأ الآية الكريمة التالية:

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93)

لا يجب أن يتبادر إلى الذهن بأن إسرائيل هذا الذي يحرم على نفسه ما يشاء هو نبي كيعقوب عليه السلام. فإسرائيل هذا هو شخص مبتدع، ويعقوب ذاك هو نبي متبع، وشتان بين هذا وذاك:

- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف: 38]

ثانياً: إننا نظن أن عبارة "بني إسرائيل" هذه تحتاج إلى كثير من التدبّر كما ترد في الكثير من السياقات القرآنية، فليس من الحكمة أن نأخذ الأمر على العموم، فلا نعير انتباهاً لخصوصية الألفاظ كما تستخدم في السياق القرآني نفسه. فعلى سبيل المثال، عندما حاولنا تفقد السياقات القرآنية الخاصة بعبارة "بني إسرائيل" لم نجد مفردة "بني" (ومشتقاتها) على وجه الخصوص تلازم سوى شخصين اثنين في النص القرآني بأكمله، والشخصان هما آدم وإسرائيل:

1. فهناك "بنو آدم" نسبة لآدم نفسه
2. وهناك "بنو إسرائيل" نسبة لإسرائيل نفسه

وهذه الملاحظة أثارت لدينا الحافز لطرح التساؤل التالي: لم لإسرائيل على وجه التحديد "بني" وليس ذلك لأحد آخر غيره سوى آدم نفسه؟ فربما لا يختلف الناس أن ينتسبوا جميعاً لآدم، ولكن لم النسبة لإسرائيل هذا؟

إن هذا يدعونا إلى تدبر مفردة "بنو، بني" نفسها، طارحين التساؤل التالي: متى يمكن أن نطلق هذه العبارة على شخص كآدم وإسرائيل؟ ولم لا يمكن أن تطلق على غيرهم؟ لم لم تطلق هذه العبارة على إبراهيم مثلاً؟ أليس إبراهيم (جد إسرائيل على زعمهم) أولى بذلك من يعقوب (إن صح ما يزعمون بالطبع)؟ أليس إسحق (والد يعقوب) – إن صح زعمهم- أولى بذلك؟ ولم يأتي الحديث عن من ينتسب لإبراهيم على نحو "آل إبراهيم"؟ فحتى فرعون نفسه له "آل" (آل فرعون) ولمن ليس هناك بنو فرعون؟ وهناك آل لموسى وهناك آل لهارون وهناك آل لداوود وهناك آل لعمران، ولكن ليس لأي منهم "بني" أو "بنو".

السؤال: إن صح ما قالوا أن إسرائيل هو يعقوب النبي، فهم مدينون لنا بتبرير أن يكون لهذا النبي على وجه التحديد (دون غيره من أنبياء الله ورسله جميعاً) "بني، بنو" (بني إسرائيل) وليس "آل" كغيره من أنبياء الله ورسله؟

مغالطات في الفكر الإسلامي

غالباً ما قسم علماء المسلمين الناس في زمن إبراهيم إلى قسمين اثنين:

1. أبناء إبراهيم من سلالة إسحق ويعقوب وهم من سمّوهم "بني إسرائيل"
2. أبناء إبراهيم من سلالة إسماعيل وهم من سموهم "المسلمين"

وكان هذا التقسيم مبني في جوهرة على مصدرين من المعرفة لديهم وهما:

1. موروثاتهم من الأمم السابقة التي ادّعت لنفسها أنها تنتمي إلى بني إسرائيل وليس ذلك لأحد غيرهم
2. فهمهم الخاطئ للآية الكريمة التالية:

- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78]

فلقد ظن كثير من علماء الإسلام (مدفوعين بأفهامهم الخاطئة لهذه الآية الكريمة وبما سيطر على أذهانهم من تحريفات الأمم التي سبقتهم) أن مفردة "المسلمين" التي نطق بها إبراهيم كما ترد في هذه الآية الكريمة " هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ " تخصهم أنفسهم دون الآخرين. فمفردة المسلمين – في فهمهم – تعود على من جاء من ذرية إسماعيل لأن من جاء من ذرية إسحق ويعقوب هم – في نظر الغالبية الساحقة من علمائنا الأجلاء – ليسوا أكثر من بني إسرائيل، أليس كذلك؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن هذا الفهم عند علمائنا ليس أكثر من تحريف للعقيدة الصحيحة. وسنحاول في الصفحات التالية تبيان الخطأ الذي وقع فيه علماؤنا الأجلاء ومن ثم محاولة تصحيحه.
سؤال: ما الدليل على افترائنا بأن هذا الفهم الذي لدى علماء المسلمين لمنطوق هذه الآية الكريمة هو – في نظرنا – فهم خاطئ؟ ما هو الدليل الذي يمكن أن يثبت زعمنا ويفنّد رأيهم؟

جواب: لنتوقف هنا للحظة عند ملاحظة غاية في الخطورة تثيرها الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

سؤال استنكاري: ألم يكن إبراهيم يعلم أن الدين عند الله الإسلام؟ ألم يكن إبراهيم يعلم أنه هو نفسه مسلماً؟

- ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: 67]

ألم يكن إبراهيم يعلم أن الدين هو الإسلام ومن ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه:

- ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85]

حجتنا: إذا كان إبراهيم – لا شك عندنا – يعلم أن الدين عند الله الإسلام، ويعلم كذلك أنه هو نفسه مسلماً، ويجب أن يكون كذلك لأنه إن لم يكن مسلماً فلن يقبل منه، فكيف إذن يستقيم المعنى – يا علماء الإسلام- أن يقوم إبراهيم بإطلاق صفة "المسلمين" على فرع من ذريته (إسماعيل وذريته) دون الفرع الآخر (إسحق وذريته)؟ فهل يعقل أن يقبل إبراهيم أن يكون إسماعيل مسلماً ولا يكون إسحق ويعقوب مسلمين كذلك؟ والتساؤل الأكبر هو: إذا كان إبراهيم (كما تزعمون - يا علماء الإسلام-) قد أختص فرع إسماعيل بتلك التسمية، فماذا سمى الفرع الآخر من ذريته؟ هل يعقل أن يطلق نبي كريم مثل إبراهيم تسمية على فرع من ذريته ويترك الفرع الآخر دون اسم يعرف به؟

كلا وألف كلا، لم يكن لإبراهيم أن يعلم يقيناً أن الدين عند الله الإسلام ولم يكن لإبراهيم أن يعلم يقيناً أنه من ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، ولم يكن لإبراهيم أن يعلم يقيناً أنه هو نفسه مسلماً، ليقوم بعد ذلك كله بإطلاق تلك التسمية على جزء من ذريته دون الجزء الآخر، أو أن يقبل أن يكون فرع من بيته الشريف مسلماً ولا يكون الفرع الآخر مسلما. إن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، بل هو – في نظرنا- التحريف الواضح والفاضح للعقيدة السليمة.

النتيجة: إننا نعتقد جازمين أن الضمير في الآية الكريمة التي تتحدث عن التسمية التي أطلقها إبراهيم يعود على جميع أبنائه (إسماعيل وإسحق) وذريتهم من بعدهم. فكل الذين جاءوا من ذرية إبراهيم هم – دون أدنى شك- مسلمون:

- مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ

فالذين جاءوا من ذرية إسحق كانوا على ملة إبراهيم وكانوا مسلمين، فأقرءوا – يرحمكم الله- ما قاله أبناء يعقوب أنفسهم في حضرة أبيهم:

- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِىۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]
- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 37-38]

وليس أدل على ذلك من دعاء يوسف (ابن يعقوب ابن اسحق ابن إبراهيم) عندما شعر بدنو الأجل:

- ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: 101]

فهل يعقل - يا علماء الإسلام- أن يطلب يوسف نفسه (وهو من فرع إسحق وليس من فرع إسماعيل) أن يموت على ملة أبيه وجده ليلحق بالصالحين " مُسْلِمًا "، ثم تأتون أنتم بعلمكم الغزير لتروجوا للناس بضاعتكم الفاسدة في أنكم أنتم فقط من سمّاهم إبراهيم "المسلمين"، وتدللوا على افترائكم هذا بتحريفاتكم لكلام نبي كريم مثل إبراهيم نفسه؟!!!

النتيجة: إننا نؤمن يقيناً بأن ذرية إبراهيم (وهم إسماعيل وإسحق) كانوا جميعاً مسلمين، وأن إبراهيم هو من أطلق تلك التسمية على جميع أبناءه مادام أنه قد وجّه وجهه منذ اليوم الأول لربه ليكون حنيفاً:

- ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 79]

واختار له ربه أن يكون (بالإضافة لتلك الحنيفية) مسلماً:

- ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: 67]

ولمّا علم إبراهيم أن الدين عند الله الإسلام:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]

ولما علم إبراهيم أنه من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه:

- ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85]

جاء قراره أن يرضى أن يكون جميع أبناءه وذريته على تلك الملّة:

- ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: 78]

سؤال: من أين إذاً جاءت تسمية "بني إسرائيل"؟

رأينا: لو دققنا النظر في التسمية "بني إسرائيل" نفسها لوجدنا بكل يسر وسهولة أنها تسمية لا تخص العقيدة وإنما العرق. لكن – بالمقابل- لو أمعنا التفكر في مفردة "المسلمين" لوجدنا أنها مفردة تخص العقيدة وليس العرق، لذا فمن غير المنطقي إجراء التقابل بين مفردة "المسلمين" من جهة ومفردة "بني إسرائيل" من جهة أخرى ويكأنهم عبارتان متضادتان متقابلتان. ففي حين أن واحدة منهم تظهر طبيعة العرق (بني إسرائيل) تظهر الأخرى طبيعة العقيدة (المسلمين):

- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 84-85]
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: 58]

نتيجة مهمة جداً: في حين أن مفردة "المسلمين" هي تسمية دين فإن مفردة بني إسرائيل هي تسمية ذرية.

في ضوء هذا الاستنباط البسيط جداً، تظهر الحاجة إلى طرح بعض التساؤلات نذكر منها:

1. إذا كنا نحن من نسمي أنفسنا "المسلمين" مسلمين في عقيدتنا، فما هو عرقنا؟ أي ما هي السلالة العرقية التي ننتمي إليها؟ فهل نحن "إسماعيلون" مثلاً في عرقنا "مسلمون" في عقيدتنا؟
2. إذا كان هم من يسمون أنفسهم "بني إسرائيل" اسرائيلون في عرقهم، فما هي عقيدتهم؟ وإياك أن تقل لي بأنهم يهوداً أو نصارى، فاليهودية جاءت بعد موسى والنصرانية جاءت بعد عيسى، ونحن نتكلم عن الأمم التي سبقت عيسى وموسى، وبالذات ذرية إبراهيم (إسحق ويعقوب ويوسف والأسباط)، فماذا كانت عقيدة هؤلاء القوم؟

الافتراء الأكثر خطورة حتى الآن: نحن وهم جميعاً مسلمون في العقيدة ننتمي جميعاً "البني إسرائيل" في العرق.

نتيجة مفتراة: نحن جميعاً مسلمون في العقيدة إسرائيليون في العرق

---

(1) فنحن (كما هم) مسلمون جميعاً في عقيدتنا، فلقد كان إسماعيل مسلماً كما سمّاه والده إبراهيم وكان إسحق ويعقوب ويوسف مسلمين متبعين لملة أبيهم إبراهيم، فلقد جاء قول الحق على لسان أبناء يعقوب مجتمعين:

- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]

وجاء على لسان يوسف منفرداً:

- ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]

(2) ونحن (كما هم) من ذرية بني إسرائيل في عرقنا، انحدرنا جميعاً من ذرية إسرائيل نفسه ما دمنا نفهم الآن أن إسرائيل ليس يعقوب كما افترى من سبقنا من أهل الديانات الأخرى، وكما ظن كثير من أهل الدراية والعلم ممن ينتمون إلى ملة الإسلام.

فمن هو إسرائيل إذن؟

السؤال: من هو إسرائيل هذا الذي ننتمي نحن له في العرق كما ينتمون هم له؟

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن أن إسرائيل هو ابن آدم الذي قتل أخاه

الدليل:

نحن نظن أن البحث عن دليل يثبت مثل هذا الزعم سيعيدنا على الفور إلى الآيات الأولى التي أثارت النقاش في بداية طرح هذه القضية وهي الآيات الكريمة التالية التي تقص علينا نبأ ابني آدم بالحق:

- ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ

أَخِيۚ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ۝٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ۝٣٢﴾ [المائدة: 27-32]

رأينا: عندما أقدم أحد أبناء آدم على قتل أخيه لم يبقى على وجه الأرض سوى ذلك الرجل، ولمّا كانت البشرية قد ابتدأت بآدم كانت البشرية جميعاً قد انحدرت للمرة الأولى من ذرية رجل واحد وهو آدم، فاستحق آدم أن يصبح هو أبو البشرية جميعا، فأصبح من الممكن أن ننعت البشر جميعاً على أساس أنهم "بنو آدم"، ولما قتل الأخ أخاه ولم يتبقى على وجه الأرض سوى ذلك الرجل، كانت البشرية جميعاً تنحدر للمرة الثانية من ذرية رجل واحد، فاستحق هذا الرجل أن يصبح هو أبو البشرية جميعاً كما كان والده من ذي قبل، فأصبح من الممكن أن ننعت البشرية جميعاً باسم أبيهم الثاني وهو – نحن نفتري القول- إسرائيل، فأصبحوا جميعاً "بنو إسرائيل"، وبهذا الفهم "المشوش" نزعم أنه يمكننا الآن أن نسلّط الضوء على أمور عديدة في النص القرآني نذكر منها:

1. ارتباط الصراع الذي حصل بين الأخوة في بداية السياق القرآني:

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَـٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: 27-31]

بعلاقته مع قضاء الله على بني إسرائيل:

- ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ۝٣٢﴾ [المائدة: 32]

فسنة الله الكونية هذه لا تنحصر – في رأينا- بأمة بعينها دون أمة ولكنها تخص البشرية بأكملها. ف "بنو إسرائيل" الذين كتب الله عليهم هذه السنة الكونية هم من انحدروا من سلالة القاتل من ابني آدم، وهو إسرائيل نفسه، لذا فهي – في فهمنا- سنة كونية تنطبق على كل البشر ولا تخص أمة عرقية بعينها.

2. قضية تحريم الطعام التي استنها إسرائيل على نفسه دون توجيه رباني:

- ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: 93]

فلا أظن أن هناك زمناً (بما في ذلك زمن يعقوب نفسه) كان فيه كل الطعام حلالا تناوله سوى زمن آدم وولديه، وأخال أن الفترة الوحيدة التي لم يكن قد وقع التحريم على شيء من الطعام بعد هي زمن آدم نفسه (طبعاً باستثناء الشجرة التي كانت في الجنة التي هبط منها)، وأخال كذلك أنها الفترة نفسها التي لم يكن هناك شرائع على وجه الأرض تبين ما هو حلال وما هو حرام، وأخال أن تلك الفترة كانت هي الفترة التي تصارع فيها ابني آدم معاً، ولمّا كان إسرائيل هو الوحيد على وجه المعمورة، ولمّا لم يكن قد نزل بعد من التشريعات ما يحلّ وما يحرّم، كان الرجل (إسرائيل) هو من يتخذ القرار بما يأكل وما يحرم على نفسه، وأعتقد أن الأمر كان مرتبطاً أيضاً بالنكاح، فترابط آيات الطعام مع آيات النكاح لا يمكن أن ينفك عراها في السياق القرآني (انظر مقلاتنا تحت عنوان تحريم لحم الخنزير وما يؤكل وما لا يؤكل)

> سنتطرق إلى قضية التحريم مرة أخرى عند الحديث عن عيسى بن مريم بحول الله وتوفيقه

سؤال: إذا كان إسرائيل هو ولد آدم الذي قتل أخاه وانحدرت البشرية جميعاً منه، فأصبحت البشرية هي من "بني إسرائيل" كما كانوا أصلاً من "بني آدم"، فمن هو ولد آدم المقتول الذي قتله أخوه إسرائيل؟ هل ورد اسمه في كتاب الله؟

افتراء أكثر خطورة من سابقه: نحن نظن أن الأخ المقتول الذي لم يبسط يده لقتل آخيه وآثر أن يقتل على يد أخيه إسرائيل هو نبي الله إدريس عليه السلام. كلام خطير، أليس كذلك؟

الدليل

عند تفقدنا للسياقات القرآنية حول إدريس وجدنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: 56-57]
- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ [الأنبياء: 85]

لو تدبرنا هذه السياقات القرآنية جيداً لوجدنا ما نبغي الوصول إليه:

- **أولاً**، تثبت الآيات الكريمة أن إدريس كان نبياً ولم يكن رسولا (إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا)

- **ثانياً**، تثبت الآيات الكريمة أن إدريس كان صديقاً (إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)
- **ثالثاً**، تثبت الآيات الكريمة أن الله قد رفع إدريس مكاناً عليّا (وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا)
- **رابعاً**، تثبت الآيات الكريمة التلازم بين إسماعيل وإدريس وذي الكفل (وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ)
- **خامساً**، تثبت الآيات الكريمة أن هؤلاء الأنبياء الثلاث كانوا من الصابرين (كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ)

ولنحاول أن نسلط الضوء على هذه القضايا علّنا – بحول الله وتوفيقه- نستطيع الخروج باستنباطات ذات علاقة بموضوع النقاش، سائلين الله أن يهدينا إلى الحق فلا نفتري عليه الكذب.

أما بعد،

إدريس كان نبيا

لا يذكر القرآن الكريم أن إدريس كان رسولا على الإطلاق ولكنه كان نبياً فقط، ولقد زعمنا في مقالاتنا السابقة أن النبوة هي ميراث وليست اصطفاءً كالرسالة، فالنبي الذي لا يكون رسولاً هو من ذرية نبي سبقه كيحيى وسليمان وإسحق وهكذا، وإن صح هذا الظن، فنحن بحاجة أن نسأل: كيف أصبح إدريس نبياً ولم يكن رسولا؟

جواب: مادام أن إدريس نبياً فيجب أن يكون – حسب تخريصاتنا السابقة- من ذرية نبي سبقه، ولو راجعنا كتاب الله لوجدنا أن إدريس فقط هو النبي الوحيد الذي جاء سابقاً لنوح، وما تشكلت الأمم (القرون) إلا من بعد نوح:

- ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء: 17]

ونحن نفتري القول بأن الناس قبل نوح كانوا جميعاً أمة واحدة، وما اختلف الناس إلا من بعد نوح، لأن نوح كان أول نبي مبشر منذر (أي رسولاً):

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]

فنوح (في نظرنا) هو أول نبي مبشر منذر (أي رسول – انظر الأجزاء السابقة حول الفرق بين النبي الذي جاء مبشراً منذرا والنبي الذي لم يكن مبشراً منذرا)، وهناك فقط بدأ الناس يختلفون فيما نزّل إليهم من ربهم، فتفرقوا إلى أمم:

- ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشورى: 13-14]

فلقد كان نوح هو النقطة التي بدأ فيها التفرق:

- ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 104-105]

ولقد افترينا القول سابقاً أن البينات لا تأتي إلا مع نبي مبشر منذر (أي رسول)، لذا يكون الاستنباط على النحو التالي: إدريس هو نبي (وليس رسولاً) جاء سابقاً لنوح، ولما كان إدريس نبياً ولم يكن رسولاً لم يأتي برسالة فيها تحريم وتحليل (أي البينات)، ولكنه جاء متبعاً لملة من سبقه كما كان الحال بالنسبة لإسحق ويعقوب مثلاً، لذا فهو – بلا شك – ابن نبي جاء قبله، فمن – يا ترى – يكون ذلك النبي الذي ورث إدريس منه النبوة ولم يصبح من الرسل المصطفين؟

جواب مفترى: لا أظن أن أحداً قد سبق نوح في ذلك سوى آدم، لذا فإننا نظن أن إدريس هو من ذرية آدم مباشرة

إدريس كان صدّيقاً

لو تعرضنا للسياقات القرآنية التي تتحدث عن مفردة "الصِدّيق" لوجدنا الخطاب خاصاً بأربعة فقط وهم مريم ويوسف وإبراهيم وإدريس.

فلقد جاء بخصوص مريم قول الحق:

- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]

وجاء قول الحق لينصف يوسف بعد حادثته مع امرأة العزيز على أنه صديق:

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ [يوسف: 46]

وكان إبراهيم صديقا نبياً

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم: 41]

كما كان إدريس من ذي قبل صديق نبياً

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٥٦﴾ [مريم: 56]

فما معنى أن يكون الشخص صِدّيقا (مذكر) أو صِدّيقة (مؤنث)؟ وبكلمات أكثر دقة، ما هي العلاقة بين هؤلاء الأشخاص الأربعة (مريم، يوسف، إبراهيم، إدريس) التي جعلتهم يشتركوا جميعاً (من بين كل من ذكر في كتاب الله) على أنهم صدّيقون:

- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: 69]

جواب مفترى: أعتقد أن مفردة الصديق هي صفة تنعت "صاحب العلاقة الجنسية"، ولكن كيف؟ فمما لا شك فيه أن مريم قد أحصنت فرجها:

- ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]

ولا شك لدينا أن يوسف قد امتنع عن الوقوع في الفاحشة مع امرأة العزيز:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

نتيجة: إن أهم ما يربط العلاقة بين مريم من جهة ويوسف من جهة أخرى هي العفة عن الوقوع في الفاحشة بطريقة غير شرعية، لذا نحن نظن أن الأولى (مريم) استحقت أن تكون صدّيقة وأستحق الآخر (يوسف) أن يكون صدّيقاً لأنهم – في رأينا- آثروا أن لا يقعوا بالفاحشة بطريقة غير شرعية.

ولكن ماذا بخصوص إبراهيم وإدريس؟

لو حاولنا ربط إبراهيم وإدريس من جهة مع مريم ويوسف من جهة أخرى، لربما احتجنا أن نكون أكثر دقة في وصفنا لمن هو صديق. فنحن نظن الآن أن الصدّيق ليس من لا يفعل فعل الجماع (لأن إبراهيم كان متزوجاً أصلاً)، ولكن الصدّيق هو الذي يكف عن فعل الجماع بغير الطريقة الشرعية، فمريم تستغرب أن تحمل مولودها ليس لأنها لا ترغب في الجماع (أو لأنها تنكره)، ولكن لأنها لا ترغب أن تفعله بطريقة غير الطريقة الشرعية، فالمتدبر لرد مريم على كلام رسول ربها إليها يجد أنها لا تحتج على فعل الجماع نفسه، ولكن على طريقته:

- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم: 20]

فهي لا ترغب أن تقترف الفاحشة، لدرجة أنها آثرت الموت على الظن بأنها قد اقترفت الفاحشة:

- ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: 23]

وبالمنطق نفسه يمكن أن نفهم تصرف يوسف:

- ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: 23]

فيوسف لا ينكر فعل الجماع أو حتى القيام به، ولكنه ينكر أن يقع فيه بغير الطريقة الشرعية حتى أنه آثر السجن على الشهوة:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 32-33]

نتيجة مفتراة: **الصِدّيق – في رأينا- هو ذاك الشخص الذي يتعرض لحادثة جنسية يمتنع فيها عن الوقوع في فعل الجماع بغير الطريقة الشرعية.**

سؤال: لماذا لا يذكر القرآن أن محمداً أو أن عيسى أو أن موسى كان صديقاً نبياً؟

جواب مفترى: لم يتعرض هؤلاء الأنبياء لفتنة يتم اختبار "صديقيتهم"، فمن تعرض من البشر لفتنة جنسية أعرض فيها عن الوقوع في الفاحشة بغير الطريقة الشرعية فهو يعتبر صديقاً كما حصل مع مريم وكما حصل مع يوسف حيث تم اختبار صديقيتهم.

سؤال: وماذا عن إبراهيم؟ هل تعرض لمثل هذه الحادثة؟

تخيلات لا أكثر، وظن من عندنا دون دليل: نحن نتخيل ما حصل مع إبراهيم على النحو التالي: لقد كان زواج المحارم شائعاً في زمن إبراهيم، وكان الناس لا يرون في ذلك ضيراً، ولكن لمّا كان إبراهيم قد وجد نفسه في هذه البيئة التي لا تحرّم مثل هذا الزواج غير الشرعي (وهو لا زال شاباً في ذروة قدرته ورغبته الجنسية)، كان هو من آثر الكف عنه، فرفضه تماماً، ولم يرض إبراهيم أن يتزوج من قومه حتى اعتزلهم وخرج من ديارهم، ولكن أين الدليل على هذا الافتراء؟

جواب: لنتدبر الآية الكريمة التالية جيداً:

- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٩﴾ [مريم: 49]

فإبراهيم يعتزل قومه في كل شيء ليس فقط في المأكل والحديث وإنما في النكاح أيضاً (انظر الجزء السابق حول معنى مفردة الاعتزال وارتباطها بالنساء، خاصة افتراءنا الذي مفاده أن الاعتزال لا يتم إلا لسبب شرعي كاعتزال النساء بسبب المحيض مثلاً)، فيؤثر عدم الزواج على اقتراف فاحشة الوقوع في زنا المحارم، لذا استحق الرجل أن يكون صديقاً نبياً. ولو دققنا مليّاً في الآية السابقة لوجدنا أن الذرية لم تتحصل لإبراهيم إلا بعد أن اعتزل قومه.

وماذا عن إدريس؟ لماذا كان إدريس صدّيقاً أيضاً؟

رأينا: لا شك عندنا أن الزواج في زمن ابني آدم كان يقع بين الأقارب، فلا يمكن للبشرية أن تستمر ما لم يتزوج الأخ بأخته، فزواج الأخوة كان أمراً لا مفر منه (عندما كان كل من على الأرض قد خرج من بطن حواء)، ولكننا نرى أنه بالرغم أن الزواج كان يقع بين الأخوة إلا أن الحاجة كانت متوافرة لتنظيم العلاقة، فالسؤال الذي نود أن نطرحه هنا هو: كيف كان الزواج يُنظّم في تلك الفترة من تاريخ البشرية؟ هل كان فعلاً كفعل الأنعام والدواب مثلاً؟

الجواب: كلا، فالإنسان بفطرته يأبى أن يسك سلوك البهائم (الأنعام والدواب والطيور، الخ) في العلاقة الجنسية.

سؤال: كيف إذاً يمكن تخيل إقامة العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى في ذلك الزمن؟

جواب مفترى: لو تفحصنا فقه الزواج لوجدنا أنه ليس أكثر من تنظيم للعلاقة الجنسية بين أفراد المجتمع، فكل مجتمع يقوم بتنظيم تلك العلاقة بطريقته الخاصة حتى وإن كان ذلك المجتمع لا يحتكم إلى تعاليم ربانية، فالمجتمعات الإلحادية تنظم تلك العلاقة بقوانين وتشريعات من عند أنفسهم بينما تنظم المجتمعات المتدينة تلك العلاقة بتشريعات يظنون أنها من عند ربهم، فالبشر بطبعهم (بفطرتهم) يميلون إلى تنظيم تلك العلاقة بغض النظر عن درجة تقبلهم للدين، فحتى أشد الناس إلحاداً وكفراً بالتعليمات الربانية لا يرضى (ولا تتقبل فطرته) أن ينتهك تشريعات مجتمعه في تنظيم تلك العلاقة، فلربما لا يوجد حضارة على وجه الأرض لا تنظم تلك العلاقة، فيقوم الناس بسن التشريعات (وإن لم تكن مكتوبة) التي تُحِلّ لهم وتحرّم عليهم ما يتعلق بهذه العلاقة، ولو تدبرنا النص القرآني جيداً بخصوص قضية النكاح لربما وجدنا ملاحظة غاية في الأهمية تخص طريقة التشريع في هذه الجزئية :

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: 23]

ونكاد لا نجد صيغة موازية لذلك في النص القرآني بأكمله سوى ما يتعلق بالأطعمة:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]

وهنا ندعو القارئ الكريم إلى الالتفات إلى لفظة " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ " في السياقين القرآنيين (سياق الحديث عن النكاح وذاك الخاص بالطعام) حيث وردا بصيغة " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ " وهنا نطرح سؤالين اثنين وهما:

1. لماذا جاء الفعلين (النكاح والأكل) بنفس الصيغة " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ "؟
2. من الذي أوجد (فرض علينا) فعل التحريم؟

جواب: سنترك السؤال الأول لنخصّه بمقالة منفصلة بحول الله وتوفيقه لاحقاً (وندعو القارئ الكريم إلى الرجوع إلى مقالتنا تحت عنوان تحريم لحم الخنزير وما يؤكل وما لا يؤكل أولاً) لننتقل الآن للحديث عن السؤال الثاني الذي نظن أنه ذات علاقة وثيقة بقضية النقاش هنا وهو: من الذي حرّم علينا؟ من الفاعل الذي اختط علينا (أو لنقل فرض علينا) هذا التحريم؟

جواب: ستنطلق حناجر الجميع بالقول أن الله هو من حرّم علينا ذلك. فذلك في رأيهم تشريع رباني، أليس كذلك؟

رأينا: دعنا نخالفكم الرأي قليلاً من خلال طرح سؤال آخر وهو: لماذا لم ترد قضية التحريم بصيغة أن الله هو من حرم علينا ذلك؟ لماذا ورد التحريم في قضيتي النكاح والأكل بصيغة المبني للمجهول (كما يحب أهل القواعد أن يصفوه)؟ فهل الله مجهول لتأتي الصيغة على نحو " حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ"؟

ثم، لنطرح القضية بطريقة أخرى، دعنا نرى ما الذي حرمه الله فعلاً علينا:

- ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151]

دقق – عزيزي القارئ- في النص جيداً، فهذا هو ما حرم الله علينا:

1. أن لا تشركوا به شيئاً
2. وبالوالدين إحسانا
3. ولا تقتلوا أولادكم من إملاق
4. ولا تقربوا الفواحش
5. ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق

السؤال: أين النكاح وأين الطعام في كل هذه التحريمات التي وردت بصيغة أن الله هو الذي حرمها علينا (مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ)؟

فقد يرد البعض على الفور بالقول أن النكاح موجود في قوله تعالى "وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ"، فالزنا هو فاحشة:

- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: 32]

فنقول هذا كلام صحيح: الزنا هو فاحشة، ونحن مأمورون حتى بعدم الاقتراب منه، لكن سؤالنا هو: ما الذي يمكن أن يعتبر زنا؟ هل زواج الأخ بأخته زنا؟ هل زواج الرجل بخالته زنا؟ وماذا عن زواج الرجل بابنة عمه؟ ما هو الحد الذي يصبح الأمر عنده زنا؟ لم لا يكون الزواج بابنة العم أو ابنة الخال مثلاً من الزنا؟ صحيح أن الله هو من أمرنا بعدم الاقتراب من الفواحش (ولا شك أن الزنا واحدة منها)، ولكن السؤال المطروح هنا هو: ما هي العلاقة التي يمكن أن تعتبر زنا والعلاقة التي لا تقع في باب الزنا؟ فمن هو الذي حدد أن هذه العلاقة أو تلك تقع في باب الزنا أو عدمه؟

نتيجة: التحريم والتحليل في العلاقة الجنسية هو أمر نسبي يعتمد على درجة صلة القرابة بين الرجل والمرأة، وهو يختلف من مجتمع إلى آخر، فنكاح الأم أو البنت يعتبر من أشدها تحريما حتى تكاد كل أمم الكون تحرمه، ونكاح الأخت ربما يأتي في الدرجة الثانية، ونكاح بنت الأخ أو بنت الأخت ربما يأتي في الدرجة الثالثة، وهكذا، حتى يصبح الأمر بعد ذلك أمراً قابلاً للجدل، فتتقبله بعض المجتمعات وتنفر منه أخرى، ففي حين أننا نحن المسلمين نتقبل فكرة نكاح بنت العم أو بنت الخال، نجد أن بعض المجتمعات الأخرى تدرج ذلك ضمن قائمة المحرمات، وهكذا.

ما علاقة هذا الافتراء الذي هو - لا شك- من عند أنفسنا بإسرائيل وإدريس ابني آدم؟

جواب: يمكن أن ننشئ علاقة مفتراة بين ما نفهمه نحن من فكر الزواج بشكل عام مع قصة ابني آدم بشكل خاص إن نحن طرحنا السؤال على النحو التالي: كيف كان ابني آدم ينظّمون العلاقة الجنسية في مجتمعهم وهم لا زالوا جميعاً إخوة من أب وأم (آدم وحواء)؟

رأينا: لا شك أن ابني آدم قد وضعوا لأنفسهم تشريعات من شأنها أن تقوم بتنظيم تلك العلاقة التي ستنشأ بينهم من جهة وأخواتهم من الإناث من جهة أخرى. ولكن كيف؟

تخيلّات مبنية على افتراءات من سبقونا: يتحدث أهل العلم والدراية أن أبناء آدم كانوا ينظمون العلاقة على النحو التالي: حواء تنجب في كل مرة اثنين (ذكر وأنثى)، فيقوم الذكر من البطنة الأولى (كما تقول كثير من نساء الأردن في وصف ذلك) بالزواج من الأنثى من البطنة الأخرى، وهكذا. ونحن إذ لا ندري لم كانت حواء تنجب اثنين في كل مرة على وجه التحديد، لكننا سنحاول أن نصدق ظن من سبقونا لنزيد عليه من تخريصاتنا التفصيل التالي: يولد إدريس مع أخته في البطنة الأولى ويولد إسرائيل مع أخته في البطنة الثانية، فعندئذ يكون من الطبيعي (ولا يعتبر زنا في ذلك الوقت) أن يتزوج إدريس من شقيقة إسرائيل وأن يتزوج إسرائيل من شقيقة إدريس، وبغير ذلك يكون الأمر قد وقع في باب التحريم وبالتالي في باب الزنا.

ولما كان إسرائيل قد اعتدى لا يرضى بذاك التشريع، فينافس إدريس على شقيقته، ولما كان إدريس (الأخ الذي لم يعتدي) يدرك أن ذلك يقع في باب الزنا لأنه يخالف التشريعات التي اتفق عليها الأخوان (فقضية

التحريم في النكاح وفي الطعام يقع ضمن باب العقود)، يرفض أن يقع في الفاحشة، فيؤثر العفة على اقتراف ما لم يوافق التشريع في ذلك الزمن، لذا يصبح الرجل بعد هذه الاختبار العسير صدّيقاً.

قصة القربان

لماذا قدما ابني آدم قربانا؟ لم تقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر؟ وكيف علم الأخوان أن الله قد تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر؟

هذه أسئلة عديدة تنتظر إجابات شافية مدعومة بالدليل المقنع من كتاب الله، لذا سنترك جلها هنا لنحاول التفصيل فيها في مقالات قادمة بحول الله وتوفيقه، لكن سنعرض فقط لسطورها العريضة التي تهمنا في البحث الذي نجهد أنفسنا فيه هنا وهو قصة إدريس وأخيه إسرائيل.

أما بعد

نحن نفتري القول أن تقديم القربان قد جاء في الأساس لفض خلاف بين الأخوة، فلما لم يستطع أحدهما أن يقنع الآخر بما يراه صحيحاً لجأءا إلى الاختبار (الذي يمكن أن يكون الفيصل بينهما) فكان تقديم القربان:

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا ... ٢٧﴾ [المائدة: 27]

لكن لماذا قرّبا قرباناً؟

أولاً، يجدر الإشارة إلى أن الأخوة قربا القربان نفسه، قدمه أحدهما فتقبله الله منه وقدمه الآخر فلم يتقبله الله منه:

- ﴿... فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ ... ٢٧﴾ [المائدة: 27]

ونحن نزعم الظن بأن الله تقبل القربان من إدريس ولكنه لم يتقبله من إسرائيل، فتطوع نفس إسرائيل له قتل أخيه إدريس، فيقتله:

- ﴿... قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

ولكن لماذا؟

جواب مفترى: لمّا كان الخلاف بين الأخوة خاصاً بتشريع، لذا نحن نظن أن الله تقبل من الذي التزم بالتشريع الصحيح لكنه لم يتقبل من الذي خالف التشريع الصحيح، ولما كان إدريس هو من التزم بالتشريع الصحيح تقبل الله منه، ولما كان إسرائيل هو من خالف التشريع الصحيح لم يتقبل الله منه.

نتيجة وافتراء من عند أنفسنا: لما رفض إدريس أن ينقض تشريعات (نظن أنها خاصة بالنكاح والوقوع في ما هو محرّم عليه من النكاح حتى تلك اللحظة) حضي الرجل بشرف أن يكون صدّيقاً. ولكن نفس إسرائيل الذي لا شك لم يكن لـ يلتزم بالتشريعات الصحيحة كانت قد طوعت له قتل أخيه فقتله.

سؤال: لماذا افترضت أن الخلاف بين الأخوة كان قد نشب بخصوص النكاح؟

جواب مفترى: لا أظن أن الرجلين كانا سيختلفان بخصوص قطعة أرض (كما يحدث مع أبناء عمومتي)، أو بخصوص مرعى لمواشيهم (كما كان يحدث مع بعض جيراننا)، أو بخصوص آبار المياه (كما يحصل مع القبائل البدوية في المسلسلات الأردنية)، أو أن الخلاف كان على بئر نفط (كما يحدث بين شمال السودان وجمهورية جنوب السودان العظيمتين)، أو بسبب جزيرة في البحر (كما هو الخلاف بين إيران والأمارات على أبو موسى أو على أبو مصطفى)، أو أنه كان خلافاً أيدلوجياً (كما كان الخلاف بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي أيام الحرب الباردة) أو خلافاً على زعامة فرقة دينية ضد فرقة دينية أخرى (كما يحصل مع من يحمل راية آهل السنة ضد أهل التشيع أو من يلبس عمامة أهل البيت ضد من يظنون أنهم يناصبوهم العداء)، ولا... ولا...، لكني أظن أن ما كان موجوداً على الأرض حينئذ لا زال يكفي شخصين اثنين، فأرض الله واسعة، وخيراتها وفيرة تكفي لأكثر من شخصين، فما هو الأمر الذي كان يمكن أن يسبب الخلاف بين الأخوة في ذلك الزمن؟

جواب: هذا سؤال كبير جداً له تداعياته الهائلة التي سنتعرض لها – إن أذن الله لنا بشيء من علمه- في مقالة منفصلة حول قصة ابني آدم. لكن يكفي أن نذكّر القارئ الكريم بواحدة من السلوكيات التي أخذناها من موروثاتنا الدينية والتي لا أظن أننا حتى الساعة قد نفذنا إلى الحكمة فيها ألا وهي سنة الذبح عند الزواج.

سؤال: لم نحن منصوحون أن نقيم الوليمة في الزواج؟ لم لم نؤمر بالذبح عند الموت مثلا؟

جواب: سأترك للقارئ الكريم حرية التفكير وربط الأحداث مع بعضها البعض بعد تأمل التساؤلات التالية التي ربما تكون أكثر إثارة وأكثر مدعاة للتدبر والتفكير:

- لماذا نحن مأمورون بعدم مجامعة النساء (أي الرفث) في الحج؟ وما هي كفارة من يفعل مثل ذلك؟
- لماذا نحن مأمورون بالإحرام (لبس الإحرام) في الحج؟ وما هي كفارة من يفعل عكس ذلك؟
- هل كفارة الرفث في الحج مثل كفارة الرفث في نهار رمضان؟

- أليست الفريضتان (الحج والصوم) من أركان الإسلام؟ فلم تختلف العقوبة (عقوبة الرفث) في كل واحدة منهما؟

إدريس يرفع مكاناً عليا

لماذا أختص إدريس بهذا المكان العلي؟

قال تعالى:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 176]

إننا نظن أن عكس الرفع إلى الأعلى هو الخلود إلى الأرض: فهناك من يرضى أن يرتفع وهناك من يختار أن يخلد إلى الأرض، ولا يكون هناك من يخلد إلى الأرض إلا من يتبع هواه. فلو حاولنا تدبر ذلك في قصة ابني آدم لوجدنا أنه في حين أن القاتل قد اتبع هواه وأخلد إلى الأرض أختار المقتول أن يرتفع:

- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: 27-29]

فالمقتول يعلم أن القبول لا يكون إلا من المتقين، فيرفض أن يبسط يده ليقتل أخاه، ويؤثر أن لا يبوء بإثمه وأثم أخيه، ولما كانت هذه هي نيته، كانت خاتمته:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: 56-57]

بينما القاتل يعلم (لأنه من الظالمين) ذلك، ولكنه يؤثر أن يبسط يده لقتل أخيه إتباعا لشهواته ونزواته.

إدريس كان من الصابرين

قال تعالى:

- ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: 85]

أولاً، لابد من الإشارة أن الصبر يحدث يوم أن تحصل المنازعة التي تخص التشريعات الدينية، فنحن مأمورون أن نطيع الله ونطيع رسوله (وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) وأن لا تنازع في ذلك (وَلَا تَنَٰزَعُواْ) لأنه بخلاف ذلك سنفشل وتذهب ريحنا لأننا بكل تأكيد سنتفرق (فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ)، وكل ذلك يحتاج إلى الصبر مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46]

فعندما يحدث الاختبار الحقيقي للصبر، لا نجد أن أحدا قادر على ذلك إلا من ارتضى بشرع الله وتقبّله مهما كلّفه الأمر، وعندها يكون الإنسان من الصابرين، وليس أدل على ذلك من صبر إسماعيل على رؤيا والده:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

فلما صبر إسماعيل على تلك "المصيبة" (لنقل تجاوزاً)، استحق أن يكون من الصابرين، فجمع مع إدريس ومع ذي الكفل:

- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ [الأنبياء: 85]

ولو تدبرنا قول موسى للرجل الذي ذهب إليه طالباً صحبته، لوجدناه يردد تقريباً ما قاله إسماعيل لوالده:

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ [الكهف: 69]

لكن المفارقة المذهلة هي أنه لما لم يستطع موسى على أن يصبر على صحبة الرجل لا نجد أن الله قد جمع موسى مع هؤلاء الثلاثة وهم إسماعيل وإدريس وذا الكفل.

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أن الصبر لا يكون إلا بعد وقوع الابتلاء:

- ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد: 31]

فوقوع الابتلاء يكون من أجل أن ينتهي العلم إلى الله بمن هو من المجاهدين وبمن هو من الصابرين، لذا كانت تجربة إبراهيم وولده إسماعيل هي في حقيقة الأمر ابتلاء، فخرج منها إسماعيل منتصراً لأنه أثبت أنه من الصابرين:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: 104-106]

نعم، لقد كانت تلك التجربة ابتلاء لإبراهيم ولكن إسماعيل هو من خرج منها صابراً.

سؤال: لم لا يكون إبراهيم أيضاً من الصابرين؟

جواب مفترى: إننا نظن أن الصبر يكون من نصيب من يقع عليه الفعل وليس من قام بالفعل، فإبراهيم هو الذي أبتلي ولكن إسماعيل هو من صبر.
افتراء من عند أنفسنا: لو حاولنا ربط العلاقة بين رسل الله الثلاثة المذكورين في آية الصابرين لوجدنا أنهم هم من وقع عليهم البلاء:

- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ [الأنبياء: 85]

فإسماعيل قد صبر بسبب الابتلاء الذي وقع على والده إبراهيم فنجح فيه، وإدريس قد صبر على الابتلاء الذي وقع فيه أخوه إسرائيل الذي خرج منه خاسراً، ولكن ما قصة "ذي الكفل"؟

من هو ذو الكفل؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن أن "ذا الكفل" هو نبي قد مرّ بتجربة ابتلاء من أقاربه بالضبط كتلك التي حصلت لإسماعيل مع أبيه ولإدريس مع أخيه.

سؤال: من هو أصلاً ذو الكفل؟

جواب: نحن نفتري القول أن ذا الكفل هو والد النبي هارون (الأخ غير الشقيق لموسى) وهو نفسه ذلك الرجل الصالح الذي كفل موسى في صغره.

الدليل
لنعود قليلاً إلى قصة موسى مركزين هذه المرّة على ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]

السؤال: من هم أهل البيت الذين "تكفّلوا" موسى؟

جواب قديم: لا شك أنها أمه؟

رأينا: كلا، نحن لا نتحدث عن شخص بعينه، ولكن نتحدث عن أهل بيت، فمن هم أهل البيت الذين تكفّلوا موسى؟ فالله قد أرجع موسى إلى أمه:

- ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]

والله قد ردّ موسى إلى أمه:

- ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص: 13]

لذا، فإن سؤالنا لا يخص رجوع موسى أو ردّ موسى، ولكنّه يركز على كفالة موسى، فنحن هنا نتحدث عن الكفالة على وجه التحديد، فهل تكفل الأم ولدها؟

رأينا: لا شك عندنا أنّ الكفالة لا تكون لأهل البيت أنفسهم، فهذا زكريا يكفل مريم:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

فمادام أنّ زكريا ليس من أهل بيت مريم، فقد حصلت له كفالة "الطفلة"، فمن أراد أن يكفل شخصاً لا يكون من أهل بيته أصلاً، وإلاّ لما اعتبرت تلك كفالة:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: 44]

فأهل البيت لا يتخاصمون في الكفالة لأن الكفالة لا تبنى على صلة القرابة، فأهل البيت يعرفون درجة قرابتهم من بعضهم البعض، لذا يكون الأكثر قربة للشخص هو صاحب الحق، فيمكن فضّ الخلاف بسهولة، فلا يحصل التنازع على ذلك، ولكن لمّا كانت الكفالة من غير أهل البيت أنفسهم ربما تحدث المخاصمة بين من يريد الكفالة، فالناس في زمن مريم اختصموا في كفالتها لأن كل منهم رأى أحقيته في ذلك، ولو كان هناك صلة قرابة واضحة بين مريم وهؤلاء الناس لادّعى الأقرب صلة بها حقه في ذلك، ولو احتكمنا إلى النص القرآني نفسه، لوجدنا أن أهل البيت لهم الولاية وليست الكفالة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ

مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

وليس أدلّ على ذلك مِنْ مَنْ يتولى أخذ حق المقتول من القاتل:

- ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: 33]
- ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: 49]

لذا نحن نزعم الظنّ أن الكفالة لا تقع إلاّ من شخص لا يكون من أهل البيت أنفسهم، ولندقق النظر في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: 23]

فلو كانت تلك النعجة من حقه أصلاً لما طلبها كفالةً.

نتيجة مفتراة: لقد ذهبت كفالة موسى إلى شخص ليس من أهل بيته، لذا جاء قول أخته على النحو التالي في موقع آخر من كتاب الله:

- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: 40]

دقق عزيزي القارئ بالعبارة التي تحتها خط "عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ" جيداً، إنّ أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباط هنا هو أن الذي كفل موسى هو شخص مذكر، فالنص القرآني يتحدث عن "مَن يَكۡفُلُهُۥ" وليس "من تكفله". فالكفيل هو رجل بعينه. وهو صاحب ذلك البيت الذي تعيش أم موسى معه الآن، ولكن من هو ذلك الرجل؟ ولماذا تعيش أم موسى معه؟

جواب: هذا سؤال كبير سنتعرض له في خضم حديثنا عن طفولة موسى، لكن يكفي الآن أن نجيب على التساؤل المطروح بطرح سؤال آخر وهو: أين هو والد موسى؟

إن المتدبر للسياقات القرآنية الكثيرة التي تتحدث عن قصة موسى يجد أنها قد خلت جميعها من التطرق لوالد موسى، ففي جميع تلك السياقات القرآنية لا نجد ظهوراً (ولو عارضاً) لوالد موسى. فهناك أم موسى، وهناك أخت موسى، وهناك أخ موسى، فأين إذاً هو والده؟

جواب مفترى: إننا نظن أن والد موسى كان قد مات قبل ولادة موسى، ونجزم الظن أن أم موسى قد تزوجت برجل آخر (وهو من سيكون والد هارون)، ونحن نزعم الظن أن هارون وموسى هم إخوة من الأم وليسوا أخوة من الأب، فموسى هو نصف شقيق لهارون (ابن أمه فقط):

- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: 150]
- ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾ [طه: 94]

(وسنتعرض لتبعات هذا الظن بالتفصيل في مقالة منفصلة بحول الله وتوفيقه حول طفولة موسى)

لكن ما يهمنا طرحه هنا هو أن هارون هو ابن أم موسى وموسى ابن أم هارون، لكنه ليس ابن أبيه. لذا كانت أم موسى – في تخيلاتنا المفتراة – تسكن في بيت ذلك الرجل يوم أن تكفّله زوج أمه، وذلك الرجل الذي تزوج بأم موسى وحرص على كفالة موسى يوم أن وقع الطفل بين يدي فرعون هو - في رأينا- صاحبنا "ذو الكفل".

ولكن أين الدليل أنه فعلاً ذلك الرجل؟

الدليل

سنحاول استنباط الدليل على زعمنا هذا بعد سرد جملة من الافتراءات بناء على قراءتنا لبعض السياقات القرآنية

أولاً، لقد بعث الله إلى بني إسرائيل رسولين اثنين هما موسى وهارون، أليس كذلك؟

- ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه: 47]

ولكن المتدبر لبعض السياقات القرآنية يجد أن الله يتحدث عن قرية على وجه التحديد جاءها اثنان من المرسلين، ولكن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فيأتي التعزيز من الله لهم برسول ثالث:

- ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤﴾ [يس: 13-14]

ولو تابعنا السياق القرآني نفسه لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ [يس: 20]

ولو حاولنا البحث في قصة موسى مجدداً لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢٠﴾ [القصص: 20]

افتراء من عند أنفسنا: إننا نظن أن هذا التطابق بين الآيتين لم يأتي صدفه: إنه الرجل نفسه الذي كتم إيمانه في بداية الدعوة فجاء محذراً موسى من مؤامرة الملأ، وهو نفسه الذي تحدث بعد أن ظهرت دعوة موسى على الملأ بملء فيه:

- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٢٩ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٣ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾ [غافر: 28-34]

فلو تدبرنا خطاب هذا الرجل لوجدنا أنه خطاب من النوع الذي لا يستطيع أن يقوم به إلا رجل صاحب رسالة. ونحن نظن أن هذا الرجل هو فعلاً رسول جاءته الرسالة من قبل موسى ولكنه كان يكتمها ويدعو لها سراً، إنه - في رأينا- هو ذو الكفل الذي تكفل موسى، فكتم إيمانه في البداية وحاول أن يرد القوم عن المكر بموسى، ولكنه في نهاية المطاف أظهر إيمانه، فما كان من قومه (آل فرعون) إلا أن أوقعوا عليه ابتلاء حقيقي

عندما خيّروه إما بالارتداد إلى ألهتهم أو بالقتل، فاختار الطريق الصحيح وصبر على عذاب قومه فكان من الصابرين، لذا نجد خاتمته على النحو التالي:

- ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس: 22-27]

> سنتعرض بالتفصيل لهذه الجزئية عند الحديث عن طفولة موسى لنفتري القول حينها أن ذا الكفل كان سبباً في إيمان امرأة فرعون، وسنحاول تبيان علاقة القرابة بينهما.

فاستحق بذلك – في رأينا – أن يذكر مع من صبر على الأذى من أقرباءه:

- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ [الأنبياء: 85]

ولكن هناك وقفات لا بد منها عند التعرض لحديث الرجل إلى قومه (وهم قوم فرعون)، فلنحاول التفكر بكلام الرجل بطريقة جديدة:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [غافر: 30-33]

ويمكن التطرق عند خطاب الرجل في المحطات التالية:

1. الرجل يخاطب من حوله بصفة أنهم قومه (وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ)
2. الرجل يحذر القوم من يوم الأحزاب (إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ)
3. الرجل يعرض لهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم (مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ)
4. الرجل يحذرهم من يوم التناد (وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ)
5. الرجل ينبأهم بما سيحل بهم في يوم التناد بأنهم سيولون في يوم التناد مدبرين (ي يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ)

لماذا خاطب الناس من حوله بصفة القوم؟

جواب: لأن كل رسول كان قد بعث إلى قومه، فلهذا الرجل قومه كما كان لموسى قومه، ولو حاولنا عقد مقارنة مع أنبياء آخرين لوجدنا أن للوط مثلاً قوم كما كان لإبراهيم قوم على الرغم أن إبراهيم ولوطا كانا قد بعثا في الفترة الزمنية نفسها.

لماذا حذرهم من يوم الأحزاب؟ ومن هم الأحزاب أصلاً؟
جواب: الأحزاب – حسب النص القرآني – هم ستة فقط:

- ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣﴾ [ص: 11-13]

ولو تأملنا جيداً في هذا النص القرآني لوجدنا أن الأحزاب هم كل الأقوام الذين وقع عليهم العذاب الإلهي، ولو حاولنا ربط هذه الحقيقة القرآنية بحديث صاحبنا "ذو الكفل" سابقاً لوجدنا أمراً عجيباً وهو أن الرجل قد حذر القوم من ما حل بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ولكنه لم يذكر قوم فرعون (أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ).

سؤال: لماذا ذكر الرجل قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ولم يذكر قوم فرعون على وجه الخصوص (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ)؟

رأينا: لأن من يخاطبهم الآن هم أنفسهم (آل فرعون).

سؤال: كيف عرف رجل مثل هذا ما حل بهذه الأقوام السابقة؟

رأينا: لا يمكن أن تتحصل مثل هذه المعرفة إلا لرسول يوحى إليه.

سؤال: كيف وجه الرجل الخطاب إلى القوم؟ أو ما هي صيغة الخطاب؟

الجواب: " إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ "

لو تأملنا هذه الصيغة جيداً وتتبعناها في النص القرآني لوجدنا أنها خطاب مميز للرسل، فهذا نوح يحذر قومه بهذه الصيغة:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: 59]
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: 25-26]

وهكذا جاء خطاب شعيب إلى قومه:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: 84]

وبالصيغة نفسها جاء خطاب هود:

- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: 123-135]
- ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: 21]

وهو الخطاب نفسه الذي جاءنا به محمد:

- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: 1-3]

وهكذا كان خطاب صاحبنا الذي كتم إيمانه:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [غافر: 30]
- ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: 32]

سؤال: لماذا سمي هذا الرجل بـ "ذي الكفل"؟

لو تأملنا الاسم جيداً لما وجدناه أسم علم ولكنه صفة لشخص لا يذكر اسمه الحقيقي، "فذو الكفل" تشبه "ذو القرنين"، وهكذا. لذا فهو الرسول الوحيد الذي لم يذكر أسمه صراحة، أليس كذلك؟

سؤال: لماذا لم يذكر اسمه صراحة؟

افتراء من عند أنفسنا: لأنه هو الرسول الوحيد الذي كتم إيمانه ولم يظهر للناس أنه رسول من رب العالمين.

سؤال: لماذا سمي بذي الكفل على وجه التحديد؟

افتراء من عند أنفسنا: لأنه هو من كفل موسى، وهو يختلف في ذلك عن زكريا، ففي حين أن زكريا كان رسولاً يكفل الأيتام إلا أنه كان يظهر للعلن أنه رسول من رب العالمين، ولكن هذا الرجل كان رسولاً يكفل الأيتام إلا أنه لم يظهر نفسه للعلن أنه رسول من رب العالمين. (وسنتحدث عن هذا الكتمان وأثره على إيمان امرأة فرعون التي اختارت أن يبني الله لها بيتاً في الجنة لتنجو من فرعون وعمله في المقالة القادمة عن طفولة موسى بحول الله وتوفيقه)

ثانياً، لماذا حذر هذا الرجل قومه من يوم التناد (يوم يولون مدبرين)؟

جواب: الرجل يعلم أن نهاية القوم ستكون بأن يولون مدبرين ويعلم كذلك أن العذاب واقع بهم لا محالة إن هم أنكروا دعوة الرسل إليهم وأصروا على البقاء على دين أبائهم وأجدادهم، وبالفعل حصل ما حذر الرجل قومه منه:

- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: 77]
- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: 52]
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: 23-24]

فهذا فرعون يلحق بموسى وقومه بعد أن يهربوا في الصباح الباكر، ويكون الهروب من الغرب باتجاه الشرق:

- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: 60-61]

يغرق الله فرعون وجنوده:

- ﴿۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: 90]

- ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: 78]
- ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: 39-40]
- ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: 38-40]

نتيجة: لقد لحق بآل فرعون ما كان الرجل الذي يكتم إيمانه قد حذّرهم منه من ذي قبل، فكيف بالرجل يتنبأ بخاتمة القوم بالضبط كما حصلت لو لم يكن رسولاً يوحى إليه.

لكن هذا النقاش يدعونا إلى إثارة تساؤل آخر وهو: إذا كان الله قد أهلك فرعون وجنوده غرقاً في اليم، فما الذي حل بقوم فرعون من بعده؟ وما الذي حل بقوم فرعون الذين قدّم لهم موسى الآيات التسعة؟ هل يعقل أن يكون فرعون وجنوده وكل قومه قد خرجوا مطاردين موسى ليغرقوا جميعاً في اليم؟

جواب: إننا نظن أن الذي أهلكوا غرقاً في اليم هم فرعون وجنوده فقط:

- ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: 78]
- ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: 40]
- ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: 40]

سؤال: إذاً، ماذا حل بقوم فرعون أجمعين؟ ماذا حل بمن لم يكن من جنود فرعون لكنه من قوم فرعون؟ كيف أهلك الله قوم فرعون أجمعين؟ ألم يأتِ خبر تدميرهم أجمعين في كتاب الله؟

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: 35-36]

ألم يرث بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها من بعد هلاك فرعون وقومه أجمعين؟

- ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: 137]

سؤال: كيف إذاً تم تدمير قوم فرعون خاصة الذين لم يصيبهم العذاب بالغرق؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد وقع على فرعون وقومه عذابان: الغرق والصيحة، ففرعون وجنوده كانوا قد أهلكوا غرقاً باليم، بينما تم تدمير من بقي من قوم فرعون (خاصة الذين لم يلحقوا بموسى) بالصيحة.

الدليل

يأتي دليلنا من قصة "ذا الكفل" الذي ابتدأناها، فلنعيد قصة الرجل كاملة لنتأمل ما حل بقومه:

- ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧ ۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾ [يس: 20-29]

إن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى (وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ) ليحذر موسى من المكر الذي يدبره له الملأ من حاشية فرعون هو نفسه الذي جاء ليحث الناس على إتباع الرسالة (قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)، ومحذراً القوم في الوقت ذاته من سوء الخاتمة، وهو نفسه الذي تدلّ نهايته على أن القوم قد قتلوه (قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ)، ولكن الذي يهمنا أكثر هنا هو كيف كان خاتمة القوم (إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ).

فما هي الصيحة؟

عند سؤالنا العامة عن الصيحة التي يأتي ذكرها في كتاب الله، كان جوابهم يتمحور غالباً حول الظن بأن الصيحة هي عذاب وقع من الله على قوم من الأقوام، فالعامة – من أمثالنا- كانوا يظنون على الدوام أن الصيحة عذاب قد وقع على قوم بعينهم، ولكن عندما كنّا نتبع السؤال بالسؤال، حاولنا أن نسألهم عن أولئك القوم الذين أخذتهم الصيحة، وهنا كانت المفارقة العجيبة، كان العامة يعلمون تماماً أن قوم نوح قد أهلكوا بالطوفان، وأن قوم فرعون قد أهلكوا بالغرق، وأن ثمود (قوم صالح) قد أهلكوا بالطاغية، وأن عاد (قوم شعيب) قد أهلكوا بالريح العاتية، وأن الله قد أمطر قوم لوط بحجارة من سجيل بعد أن جعل عاليها سافلها، ولكن العامة لا يعلمون من هم القوم الذين أهلكوا بالصيحة.

وكنا نجد الدهشة بادية عند الكثيرين عندما كنا نخبرهم أن جميع الأقوام التي نزل عليها العذاب قد وقعت عليهم الصيحة مصاحبة لذلك العذاب، لذا نستميح السادة العلماء العذر أن نوجه انتباه القارئ الكريم (بعد أربعة عشر قرناً من الزمن) إلى الحقيقة القرآنية التالية:

(1لم ينزل على قوم عذاب من ربهم إلاّ واتبعتهم الصيحة، فالأقوام التي هلكت بعذاب مباشر من ربهم هم قوم نوح وقوم صالح وقوم شعيب وأصحاب الأيكة وقوم فرعون، وأولئك هم الأحزاب:

- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: 12-13]

فبالرغم أن عذاب الله كان يختلف في كل قوم إلا أن العذاب المشترك الذي نزل بهم جميعاً هي الصيحة، فقوم نوح مثلاً قد هلكوا بالطوفان لكن مع ذلك فقد أخذتهم الصيحة، وهكذا حصل مع قوم لوط وثمود ومدين وأصحاب الأيكة وقوم فرعون. ولو تدبّرنا الآيات القرآنية السابقة نفسها ولكن في سياقها الأوسع لوجدنا أن الصيحة كانت من نصيبهم جميعاً:

- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: 12-15]

ولنستعرض السياقات القرآنية الخاصة بكل قوم من هذه الأقوام:

(2)قوم نوح تأخذهم الصيحة:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المؤمنون: 23-42]

(3)قوم لوط تأخذهم الصيحة:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 61-74]

أصحاب الحجر تأخذهم الصيحة

- ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ [الحجر: 80-84]

قوم صالح (ثمود) تأخذهم الصيحة:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 61-67]

قوم شعيب تأخذهم الصيحة:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٖ ٨٦ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ
مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ
أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ
إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٖ ٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ
رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ
يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [هود: 84-94]

قوم فرعون أخذتهم الصيحة بالضبط كما جاء على لسان الرجل الذي يكتم إيمانه "ذو الكفل":

- ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرٗا وَهُم
مُّهْتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرّٖ
لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ
٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ٢٧ * وَمَآ أَنزَلْنَا
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾
[يس: 20-29]

كيف تحصل الصيحة؟

افتراءات من عند أنفسنا

1. الصيحة تحدث في الصباح الباكر (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)، فلقد أُمر لوط أن يأخذ أهله ويخرج من المدينة بقطع من الليل لأن العذاب واقع على القوم في الصباح الباكر (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ)

2. الصيحة تحدث بعد أن يخلي المؤمنون المكان ويتجهوا من الغرب إلى الشرق. فلقد هرب لوط من المدينة متجهاً نحو الشرق (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)، وكذلك خرج موسى ومن معه من المؤمنين باتجاه الشرق (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ).
3. الصيحة هي عذاب بالنظر يلحق العذاب الذي حلّ بديار القوم:

- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ [ص: 12-15]
- ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾ [يس: 49]

الدليل

يأتي دليلنا على أنّ الصيحة هي عذاب يقع بالنظر في أكثر من موضع نذكر منها:

1. التلازم بين الصيحة وفعل النظر:

- ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ [ص: 15]
- ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾ [يس: 49]

2. قصة عذاب امرأة لوط تؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك بأن العذاب بالصيحة هو عذاب بالنظر، ولكن كيف؟

نحن نحتاج أن نراجع كيف وقع العذاب على المرأة ربما لنفهم ماهية العذاب بالصيحة.

أما بعد،

يؤمر لوط بأن يسر بأهله بقطع من الليل وأن يتبع لوط بنفسه أدبارهم:

- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥﴾ [الحجر: 65]

ويؤمر كذلك بأن لا يلتفت أحد منهم إلا امرأته، أليس كذلك؟

- ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ [هود: 81]

سؤالنا: كيف وقع العذاب على المرأة وهي هاربة مع لوط وقد كانت أمامه ولم تكن وراءه (لأنه هو من كان متبعاً أدبار أهله جميعاً (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ)؟

جوابنا: عندما التفتت المرأة (لأنها هي الوحيدة التي نظرت خلفها لترى ما حل بالقوم من وراءهم) وقع عليها العذاب.

سؤال: كيف وقع عليها عذاب من ربها، وهي بصحبة الرجل (لوط) وأهله؟ ألم يعذب الله قوم لوط بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل بعد أن جعل عاليها سافلها؟

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [هود: 82]
- ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر: 74]

ألم يكن لوط وأهله إذاً خارج نطاق المنطقة (القرية) التي وقع عليها العذاب؟ فكيف إذاً تخطفها العذاب؟

جواب: لم يكن العذاب الرئيس الذي حل بالقوم (فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) نفسه سيصيبها لأنها لم تكن حينئذ متواجدة بينهم. لذا كان لابد من أن يصيبها عذاب من نوع آخر، ونحن نظن أن العذاب الذي أصبها قد وقع لحظة أن التفتت لتنظر ما حل بالقوم من بعدهم، إنها الصيحة (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ).

نتيجة: لقد تخطفتها الصيحة عندما التفتت وراءها.

سؤال: لماذا أمر الله لوطاً بأن لا يلتفت وأهله وراءهم؟

رأينا: لأنّ عذاب القوم سيكون متبوعاً بالصيحة التي ستتخطف كل من ينظر ليرى ما حل بالقوم.
ويمكننا بالمنطق نفسه أن نفهم كيف وقع العذاب على من بقي من قوم فرعون خاصة الذين لم يكونوا معه لحظة أن غشيهم اليم.

أما بعد،
يُؤمر موسى بأن يسر ببني إسرائيل في الليل، فتبعهم فرعون وجنوده، فيأخذهم العذاب باليم (الغرق)، أليس كذلك؟ لكن مما لا شك فيه عندنا أن العذاب لم يكن فقط من نصيب فرعون وجنوده غرقاً باليم، ولكننا نعتقد جازمين أن العذاب قد وقع أيضاً على من بقي من قوم فرعون في ديارهم ولم يلحقوا بموسى، فلا أخال أن جميع قوم فرعون قد لحقوا بموسى ومن معه، لذا فإننا نعتقد – كما ذكرنا سابقاً- أن الغرق كان فقط من نصيب فرعون وجنوده، ولكن كان هناك عذاب من نوع آخر قد حل بقوم فرعون من بعده، فكيف وقع عليهم عذاب من ربهم وهم لم يخرجوا جميعاً مع فرعون وجنوده إلى اليم؟

جوابنا: لقد أخذتهم الصيحة (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ)

وكان هذا – في نظرنا- ما حلّ بكل الأقوام التي وقع عليهم عذاب من ربهم، وهم قوم نوح وقوم صالح (ثمود) وقوم شعيب (مدين) وقوم لوط وأصحاب الأيكة وكذلك قوم فرعون.

نتيجة مفتراة: لم يقع عذاب من الله على قوم إلا وأُتبع ذلك العذاب بالصيحة.

سؤال: لماذا؟

جواب: لا شك أن العذاب عندما كان ينزل على قوم من الأقوام كان يحيق بهم في قريتهم (أي في منطقة جغرافية محددة)، أليس كذلك؟ وهنا يطرح **السؤال** التالي: ماذا كان مصير من كان من قوم ذلك النبي الذين وقع عليهم العذاب ولم يكن متواجداً في تلك اللحظة في المنطقة التي وقع عليها العذاب كامرأة لوط مثلاً؟ ألم تكن امرأة لوط متواجدة لحظة أن حل العذاب بقومها في غير المكان الذي أصابه العذاب؟

جواب من عندنا: إننا نظن أن الصيحة كانت تحصل ليحيق عذاب الله بالقوم أجمعين حتى وإن لم يكونوا متواجدين في موقع العذاب نفسه، فالعذاب وقع على قرية لوط، لكن ما مصير من كان من قوم لوط (كامرأته) وهي ليست في موطن العذاب؟

جواب: الصيحة
سؤال: وماذا كان سيحل بقوم فرعون الذين لم يكونوا في موطن عذاب القوم (أي لم يكونوا متواجدين مع فرعون في ذلك الوقت ليهلكوا بالغرق)؟

جواب: الصيحة

سؤال: وماذا كان سيحل بمن كان من قوم نوح ولم يكن متواجد في مكان الطوفان؟

جواب: الصيحة.

افتراء من عند أنفسنا: لو تدبرنا الأقوام التي حلّ بها العذاب جميعاً لوجدنا أن الأمر الإلهي قد جاء لنبيه بأن يغادر المنطقة التي سيحل بها العذاب، فلقد ركب نوح ومن آمن معه السفينة، وأُمر شعيب أن يترك المنطقة، وكذلك أمر صالح، وجاء الأمر الإلهي للوط بالرحيل، وأخذ موسى من آمن معه وخرج من منطقة العذاب.

سؤال: لماذا كان يؤمر الرسول بمغادرة مكان العذاب مع من آمن معه؟

جواب: لأن العذاب سيحل بالمنطقة التي يقطنها القوم

سؤال: وماذا لو كان هناك من القوم من هو خارج المنطقة؟

جواب: لن ينجو من العقاب الرباني.

سؤال: ولكن كيف؟

جواب: بالنظر (الصيحة)، فلا شك أن من آمن مع الرسول أمر بأن لا ينظر إلى موطن العذاب كما حصل مع لوط لأن الصيحة ستأخذ كل من ينظر إليها

سؤال: متى كان يحصل العذاب وتتبعه الصيحة؟

جواب: لو تدبرنا السياقات القرآنية التي تتحدث عن عذاب هذه الأقوام جميعاً لوجدنا أن "موعدهم الصبح" فالعذاب كان يحدث مع بزوغ الفجر (الصبح)، فالله كان يأمر القوم بالرحيل باتجاه الشرق، إي باتجاه بزوغ الشمس، وعندما كانت تحصل الصيحة كانت تحصل من وراءهم (فهم مأمورون بأن لا يلتفتوا وراءهم)، عندها تحدث الصيحة من الجهة المعاكسة للجهة التي ينظر إليها القوم المؤمنون، فالشمس تظهر من الشرق والمؤمنون من العباد متجهين ناظرين إلى الشمس، ولكن الكافرين لا محالة ناظرين إلى ما يخرج عليهم من الغرب (إنها الصيحة)، وبذلك يغيب الباطل ليبقى الحق مشرقاً ولو كره الكافرون.

(وسنتناول هذا الموضوع بالتفصيل في مقالات لاحقة إن أذن الله لنا بشيء من علمه)

عودة على بدء

لقد خرجنا طويلاً عن الموضوع الرئيس وكان ذلك الخروج لهدف إثبات الصحبة بين ثلاثة من رسل الله كما جاء في الآية الكريمة التالي:

- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ [الأنبياء: 85]

وجهدنا لإثبات زعمنا أن هؤلاء الرسل الثلاثة على وجه التحديد هم من نعتهم الله بأنهم من الصابرين، وزعمنا الظن أن السبب في ذلك يتمثل في أنهم الرسل الذين تعرضوا لتجربة القتل من قبل أقربائهم، فإسماعيل كاد أن يقتل على يد والده، وقتل إدريس على يد أخيه إسرائيل وقتل ذو الكفل على يد "ابن عمه" فرعون، ولو تدبرنا الترتيب الذي ورد في هذه الآية الكريمة لوجدنا أنه ليس بترتيب زماني وذلك لأن إدريس بكل تأكيد كان سابقاً لإسماعيل ولذي الكفل، ولكن الترتيب جاء في نظرنا بناء على موضوع حديث الآية وهو الصبر، فلقد جاء الترتيب حسب شدة الصبر، فلقد كان أصبرهم هو إسماعيل ثم إدريس وثم ذو الكفل، وذلك لأنّ درجة الصبر في رأينا مرتبطة بصلة القرابة مع القاتل، فأشدها أن يقتل الأب أبنه وكان ذلك من نصيب إسماعيل، ثم يأتي

قتل الأخ أخيه وكان ذلك من نصيب إدريس وأخيراً أن يقتل الرجل على يد واحد من أقرباءه وكان ذلك من نصيب ذي الكفل.

سنتعرض في المقالة الخاصة بطفولة موسى عن صلة القرابة بين ذي الكفل وفرعون

عودة على بدء على بدء

أما موضوع الحديث الرئيس قبل هذا فقد كان منصباً على إثبات زعمنا أن إدريس هو أخ إسرائيل وهما الاثنان ابني آدم الذين جاء ذكرهم في كتاب الله، لكن يبقى السؤال مفتوحاً للنقاش على النحو التالي: هل هناك أدلة أخرى تثبت ظننا في أن إدريس هو نفسه ابن آدم المقتول؟

جواب: هناك دليل آخر سأحاول أن أقدمه هنا على عجل لأننا سنحاول – إن أذن الله لنا بشيء من علمه- أن نفرد له مقالة منفصلة وهو موضوع الأسماء، أو اختيار الاسم للأبناء من قبل الآباء، فعندما يرزق أحدنا بمولد جديد يبدأ البحث له عن اسم يظن أنه يناسبه، وربما يبدأ هذه العملية من قبل أن يولد الطفل، فكثير من الناس يختارون اسم لذريتهم حتى قبل أن يرزقون بها، وما يهمنا هنا هو آلية اختيار الاسم، فلماذا يختار كل منا اسم لمولوده يظن أنه يناسبه؟

جواب: قلما يتجادل الناس في أن الأسماء غالباً ما تشتق من الثقافة نفسها، فالعرب خاصة المسلمين منهم تكثر بينهم أسماء مثل محمد وأحمد ومحمود وعبد الله وعبد الكريم، وعبد.. وعبد... الخ. وكما لهذه الثقافة طريقتها في كثير من أسماء أبناءها، هناك لكل ثقافة طريقتها التي تمثل الصبغة الغالبة على أسمائهم، فلو سمعت اسم ينتهي بمقطع مثل آوف، لربما فهمت أنه قادم من أرض روسيا الباردة، ولو سمعت اسماً ينتهي بمقطع مثل VICH، لربما فهمت أنه قادم من أرض الصرب، وكذا هي الحال بالنسبة لأهل الصين أو الهند وغيرها. فلا شك أن الناس يتخذون أسماء لهم ولذريتهم لتعكس في غالب الأمر الثقافة التي ينتمون لها.

ولو حاولنا إسقاط مثل هذا التصور (الذي لا شك هو خاطئ في كثير من جوانبه) على النص القرآني (الذي هو مطلق الحقيقة والثبات) لربما استوقفتنا أسماء كثيرة مثل هاروت وماروت على سبيل المثال، لنطرح عندها السؤال التالي: كيف يمكن أن يساعدنا تصورنا السابق في فهم الثقافة (ولنقل الأمة) التي جاء منها هاروت وماروت، مثلاً؟

جواب: لا أظن أن تسمية هاروت وماروت قد جاءت مصادفة، فلو حاولنا تدبّر القرآن الكريم لوجدنا أسماء مثل جالوت وطالوت، ولا أظن أن الوزن الموسيقي أو التقطيع العروضي الذي يجمع هذه الأسماء الأربعة مجتمعة (جالوت، طالوت، هاروت، ماروت) قد جاء مصادفة، فهاروت وماروت لا شك لهم علاقة كبيرة جداً بالأمة التي جاء فيها جالوت وطالوت (وسندخل في تفاصيل هذه الجزئية لاحقاً في مقالة مستقلة بحول الله وتوفيقه).

والآن لنسأل عن الأسماء إسرائيل وإدريس (إن صدق ظننا أنهم ابني آدم)، فمن أين جاءت أسماءهم هذه؟ أو لنقل "كيف اختار آدم الأب (وربما بتدخل من حواء الأم) هذه الأسماء لولديه"؟

جواب مفترى: لا شك أن آدم لن يخترع أسماء لا علاقة لها بخبرته السابقة، فهو بلا شك سيحاول أن يختار الاسم الذي يظن انه يناسب ولديه، ولا يخرجه عن نطاق الثقافة (ولنقل العقيدة) التي يحملها. لذا نحن نفتري الظن أن هناك في حياة آدم السابقة ما يمكن أن يساعده على اختيار الأسماء لكل مولود له. فها هو يختار – حسب زعمنا بالطبع – لأحد أبناءه أسم إدريس ويختار للآخر اسم إسرائيل، ولكن لماذا؟

لو حاولنا الاستفادة من الوزن العروضي للاسم لربما وجدنا أن اسم إدريس يوازي بالضبط أسم إبليس
إدريس :: إبليس
بينما يقع التوازن في إسرائيل مع جبرائيل وميكائيل
إسرائيل :: جبرائيل، ميكائيل

سؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ أيعقل أن يسمي آدم أحد أولاده اسماً يشبه اسم إبليس الذي كان للتو قد أخرجه وزوجه من الجنة؟ أيعقل أن يأتم آدم بإبليس مرة أخرى؟

جوابنا: كلا، لقد اختار آدم اسماً لولده يواز اسم إدريس في اللفظ لكنه – كما سنرى لاحقاً- يعاكسه تماماً في المعنى. وهذا ما نتعرض له بحول الله وتوفيقه في مقالات منفصلة حول موضوع الأسماء التي علمها الله لآدم يوم أن خلقه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة بعد ذلك. لكن يكفينا البوح هنا بأن آدم سيختار لابنه الاسم الذي يعارض في معناه ما يميز إبليس في رفضه للأمر الإلهي وهو الاستكبار، ففي حين أن الاستكبار قد كان بكل تأكيد جزءاً لا ينفصل عن شخص إبليس، أراد آدم أن يكون التواضع جزءاً لا ينفصل عن شخصية مولوده الجديد، ولنتدبر قول الرجل عندما أقدم أخوه على قتله:

- ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المائدة: 27-29]

عودة على بدء على بدء على بدء

من هم بنو إسرائيل إذاً؟

لما كان إدريس هو المقتول من بين ابني آدم، ولما كان إسرائيل هو القاتل أصبحت البشرية جميعاً تنحدر من سلالة رجل واحد للمرة الثانية، فكما انحدرت البشرية من ذرية آدم الأب أصبحوا يعرفون جميعاً ببني آدم، انحدرت البشرية جميعاً من ذرية ولد آدم القاتل وهو إسرائيل فأصبحوا يعرفون ببني إسرائيل.

نتيجة مفتراة: كل البشرية هم بنو إسرائيل لأنهم انحدروا من ذرية إسرائيل ولد آدم الذي قتل أخاه إدريس.

سؤال: ما علاقة "بنو إسرائيل" (قوم موسى) مع بني إسرائيل (البشرية جميعاً)؟

رأينا: اختار إبراهيم – كما ذكرنا – سابقاً لجميع ذريته أسم المسلمون:

- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132]

عندما اختار إبراهيم التسمية لذريته جميعاً (إسماعيل وإسحق) على أنهم مسلمين في ديانتهم لم يتطرق لموضوع عرقهم لأن إبراهيم – في نظرنا – يعلم أنهم جميعاً من ذرية إسرائيل، فتقبل أبناء إبراهيم تلك التسمية، فنعت إسحق ويعقوب ويوسف أنفسهم على أنهم مسلمون:

- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]
- ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]

وكان الإسلام هو دين كل رسل الله وأنبياءه:

- ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]

- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: 84]

وذلك لأن الله اختط في اللوح المحفوظ أن الدين عنده هو الإسلام:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

ولكن لو دققنا النظر في هذه الآية الكريمة ملياً لربما استطعنا الإجابة على سؤالنا السابق بخصوص تسمية قوم من الناس (أصحاب موسى مثلاً ببني إسرائيل على وجه التحديد بالرغم أن البشرية جميعاً هي بني إسرائيل)، والملاحظة تكمن عند عبارة " وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ "، ولكن كيف؟

لا شك عندنا أن الرسالة من بعد إبراهيم قد انتقلت إلى بيت إسحق (وليس إلى بيت إبراهيم):

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

ولا شك عندنا كذلك أنه في الوقت الذي انقطعت فيه النبوة من بيت إسماعيل استمرت في بيت إسحق وذلك عن طريق يعقوب ويوسف من بعده، وكان ذلك الفرع من البيت هم من ورثوا الكتاب:

- ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: 169]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشورى: 14]

ولكن المفارقة العجيبة أن من يرثوا الكتاب فقد ورثوا العلم، وكان ذلك العلم هو سبب الاختلاف الذي وقع بينهم، وكان ذلك الاختلاف (الذي نجم عن العلم بما في الكتاب) هو سبب الفرقة بينهم:

- وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ

ولقد كان من أهم أوجه الاختلاف بينهم خاصاً في الدين. لذا فقد اختلفوا في تسمية أنفسهم بالمسلمين، ففي حين تقبلها من استمر على نهج يوسف رفضها من ترك ذلك النهج القويم:

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ [غافر: 34]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: اختلف أهل الكتاب في تسمية أنفسهم بالمسلمين، لذا ترك كثير منهم تلك التسمية الخاصة بالعقيدة ورجعوا إلى التسمية الخاصة بالعرق، فآثروا أن يسموا أنفسهم مرة أخرى بالاسم

القديم وهو "بنو إسرائيل"، فأصبحوا هم من يعرف من دون شعوب الأرض جميعاً بالتسمية الخاصة بالعرق. ولقد كانت رسالة موسى – في رأينا- موجهة أصلاً إلى بني إسرائيل ليعودوا إلى التسمية الدينية التي اختلفوا فيها قبل أن يأتيهم موسى برسالة من ربهم:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس: 84]

لكن بالمقابل، لمّا لم تستمر الرسالة في فرع إسماعيل، لم يرث القوم العلم الذي في الكتاب ولم يكن كذلك سبباً في الفرقة بينهم، لذا فقد استمروا في قبول التسمية التي سماها إياهم جدهم إبراهيم، ولم يضطروا للعودة إلى التسمية الخاصة بالعرق. فبقينا نحن ننعت أنفسنا بالتسمية الدينية "المسلمون" ولم نعط كثير انتباه للتسمية الخاصة بالعرق "بني إسرائيل" بالرغم أننا فعلاً من سلالة إسرائيل. فحتى فرعون نفسه يميز بين التسمية الدينية (المسلمون) والتسمية العرقية (بني إسرائيل):

- ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس: 90]

لكن هذه التخريصات التي لا شك هي من عند أنفسنا تقودنا إلى طرح التساؤل التالي:
لماذا استمرت الرسالة (وعلم الكتاب) في فرع إسحق لكنه انقطع من فرع إسماعيل؟

هذا لا شك سؤال كبير وكبير جداً وهو ما سنحاول أن نتطرق له – إن أذن الله لنا بشيء من علمه- في الجزء القادم بحول الله وتوفيقه.

ونترك القارئ الكريم ليتدبر الآية الكريمة التالية لنطرح بعدها بعض التساؤلات:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ۝٥٨﴾ [مريم: 58]

تساؤلات:

- ألم يكن إدريس سابقاً لنوح وإبراهيم وغيره من الأنبياء؟
- لم لا نجد أن القرآن يتحدث عن ذرية إدريس؟
- لم جاء ترتيب الذرية على نحو ذرية نوح ثم ذرية إبراهيم وأخيراً ذرية إسرائيل؟

دعاء: أسأل الله أن أعلم منه ما لا تعلمون، وأسأل الله لي ولعلي نفاذ قوله بمشيئته وقضاءه لنا الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغي لأحد غيرنا، أن ربنا هو العليم الحكيم.

وللحديث بقية